

المؤلف الأكثر مبيعاً رقم
1 في نيويورك تايمز

مارك غريني

"أعشق الرجل الرمادي."
—لي تشايلد، المؤلف الأكثر مبيعاً رقم 1 في نيويورك تايمز

انتقام

رواية من سلسلة الرجل الرمادي

انـتـقـــام

BALLISTIC





ترجمة / كاميليا

مارك غريني

MARK GREANEY

انـــتـــقــــــام

BALLISTIC

تمهيد

جثا صائد البشر في مقدمة الزورق، ومسح ببصره الضفة البعيدة بينما كانت تتكشف تدريجيًا خلف منعطف النهر. تدرّجت خضرة الغابة المطيرة الكثيفة لتتحول ببطء إلى قرية بنية بدائية؛ مستوطنة من التراب المدكوك والأخشاب وصفائح الصدأ المموجة القائمة عند حافة الماء.

سأله بصوت عالٍ موجهًا حديثه للهندي الذي يتولى توجيه المحرك الخارجي:

– "أهذا هو المكان؟"

لم تكن لغته البرتغالية قد تحسنت خلال الأشهر الماضية إلا بحكم الضرورة القصوى.

أجابه السائق:

– "نعم يا سيدي. هذا هو المكان".

أومأ صائد البشر برأسه، ومد يده نحو جهاز اللاسلكي المحشور بين ركبتيه.

لكنه تريّث. كان عليه أن يتأكد أولًا.

سبعة أشهر. سبعة أشهر مرت منذ أن جاءه الاتصال في أمستردام. تشاور عاجل مع صاحب العمل، رحلة طيران عبر الأطلسي إلى كاراكاس، انطلاق جنوني إلى ليما، ثم الاتجاه جنوبًا.

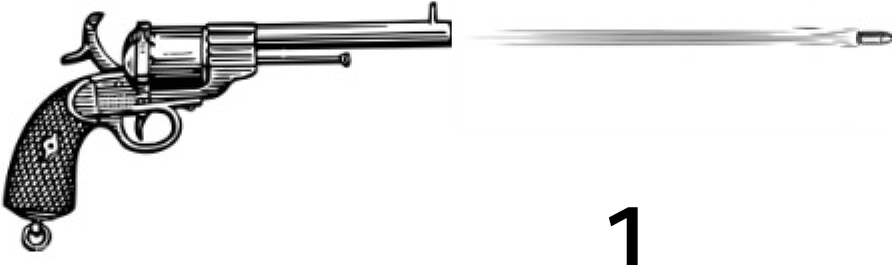
جنوبًا بلا توقف. حتى وصل هو وطريدته إلى حافة العالم، قبل أن تلتف المطاردة لتعود نحو الشمال.

شمالًا بلا هوادة.

كان يتعقب آثار الهدف، بشكل أو بآخر، طوال هذا الوقت. إنها المطاردة الأطول في مسيرته المهنية الحافلة.

وستنتهي هنا. بطريقة أو بأخرى، ستنتهي مطاردة كورتلاند جينتري هنا والآن.





1

خارج كيتو، كان صائد البشر قد اقترب كثيرًا من غايته. بل إنه استدعى فريق تصفية، لكنهم وصلوا ليجدوا المكان خاليًا. كان تصرفًا أحمق منه، فالبداية الخاطئة قد تطفئ حماسهم في المرة القادمة؛ لن يصرخ محذرًا من ذئب وهمي مجددًا. التقط أثرًا جديدًا للهدف في شمال تشيلي، وتلميحًا لوجوده أبعد قليلًا على طول ساحل المحيط الهادئ، لكن الرائحة ضاعت منه في بونتا أريناس.

ظل الأمر كذلك حتى وصل ريو وجاءته ضربة حظ. طالب دنماركي يدرس الـ "جوجيتسو" رأى ملصق "مطلوب" للإنتربول أثناء وجوده في سفارته لاستخراج بدل فاقد لجواز سفره. كان الطالب قد التقى بشاب أبيض آخر في صالة "دوجو" داخل الأحياء العشوائية "الفاغيلا". لم يكن في الأمر شيء يذكر، لولا أن الدنماركي كان خبيرًا بفنونه القتالية، ولاحظ أن أسلوب الرجل الأبيض في القتال يشي بإتقانه لتخصصات أخرى: نزعات قتالية صلبة ووحشية حاول جاهدًا إخفاءها عمن حوله. تذكر الدنماركي ملصق المطلوبين. لم يكن الشبه واضحًا تمامًا، لكن دافعًا ما ألزمه بإبلاغ السلطات. كان هناك شيء في ذلك الرجل بالصالة قد أثار قلقه. نظرة، حدة ما، ولمحة من الارتياب بدت على ال طالب الأبيض، وكأنه أدرك أن الدنماركي كان يقيمه لسبب ما.

تلقى صائد البشر خبر المشاهدة، ووصل على متن طائرة خاصة بعد ساعات قليلة. لم يحضر المشتبه به إلى الدرس في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي. استعان صائد البشر بتعزيزات محلية للقيام بالعمل الميداني؛ قام عشرات الرجال بتمشيط الأحياء العشوائية مسلحين بالصور والنقود. تعرض الكثير منهم للضرب أو التهديد في الأزقة الخطرة لتلك العشوائيات الخارجة عن القانون، بل إن أحدهم سُرق وسُلبت محفظته وطُعن في ذراعه. لكن المسح الميداني أتى أكله: شخص ما تحدث؛ شخص ما أشار بإصبعه؛ وشخص ما همس بعنوان.

ذهب صائد البشر ليلقي نظرة بنفسه. لم يكن قناصًا محترفًا، فهو لم يطلق النار من سلاح منذ أيامه في الجيش الملكي الهولندي حين كان يقاتل الأنغوليين في السبعينيات. لكنه لم يرغب في استنفار مسلحيه لمطاردة سراب آخر، لذا ترك ثمانية رجال مسلحين في أول الشارع وتقدم ومعه اثنان فقط. كان حيًا بائسًا متهالكًا، ومبنى تكسوه القذارة، وممرًا بالطابق الثالث تفوح منه رائحة البول ينتهي بمدخل مظلم. ارتجفت يدا صائد البشر وهو يستخدم مفتاحًا لغرفة مجاورة ويتسلل للداخل، بينما كان مسلحاه خلفه مباشرة.

تحرك جسد بشري كخيال خاطف من السرير العلوي؛ ومض شريط حياة صائد البشر أمام عينيه. ثم رُفعت حقيبة ظهر على كتف ذلك الخيال، وفي لحظة قفز من النافذة هابطًا طابقين كاملين. اندفع صائد البشر خلفه؛ أطلق المسلحان نيرانهما ليمزقا السرير والجدار وإطار النافذة خلف الخيال الهارب. أعاد الرجلان تلقيم سلاحيهما بينما وصل صائد البشر إلى النافذة، ليراقب الهدف يهبط ويتدحرج إلى سطح مجاور، ثم يسبح عبر زقاق ضيق إلى مبنى آخر وكأنه سنجاب طائر، قبل أن يقفز ويتدحرج وصولًا إلى مستوى الأرض،

بينما كانت انفجارات الطلقات ذات العيار الصغير تلاحقه في الشارع بعد أن عاد المسلحان للمشاركة في القتال متأخرين.

اختفى الهدف. والسرير الذي غادره لم يترك أي دليل سوى دفء جسده الذي لا يزال عالقًا ببطانيته المهترئة.

كان ذلك قبل عشرة أسابيع.

يوم الأحد الماضي، جاء اتصال من فونت بوا، على بعد مئات الأميال شمالًا عند نهر الأمازون. كان صائد البشر قد أعد قوائم بالمهن المحتملة التي قد يعمل بها الهدف. كانت هناك المئات، من عامل صفائح معدنية إلى جندي مرتزقة. وفي مكان ما أسفل القائمة، دُوّن مجال "الإنقاذ البحري"، نظرًا لخبرته في الغوص وشجاعته الفطرية. كانت هناك شركة صغيرة على أحد روافد الأمازون النائية قد وظفت رجلًا أجنبيًا أبيض جاء بلا سابق معرفة، وهو حدث غريب بلا شك في أدغال البرازيل. لذا طار صائد البشر إلى فونت بوا وعرض صورة على صاحب القارب الذي يوصل البضائع الجافة صعودًا بالنهر إلى المستوطنات.

والآن، ها هو صائد البشر هنا.

تحسس الراديو بين ركبتيه. مكالمة واحدة وستهبط طائرتان مروحيتان ضخمتان مكدستان بالمسلحين للانتشار؛ لقد خططوا لهجومهم مستعينين بصور الأقمار الصناعية ولوح تخطيط في غرفة الفندق الخاصة بالمراقب في فونت بوا. مكالمة واحدة ستحيل هذه الغابة العذراء إلى جحيم، وتنهي حياة الهدف الذي ظل صائد البشر الهولندي يلاحقه طوال هذه الأشهر السبعة الطويلة.

ولكن، يجب أن يتأكد أولًا.

قفز قرد عوّاء من شجرة ليطش الماء، ثم هرع عائدًا إلى الضفة واختفى وسط النباتات الكثيفة.

بعد ثوانٍ، تباطأ الزورق واصطدم بالإطارات المطاطية المربوطة بجانب الرصيف. همّ مالك الزورق بإيقاف المحرك الخارجي.

قال صائد البشر:

– "لا، اتركه يعمل. لن أتأخر لحظة".

رد المحلي، الذي بدا كنوع من الهمج الهنود:

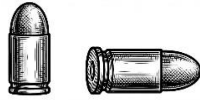
– "هذا يهدر الوقود يا سيدي. يمكنني تشغيله مجددًا في خمس ثوانٍ".

قال الرجل الأبيض بحزم:

– "قلتُ اتركه يعمل".

صعد إلى الشاطئ، وبدأ بصعود التلة الترابية باتجاه رجل يتسكع بجوار كوخ مقام على ركائز ضيقة. سيحصل الهولندي على تأكيد بأن هذا هو المكان، وبعدها لن ينتظر لمشاهدة الألعاب النارية. كان يحمل مسدس "ويبلي" قديم الطراز في جراب تحت كتفه، لكنه كان مجرد استعراض للقوة هنا بين همج الغابة. القتل لم يكن وظيفته.

سيستخدم الراديو، وبهذا تكون مهمته قد انتهت. سيعود أدراجه عبر النهر إلى فونت بوا لينتظر في الفندق.



كان ماورو يجلس في الظل، ينتظر عودة والده بصيد الصباح. في العاشرة من عمره، اعتاد ماورو الخروج مع والده لجمع الشباك، لكنه بقي اليوم ليساعد عمه في بعض الأعمال، وكان قد وصل لتوّه إلى الرصيف حين ظهر الزورق الذي يقل الرجل الأبيض. راقب العجوز وهو يشق طريقه صعودًا نحو التلة، ويتوقف أمام السكير، وينخرط معه في حديث. أخرج الرجل الأبيض ورقة بيضاء من جيب صدره وعرضها على السكير، ثم ناوله بعض النقود.

نهض ماورو ببطء. تردد.

أومأ الرجل الأبيض برأسه، وعاد متجهًا نحو الزورق، ورفع جهاز اللاسلكي إلى فمه.

سار ماورو الصغير باتجاه ممر ضيق يؤدي بعيدًا عن الأرصفة، بعيدًا عن قريته. وبمجرد أن أصبح داخل الحماية المظلمة لمظلة الغابة، انطلق الصبي يعدو بأقصى سرعة مكنته منها قدماه الحافيتان المتصلبتان.





2

شد كورت جينتري كابل الإمداد ليحصل على قليل من الارتخاء، ثم استدار عائدًا نحو الحطام الماثل أمامه. مد يده المغطاة بالقفاز ليتحسس طريقه نحو هيكل غرفة القيادة الحديدي الضخم الخاص بالزورق البخاري الغارق. لم تكن الرؤية في النهر العكِر تتجاوز اثنتي عشرة بوصة في هذا الوقت من الظهيرة، وعلى عمق ثلاثين قدمًا تحت السطح البني الداكن للمياه الدافئة. وحين وجد موضعه، عدّل زاوية المصباح المثبت على خوذته، ورفع مشعل اللحام مجددًا، ثم ضيّق نطاق اللهب ليصبح مجرد شوكة متوهجة. شرع ببطء في تسليط النار البيضاء الحارقة على الحديد ليبدأ قطعًا جديدًا.

فجأة، سحبته سلسلة من ثلاث جذبَات قوية عبر الحبل بعيدًا عن هدفه.

قال بصوت مسموع تردد صداه داخل خوذته النحاسية:

– "سحقًا".

كان جهاز اللاسلكي في خوذة الغطس معطلًا، لذا اعتمد الفريق على الجذب بالحبل للتواصل. ثلاث جذبَات قصيرة وقوية تعني "اصعد إلى السطح فورًا"؛ وهو ما يعني أنه سيحتاج، في أقل تقدير، إلى عشر دقائق أخرى للعودة إلى الأسفل عبر الطحالب والطبقة الزيتية للعثور على موضعه مرة أخرى.

لكنه لم ينتظر. "اصعد إلى السطح فورًا" لم تكن رسالة تحتمل التجاهل. قد يكون الأمر تافهًا، لكنه قد يعني أيضًا خللًا في المعدات، وهو أمر خطير، أو ربما رُصدت ثعابين أو تماسيح أو سرب من أسماك البيرانا بالقرب من موقع الغطس، وهو أمر قد يكون مميتًا بلا جدال.

شق سطح الماء بعد أربع دقائق؛ كانت معداته وأثقاله تجعل من المستحيل عليه الطفو، لذا سحب نفسه عبر الحبل نحو الشاطئ. وحين غمر الماء خصره، مسح المادة اللزجة الخضراء عن اللوح الأمامي الشفاف لخوذته، لكنه لم يتمكن من رؤية طريقه بوضوح عبر القصب الكثيف والحشائش الطويلة على ضفة النهر إلا عندما فك المزالج ورفع غطاء الرأس الثقيل.

كان زميلاه، تياغو ودافي، يقفان فوقه؛ كلاهما غواص إنقاذ متمرس، لكن لم يكن أي منهما مجهزًا للنزول اليوم. ضاغط هواء واحد فقط كان يعمل، لذا تقاسموا الوقت بينهم: رجل في القاع، واثنان لمراقبة التماسيح، أو الأناكوندا، أو البيرانا.

صاح بهما كورت:

– "ما الأمر؟"

لم تكن لغته البرتغالية بجودة إسبانيته، لكنها كانت تؤدي الغرض. أشار أحدهما بإبهامه نحو الجانب الآخر من بحيرة صغيرة تفرعت من النهر كورم خبيث، ورأى كورت الفتى الصغير ماورو يقف هناك على الممر المؤدي إلى الرصيف. كان الصبي يرتدي قميصًا رياضيًا لفريق "برشلونة" يحمل اللونين الأحمر والأسود، ومزينًا باسم لاعب بلغاري لم تطأ قدماه ملعب ذلك النادي منذ منتصف التسعينيات، وكان حافي القدمين. لم يسبق لكورت أن رأى ذلك الطفل الأسمر يرتدي حذاءً قط.

فوجئ جينتري بأنه استُدعي إلى السطح للحديث مع الصبي، ومع ذلك لوّح له وابتسم. لكن ابتسامته تلاشت في لحظة. كانت عينا الطفل متسعتين، وجسده متوترًا.

ثمة خطب ما.

خاض كورت بصعوبة على طول الضفة المستنقعية التي تحيط بالبحيرة، بينما كانت الأوحال تمتص قدميه. صعد إلى حيث يقف الصبي البرازيلي، واقتاده عبر الممر لبضعة أمتار قبل أن يسأله:

– "ما الجديد؟"

أجاب الصبي:

– "أنت قلت لي أن آتي إليك إذا رأيت رجلًا أبيض".

تصلب جسد كورت هو الآخر، وقال:

– "أجل، لقد فعلت".

– "رجل عجوز. وحيد. عند الرصيف".

– "هل تحدث إلى أحد؟"

– "نعم، سأل أمادو سؤالًا. وأراه ورقة. وأعطاه بعض المال. ثم تحدث الرجل الأبيض في جهاز اللاسلكي الخاص به".

سأل جينتري:

– "جهاز اللاسلكي؟"

انصرفت عينا جينتري عن الطفل لتحدقا في الممر المؤدي للرصيف، على بعد كيلومتر واحد عبر الغابة المطيرة الكثيفة. وبدأت يداه بالفعل في خلع بدلة الغطس المهترئة، مجردًا نفسه إلا من ملابسه الداخلية.

ناداه تياغو من الخلف، ربما ليخبره أن وقت الغداء لم يحن بعد، لكنه تجاهله.

سأل الصبي:

– "أين هو الآن؟"

– "رحل. عاد إلى الزورق واتجه صعودًا في النهر".

أومأ كورت برأسه، وتمتم لنفسه بالإنجليزية:

– "صائد البشر".

سأل الطفل:

– "ماذا؟"

– "أحسنت. لقد أبليت حسنًا يا ماورو. شكرًا لك".

– "على الرحب يا جيم".

بعد ثوانٍ، كان كورت جاثيًا على ركبتيه بجانب معداته على الجانب الآخر من البحيرة. تبعه الصبي إلى الضفة ووقف يرقبه وهو يفتح حقيبته القماشية الكبيرة. أخرج منها بندقية صيد سوداء قصيرة الماسورة (Sawed-off) ذات مقبض خشبي مسدسي الشكل. انتزع محفظته من الحقيبة؛ كانت منتفخة بعملات "الريال" البرازيلي، ومدّ بها نحو الصبي قائلًا:

– "هذا لك. خذ بعضًا منه، وأعط الباقي لوالدتك".

أخذها ماورو وعيناه متسعتان بالدهشة والارتباك، وسأل:

– "هل سترحل؟"

تحركت يدا جينتري بسرعة وهو يرتدي بنطالًا بنيًا متسخًا وقميصًا قذِرًا بلون الكريمة وبأكمام طويلة، وأجاب:

– "أجل يا فتى. حان وقت رحيلي".

– "ماذا عن كلبك؟"

بدأ كورت يربط حذاء تنس قديمًا فوق قدميه المبللتين، وقال:

– "لم يكن كلبي، كان فقط يتسكع حول مخيمي. إنه كلب طيب. اعتنِ به، وسيعتني هو بك، اتفقنا؟"

أومأ ماورو برأسه، لكنه في الحقيقة لم يكن يفهم شيئًا مما يحدث. لم يرَ في حياته شخصًا يتحرك بهذه السرعة. الناس في قريته لا

يرحلون فجأة، ولا يتخذون قرارات ـفي لحظة. لا يسلمون محافظهم للأطفال، ولا يغيرون حياتهم لمجرد ظهور رجل عجوز أحمق ـفي زورق.

كان عمه محقًا. "الغرينغوس[1]" مجانين.

سأل الأمريكي الغريب:

– "إلى أين ستذهب؟"

– "لا أعرف. سأدبر..."

توقف كورت ـفي منتصف الجملة. وأمال رأسه إلى الجانب وهو يرفع حقيبة ظهر صغيرة محشوة من الحقيبة الكبيرة ويثبتها على ظهره.

سمع ماورو الصوت أيضًا، فقال:

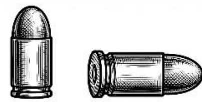
– "طائرة مروحية".

هز كورت رأسه، والتقط البندقية ووقف، ثم ثبتها بإحكام بشريط لاصق على الجانب الأيمن لحقيبة ظهره، بحيث يكون المقبض لأسفل وفي متناول يده. كان هناك منجل مثبت بطريقة مماثلة على اليسار.

قال:

– "لا. طائرتان. اركض إلى منزلك يا فتى. أدخل إخوتك وأخواتك، وابقوا هناك. سيصبح الأمر صاخبًا وجحيميًا هنا".

ثم فاجأ "الغرينغو" الفتى ماورو لآخر مرة. ابتسم. ابتسم ابتسامة عريضة ومسح على شعر الصبي الأسود الأكرت، ولوّح لزميليه دون أن ينبس بكلمة، ثم انطلق يعدو نحو الغابة.



اندفعت مروحيتان على ارتفاع منخفض خارجتين من قرص الشمس وفوق رؤوس الأشجار، يضرب هدير مراوحهما النباتات

[1] الغرينغو *Gringo*: مصطلح يستخدم في أمريكا اللاتينية للإشارة إلى الأجنبي، وغالباً ما يقصد به مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية.

تحتهما وهما تتسابقان في تشكيل ثنائي. كانتا من طراز Bell 212، وهي نسخة مدنية من طائرة "توبين هيوي"، تلك الطائرة العتيقة والقديرة التي كانت حاضرة في كل مكان مع القوات الأمريكية في حرب فيتنام.

في تاريخ الطيران المأهول، لم توجد آلة تألف التحليق فوق مظلات الغابات أكثر من الـ "هيوي".

كانت المروحيتان مملوكتين للشرطة الكولومبية، لكنهما أُعيرتا مع طاقميهما إلى قوات الدفاع الذاتي المتحدة في كولومبيا (AUC)، وهي قوة دفاع شبه يمينية، وشبه منحلة، قاتلت من وقت لآخر ضد القوات المسلحة الثورية الكولومبية (FARC)، وجيش التحرير الوطني (ELN)، وهي الجماعات المتمردة اليسارية في كولومبيا. ظنت الشرطة الكولومبية أن الإعارة كانت لإرسال فريق الكوماندوز المكون من عشرين فردًا إلى منطقة جبلية لقتال الـ FARC، لكن الحقيقة أن الـ AUC كانت تعمل كمرتزقة مستأجرين عبر الحدود في غابات الأمازون.

لن يبلغ الطيارون عن هذا الاختلاس للموارد؛ فقد كانوا يتقاضون أجرًا مجزيًا.

كان كل رجل في الوحدة يرتدي بدلة تمويه خضراء وقبعة أدغال. وكان كل رجل يحتضن بندقية قتال ضخمة من طراز HK G3 بين ذراعيه، ويحمل مخازن ذخيرة إضافية، وقنابل يدوية، وجهاز لاسلكي، ومنجلًا مثبتًا على صدره ومربوطًا بخصره.

جلس قائد الوحدة في المروحية المتقدمة، وصرخ بأعلى صوته ليطغى على ضجيج محرك "برات آند ويتني" موجهًا حديثه للجنود التسعة الجالسين معه:

– "دقيقة واحدة! إذا رأيتموه، أطلقوا النار عليه! وإذا أطلقتم النار، اقتلوه! إنهم لا يحتاجونه حيًا!"

ثم صحح نفسه قائلًا:

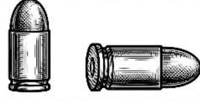
– "إنهم لا يريدونه حيًا!"

ردت جوقة من الأصوات طغى زئيرها على صوت المحرك:

– "عُلم أيها القائد!"

أصدر الأمر نفسه عبر جهازه اللاسلكي للرجال في المروحية الثانية.

بعد لحظة افترقت المروحيتان؛ انحرفت طائرة القائد بقوة إلى اليسار، وخفضت مقدمتها نحو نهر صغير متعرج ينساب كالأسفلت باتجاه الجنوب.



انطلق كورت كالرصاصة مخترقًا بقع ضوء الصباح المتراقصة عبر المظلة الشجرية فوقه، واثقًا من خطواته. تابع الركض في ممر الغابة، وأذناه تلاحقان صوت المراوح خلفه. سرعان ما تحول الإيقاع الموحد للمروحيات إلى إيقاعين منفصلين حين تفرقتا. هبطت إحداهما خلفه، على الأرجح في الفسحة المستنقعية التي تبعد مائة ياردة عن موقع الغطس.

أدرك جينتري أن الرجال سيغوصون حتى ركبهم في الوحل، وهذا سيكسبه بعض الوقت للابتعاد. أما المروحية الأخرى فتجاوزت موقعه، متجهة لليسار، على ارتفاع أقل من رؤوس الأشجار؛ ومن المؤكد أنها كانت تمسح النهر. ستقوم بإنزال الجنود لقطع الطريق عليه في مناورة حصار.

وداعًا للوقت الإضافي.

زاد كورت من سرعته. اختفت الابتسامة عن وجهه، لكن الأمريكي البالغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا شعر بالثقة والقوة بينما كانت ذراعاه وساقاه تدفعانه للأمام.

الأدرينالين، ذلك الصديق القديم الذي لم يصادفه منذ فترة، تدفق عبر جسده ومد عضلاته وعقله بالطاقة.

كان هنا لتسعة أسابيع، تسعة أسابيع طيبة، لكنه نادرًا ما مكث في مكان واحد طوال هذه المدة في حياته كشخص بالغ. وكما أخبر فتى القرية، لقد حان وقت الرحيل.

هبط فريق القائد بالحبال السريعة على ضفة النهر؛ سقط الأربعة الأوائل على مرافقهم في الوحل ووجهوا بنادقهم الـ HK نحو الغابة لتوفير غطاء للأربعة التالين بينما ينزلقون. تحركت المجموعة الثانية صعودًا نحو الطريق الترابي، وانخفضوا أرضًا لتغطية الاتجاهين. هبط القائد ونائبه أخيرًا، وركضا نحو الطريق، ليتحركا في مقدمة الرتل.

تلقى القائد اتصالًا يفيد بأن الرجال من المروحية الأخرى كانوا يشقون طريقهم بصعوبة عبر مستنقع؛ لعن بصوت عالٍ بالإسبانية وصرخ في رجاله ليسرعوا الخطى.

ركض جينتري عبر مخيمه الصغير. لم يستغرق الأمر طويلًا. كان المخيم مجرد خيمة بها فراش للنوم، وحفرة نار محاطة بالحجارة، وممر مطروق جيدًا يؤدي إلى مرحاض حفر يدويًا، وأرجوحة شبكية مغلفة بناموسية، وبعض المقتنيات المعلقة في شبكة على شجرة. سُرَّ لرؤية الكلب غير موجود؛ كان وقت الغداء قد اقترب بما يكفي ليعرف ذلك الناجي الصغير ذو القوائم الأربع، فيهرع إلى مطعم القرية الوحيد ذي السقف المصنوع من القش بانتظار البقايا، قبل أن يشق طريقه إلى النخيل الظليل حيث يعود الصيادون بصيدهم اليومي. هناك يمكنه أن يستريح قليلًا قبل أن يقاتل كلاب القرية الأخرى للحصول على فرصة لنيل بقايا طعم الأسماك الملقاة من القوارب.

كان كورت يدرك جيدًا أن الجدول اليومي للكلب أكثر تنظيمًا من جدوله هو.

كان يحتفظ بمسدس "براوننج" في حقيبة مغلقة داخل خيمته، لكنه لم يضيع الوقت لاستعادته. بدلًا من ذلك، التقط ولاعة من داخل الباب القماشي لخيمته التي تتسع لرجلين، وعلبة صغيرة من وقود الطهي كانت ملقاة بجوارها. في ثوانٍ، سكب الزيت فوق الخيمة، ومقتنياته المعلقة بالشجرة، وحتى الأرجوحة. أشعل النار في منزله دون لحظة توقف واحدة أو ذرة ندم، وألقى الولاعة على الأرض، ثم اتجه نحو جدول صغير يبعد خمسين قدمًا.

صاح رجل من جهة يسار جينتري. ومن نبرة صوته الحادة المتهللة، أدرك أنه قد رُصِد.

إنهم قريبون.

قفز جينتري في الجدول الذي يغطي الماء فيه كاحليه، وانطلق يعدو نحو الجنوب، وتفجرت خطواته في الماء الجاري.

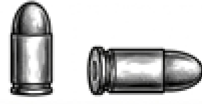
انزلق القائد على ظهره أسفل الضفة وسقط في الجدول البارد. ثبت قدميه في الماء ورفع سلاحه في اللحظة التي انعطف فيها الهدف لليسار، ليخرج عن مجال رؤيته وتصويبه. ركض الرجال متجاوزين قائدهم، وكل منهم مسكون بهوس المطاردة، منتشٍ بفرصة القتل.

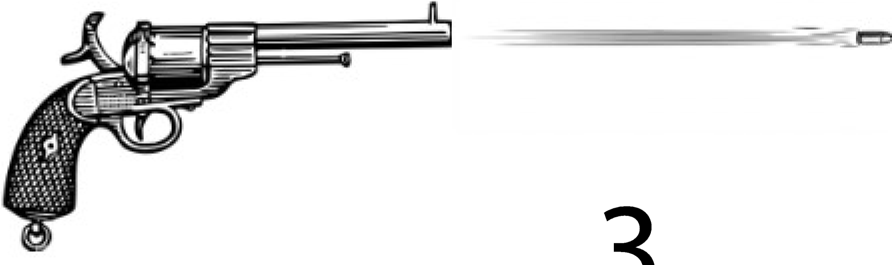
خفض القائد بندقيته وركض معهم. كان يعلم أن هناك طريقًا أمامه يؤدي إلى النهر، لكنه كان يعلم أيضًا أن هذا الجدول لا يصب مباشرة في ذلك الطريق. افترض أن هناك ممرًا صغيرًا يتجه إليه الهدف، ممرًا أصغر من أن تكتشفه صور الأقمار الصناعية عبر المظلة الثلاثية للغابة. كل ما يحتاجه القائد ورجاله هو الاقتراب بما يكفي لرؤية المكان الذي سيخرج منه الهدف من مجرى الجدول ليعود إلى الغابة، وحينها ستكون مسألة وقت فقط قبل أن يمسكوا به على الممر. الغابة ستكون أكثف من أن يختبئ فيها، والطريق الترابي أكثر استقامة من أن يتيح لرجل هارب تفادي الرصاص المنطلق من بنادق القتال الثقيلة عيار 7.62 ملم التي يحملها هو ورجاله.

انعطف القائد مع رجاله، وتطاير الزبد الأبيض ليصل لارتفاع صدور الجنود العشرة وهم يركضون معًا. رأى أمامه الرجل ذا البشرة الداكنة والشعر الطويل وحقيبة الظهر، ويداه فارغتان. أطلق أحد رجاله في مقدمة التدافع رصاصة، فمزقت كرومًا متدلية من شجرة فوق رأس الهدف بمسافة كبيرة. في تلك اللحظة، انحنى الرجل لليسار، وخرج راكضًا من الماء ليصعد الضفة الشديدة الانحدار، واختفى في الثقب الأسود لممر مشاة صغير. طاردته رصاصة أخرى من بندقية رجاله نحو الغابة.

صاح الكولومبي:

– "ها هو ذا! أعلى الضفة!"





3

دوت طلقة بندقية، فمزقت الفروع والشجيرات فوق رأس جينتري وهو يركض هابطًا تلاً طفيف الانحدار. كان القتلة يتبعونه كظله؛ فزاد من سرعته أكثر، واشتعلت فخذاه حرقة بينما كان حمض اللاكتيك يتدفق من مجرى دمه ليغمر ألياف عضلاته.

لقد رسم خطوات هذا الهروب بدقة، وأجرى عدة تجارب وهمية، واختار هذا المسار تحديدًا ليعظم من تأثير المخاطر الطبيعية للغابة. مخاطر طبيعية جعلها هو أكثر فتكًا عبر وسائل غير طبيعية خطط لها بعناية.

امتدت يده اليسرى للخلف لتقبض على مقبض المنجل المثبت بجانب حقيبة ظهره. حرره من قيد الشريط اللاصق، وبضربة قوية واحدة شق شجيرة إلى يمينه. خلف الشجيرة، التقط مسارًا أصغر، أكثر ظلمة تحت المظلة الشجرية وتغطيه الجذور والكروم، وهنا ركض كورت على رؤوس أصابعه ورفع ركبتيه عاليًا كي لا تشتبك قدماه بالعوائق في طريقه. لقد رآه مطاردوه وهو يغادر المسار الرئيسي؛ لم يكن لديه شك في ذلك. سيلحقون به في ثوانٍ. ألقى المنجل جانبًا أثناء ركضه؛ كان يعشق ذلك النصل وكان من المرجح أن يحتاج إليه قريبًا، لكن كان عليه أن يصب كل تركيزه على حركة قدميه السريعة والاعتماد على الذاكرة العضلية في أطرافه العلوية لفك البندقية من الجانب الأيمن لحقيبته. سحب المقبض المسدسي وأرجح السلاح

ليصبح أمامه، موجهًا فوهته نحو الأعلى مباشرة وهو يركض، ممسكًا به بكلتا يديه، والماسورة أمام وجهه تمامًا.

انحدر المسار عبر تل آخر، تحيط به أشجار ضخمة ذات جذوع سميكة من كل جانب. فتح عينيه على وسعهما ليمتص كل ذرة ضوء متاحة، وحولهما عن المسار لثانية واحدة باحثًا عن الشجرة المناسبة تمامًا، والغصن المناسب تمامًا، ووجده.

دوت طلقة أخرى خلفه – سمع الفرقعة الأسرع من الصوت وهي تمر بجوار أذنه اليسرى. لم يكن الصيادون يبعدون عنه أكثر من ثلاثين ياردة؛ سيعبرون الأرض التي يطأها الآن بعد سبع أو ثماني ثوانٍ.

مثالي.

واصل جينتري الركض، ومر تحت الشجرة، تحت الغصن الذي بحث عنه في الضوء الخافت، وأطلق النار من بندقيته نحو الأعلى مباشرة أمام وجهه. لقّم طلقة أخرى وأطلق النار مرة ثانية؛ فارتد السلاح بعنف ليضرب مفاصل كتفه.

على ارتفاع خمسين قدمًا فوقه، تلقت خلية نحل أفريقي قاتل، بحجم سبعة أقدام في أربعة، طلقتي الخرطوش المزدوجتين في قاعدتها مباشرة؛ أدت الضربات إلى تفتيت قاع الخلية وفصل الهيكل الضخم بالكامل عن الغصن، ومثل بيانو يهوي من شجرة، سقطت الخلية نحو المسار، محطمة الفروع في طريقها لترتطم بالأرض بقوة.

كان كورت قد تجاوز حافة مرتفع صغير، وقفز في الهواء ليعتلي شجرة سرو ساقطة، في اللحظة التي تحطمت فيها الخلية على الأرض خلفه بعشرين ياردة.



كان الكوماندانت رجلًا لائقًا بدنيًا في الثلاثينيات من عمره؛ ومع ذلك، لم يستطع مجاراة سرعة الرجال الأصغر سنًا في قوته. كان تقريبًا الأخير في الطابور بينما كانوا يركضون أسفل التل؛ وفي الظلام الدامس رأى شرارة اللهب من بندقية صيد. امتص الهواء الرطب للغابة الخضراء دوي الطلقة. ورغم أنه كان محمومًا بالمطاردة مثل رجاله، إلا أن الكوماندانت احتفظ ببديهة حاضرة مكنته من الانحناء عند سماع الطلقة الثانية، وهذا ما جعله في مؤخرة المجموعة تمامًا على المسار الضيق.

كان قد بدأ للتو في رفع قدميه مرة أخرى عندما رأى الجسم الضخم أمامه يسقط مخترقًا أشعة الضوء الباهتة القليلة التي تسللت عبر المظلة الشجرية.

لم يعرف ما هو؛ ولم يكن ليخمن ماهيته ولو منح مليون عام. فقط عندما ارتطمت الكتلة الطويلة الضخمة بالأرض، لتبتلع فعليًا أول رجلين في الرتل داخل نوع من السحابة السوداء، صاح محذرًا فريقه بصرخة مرتبكة وغير محددة.

وفقط بعد الصرخات الأولى، وبعد أول لسعة حارقة مفاجئة على ساعده فوق المكان الذي ينتهي فيه قفازه ويبدأ جلده المكشوف، وبعد أن أحاط الضباب المتفجر، والمحتشد، والمظلم برجاله أمامه – فقط بعد كل هذا، أدرك الأمر.

نحل. آلاف – لا، عشرات الآلاف من النحل الهائج غطت جنوده الذين كانوا يصرخون ويتلوون بذعر. في ثوانٍ، بدأت البنادق تطلق النار عشوائيًا نحو السماء في فعل يائس ومثير للشفقة؛ ركض جنود مدربون جيدًا نحو الأحراش الكثيفة المحيطة بالمسار، وسقطوا يرفسون ويضربون الهواء كالمجانين.

لُسِعَ الكوماندانت في وجهه، وفي رقبته، ومرة أخرى في ذراعه، فتعثر ثم استدار ليركض عائدًا إلى أعلى المسار، عائدًا إلى التل،

مخترقاً أطراف السرب المجنون المكون من سجائر مشتعلة غاضبة تطعنه من كل الجهات، ووابل مستمر من المطر الحمضي الكاوِي، وسحابة لزجة من كرات صغيرة من الحمم المنصهرة.

صرخ، وضغط زر جهاز اللاسلكي، وصرخ أكثر، ثم سقط، وتعمقت اللسعات في جلده.

كاد أن ينهض على قدميه، لكن رجاله الهاربين – وكل منهم يصارع الذعر والألم وانعدام الرؤية شبه الكامل بسبب الحشرات الدوارة والمحتشدة – أسقطوه مرة أخرى على صدره وهم يتراجعون باتجاه الجدول.

دس الكوماندانت ركبة تحت جسده ليدفع نفسه للأعلى مرة أخرى، لكن السحابة السوداء ابتلعته؛ اشتعلت كل نهاية عصبية في جسده، وتحسس مسدسه ليقاتل عشرة آلاف مهاجم.



واصل كورت الركض، مبتعداً عن الصرخات وإطلاق النار المتقطع في الغابة خلفه. تخيل دزينة من الرجال، لكن ذلك كان مجرد تخمين. لم يلتفت ولا لمرة واحدة لينظر إلى مهاجميه. بنى تقديره للعدد على حقيقة أن الصوت المميز للمروحيات أخبره أنها من طراز "هيوي"، والجميع في عالم كورت جينتري يعرفون أن الـ "هيوي" يمكنها حمل أربعة عشر "قرداً مدججاً بالسلاح".

عززت صرخات الألم تخمينه. عواء المعاناة البشرية بدا وكأنه صادر عن حوالي دزينة رجال. مما يعني أن المروحية الأخرى ستحمل على الأرجح العدد نفسه. لماذا قد يغيرون حجم فرقهم القتالية؟

حلقت المروحيتان عالياً في دوائر؛ لقد أنزلتا رجالهما، وستنتظران الأمر بالعودة لجمعهم.

خرج جينتري من الغابة الكثيفة ووصل إلى الطريق الرئيسي، وانعطف جنوبًا، ومبطئًا سرعته إلى الهرولة. لم تكن لديه أدنى فكرة عن مكان الفريق الآخر الآن؛ إذا كانوا قد خرجوا من المستنقع، فقد يكونون على هذا الطريق نفسه، لكن إذا كانوا كذلك، فهم على بعد كيلومتر واحد على الأقل في الخلف.

سمح لنفسه بلحظة استرخاء وهو يهرول، لكن اللحظة انتهت فجأة حين سمع شاحنة تقترب من الخلف. لم يكن في القرية سوى شاحنة واحدة؛ شاحنة مسطحة قديمة يملكها أحد زملائه وتستخدم فقط لنقل الحديد المُستخرج عبر هذا الطريق من موقع الحطام إلى الرصيف للنقل إلى فونت بوا.

أبطأ كورت واستدار، متوقعًا رؤية دافي خلف عجلة القيادة.

لكن لا، على بعد مائة ياردة رأى شاحنة دافي، لكنها كانت مكتظة برجال مسلحين يرتدون قبعات الأدغال، وبينما استدار جينتري ليركض بحياته، سمع طلقات البنادق.

صاح جينتري:

– "تبًا!"

اندفع خارجًا عن الطريق، عائدًا إلى الغابة الكثيفة، يشق طريقه عبر الكروم والشجيرات وسعف النخيل الذي يضاهي حجم إطارات الشاحنات، يائسًا في محاولته لجعل نفسه صغيرًا، وسريعًا، وزلقًا.

بينما كان يدفعه جسده وسط تشابك النباتات السفلية، عمل على خطة جديدة. خطته القديمة كانت بسيطة. كان لديه زورق مخبأ تحت الجسر الصغير على بعد مائة وخمسين ياردة فقط للأمام. كان يخطط للركض عبر الطريق، والانزلاق أسفل الضفة، ثم الهروب عبر القارب الصغير، حريصًا على تجنب المروحيات بالبقاء تحت الأشجار المتدلية فوق حافة النهر.

لكن الآن، سيتعين عليه الاقتراب من الجسر من ناحية أعلى النهر، وهو ما يمثل عقبة استثنائية. أو دزينة عقبات أو أكثر، حسب طريقة نظرك للأمر.

كانت ضفتا النهر شمال الجسر مغطاتين حرفيًا بالتماسيح.

تماسيح ضخمة لعينة.

بينما كان كورت يشق طريقه بقوة عبر النمو النباتي شبه المنيع، استقر على خطته الجديدة – خطة ستتطلب مهارة لم يكن واثقًا من امتلاكه لها، وتنفيذًا لم يكن واثقًا من قدرته عليه، وحظًا لم يكن واثقًا من إمكانية التعويل عليه.

لكنها كانت أفضل من الرقص على الطريق لتفادي الرصاص المنهمر من شاحنة مليئة بالبنادق.

سمع الرجال يدخلون الغطاء النباتي خلفه. أطلق القليل منهم نيران بنادقهم نحو الأشجار والشجيرات. كان كورت يعلم أن مساره سيغلق نفسه بمجرد مروره؛ لم يعد قلقًا بشأن الرجال. عيونهم لا تستطيع رؤيته وبنادقهم لا تستطيع الوصول إليه.

لكنه كان قلقًا. كان قلقًا بشأن التماسيح اللعينة أمامه.

تصاعد إطلاق النار. بدا الأمر وكأن الرجال يحاولون تمزيق طريقهم عبر الغابة بالرصاص. لن يفلح ذلك، ليس قبل أن يبتعد كورت. لكن هذا لا يعني أن شظية رصاصة محظوظة لا يمكنها اختراق طريقها لتستقر في مؤخرة رأس الأمريكي.

انخفض كورت أكثر، واندفع زاحفًا على يديه وركبتيه، كاشطًا جلدهما حتى الاحمرار في هذه العملية. مزق شباك عنكبوت بحجم شباك الصيد واستخدم ماسورة بندقيته لإسقاط أفعى عاصرة من غصن منخفض حتى يتمكن من المرور تحتها دون خوف من أن يلتف الثعبان الغاضب حول عنقه.

سرعان ما خرج من الغابة إلى تل يطل على ضفة النهر. على بعد أربعين ياردة إلى يساره، كان الجسر الخشبي يقف مغريًا تحت الشمس. كان قاربه الصغير يتمايل في الظل تحته، تغطيه قطعة قماش مشدودة كالطبل لحمايته. أسفله، وعلى مسافة لا تقل عن خمس وعشرين ياردة من الأربعين ياردة المحاذية للماء، كانت دزينة من التماسيح تتراوح أحجامها بين ستة وستة عشر قدمًا تتشمس في أشعة منتصف الصباح.

وجد جينتري كرمة سميكة تتدلى من الضفة بشكل قطري إلى يساره، تمتد فوق ضفة النهر وتتصل بأعلى وأبعد غصن لشجرة "كابوك" يبلغ ارتفاعها مائتي قدم وتتدلى فوق النهر كذراع عملاقة.

ربما لن توصله الكرمة إلى الجسر تمامًا، لكنها ستوصله إلى الضفة المجاورة له مباشرة. كان ذلك بعيدًا بما يكفي عن التماسيح، وسيكون ذلك كافيًا تمامًا.

كان قد ألقى منجله قبل عشر دقائق، لذا وجه فوهة بندقيته الواسعة نحو النقطة التي تخرج منها الكرمة من الأرض الصلبة.

ثم تردد. لاهثًا من الجهد، متألمًا من الكشوط على يديه وركبتيه والخدوش ولسعات الحشرات التي نالها على طول الطريق، وقف هناك فحسب، وبندقيته جاهزة للإطلاق. لقد تأرجح على الكروم في أمسيات كثيرة مع أولاد القرية؛ كان يثق في قوتها وقدرتها على نقله من هنا إلى هناك.

لكن في مخيلته، رأى خطته هذه تنحرف نحو كارثة محققة. في الواقع، لم يستطع حتى استحضار صورة ذهنية للثواني الخمس عشرة القادمة وهي تمر بسلام دون عقبات.

ساعدته رشقة طويلة غاضبة من بندقية آلية، انطلقت على بعد ثلاثين ياردة خلفه في الغابة، على صب تركيزه على المهمة التي بين يديه. أطلق "خرطوشة" من بندقيته نحو الكرمة، فانشقت وتنسّلت

بشكل مثالي، ليلتقطها بيده الحرة قبل أن تتأرجح بعيدًا. وبعجالة، أعاد تثبيت البندقية في حقيبة ظهره مستخدمًا يدًا واحدة، ثم قفز في الهواء ليقبض على الكرمة من أعلى نقطة تمكن من الوصول إليها. أطبقت يداه الحمراوان المتألمتان بقوة، والتفت ساقاه بإحكام، وبدأ التأرجح منطلقًا من التل وفوق الزواحف الهائلة في الأسفل.

قذفت به الكرمة فوق الضفة القريبة؛ ليمر فوق تماسيح ناعسة كانت تستمد الدفء عند حافة الماء. كان العديد من تلك التماسيح يستلقي وفكوكه المدججة بالأسنان مشرعة على مصراعيها، لتبريد أجسادها عبر استنشاق الهواء، مشكلة بذلك مشهدًا مشؤومًا للغاية لمن يتأرجح فوقها.

كانت قبضته محكمة؛ وكشّر وجهه من شدة الجهد لكنه صمد بينما حملته الجاذبية الآن فوق سطح الماء، وساقاه ممدودتان أمامه، وركبتاه تعتصران الكرمة، وعيناه مثبتتان على منطقة هبوطه عند الضفة بجوار الجسر.

كانت الكرمة مرنة وخضراء وسليمة؛ وكان بإمكانه الاعتماد عليها للعبور.

لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لغصن الشجرة الشاهق الذي تتدلى منه. فقد اتخذ النمل الأبيض عشًا له على طول التحدّب حيث يتفرع الغصن عن الفرع الأكبر، مما أدى إلى وهن المفصل. لولا حركات جينتري البهلوانية، لصمد الغصن لعام آخر، حتى يدفع موسم الأمطار الرياحَ عبر القارة، فينقصم الخشب الهش في إحدى العواصف.

لكن هذا الغصن لم يُكتب له عام آخر. كان مقدرًا له أن ينهار الآن.

تحقق سيناريو جينتري الأسوأ على مرحلتين.

تمثلت الأولى في انزلاق بسيط للكرمة عند غصن الشجرة؛ حدث ترنح ثم توقف مفاجئ. كان كورت بعيدًا تمامًا عن اليابسة، يعلو الماء بعشرة أقدام على الأقل وينطلق بسرعة. حافظ على قبضته، لكنه نتر

رأسه بعيدًا عن وجهته المقصودة ليرفعه نحو نقطة اتصال شريان حياته بالشجرة.

وبالكاد تمكن من تركيز عينيه المتسعتين على تلك النقطة البعيدة، في اللحظة التي تصدع فيها غصن الشجرة وانكسر.

أدى زخم اندفاع جينتري، مع امتداد ساقيه أمامه، إلى دوران جسده للخلف دورة كاملة في الهواء، على ارتفاع عشرين قدمًا. وجد نفسه ووجهه للأسفل حين أحكمت الجاذبية قبضتها، فهوى نحو الماء وهو يطلق صرخة رعب بدائية.





4

أفلت جينتري الكرمة؛ فقد أصبحت عبئًا عليه الآن.

ارتطم بالسطح الأسود للماء ببطنه، مدركًا تمام الإدراك أن التماسيح على ضفتي النهر ستكون جميعها مستيقظة، ومتأهبة، ومستشيطة غضبًا.

بينما كان يغوص في الظلام وقد اعتصرت الصدمة الهواء من رئتيه، استغرق وقتًا أطول مما أراد ليتخلص من حقيبة الظهر. غاصت الحقيبة به في الوحل؛ فالنهر لم يكن عمقه هنا يتجاوز سبعة أو ثمانية أقدام. وبعد أن تخلص من الحقيبة، انتزع البندقية وحررها. إن السباحة مع حمل بندقية عيار 12 لهو أمر مثير للسخرية، لكن تركها في الأسفل وسط الوحل بينما تجوب زواحف بحجم قوارب لأربعة رجال في الأعلى، لهو الجنون بعينه.

بعد أن أمسك بسلاحه، دفع جينتري القاع بقدميه ليندفع كالسهم نحو السطح، وفقد إحدى فردتي حذائه في تلك الأثناء. ركل الأخرى ليتخلص منها بمجرد أن برز رأسه خارج الماء. نفض شعره الطويل المبتل عن عينيه، واستدار عائدًا نحو أقرب ضفة، التي كانت تبعد خمسًا وعشرين ياردة.

انزلق تمساحان ضخمان إلى الماء أمام عينيه، متجهين صوبه.

لاحظ أن الضفة المجاورة لمكان دخولهما النهر قد خلت؛ وكان على

يقين بأنه تأرجح فوق وحش هائل بطول ستة عشر قدمًا في تلك البقعة قبل ثوانٍ معدودة.

استلقى كورت على ظهره في الماء وراح يركل بجنون، مبقيًا رأسه مرفوعًا وسلاحه ذو المقبض المسدسي موجهًا نحو الضفة. كانت سباحة ظهرية نصفية غير متناسقة، لا تستمد سرعتها من كفاءتها بل من شدة عنفوانها.

لا تلتهم التماسيح عادة وجباتها وهي حية. بل تقتل فريستها عبر الإطباق عليها بفكوكها التي تشبه الملازم، ثم الدوران بها في الماء لإغراقها.

لكن كورت كان يعلم أنه، ككائن بشري هش، لن يموت غرقًا. العضة لن تقتله فورًا، لكن الدوران والتخبط وضربات الذيل العنيفة ستحطم عنقه وتكسر جسده، وتحوله إلى دمية قماشية هامدة، حتى قبل أن تمتلئ رئتاه بمياه النهر السوداء الساخنة.

كان أمامه عشرون ياردة ليصل إلى قاربه؛ سيتجه مباشرة نحو الزورق المتمايل متجنبًا الضفة الآن، فالتماسيح أسرع على اليابسة منها في الماء. كاد الذعر أن يتملكه؛ فقد أدرك أنه لم يلقِ نظرة حتى على الجانب الآخر من النهر ليرى كم عدد تلك المسوخ الجائعة التي قد تخرج للحصول على وجبة غداء سهلة وسريعة من اللحم الطازج بوزن مائة وسبعين باوندًا.

بَدَلًا من ذلك، ركّز بصره على الزبد الأبيض الذي تثيره ركلات قدميه الحافيتين المتلاحقة.

ها هو ذا. وصل إليه أول وحش كبير؛ بدا كجذع شجرة رمادي ضخم وسط الزبد، حتى فُتح فمه الكبير على بعد بوصات من أطراف أصابع قدمي جينتري. وبصرخة رعب، باعد كورت بين ساقيه ورفع البندقية.

نقرة فارغة.

لم يقم بضخ طلقة جديدة إلى حجرة النار بعد أن استخدم البندقية لقطع الكرمة.

أصبح الزاحف فوقه الآن.

غرس فوهة البندقية داخل فم الوحش. في الثانيتين اللتين توقف فيهما عن الركل بدأ يغوص في الماء، وشعر بمخالب الحيوان الأمامية تخدش ساقه وهما يغوصان معًا. تسببت الضربة في الفم بتراجع التمساح للحظة وجيزة، واغتنم جينتري تلك اللحظة لضخ طلقة جديدة في حجرة بندقيته عيار 12 بينما كان يغوص أعمق، ووجهه للأعلى، داخل النهر.

غاص بالكامل الآن، ودفع سلاحه للأعلى حتى شعر برقبة الزاحف فوقه، وضغط الزناد بيد واحدة.

بوووم!

دفعه ارتداد السلاح إلى عمق أكبر، عمق كافٍ لتجنب الذيل الضخم للحيوان الذي كان يدور ويضرب سطح الماء بجنون. استدار كورت وسبح بسرعة لأسفل ومبتعدًا، محاذيًا قاع النهر للحظة بينما كان يقترب من قاربه. اندفع عائدًا للسطح وضخ طلقة جديدة في المغلاق بينما كان يستدير، ليجد تمساحًا جديدًا يهاجمه، وفمه قد بدأ ينفتح ليبدأ قبضة الموت. كان طول هذا الوحش لا يتعدى عشرة أقدام، لكنه يظل مميتًا تمامًا.

أطلق جينتري النار على الوحش الرمادي بين عينيه.

كانت طلقة الخرطوش المزدوج تعادل تقريبًا عشر طلقات متزامنة من مسدس عيار 32. ومن مسافة تلامس مباشر مع وجه زاحف، حتى لو كان ضخمًا، فإن الجرح قاتل لا محالة. لكن سكرات الموت لمخلوق قوي كهذا لا تقل خطورة عن هجومه، ومرة أخرى اضطر كورت للركل والالتواء وضرب الماء للابتعاد.

كان يعلم أيضًا أن الدم الجديد في الماء سيجذب مئات من أسماك البيرانا في ثوانٍ؛ كان عليه الخروج من هناك فورًا لأسباب أكثر من أن تُحصى. لفظ الظرف الفارغ، ولقم طلقة جديدة، وركل الماء بجنون تجاه زورقه.

سمع فرقعات الرصاص الأولى بينما كان يمسك بقاربه الصغير تحت الجسر، لكنه تجاهلها حاليًا. بيد حرة، فك الأربطة التي تثبت الغطاء القماشي من مربطين. ألقى البندقية فوق الغطاء وسحب نفسه لداخل الزورق. اندفع فم ضخم مفتوح لتمساح طوله اثنا عشر قدمًا من الماء خلفه، متتبعًا ساقيه صعودًا فوق حافة القارب الصغير، لكن الفكين أطبقا دون أن يمسكا شيئًا. إلا أن الساق الأمامية للحيوان وصلت إلى داخل الزورق، وهدد ثقله المتخبط بقلب القارب الصغير وكورت بداخله. أمسك كورت بالبندقية وأطلق النار بيد واحدة على رقبة الزاحف، ليقلبه عائدًا خارج القارب.

حاول ضخ طلقة جديدة، لكن سلاحه كان فارغًا. كانت بقية ذخيرته في حقيبة الظهر في قاع النهر، لذا ألقى البندقية جانبًا وسحب بقية الغطاء القماشي لتركه يسقط في الماء. أطاحت رشقة طويلة أخرى من نيران البندقية بالرذاذ داخل القارب، لكن مخزن سلاح الجندي البعيد فرغ قبل أن يتمكن من إصابة الزورق أو الأمريكي.

انبطح كورت مسطحًا في قاع الزورق الذي يبلغ طوله عشرة أقدام، وأنزل مروحة المحرك الخارجي في الماء، وضغط زر التشغيل، وسحب الحبل.

دبت الحياة في الآلة بهدير قوي، ولم يضع جينتري وقتًا، موجهًا زورقه الصغير عكس التيار، مبتعدًا عن البنادق والتماسيح والبيرانا.

بعد دقيقة شرق الجسر، كان لا يزال يلهث ويسعل مخرجًا ماء النهر من حلقه. نظر لأسفل ورأى بنطاله المبلل ممزقًا عند الفخذ الأيسر. كان هناك جرح قطعي طويل ينزف حيث خدشه التمساح الأول

بمخالبه. كان الجرح خطيرًا نسبيًا وقد يحتاج بضع غرز في أعمق أجزائه، لكنه أدرك أن هذه النتيجة أفضل بكثير مما يستحق. ارتجف جسده عند التفكير في ذلك الوحش القادم من عصور ما قبل التاريخ وهو فوقه في الماء.

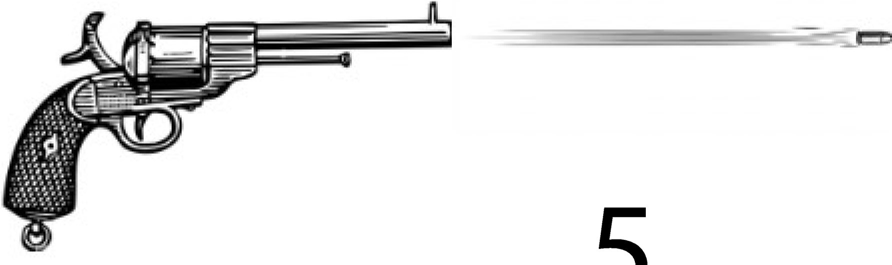
ثم أطلق تنهيدة طويلة. ونظر لأسفل إلى قاربه، إلى ما يشكل الآن مجموع ممتلكاته الدنيوية بالكامل.

مصباح يدوي بلاستيكي قديم، وزجاجة سعة لتر واحد من وقود المحرك الخارجي، وبندقية صيد بالرمح يعلوها الصدأ.

هذا كل شيء.

مسح كورت شعره الطويل عن عينيه، ووزن بندقية الرمح بيده الحرة، ثم زاد من سرعة المحرك، موجهًا القارب صعودًا في النهر باتجاه فونت بوا.





5

وقف صائد البشر وحيدًا في غرفته بالفندق، ومسح العرق عن وجهه، ثم فتح نافذة الطابق الثاني ليدخل بعض الهواء النقي، الذي وإن كان أبرد قليلًا من هواء الغرفة العفن، إلا أنه كان يحمل رائحة السمك المتعفن وروث الحمير.

غالب موجة من الغثيان.

أطفأ جهاز اللاسلكي وألقاه في حقيبته. كانت بقية ملابسه محزومة بالفعل. لم يتبق سوى إغلاق سحاب الحقيبة، ليخرج من هذا الجحيم الرطب المثير للاشمئزاز. في غضون عشر دقائق سيكون عند الرصيف يصعد اللوح الخشبي للباخرة المتجهة إلى كواري. وبعد يومين سيصل إلى مدينة حقيقية، حتى لو كان يتحدث بلكنة مكسرة مقارنة بهذا المستنقع الخلفي الذي لا يعدو كونه بقعة قهوة منسية على الخريطة. يومان آخران وسيكون في ماناوس، وهناك سيركض كعداء أولمبي نحو المطار، ليلحق برحلة إلى ريو أو ساو باولو ثم يعود إلى وطنه في أمستردام.

حينها فقط سيتنفس الصعداء. سيأخذ يومًا أو يومين للاعتناء بحديقة التوليب خاصته، ثم يعيد تجميع صفوفه. ويستعيد أثر هدفه.

سيعثر على كورت جينتري مرة أخرى. وفي المرة القادمة – أخبر نفسه بقرار حاسم – سيحضر فريقًا من القتلة المحترفين الذين لن يفسدوا العملية برمتها.

لم يستطع تصديق ما حدث حتى الآن. قُتل ستة رجال من أصل عشرين. بمن فيهم قائد الـ AUC. خمسة منهم بلسعات نحل لعين، والآخر بعد انزلاقه في نهر يعج بالتماسيح. هل هذا معقول؟ أبلغته المروحيات لاسلكيًا بأنهم عائدون عبر الحدود إلى كولومبيا ومعهم قتلاهم وأحياؤهم.

وتركوه هنا وحيدًا.

أوغاد.

طرقٌ على الباب.

سرت قشعريرة في عمود صائد البشر الفقري البالغ من العمر اثنين وستين عامًا. استدار مبتعدًا عن النافذة وسحب المسدس القديم عيار 32 من جرابه الجلدي تحت إبطه. رفعه بيد مرتجفة.

ببطء وهدوء خطا الخطوات الأربع نحو الباب، وسلاحه مرفوع أمامه.

سأل:

– "من هناك؟"

جاء الرد:

– "سيدي؟ هل تحتاج مساعدة في حقائبك؟"

فتح صائد البشر المزلاج وقلب القفل، مخفيًا مسدسه خلف الباب وهو يفتحه.

تنهد بارتياح. كان أحد أولئك الهمج الصغار من مكتب الاستقبال.

قال:

– "لا. يمكنني تدبر أمري".

– "حاضر سيدي. العبّارة تغادر خلال عشرين دقيقة".

بإيماءة، استدار الخادم وعاد نزولًا عبر السلم المتهالك.

أغلق صائد البشر الباب. وأحكم قفله مجددًا. أعاد مسدسه العتيق إلى جرابه وهو يستدير ليغلق سحاب حقيبته.

على الجانب الآخر من الغرفة، كان كورتلاند جينتري، هدفه طوال تلك الأشهر العديدة، يقف بجوار النافذة. كان جينتري ذا لحية قصيرة وشعر أطول مما ظهر في أي من الصور التي يحتفظ بها صائد البشر، لكنه كان هو بلا شك. كان يرتدي قميصًا بلون الكريمة، مفكوك الأزرار، ومبللًا، وقذرًا. وبنطالًا قطنيًا بنيًا، ممزقًا عند الفخذ وملطخًا بالدماء.

وكان يحمل بندقية صيد بالرمح في يده اليمنى.

تحسس صائد البشر مسدسه في جراب الكتف وهو يصرخ من الصدمة.

دوى صوت النابض القوي لبندقية الرمح في هواء الغرفة الحار. شعر صائد البشر بجسده يرتطم بقوة بالباب الخشبي خلفه؛ وانفردت ذراعاه على وسعهما بعيدًا عن جسده.

فقط حين نظر للأسفل، بعيدًا عن هدفه، رأى أن سهمًا طويلًا من السلاح قد اخترقه. كان مسمَّرًا إلى الباب من خلال معدته. بللت الدماء باطن ساقيه وهي تسيل من الجرح.

بعد أن استغرق الوقت اللازم لاستيعاب ما حدث، رفع صائد البشر بصره ببطء ليعود إلى هدفه.

ألقى الأمريكي بندقية الرمح الفارغة على السرير الصغير المزدوج واقترب. ومع تزايد ضعفه، حاول صائد البشر بوهن أن يتحسس المسدس تحت إبطه مرة أخرى.

أزاح الرجل الرمادي يد صائد البشر برفق عن الجراب وسحب المسدس. فحصه، وهز كتفيه، ثم دسه في بنطاله عند أسفل ظهره.

قال الأمريكي:

– "أنت تلاحقني منذ تشيلي، أليس كذلك؟"

فوجئ صائد البشر برقة صوت الأمريكي. لقد عاش الهولندي ودرس كورت جينتري لأكثر من نصف عام، لكنه أدرك الآن أنه لم يسمعه يتحدث قط، ولم يتساءل حتى عن نبرة صوته.

اشتعل الألم في أحشاء صائد البشر. وتمدد الضعف في أطرافه، وفي عينيه. ومع ذلك قال:

– "منذ كيتو".

ابتسم كورت جينتري. كان وجهه قريبًا من وجه صائد البشر، ونبرته لا تزال هادئة ومألوفة وكأنهما أب وابنه.

قال:

– "لم أشعر بك في الإكوادور".

ثم رفع حاجبيه مضيفًا:

– "كانت مطاردة رهيبة، أنا وأنت".

ارتخت ساقا صائد البشر، وصرخ من الألم المنبعث من السهم الذي يخترق بطنه. وبسرعة، أمسك به الرجل الرمادي، وثبته ضد الباب، ساندًا إياه ليخفف عنه قدرًا من العذاب. نظر الأمريكي في عيني صائد البشر.

– "أنت تعرف كيف تسير الأمور. رجال مثلي. لا نملك تغيير ما نحن عليه. ليس خطأنا. الرجل الذي أرسلك... كان يعرف من أنا. وما أنا. هو من قتلك. لست أنا".

كانت عينا صائد البشر خاويتين. ومع ذلك، أومأ قليلًا.

تابع كورت:

– "أعطني اسمه، وسأجعله يدفع الثمن".

بعد لحظة، انفتح الفم. وسال خيط من الدم على ذقن الهولندي. حاول التحدث؛ خرج صوت صغير لكن بلا كلمات.

مال كورت مقتربًا من وجه الرجل.

جفل الهولندي من الألم؛ وعادت الحياة إلى عينيه قليلًا، ممزوجة بتركيز جديد. كان يريد التحدث.

وأخيرًا فعل. بصوت خافت جدًا اضطر جينتري للميل حتى كاد يلامس شفتي الرجل ليسمعه يقولها.

– "سيدورينكو".

ابتعد جينتري. وانتصب واقفًا بالكامل أمام الرجل. أومأ برأسه. غريغور سيدورينكو، زعيم المافيا الروسية ورب عمل كورت القديم، كان لا يزال ناقمًا على ما يبدو بسبب خديعة دبرها جينتري في الربيع الماضي.

قال جينتري:

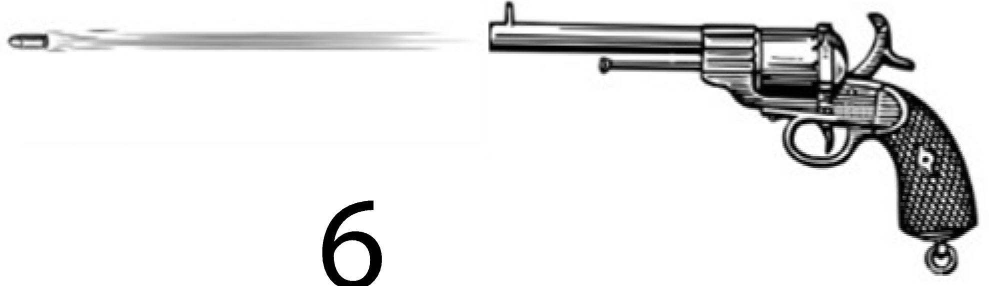
– "سأعاقبه لأنه أرسلك إليّ. يمكنك أن ترتاح الآن".

سحب جينتري الرمح من الباب، ومن الرجل؛ لم يشعر صائد البشر بالحركة، ولا شعر بنفسه وهو يُنقل إلى السرير. راقب الأمريكي يمدده، ويرفع قدميه واحدة تلو الأخرى ليخلع حذاءه، لكنه لم يشعر بشيء.

كان يريد أن يرتاح. لانت عيناه أكثر، وكان آخر ما رآه قبل أن تنغلق جفونه هو هدفه يفتش حقيبته، ويأخذ محفظته وحقيبة الإسعافات الأولية وبعض الملابس، ويغادر عبر الباب الأمامي.

أغمض صائد البشر عينيه حينها، وفكر في زهور التوليب خاصته. لن يراها قريبًا بعد كل شيء، ويا له من أمر مؤسف.





6

صعد الرائد إدواردو غامبوا، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، ببطء إلى السطح. كان غطاء رأسه المصنوع من "النيوبرين" الأسود، وطلاء وجهه المقاوم للماء الأسود، وقناع السباحة الأسود، وجهاز التنفس الخفي في فمه، كلها عوامل ساعدته على الاندماج في السواد الحالك للمياه عند الساعة الثالثة صباحًا في خليج بانديراس.

على بعد خمسين مترًا أمامه، طفا يخت فاخر بطول مائة وعشرين قدمًا، تضيئه من الخلف الأضواء الاصطناعية الليلية لـ "الماليكون"، الممشى الخشبي الممتد على طول وسط مدينة بويرتو فالارتا. وإلى الشمال، عند الساعة العاشرة بالنسبة لـ غامبوا، تلألأت أضواء منطقة الفنادق الساطعة في المدينة كاليراعات.

كان اليخت يُدعى "لا سيرينا"؛ وكان يرسو هنا على بعد سبعة أميال داخل الخليج، بعيدًا عن ممرات الشحن المؤدية إلى الميناء أو المرسى، لكنه قريب بما يكفي من الشاطئ ليتمكن مالكه وحاشيته من الاستمتاع بكل ما تقدمه بويرتو فالارتا. كان طويلًا وأنيقًا وجميلًا. وتتوجه مروحية "يوروكوبتر" سوداء حديثة ترقد على مهبط الطائرات فوق السطح الخلفي العلوي. لكن إدواردو غامبوا تجاهل أناقة السفينة أمامه وركز بالكامل على جوهر المهمة. بعد أربعين دقيقة تحت الماء، كانت رؤيته الليلية في ذروتها. بعينه المجردة رأى حارسين على سطح

التشمُّس العلوي يقفان بالقرب من المقدمة. وتخيل العدد نفسه على الجانب المقابل.

ببطء، ارتفع رأس آخر من الماء على يمين إدواردو. ثم آخر. ثم ثلاثة رجال آخرين على يسار إدواردو. ثم رجلان آخران خلفه مباشرة.

ثمانية غواصين في المجمل يطفون في الماء على بعد خمسين مترًا من "لا سيرينا". وبعد إيماءة من الرائد إدواردو غامبوا، أفرغ كل منهم بضعة أونصات من الهواء من أجهزة التحكم في الطفو، وككتلة واحدة هبطوا ببطء عائدين تحت السطح الأسود، دون ترك أي أثر لوجودهم.

كان غامبوا ورجاله من الـ (GOPES)، مجموعة العمليات الخاصة، وهي نخبة العمليات الخاصة للشرطة الفيدرالية المكسيكية. لكن هؤلاء الشرطيين الثمانية كانوا نخبة بمستوى لا يعرفه إلا القلة. سُحبوا من وحدات شرطة وكوماندوز عسكرية أخرى ونُظموا بشكل منفصل عن بقية الـ (GOPES). شكلوا معًا قوة ضاربة خاصة تدار سريًا من قبل النائب العام في مكسيكو سيتي.

مهمتهم؟ التصفية خارج نطاق القانون لأباطرة المخدرات الكبار في المكسيك.

هدفهم الليلة؟ مالك "لا سيرينا"، المدعو دانيال ألونزو دي لا روشا ألفاريز. في عالم يحمل فيه الجميع لقبًا، عُرف دي لا روشا ببساطة بالأحرف الأولى من اسم عائلته، DLR، وتُلفظ بالإسبانية "دي، إلي، إري".

كان دي إل آر زعيم "لوس تراهيس نيغروس" (البدلات السوداء)، وهي واحدة من أبرز المنظمات الإجرامية لتجارة المخدرات والخطف في البلاد.

بعد أربع دقائق، عاد اثنان من فريق غامبوا للظهور عند مؤخرة "لا سيرينا". كان مارتن ورمسيس قد خلعا معدات الغوص، وأقنعتهما وزعانفهما، وتسلقا بحذر السلالم البحرية إلى السطح السفلي. كانا

يحملان رشاشات "شتاير تي إم بي" مزودة بكاتم للصوت، وكانا جاهزين وهما جاثيان عند أعلى السلالم. ساعدتهما معدات الرؤية الليلية على تفقد السطح باتجاه المطبخ والمقدمة. بعد لحظة تحدث رمسيس في سماعة الرأس.

– "نحن على متن المركب، نتحرك نحو الموقع".

كان غامبوا قد تحرك بمحاذاة الهيكل من الجانب الأيسر مع اثنين آخرين من فريقه. همس في جهازه اللاسلكي:

"Entendido" –(عُلم)

بعد دقيقة، رفع مارتن ورمسيس نفسيهما عبر سلم مهبط الطائرات، وتسلقا بصمت في الظلام. ثم انبطحا على الجانبين المتقابلين للمروحية، وأسلحتهما مصوبة نحو الحراس الأربعة على سطح التشمُّس، على بعد حوالي سبعين قدمًا للأمام. كانت مهمة مارتن ورمسيس منع أي محاولة للهروب بالمروحية أثناء الهجوم، وتصفية حراس السطح عند تلقي الأمر من قائدهما.

قال رمسيس في سماعته:

– "الفريق الأول، listo" (جاهز).

رد غامبوا مرة أخرى من السطح المتموج للخليج:

– "Entendido".

خلع معدات الغوص بينما كان يتحدث، ثم قال:

– "الفريق الثاني، نفذ".

جاء الرد:

– "جاري التنفيذ".

وبدأ ثلاثة رجال بتسلق سلسلة المرساة عند الجانب الأيسر للمقدمة، على بعد أربعين قدمًا أسفل الحراس على سطح التشمُّس.

بعد دقيقتين كان الرجال على متن المركب، ومسحت أسلحتهم المكتومة سطح القيادة.

– "الفريق الثاني، listo".
قال غامبوا:
– "الفريق الثالث، vamos" (لننطلق).
وارتفع هو ورجلان آخران يقطرون ماءً من السلالم الخلفية، وتسلقوا إلى السطح العلوي، ومروا بجانب قارب نجاة كبير مغطى بغطاء قماشي مشدود، وبدأوا التحرك للأمام بحذر. وصلوا إلى الممر المؤدي للمطبخ، وسمعوا ضوضاء ورأوا أضواءً قادمة من الغرفة الكبرى أمامهم، فرفعوا نظارات الرؤية الليلية. دخلوا الغرفة ببطء، ووجدوا حارسين جالسين على أريكة جلدية بيضاء ضخمة أمام تلفزيون بلازما مقاس 52 بوصة.

تكفل غامبوا بالرجل على اليسار، وأطلق عليه رصاصة واحدة اخترقت جمجمته وهو يقف. ابتلع صوت معركة نارية مطولة في التلفزيون دويّ سلاحه المكتوم.

أطلق الضابط خلف غامبوا النار على الحارس الأيمن ثلاث مرات في الصدر؛ سقط الحارسان عائدين إلى الأريكة، وسقطت المسدسات من أيديهما، وانتشرت برك الدماء لتلتقي بين جثتيهما على الجلد الأبيض.

تحرك الفيدراليون الثلاثة عبر الغرفة بسرعة الآن. كان التلفزيون يعرض فيلمًا ميزه إدواردو بسهولة: Los Trajes Negros 2 (البدلات السوداء 2)، الجزء الثاني من سلسلة أفلام مكسيكية شهيرة تمجد حياة ومآثر دانيال دي لا روشا، الرجل النائم في الجناح الرئيسي المجاور.

أحمق متغطرس، فكر غامبوا. كان من الشائع لزعيم المخدرات النرجسي أن يعرض أفلامًا تمجد شروره على يخته. واصل غامبوا عبور الغرفة ورجاله متكدسون خلفه ودخل الممر المؤدي للجناح الرئيسي. مروا بجناحين آخرين للضيوف؛ سيقومون بتطهيرهما بعد

التعامل مع دي لا روشا، لكنهم لم يتوقعوا أن يكونا مشغولين. كانت مراقبة "لا سيرينا" لمدة ثمان وأربعين ساعة قد أشارت إلى أن دانيال كان على متن اليخت الليلة مع عدد قليل من الحراس وطاقم يخته فقط.

بمجرد تمركزهم عند باب الجناح الرئيسي، انتظر الفريق الثالث. وفي غضون ثوانٍ، وعلى بعد طابق واحد فوقهم، أعلن الفريق الثاني أنهم خارج أماكن إقامة الطاقم.

– "جميع الفرق، التنفيذ في ثلاث. Uno... dos... tres".

على مهبط المروحية، أطلق مارتن ورمسيس رصاصتين مكتومتين من رشاشاتهما الـ "شتاير" في رأس كل حارس على سطح التشمُّس.

فتح الفريق الثاني كلاً من أماكن إقامة الطاقم ومقصورة القبطان؛ صوب رجل سلاحه نحو سرير القبطان، بينما أشعل اثنان آخران الأنوار في أماكن الطاقم وصوبا أسلحتهما نحو الرجال الثمانية المتوقع نومهم هناك.

ركل الفريق الثالث، بقيادة الرائد إدواردو غامبوا، باب الجناح الرئيسي. شغّلوا المصابيح المثبتة تحت مواسير رشاشاتهم لكنهم وجدوا الغرفة غارقة بالفعل في الضوء. كانت شاشة البلازما مقاس 52 بوصة في هذه الغرفة تعمل أيضًا؛ وكانت تبث مقابلة مع دانيال دي لا روشا. كان يتحدث إلى مراسل خارج الكاميرا. تجاهله غامبوا واندفع نحو السرير الضخم بحجم "كينغ سايز".

كانت هناك كتلة كبيرة تحت الملاءات الحريرية هي هدفه.

لكن قبل أن يصل إلى السرير، وسلاحه مرفوع للإطلاق، لفت انتباهه صوت عن يمينه.

– "مرحبًا بك في (لا سيرينا)، أيها الرائد إدواردو غامبوا".

كان صوت دي لا روشا. رفع غامبوا بصره في صدمة. كان دي إل آر على التلفزيون ينظر مباشرة في عيني غامبوا. بدا وكأنه في استوديو، يرتدي بدلته السوداء الإيطالية الأنيقة التي لا تفارقه.

– "قاتل حكومي، هنا، لتصفيتي. Dios mio! (يا إلهي)". قالها الوجه الوسيم على الشاشة بابتسامة خفيفة؛ كان شعره المالس، وسكسوكته، وشاربه الرفيع تلمع بالسواد؛ وعيناه مثبتتان وكأنهما تخترقان غامبوا.

نظر إدواردو للخلف نحو باب الممر. كان رجلاه يحدقان في التلفزيون وعيونهما متسعة.

عبر سماعة الأذن سمع الرائد الفريق الأول يبلغ:

– "تم تصفية الأهداف الأربعة جميعًا".

ثم الفريق الثاني:

– "رائد... معظم هذه الأسرّة فارغة. هناك ثلاثة رجال فقط هنا. لا يوجد قبطان".

ثم، من التلفزيون، واصل دي لا روشا مخاطبة الضابط الفيدرالي المذهول:

– "رائد غامبوا، دعني أسألك شيئًا. إذا كنت تعمل لدى الفيدراليين، وأنا أملك الفيدراليين، فأين يتركك هذا أنت ورجالك؟"

نظر غامبوا إلى الكتلة في السرير، ورفع الملاءات بيده المغطاة بالقفاز.

متفجرات "C4" بلاستيكية، مائة باوند على الأقل في قوالب موصولة معًا ومثبت بها صاعق أحمر.

تمتم غامبوا:

– "Qué chingados?" (ما هذا بحق الجحيم؟)

جاء الصوت من الشاشة:

– "هل حصلت على إجابتك بعد؟ موتى! يتركك هذا أنت وفريقك اللعين muerto, pendejo! (موتى، أيها الأحمق!)".

استدار إدواردو غامبوا مبتعداً عن القنبلة، وضغط زر الإرسال في جهازه اللاسلكي صارخاً:

– "إنه فخ! غادروا القارب!"

استدار رجال إدواردو أمامه، وبدأوا يركضون عبر الممر. ركض خلفهم؛ كانوا قد وصلوا لتوهم إلى الصالون، وتجاوزوا للتو التلفزيون الذي يعرض الفيلم الممجد لجرائم دانيال ألونزو دي لا روشا ألفاريز، عندما انفجر وميض من خلفهم. ابتلعهم عصف اللهب الحارق، وقضوا نحبهم في الانفجار المذهل للسفينة التي تبلغ قيمتها ثلاثة وثلاثين مليون دولار.



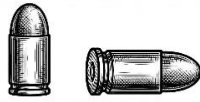
كان دانيال دي لا روشا يطفو في الماء، على بعد مائة ياردة من حطام "لا سيرينا" الجميلة. انتظر بصبر بينما قام إميليو وفيليبي، حارساه الشخصيان، بنفخ قارب النجاة الطارئ، ثم ساعداه على الصعود.

بمجرد صعود الثلاثة إلى القارب المطاطي الصغير، ألقوا معدات الغوص التي كانوا يرتدونها منذ انزلاقهم من قارب النجاة الخشبي على السطح العلوي إلى مياه خليج بانديراس. تمكنوا من السباحة لمائة ياردة قبل أن يُقتل الرجال الأربعة الذين تُركوا على سطح التشمُّس، وهذا أخبر دانيال بأن الوقت قد حان للضغط على جهاز التحكم عن بعد المقاوم للماء الذي بدأ التسلسل في كل من مشغل الـ DVD الخاص به وقنبلته.

والآن، راقب هو ورجاله ألسنة اللهب تشتعل فوق الماء. تمنى ألا يطول الوقت قبل أن تأتي دورية إطفاء الميناء المحلي لإنقاذ "الناجين

الثلاثة". كان دانيال يعلم أنه سيصبح "شهيدًا حيًا" بعد هذا العمل العدواني من قبل الفيدراليين؛ بل إنه في الحقيقة عمل لشهور ليستغل هذه اللحظة.

سيفتقد "لا سيرينا"، بلا شك. لكنها مؤمّن عليها، ومروحيته "يوروكوبتر" مؤمّن عليها، والعديد من الأعمال الفنية التي لم تكن حتى على متن اليخت مؤمّن عليها. على أي حال، لقد حان الوقت للتحديث. كانت هناك جوهرة بطول مائة وستين قدمًا رآها قبل بضعة أشهر في فورت لودرديل، وسيجعل رجاله يبدأون العمل فورًا على المالك لتشجيعه على بيعها.

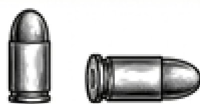


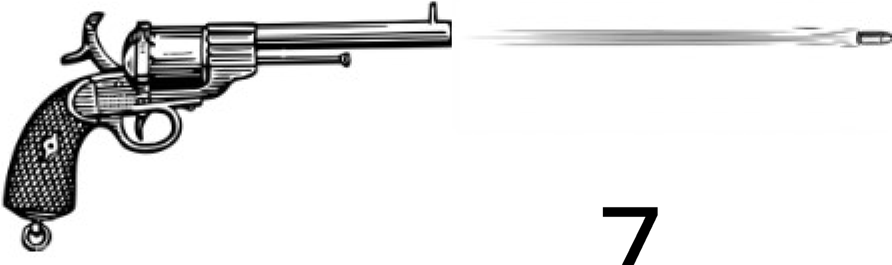
كان الرقيب مارتن أوروزكو فرنانديز والرقيب رمسيس سينفويغوس كورتيلو يطفوان في الماء الأسود. كلاهما مصاب: حروق في ساقي رمسيس ستصرخ ألمًا في الماء المالح بمجرد أن يتبدد الأدرينالين بما يكفي ليشعر بها، والتواء طفيف في المعصم الأيسر لـ مارتن سيجعل من سباحة السبعة أميال نوعًا خاصًا من الجحيم.

لكنهما سباحان ممتازان، وبذلات الغوص خاصتهما تساعد على الطفو. لن يغرقا.

لكن ذلك لم يجعل أيًا منهما يشعر بتحسن يذكر.

لأن بقية فريقهما قد ماتوا، وكان واضحًا لكليهما أنه تم الإيقاع بهما من قبل قادتهم، وقادتهم هؤلاء موجودون في مكان ما على الشاطئ الذي يسبحان نحوه. قلة قليلة فقط كانت تعلم بهجوم الليلة، وأدرك رمسيس ومارتن أن واحدًا على الأقل من تلك القلة قد سرب المعلومات لـ دي لا روشا.





7

كقاعدة عامة، كان كورت يفضل محطات الحافلات في دول العالم الثالث. فهنا، يمكنه مراقبة الناس بأدنى قدر من التدقيق المتبادل، والجلوس بمفرده في زاوية مظلمة، وامتصاص تجارب الآخرين. إن ورطته الشخصية، وحقيقة أن العديد من الأشخاص شديدي الخطورة يريدونه ميتاً، فرضت عليه حياة العزلة، والابتعاد عن البشر، وعدم الثقة فيهم بشكل عام. ولهذا السبب، كان الأمريكي البالغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا يتعرف على الحياة اليومية الطبيعية والعائلة والعلاقات بالوكالة، وغالبًا ما يكون ذلك في محطات الحافلات. مراقبة أب يوبخ طفله المشاغب، أو زوجين شابين يتعانقان ويضحكان معًا، أو رجل عجوز يتناول عشاؤه وحيدًا.

عاش كورت بهذه الطريقة حصريًا لمدة خمس سنوات، وهي المدة التي قضاها العميل السابق لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) هاربًا من الوكالة نفسها، متفاديًا أمر تصفية فورية بمجرد رؤيته. لكن الجلوس وحيدًا ومراقبة الآخرين وهم يعيشون حياتهم كان، بدرجة أو بأخرى، هو حياة كورت طالما أمكنه التذكر.

مرت تسعة أيام منذ مغادرته البرازيل؛ وسافر برًا منذ ذلك الحين – مستخدمًا الدراجات والحافلات وسيرًا على الأقدام وصولًا إلى أمريكا الوسطى. لم يمكث لأكثر من ست ساعات في مكان واحد.

وها هو الآن يجلس في محطة حافلات بمدينة غواتيمالا، في انتظار "حافلة دجاج" تقله إلى الغابة الشمالية قرب الحدود مع المكسيك وبليز.

كان يملك القليل من المال الآن، لكن ليس الكثير. باع مسدس صائد البشر في السلفادور، ولا يزال يحتفظ ببعض اليوروهات التي أخذها من محفظة الهولندي. لكنه اشترى ملابس مستعملة في بنما وحقيبة رياضية قماشية خضراء ليحملها فيها. هذا، بالإضافة للطعام وتذاكر الحافلات، لم يكلف الكثير. يمكن لـ جينتري تدبر أمره بأقل مما يحتاجه أي أمريكي آخر تقريبًا؛ ومع ذلك، ستصبح السيولة النقدية مشكلة عما قريب.

تتدلى شاشة تلفزيون بالأبيض والأسود من عمود معدني في زاوية غرفة الانتظار. كانت تبث برنامجًا حواريًا من مكسيكو سيتي يظهر فيه متحولون جنسيًا يصرخون في وجوه بعضهم البعض حول ترهات ما. لم يُعِر كورت التلفزيون اهتمامًا كبيرًا؛ بل كانت عيناه مثبتتين على الرجل العجوز وطبق الأرز أمامه. كان هو الرجل الذي يمسح الأرضية القذرة وينظف المراحيض بروتينية هنا في المحطة؛ لقد جلس القاتل الأمريكي هنا لفترة كافية لرؤية الرجل أثناء عمله. والآن يجلس عامل النظافة على طاولة بالمقهى وينقر في طعامه، يمتص الأرز لأنه لا يملك أسنانًا كافية ليفعل به شيئًا آخر. هل يضطر للعمل طوال الليل؟ وهل هناك من ينتظره في المنزل عند الصباح؟

وجد كورت نفسه ينسج قصة للرجل، وفي نواحٍ كثيرة كانت تعكس قصته هو.

لم يتوقع كورت أن يعيش طويلًا مثل ذلك العجوز، ووجد في ذلك عزاءً منحرفًا لأنه لم يكن يريد أن يكون وحيدًا وعجوزًا في آن معًا.

كانت القرية في الأمازون بمثابة صحوة له. عندما وصل كورت هناك، كان قد سافر لخمسة أشهر متواصلة. بضعة أسابيع في ريو،

وبضعة أسابيع في كيتو، وبضعة أيام في عشرين مدينة أخرى. طوال ذلك الوقت كان يفكر في التوقف؛ لم تفارق الفكرة ذهنه قط. اعتقد أنه يريد العثور على مكان للإقامة، وعمل يقوم به، وأناس حوله، والذين، بطبيعة الحال، لن يعرفوا هويته الحقيقية أبدًا لكنهم سيعرفونه كشخص ما، وهو أمر مختلف تمامًا عن السفر، حيث لا يكون معروفًا ولا ملاحظًا من قبل من حوله.

وقد وفرت له قرية الأمازون كل هذا. كان الناس لطفاء، ولم يكونوا فضوليين للغاية. ساعده التقشف على التركيز ودفعه بعيدًا عن إدمان المسكنات الذي تركه خلفه، شيئًا فشيئًا، في كل بلدة مر بها منذ كاراكاس في أبريل الماضي.

كان نظيفًا من المخدرات لمدة شهرين بحلول وقت وصوله إلى الأمازون، وساعدت التمارين والعمل المستمر والخطر الناجم عن لا شيء أكثر شرًا من طبيعة الخالق، ساعدت جسده على نسيان تلك التفاهات المبتذلة مثل الرغبة في استرخاء تمنحه حبة دواء.

لكن كان هناك جانب سلبي. لقد أدرك أن الأشياء التي كان يسعى إليها – الاستقرار، والأمان النسبي، والروتين – لم ترضه. كان يشمئز من الاعتراف بذلك، لكن عندما جاء ماورو الصغير وأخبره بقدوم صائد البشر، شعر بإحساس لا يمكن إنكاره بالراحة يغمر جسده.

إثارة. أدرينالين. هدف.

لم يعجب ذلك كورت جينتري، لكنه لم يعد يستطيع إنكاره.

بعد قرية الأمازون، وبعد الارتياح العبثي لهجوم مروحيات مليئة بالمسلحين، أصبح أمر واحد واضحًا له.

كورت جينتري هو الرجل الرمادي، والرجل الرمادي يعيش من أجل هذا القرف.



كان كورت جالسًا على كرسي بلاستيكي مسندًا رأسه إلى الجدار وقدميه مرفوعتين على حقيبته القماشية. لكنه اعتدل في جلسته ليحرك ظهره، ويثني ثم يمدد العضلات العلوية في كتفه الأيسر حيث يزعجه نسيج ندبي من جرح سهم قديم، إذ يحتاج التصاق الأنسجة لتمارين تمدد يومية جيدة ليبقى مرنًا.

بدأت نشرة الأخبار المسائية على التلفزيون الصغير، واستمع إليها كورت بشرود دون النظر للشاشة، ملتقطًا كلمات هنا وهناك بينما كان يميل للأمام ويلف ذراعيه حول جسده ليمدد العضلات تحت لوحي كتفيه.

لم تلفت كلمات "بويرتو فالارتا" انتباهه، ولا "يخت" أو "انفجار".

لكن الكلمة الإسبانية asesinato (اغتيال) جعلته يدير رأسه. كان لديه اهتمام مهني حاد بقصص الاغتيالات.

شاهد فيديو لحطام يتصاعد منه الدخان في المحيط، التقطته مروحية عند الفجر. ثم صورة لرجل إسباني وسيم يرتدي بدلة سوداء أنيقة من ثلاث قطع. قال المذيع إن اسم الرجل هو دانيال دي لا روشا، وهناك تكهنات بأنه كان هدفًا لعملية تصفية رسمية من قبل الشرطة الفيدرالية المكسيكية. لم يستطع كورت فهم كل شيء، لكنه التقط أن دي لا روشا قد نجا وأن رجال الشرطة الذين فجروا اليخت قد ماتوا جميعًا.

يا للهول، فكر كورت. تلك عملية تصفية فاشلة بحق. لماذا تفجير اليخت؟ لماذا لم يطلقوا النار على ابن العاهرة وهو على اليابسة فحسب؟

تغيرت الصورة على الشاشة مرة أخرى، لتظهر صورة رسمية لرجل بزي الشرطة يجلس أمام العلم المكسيكي. كان يرتدي قبعة

أنيقة، وتزين الأوسمة معطف زيه العسكري، وكان وجهه الحليق جادًا وصارمًا.

أمال كورت رأسه جزءًا من البوصة. ورمش مرتين بسرعة. عدا ذلك، لم يحرك ساكنًا. اكتفى بالمشاهدة.

واصل المذيع الحديث فوق صورة الشرطي، وركز جينتري على الكلمات، وضبط سمعه على القواعد النحوية، وبذل قصارى جهده للفهم.

– "وتقول المصادر إن الرائد إدواردو غامبوا من مجموعة العمليات الخاصة بالشرطة الفيدرالية قاد محاولة اغتيال دانيال دي لا روشا. وكما ذُكر سابقًا، قضى غامبوا وجميع رجاله في انفجار اليخت، إلى جانب أربعة من حراس دي لا روشا وثلاثة من طاقم (لا سيرينا). ولم ينجُ سوى دي لا روشا واثنين من مساعديه".

إدواردو غامبوا.

همس كورت بصوت خافت:

– "إدواردو غامبوا".

غادرت الصورة الشاشة، وظهر إعلان تجاري لبيع خطط الهاتف المحمول، لكن جينتري كان لا يزال يرى الوجه.

– "إدواردو غامبوا".

قالها مرة أخرى بصوت خافت. ثم قال:

– "إيدي".

رمش كورت مجددًا، وأسقط وجهه الملتحي بين كفيه، وعاد بذاكرته إلى الشهر الذي قضاه في الجحيم.



لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

أغسطس 2000

سحب أربعة جنود يرتدون معاطف المطر العسكرية الخضراء الأمريكي من مؤخرة الشاحنة ودفعوه عبر العاصفة الرعدية، صعودًا في الممر الموحل. تعثر مرة في الطريق إلى الكوخ الخشبي: يداه وقدماه المكبلتان أجبرته على التحرك ببطء أشد مما رآه حراسه معقولًا، ولم يكن ثوبه الطويل المبلل بالمطر وقدماه الحافيتان لتساعداه على ثبات خطواته فوق الحجارة الزلقة. نكزه أحد اللاوسيين في ظهره ببندقية "SKS" قديمة ليحث جينتري على الإسراع. بمجرد وصوله تحت سقف شرفة الكوخ، سقط كورت على ركبتيه، لكن الحراس جذبوه واقفًا وتركوه يترنح هناك بينما فُتح الباب. تمايل مع رياح العاصفة وهو يقف وينتظر؛ وأخيرًا، أدخلوه المبنى.

خلع الجنود معاطف المطر وعلقوها على أوتاد بالجدار بينما خرج ضابط من خلف مكتبه وفتح بابًا لدرج يهبط إلى الظلام. ترنح كورت مرة أخرى، وكاد يسقط، لكن أيادي قوية على ظهره وكتفيه وجهته أسفل السلالم الضيقة. في الأسفل فُتح باب مغلق آخر، ودُفع جينتري للأمام على أرضية من الطوب، وأزيلت أغلاله. فتح الجنود الأربعة زنزانة حديدية ودفعوه بداخلها.

سقط في زاوية الزنزانة، وتركوه هناك بثوبه المبلل، بينما صكت القضبان المعدنية خلفه مغلقة. أغلق الجنود باب القبو خلفهم بعنف، وأقفلوه، ثم تراجعوا صعودًا عبر الدرج.

كان جينتري قد سقط على نشارة خشب عفنة؛ امتلأ فمه بها فبصقها بينما كان ممددًا على جنبه. فتح عينيه وجاهد ليتفقد المكان. كان هناك زوج مطوي من البيجامات بلون أزرق فاتح ملقى على الأرض بجانبه؛ بالكاد استطاع تمييزه. كان هناك ضوء خافت ينبعث من فتحة تهوية عالية بالجدار فوقه؛ تسلل أثر ضئيل من الإضاءة

الخافتة برفق إلى حيث يرقد جينتري، لكنه لم يكشف شيئًا عن الغرفة حوله.

لم يستطع رؤية بوصة واحدة أبعد من ذراعه الممدودة على النشارة.

تمتم لنفسه:

– "تبًا. هذا رائع بحق الجحيم".

نادى صوت رجل بأمل من الظلام أمامه، من داخل قضبان الزنزانة، ربما على بعد اثني عشر قدمًا من طرف أنف كورت:

– "إنجليزي؟"

لم يرد جينتري.

بعد قليل سمع حركة، صوت شخص يجلس، واحتكاك ملابس بالجدار الحجري.

سأل الصوت بلهجة أمريكية، ربما ذات خلفية أجنبية:

– "هل تتحدث الإنجليزية؟"

تجاهل كورت السؤال.

واصل الصوت في الظلام:

– "أنا هنا منذ أسبوعين. قضيت اليومين الأولين أبحث عن كاميرات أو أجهزة تنصت. صدقني، هؤلاء الـ pendejos (الحمقى) ليسوا متطورين إلى هذا الحد".

حرك كورت نفسه ببطء إلى وضع الجلوس، واستند بظهره إلى القضبان الحديدية. أومأ للظلام. وهز كتفيه قائلًا:

– "أتحدث الإنجليزية".

فوجئ بمدى ضعف صوته وبحته.

– "هل أنت أمريكي؟"

– "أجل".

– "وأنا كذلك".

قال كورت:

– "أنت تتحدث بلكنة غريبة".

صدرت ضحكة مكتومة من الصوت غير المرئي.

– "ولدت في المكسيك. وجئت إلى الولايات المتحدة حين كنت في الثامنة عشرة".

– "إذًا أنت بعيد جدًا عن وطنك".

– "أجل. ماذا عنك؟ ما الذي فعلته لينتهي بك المطاف هنا؟"

– "لست متأكدًا أين الـ(هنا) بالضبط".

– "نحن على بعد ساعتين شمال غرب فيينتيان في معسكر عسكري يرمون فيه مهربي الهيروين الأجانب. إنه ليس سجنًا رسميًا؛ لا يوجد قاضٍ أو محاكمة أو صليب أحمر أو أي شيء من هذا القبيل. يحضرون المتاجرين هنا لاستجوابهم، وانتزاع أسماء مورديهم، وعندما يتأكدون من أنهم عصروا كل ما لديهم، يأخذونهم إلى معسكر عمل ويجبرونهم على بناء الطرق حتى يسقطوا موتى. يقولون إنه خلال ثلاثة أسابيع سينتهي موسم الأمطار وستكون الطرق سالكة، وحينها سيُرحّل الجميع هنا إلى معسكرات العمل".

قال كورت بعد سعال آخر:

– "يا للمصيبة".

– "ما كمية المخدرات التي ضبطوك بها؟"

أغمض كورت عينيه وأمال رأسه للخلف مستندًا للجدار الحجري البارد. وهز كتفيه.

– "لم أكن أهَرِّب المخدرات".

– "بالتأكيد لم تكن، يا صاح. فقط أخبرهم أنه سوء تفاهم".

– "في الواقع جئت لإنقاذ عميل غبي من إدارة مكافحة المخدرات قبض عليه هؤلاء البلهاء الذين يديرون هذا المكان".

صمت طويل للغاية. ثم ضحكة مكتومة جديدة. ثم ضحكة قوية بدت في غير محلها تمامًا في هذا القبو المظلم. ثم صوت حركة في الظلام. في الضوء الخافت القريب من وجه كورت، ظهر رجل ملتحٍ. بدا مكسيكيًا، في أواخر العشرينيات، وأقصر من كورت بعدة بوصات. كان يرتدي بيجامة زرقاء فاتحة، وكان الجلد حول عينيه ملطخًا بكدمات باهتة، واضحة حتى في الظل العميق. مد يده قائلًا:

– "إيدي غامبل. إدارة مكافحة المخدرات، مكتب فينيكس الميداني، في مهمة خاصة لصالح قسم بانكوك الميداني".

صافحه كورت بضعف.

– "مرحبًا، غامبل؟ كيف تسير مهمتك الخاصة تلك؟"

– "وكيف تسير مهمتك أنت، ese (يا صاح)؟"

ابتسم كورت؛ آلمته عضلات فكه.

– "ليست أفضل من مهمتك، أظن".

– "إذًا أنت هنا لإنقاذي، ها؟"

أومأ جينتري برأسه.

ضرب إيدي غامبل حشرة عن جبهته وسأل:

– "هل هذا هو الجزء الذي تهبط فيه باقي وحدتك بالحبال من العوارض وننطلق جميعًا خارجين من هنا بحقائب نفاثة؟"

نظر كورت نحو السقف المنخفض.

– "يا رب، أتمنى ذلك".

لم يحدث شيء. نظر مرة أخرى إلى غامبل. وهز كتفيه.

– "أظن لا".

سأل إيدي:

– "مع من تعمل؟"

– "لا أستطيع القول".

– "لدي تصريح أمني (سري للغاية)".

علق جينتري مازحًا:

– "الفتيات يعجبهن ذلك، أليس كذلك؟"

كانت عيناه قد اعتادتا على الضوء الخافت، فمسح الزنزانة الآن، ولم يجد شيئًا سوى دلو فضلات وحوض ماء وبضع بطانيات مهترئة كأثاث.

– "أعني... أنا واثق من أنك تستطيع إخباري لمن تعمل".

– "آسف يا بطل. أنا مصنف تحت (كود سري)".

(كود سري) يعني أن من يعرفون كودًا معينًا فقط هم المطلعون على مجموعة من المعلومات.

– "أراهن أن الفتيات يعجبهن ذلك".

– "سيعجبهن لو استطعت إخبارهن، لكن عليهن معرفة الكود أولًا".

ضحك غامبل على هذا، وعلى الموقف.

– "يمكنك المجيء لإنقاذي، لكن لا يمكنك إخباري لمن تعمل؟"

– "إدارة مكافحة المخدرات تبحث عنك. تصادف وجودي في المنطقة، نوعًا ما، فأرسلني قومي لأستطلع الأمر".

– "ثم؟"

هز كورت كتفيه.

– "سوء حظ. مرضت. كنت ألتقي ببعض جهات الاتصال، وفقدت الوعي. استيقظت في المستشفى. كان لدي هوية زائفة للإقامة فقط؛ لم تكن أوراقي جيدة بما يكفي لتدقيق المستشفى، فاتصلوا بالشرطة. لم تكن أوراقي قريبة حتى من الكفاية للشرطة، فاتصلوا بالاستخبارات العسكرية. مسحت الاستخبارات العسكرية مؤخراتها بأوراقي، ببساطة، وها أنا ذا".

مد غامبل يده ووضعها على جبهة جينتري.

– "هل لسعتك أي بعوضة؟"

– "عبرت نهر الميكونغ قبل حوالي أسبوع ونصف. الحشرات اللعينة أكلت مؤخرتي. أظن أنهم لا يحصلون على الكثير من اللحم الأبيض هنا".

– "ألم في الظهر، آلام عضلية، تقلصات معدة، دوار؟"

أكمل كورت قائمة أعراضه:

– "إعياء، ألم مفاصل، قيء".

قال إيدي بجدية:

– "لديك ملاريا".

– "شكرًا يا دكتور، لكنني اكتشفت ذلك بالفعل".

نظر غامبل إلى جينتري طويلًا قبل أن يقول:

– "يا أخي، هذا حكم بالإعدام في مكان كهذا. تحتاج لأدوية. ماء نظيف. طعام صلب لا تزحف فيه الصراصير. لن تحصل على ذلك هنا".

هز كورت كتفيه.

– "سأكون بخير".

نهض إيدي بسرعة، بسرعة جعلت جينتري يجفل. تحرك غامبل نحو القضبان وبدأ يصرخ مناديًا الحراس أعلى الدرج. لم يستطع كورت فهم كلمة واحدة. لم ينزل الحراس، وبعد لحظة جلس غامبل مرة أخرى، والغضب بادٍ عليه.

– "يجب أن ننقلك لمستشفى".

– "لقد سحبوني للتو من مستشفى، تذكر".

– "¡Pendejos!"

– "ماذا تعني؟"

– "إنها إسبانية. تعني شيئًا مثل... حمقى أو ما شابه".

أومأ كورت.

– "وهل كانت تلك لغة لاوسية التي تحدثت بها للحراس؟"

– "تايلاندية. ليست نفسها تمامًا، لكنها قريبة بما يكفي للعمل الحكومي".

– "توقعت أن عميل في مكافحة مخدرات ذا جذور مكسيكية كان سيُرسل لأمريكا اللاتينية. أظن إن كنت تتحدث التايلاندية، فسيرسلونك هنا".

– "يتم إرسالي لكل مكان. قبل هذه الوظيفة كنت في البحرية لست سنوات، في الفرق (Teams). ذهبت لكل مكان، والتقطت بعض اللغات في الطريق".

– "الفرق(Teams)؟ كنت في القوات الخاصة البحرية (SEAL[2])؟"

– "الفريق الثالث".

أومأ كورت، باحترام قدر المستطاع وهو يسند رأسه للجدار.

– "أنت هنا منذ أسبوعين. إذا كنت فردا من الـ SEALs كان يجب أن تكون قد هربت الآن، وقضيت أسبوعًا تضاجع فتيات الشاطئ على الساحل، ثم عدت للوطن مع وقت فائض".

تحفز غامبل في الظلام. أدرك كورت أن الرجل لم يعجبه تلميح أنه ضعيف.

– "بالتأكيد، يمكنني الخروج من هنا. ينزل حارسان لاقتيادي لكوخ الاستجواب كل صباح. يمكنني كسر عنقيهما. يمكنني خطف سلاح جانبي والركض لمرآب السيارات. يمكنني تشغيل سيارة بأسلاكها في ثوانٍ. يمكنني تحطيم البوابة الأمامية، والركض للميكونغ".

– "لكنك بقيت لأنك تحب الطعام؟"

أظهر تعبير وجه غامبل عدم التصديق.

---

[2] تُعتبر فرق "*SEALs*" التابعة للبحرية الأمريكية (وهو اختصار لمصطلح *Sea, Air, and Land* أي البحر والجو والأرض) نخبة القوات الخاصة، ويُعزى ذلك إلى التدريب القاسي والمُضني الذي يخضعون له، بالإضافة إلى طبيعة المهام شديدة الخطورة التي توكل إليهم.

- "يا أخي... أنا من إدارة مكافحة مخدرات. لست أنتمي القوات الخاصة البحرية بعد الآن، وبالتأكيد لست سنجابًا سريًا، ولا كودًا مصنفًا، ولا رجلًا خارقًا مثلك. لا يمكنني الركض وقتل الجيش اللاوسي".

أومأ كورت ببطء. كان يعمل وفق قواعد اشتباك مختلفة تمامًا، لكنه لم يكن ليعترف بذلك لـ إيدي.

سأل غامبل:

- "ماذا عنك؟ هل يمكنك إخباري بخلفيتك؟ أعني، لم تولد مصنفًا بكود سري، أليس كذلك؟"

- "نسيت كل شيء قبل هذه الوظيفة".

- "تبًا، الـ CIA تعبئكم أنتم العملاء المنفردين بإحكام، أليس كذلك؟"

لم يعلق كورت. لم يعترف بأنه CIA.

منحه غامبل لحظة، ثم قال:

- "حسنًا. ماذا عن اسم؟ هل لديك اسم؟"

هز الأمريكي المريض المستند للجدار كتفيه مرة أخرى.

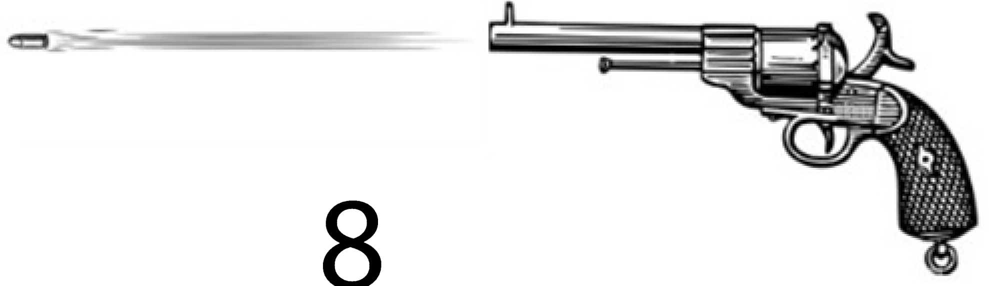
- "كُشف غطائي. يمكنك تأليف اسم لي. أي شيء تحبه".

هز غامبل رأسه. وهز كتفيه.

- "حسنًا، amigo (يا صديقي). أعتقد أنني سأسميك (سالي)".

ضحك كورت حتى هبط صدره، وسعل حتى تكور في وضع الجنين، يعتصره الألم.





8

غادر عقل جينتري التاريخ القديم في لاوس، ليعود إلى هنا والآن، ونظر للأسفل نحو قبر إدواردو غامبوا، والتربة الجافة المحفورة حديثًا والمتفتتة حول الشاهد.

مات الرائد غامبوا منذ ثمانية أيام، واستغرق انتشال رفاته من المحيط الهادئ ثلاثة أيام، وكانت جنازته أول أمس، ومع ذلك، قام الناس بالفعل بتشويه الصليب الخشبي الأبيض بطلاء الرش.

Hijo de puta! (ابن عاهرة).

Cabrón (تيس)، وهي شتيمة إسبانية تشبه "أحمق" أو "حقير."

Pendejo كان إيدي نفسه من علم كورت معنى الكلمة التي تزين الآن شاهد قبره.

تصلبت عضلات فك كورت غضبًا. لم يفهم. من بحق الجحيم قد يغضب من إيدي؟ يبدو أن هناك خفايا للقصة أكثر مما سمعه عبر الراديو عند كشك الشطائر في تشياباس. كان جينتري قد التقط تقرير متابعة مدته دقيقتان حول تفجير اليخت، وذُكر إدواردو غامبوا مرة أخرى كقائد العملية الميت.

لا شك في ذهنه. إدواردو غامبوا هو الرجل الذي عرفه باسم إيدي غامبل.

لم يرَ كورت إيدي ولم يسمع منه منذ لاوس. لم تكن لديه أدنى فكرة أن رجل مكافحة المخدرات قد عاد إلى المكسيك، وهذا الأمر

حيره بشدة. لماذا بحق الجحيم قد يرغب أي شخص في مغادرة الولايات المتحدة للمجيء إلى هنا ومحاربة تجار المخدرات وفساد الحكومة؟ ألم يكن هناك ما يكفي من الجريمة والهراء في الولايات المتحدة لإبقاء إيدي سعيدًا هناك؟

لم يبدُ أن رحلة ميدانية كانت ضرورية.

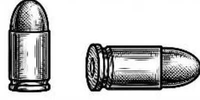
عندما رأى كورت تقرير وفاة إيدي، كان في طريقه إلى تامبيكو، على ساحل الخليج المكسيكي. سمع أن الكثير من سفن الشحن الأوروبية ترسو في الميناء هناك، وكان يريد إيجاد طريقة للعودة إلى نصف الكرة الشرقي لمواجهة وقتل مشغله السابق غريغور سيدورينكو، الرجل الذي يسعى الآن بنشاط، جنبًا إلى جنب مع وكالة الاستخبارات المركزية، لتدميره.

لكن التقرير الإخباري الثاني من بويرتو فالارتا غير الأمور. ذكر أن الرائد غامبوا سيُدفن في مسقط رأسه سان بلاس، على بعد تسعين دقيقة صعودًا بالساحل من مكان وفاته.

شعر كورت أنه إذا كان قريبًا إلى هذا الحد، على بعد رحلة حافلة ليوم واحد فقط، فعليه على الأقل الذهاب وتقديم واجب العزاء.

وها هو ذا، يقف على تلة صخرية تبعد ميلًا ونصف الميل عن المحيط الهادئ. كانت المقبرة شديدة الانحدار حوله مغطاة بأضرحة رخيصة مصنوعة من الصفائح المعدنية والمشمع والبلاستيك والكتل الخرسانية. وبين هذه النصب التذكارية الأكبر للموتى، كانت هناك شواهد قبور أقل زخرفة، تتناثر حولها الشموع والتماثيل البلاستيكية والزهور الصناعية. كانت السحالي السمينة تتشمس على الصخور المحطمة أو تطارد بعضها البعض حول كتل ضخمة من أشجار الموز تنمو بريًا وسط العشب الطويل. هبت نسمة ظهيرة حارة لتسفي شعر جينتري الطويل في عينيه وهو ينظر إلى المثوى الأخير لصديقه القديم.

محدقًا في الشتائم المكتوبة بطلاء الرش، سأل نفسه: لماذا كل الناس هنا غاضبون جدًا من إيدي؟



لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

عام 2000

كان إيدي غامبل محقًا بشأن كون معسكر الاعتقال العسكري في بان نام فونغ ليس مكانًا لرجل مصاب بالملاريا. تدهورت حالة كورت الضعيفة مع كل يوم يمر وسط طعام رديء، وأرضية باردة من نشارة الخشب، وظروف غير صحية تمامًا.

أصبحت مهمته لإنقاذ إيدي نكتة في اللحظة التي أُلقي فيها معه في الزنزانة، لكن الآن أصبح إيدي هو من يحاول يائسًا إنقاذ "سالي".

مرة واحدة يوميًا، كان جينتري يُسحب صعودًا عبر الدرج، ويُقتاد عبر المجمع الصغير إلى مبنى خشبي، ويُلقى على الأرض أمام مكتب، ويستجوبه ضابطان عسكريان لاوسيان يتحدثان القليل من الإنجليزية ويبقيان عينًا واحدة على مباريات فنون القتال "مواي لاو" العنيفة المعروضة على تلفزيون صغير مثبت بالجدار. كان الرجلان يشربان الماء العذب من زجاجات بلاستيكية كبيرة لتعذيب أسيرهما المريض والعطش. سألاه مرارًا وتكرارًا كيف دخل البلاد ومن جاء لمقابلته وعشرات الأسئلة الأخرى، دون أي شك بأنه عميل استخبارات للولايات المتحدة الأمريكية. لم يقدم كورت أي إجابات، بل طلب فقط دواءً وبطانية ووسادة وماءً عذبًا. وفي كل يوم كان المحققون يرفضون.

باستثناء بضع صفعات مفتوحة اليد على الرأس، لم يضربوه، لكنهم استخدموا مرضه ضده، واعدين إياه بأنه لن يحصل على علاج للملاريا حتى يوقع اعترافًا.

وفي كل يوم يُسحب عائدًا لأسفل الدرج، ويُرمى في نشارة الخشب، ليؤخذ إيدي بعد ذلك لدوره أمام المحققين الكسالى.

بعد أسبوع تدهورت حالة جينتري الجسدية لدرجة أنه بالكاد كان يستطيع الزحف نحو الدلو المعدني الذي يتشاركه مع غامبل كمرحاض. بدأ إيدي برعاية "منقذه"، ومساعدته في قضاء حاجته، وغسله بالماء لتنظيفه، وحتى منحه نصف حصته اليومية من البطاطس والخبز المتعفن واللفت، المدعومة أحيانًا بعلبة صغيرة من المرق البارد المصنوع من عظام الحيوانات. كان غامبل يخفف حمى جينتري بتبليل جبهته القرمزية باستمرار بجورب مبلل، وفرك ذراعيه وساقيه عندما تداهمه القشعريرة. احتج كورت على كل ما يُفعل لأجله، وحث عميل مكافحة المخدرات باستمرار على التركيز في إيجاد طريق للخروج من المعسكر بمفرده.

كان كورت يزداد ضعفًا لدرجة تعجز معها عضلاته عن الحركة، لكن عقله المدرب جيدًا لم يفقد القدرة على التخطيط.

– "اسمع يا إيدي. ربما نكون على بعد بضعة أميال فقط من نهر الميكونغ والحدود التايلاندية. إذا هربت من هنا، فلديك فرصة للعودة إلى الوطن. لكن عندما يأخذوننا إلى معسكرات العمل، سنكون في الجبال، على بعد أسابيع من الحضارة، وأسابيع من معبر حدودي. إذا لم تخرج من هنا قبل أن نذهب للمعسكرات، فاللعبة انتهت".

هز إيدي رأسه فقط.

– "لن أتركك هنا، ولن أسمح لك بالذهاب لمعسكر العمل وحدك. ستموت".

– "أنا ميت على أي حال يا صاح. عليك التركيز فيما يمكنك فعله. عليك الخروج من هنا".

لكن إيدي كان عنيدًا؛ واصل العناية بزميله الضعيف في الزنزانة ولم يحاول الهرب بمفرده.

مع قضاء اثنين وعشرين ساعة يوميًا معًا ولا شيء آخر لفعله حرفيًا، قضى كورت وإيدي وقتًا هائلًا في الحديث. كان الحوار متعثرًا بسبب رفض جينتري المطلق الكشف عن أي معلومة عن نفسه، لكن إيدي كان ثرثارًا. تحدث عن حياته ونشأته في بلدة صغيرة على ساحل المحيط الهادئ في المكسيك، ورحلته عبر الحدود إلى تكساس كمهاجر غير شرعي، وسنواته الطائشة في عصابة "شيكانو" في ريفرسايد بكاليفورنيا، ثم قراره الانضمام للجيش سعيًا للحصول على الجنسية الأمريكية.

انضم إيدي للبحرية لأن والده كان صيادًا، لكنه أدرك سريعًا أنه هو نفسه لا يريد العيش على قارب. تأهل لاختيار القوات الخاصة البحرية (SEAL) وتفوق في التدريب الوحشي، وكسب احترام الكادر وزملائه المجندين في الطريق. بعد عامين ونصف من التدريب قبل الانتشار وأربع سنوات في "الفريق الثالث"، ترك الجيش وانضم لإدارة مكافحة المخدرات. حياته في جنوب كاليفورنيا منحته كراهية للمخدرات وتجارها، وعمل بشكل أساسي متخفيًا في أجزاء مختلفة من العالم.

بعد أسبوعين من جلبهما لمنشأة اعتقال بان نام فونغ، كان كورت مستلقيًا مستيقظًا في الظلام، وقشعريرة العرق تهدد بدفعه للجنون، مستمعًا لـ إيدي وهو يثرثر بلا توقف عن أخته الصغيرة، لوريتا، وكيف يفتقدها ويكره تركه لها في قرية الصيد الصغيرة التي نشأ فيها عندما انتقل للولايات المتحدة. انجرف عقل جينتري بعيدًا عن تاريخ حياة غامبل وتحول للمشكلة الراهنة. ركز كل انتباهه على

تذكر كل شيء يراه كل يوم عندما يُؤخذ من زنزانته، ويُجر عبر المعسكر الصغير، ويُرمى في كوخ الاستجواب. كانت السماء تمطر دائمًا؛ كانت هناك شاحنات وسيارات جيب تغوص بوصات في طرق الحصى والوحل، وربما عشرون حارسًا مسلحين ببنادق كلاشينكوف "AK-47" وبنادق "SKS" صينية الصنع.

أحيانًا، كان يرى سجناء آخرين، معظمهم من الـ "همونغ" – أقلية عرقية تعرضت للتنكيل لعقود من قبل الـ "باثيت لاو"، الحكومة الشيوعية اللاوسية. هؤلاء الرجال لم يكونوا متورطين في تهريب الهيروين أكثر مما كان جينتري؛ لقد اصطدموا فقط بالشيوعيين المحليين في السلطة وكانوا يعانون بسبب ذلك.

بينما كان يبذل قصارى جهده لتجاهل ثرثرة إيدي المستمرة – كان يتحدث الآن عن رغبته في شراء شاحنة "فورد" جديدة للاحتفال عندما يخرج من هنا – لمعت فكرة في ذهن جينتري. بدأ في تفحصها فورًا لاكتشاف الثغرات، محاولًا إيجاد نقاط الضعف في خطته. كانت هناك ثغرات: بعضها يمكنه ترقيعه بتغييرات تكتيكية طفيفة، وبعضها كان عليه تركه مفتوحًا. لا توجد خطة مضمونة تمامًا؛ وقد تعلم ذلك بالطريقة الصعبة خلال خمس سنوات في الميدان.

بينما كان عقل جينتري يتسابق، تحدث غامبل عن عائلته.

– "أرسل ثلثي راتبي لأمي وأبي، أفعل ذلك منذ تجنيدي. ومع ذلك أتمنى لو أستطيع فعل المزيد لـ لوريتا. هي في التاسعة عشرة الآن، فتاة رائعة؛ بالنظر إليّ لن تصدق كم هي جميلة. أريد إحضارها للولايات المتحدة، لكنها لا تريد المجيء. تقول إنها تريد الذهاب للجامعة وإيجاد وظيفة هناك".

توقف إيدي، لفترة طويلة جعلت كورت يلتفت للصمت النادر.

– "يجب أن نخرج من هنا يا (سالي). لدي الكثير من الناس يعتمدون عليّ في الوطن".

– "ستعود للوطن. أعدك".

– "لن أتركك يا صديقي. أخبرتك بذلك".

غير كورت الموضوع ليتبع سيل أفكاره.

– "هاي، قلت إن بإمكانك تشغيل سيارة بأسلاكها، أليس كذلك؟"

فوجئ إيدي بتغير الحديث، لكنه تدحرج على ذراعه، وابتسم ابتسامة عريضة وفخورة.

– "في ريفرسايد كانوا يسمونني (إيدي السريع) لأنني كنت أستطيع سرقة أي سيارة في أقل من ستين ثانية".

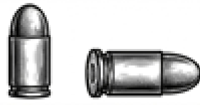
أومأ جينتري.

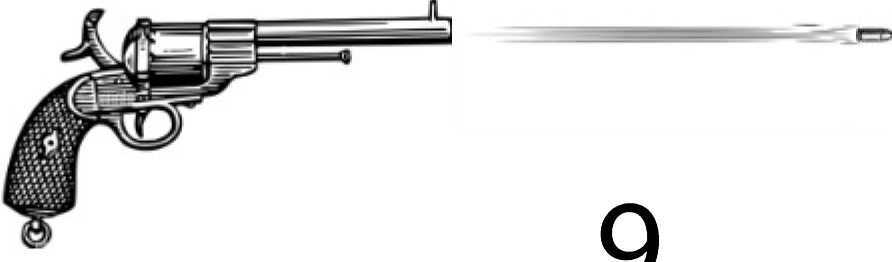
– "(إيدي السريع). هل ما زلت تستطيع فعلها؟"

– "أجل. لم يمر وقت طويل. لماذا تسأل؟"

– "مجرد فضول".

ترك كورت الأمر. وعاد للعمل على خطته.





9

سأل صوت أنثوي من خلفه:

– "Señor?" (سيدي؟)

انتفض كورت، منتزعًا من تلك الليلة في مرتفعات لاوس، وعائدًا إلى ظهيرة دافئة يعصف بها النسيم على ساحل المحيط الهادئ في المكسيك.

لم يكن مفاجئًا أنها تحدثت بالإسبانية. كانت بلهجة وجد جينتري صعوبة في فهمها.

– "إذا كنت تريد كتابة شيء ما، هل يمكنك فعل ذلك الآن حتى أتمكن من طلائه؟ أفضل ألا أضطر للعودة في وقت لاحق اليوم. إنها مسافة طويلة للعودة إلى الطريق لشخص في حالتي".

التفت كورت نحو صوت المرأة. كانت تقف خلفه وأسفل منه، على بعد بضعة أقدام أسفل التل على ممر ترابي متعرج ينحدر من الطريق المرصوف بالحصى المؤدي إلى سان بلاس. كانت وحيدة، وشعرها الداكن مشدودًا للخلف بإحكام، وفستانها القطني الأبيض يتطاير مع النسيم الدافئ. كانت تحمل علبة طلاء بيضاء صغيرة وفرشاة بيديها، وحقيبة كبيرة على كتفها.

كانت في الخامسة والثلاثين أو نحو ذلك. جميلة جدًا.

وحاملًا جدًا.

أجاب كورت بالإسبانية:

– "أنا آسف. ظننت أن هذا الرجل شخص أعرفه. كنت مخطئًا".

نزل عن التلة باتجاه الممر الترابي، وهمّ بالمرور بجانب المرأة مع إيماءة خفيفة، متجنبًا التواصل البصري، لكنها اعترضت طريقه. رفعت رأسها عاليًا وأرجعت كتفيها للخلف، متحدية إياه بجرأة.

توقف كورت.

– "من الذي تبحث عنه؟ إنها بلدة صغيرة. أنا واثقة من أنني أعرف كل عائلة مدفونة في هذه المقبرة".

كان واضحًا أنها تعلم أنه يكذب، ومن نظرة تعبيرها الحائر، أدرك كورت أن لكنته لفتت انتباهها.

تردد. لقد كُشف أمره، ولا جدوى من التمادي في كذبة واضحة.

قال وهو يهز كتفيه:

– "كنت أعرف إيدي. كنت في المنطقة فقط. فكرت في المرور. آسف. علي اللحاق بحافلة. عن إذنك".

حاول المرور بجانبها مرة أخرى، ومرة أخرى، تحركت لتعترض مساره.

– "إيدي؟ هل أنت أمريكي؟" تحولت للحديث بالإنجليزية.

– "نعم".

ظلت حذرة؛ لم تبتسم أو تومئ. لكن ببطء مدت يدًا صغيرة، وصافحها كورت.

– "هل أنت زوجة إيدي؟"

– "اسمي إيلينا. نعم، كنت زوجة إيدي".

– "اسمي جو". اختلق الاسم من العدم.

تأمل المرأة للحظة. وسأل بأسف:

– "هل كان إيدي ينتظر طفلًا؟" جفل كورت حتى والكلمات تخرج من فمه.

– "نعم كان ينتظر طفلًا. صبي".

لم يقل شيئًا. اكتفى بالإيماء.

– "هل كنت مع إدواردو في البحرية؟"

– "لا".

– "آه، إدارة مكافحة المخدرات؟"

– "لا".

تجعدت الملامح الناعمة لوجهها ذي اللون الكراميلي وهي تفكر.

– "عرفته في كاليفورنيا أو ما شابه؟"

تردد. كان يكره إخبار الناس بالحقيقة. لم تكن طريقته في العمل. قرر البقاء غامضًا.

– "منذ زمن طويل، أنقذ زوجك حياتي، وخاطر بحياته ليفعل ذلك. هذا حقًا كل ما يمكنني قوله لك".

شعر بعينيها عليه لفترة طويلة. مرتين اختلس النظر إليها ووجدها تحدق في وجهه؛ وفي المرتين أدار رأسه عائدًا إلى القبر.

ابتسمت. وقالت:

– "لقد أنقذ حيوات كثيرة، أظن. هنا وفي الولايات المتحدة. كان رجلًا طيبًا".

– "أنا آسف حقًا..."

– "هل أنت هنا من أجل حفل التأبين؟"

– "حفل التأبين؟"

– "غدًا، في بويرتو فالارتا، سيكون هناك حفل تأبين للضباط الثمانية الذين ماتوا في الخليج. نتوقع حضورًا كبيرًا من السكان المحليين لتكريم تضحيتهم. هل ستكون هناك؟"

تردد جينتري.

– "أود ذلك. لكن علي العودة إلى الطريق السريع".

– "يا للأسف".

بدا على إيلينا أنها لا تصدقه، وهو ما يعني لـ كورت أنها تملك جهازًا جيدًا جدًا لكشف الكذب.

– "أحتاج لطلاء الصليب مرة أخرى".

صعدت التلة وركعت، مترنحة بسبب تغير مركز ثقلها. وبينما كانت تفتح علبة الطلاء، نظرت خلف كتفها، وابتسمت، وقدمت دعوة جديدة.

– "يجب أن تأتي معي للمنزل الآن. ستكون عائلة إدواردو بأكملها هناك، وبعض الأصدقاء، وأقارب ثلاثة من الرجال الآخرين الذين قُتلوا. الجميع في منزلنا الليلة لتناول العشاء؛ وفي الصباح سنذهب جميعًا معًا للتأبين. سيسعد والدا إيدي جدًا بلقاء صديق لـ إدواردو من الولايات المتحدة".

– "أتمنى لو أستطيع، لكن من الأفضل أن أعود إلى..."

– "لقد قطعت كل هذه المسافة. كنت أنت وإدواردو صديقين. ماذا سيظن بي وهو ينظر إليّ من السماء إذا لم آخذك للمنزل وأقدم لك وجبة تقديرًا لعنائك؟"

ركعت وبدأت العمل وكأن الأمر قد حُسم – غطت الكتابات السوداء بالطلاء الأبيض النقي.

أراد كورت الاعتراض أكثر، لكنه لم يستطع إنكار حاجته لشيء جيد ليأكله. فمع ما تبقى من نقوده، كان يملك بالكاد ما يكفي لشق طريقه عبر البلاد إلى تامبيكو وشراء بضع شطائر أو سندويشات "تاكو" من باعة الشوارع على الطريق. لن يجادل زوجة إيدي في هذا.

أشار إلى الكتابات المسيئة.

– "من فعل ذلك؟"

قالت:

– "Cabrones" (أوغاد). ثم نظرت لـ كورت بابتسامة اعتذار.

– "مجرد أناس من معجبي دانيال دي لا روشا".

سأل كورت، مذهولًا بعض الشيء:

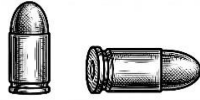
– "زعيم المخدرات لديه نادي معجبين؟"

– "أوه، يقولون إنه رجل أعمال شريف. يقولون إنه فعل الكثير من الخير لهذه المنطقة. يقولون إن زوجي تصرف دون إذن. لكن إدواردو كان يعرف كل شيء عن دي لا روشا؛ لم يكن ليلاحقه لو كان رجلًا طيبًا".

أنهت عملها. قطرت بضع بقع بيضاء ساطعة على التراب البني المفتت أسفل الشاهد.

– "سنحضر له شاهد قبر جميلًا. بمجرد أن تتوقف الكتابات. الأمر لا يستحق العناء الآن".

ثم وقفت. تركت كورت يأخذ علبة الطلاء والفرشاة، وبدآ السير نحو مخرج المقبرة.



لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

عام 2000

وجد الذباب والصراصير والجرذان طريقها إلى زنزانة القبو؛ تكفلت الرائحة الكريهة والمقززة للفضلات البشرية بجذبها. أصبح كورت أضعف يومًا بعد يوم: فقد عشرين باوندًا منذ المستشفى، وأصبح جلده الآن جافًا وخشنًا من نقص السوائل والفيتامينات. وباستثناء الرحلة اليومية لكوخ الاستجواب، لم يكن لديه أي نشاط بدني ولا ضوء طبيعي أو هواء نقي.

في نهاية الأسبوع الثاني، أخبر المحققون إيدي أنه سيُنقل هو وزميله السجين إلى معسكرات العمل في غضون ثلاثة أيام. طالب إيدي

مرة أخرى بغضب بنقل زميله للمستشفى أو على الأقل إعطائه دواءً للملاريا، لكن اللاوسيين لم يبدوا أي اهتمام على الإطلاق بمهرب مخدرات غربي شاب. استشاط إيدي غضبًا، وهاجم محققيه، ولم يُردع إلا بأخمصي بندقيتين كبيرتين من نوع "SKS" ضرُبا في قاعدة جمجمته. أُعيد، فاقدًا للوعي، إلى القبو مع ورم دموي ضخم في مؤخرة رأسه. ثم سُحب جينتري لـ "جلسته".

عندما أُخبر كورت عن الرحلة الوشيكة شمالًا لمعسكرات العمل، صدم محققيه.

– "حسنًا، لقد سئمت من هذا القرف. سأعطيكم أسماء جهات اتصالي في فيينتيان، وأرقام الحسابات المصرفية، وأخبركم من أين نأخذ الخشخاش وكيف ننقله عبر الميكونغ إلى تايلاند".

تحولت عينا الرجلين عن مباراة "مواي لاو" في التلفزيون لتنغرزا في الرجل الهزيل، الغارق في العرق، الجالس أمامهما.

أمر الرجل الأكبر رتبة:

– "نعم. إذن تتكلم الآن!"

– "لا. من الأفضل أن أكتب كل شيء. أسهل لكم لتفهموه".

أومأ الرجلان.

– "نعم".

– "لكنني أريد بعض الأشياء منكم".

– "ماذا تريد؟" خيم شك جديد ليطفئ تعبير الرضا على وجهي الرجلين.

– "صديقي مصاب. أريد رأسه مضمدًا. مضمدًا بعناية".

لوّح الرجل الأكبر بيده في الهواء.

– "لا مشكلة".

– "أريد بطانية دافئة وجافة. وأريد زجاجة من ذلك الماء الذي تشربونه". وأشار لإبريق بلاستيكي سعة لترين على الطاولة. أومأ المحققان مرة أخرى.

– "ماذا أيضًا؟"

– "أظن أن بعض الورق وشيئًا للكتابة سيكون جيدًا".

ضمّد الحراس رأس إيدي بينما كان كورت مستلقيًا بالقرب منه في الزنزانة ويوبخهم بصوته الواهن وإيماءاته الضعيفة، آمرًا إياهم باستخدام المزيد من الشاش والمزيد من الشريط اللاصق. في البداية حاول غامبل دفعهم بعيدًا، مصرًا على أن الورم برأسه لا يحتاج للتحنيط كي يشفى. لكن كورت كان مصرًا، وأخيرًا رضخ إيدي وترك كورت يتولى مسؤولية رعايته الطبية.

حصل كورت على دفتره وقلمه وبطانية صوف جديدة، وكتب ملاحظات طوال فترة ما بعد الظهيرة والمساء. أثناء الليل فتح الزجاجة وشرب معظم الماء النظيف بنفسه، ولم يمرر سوى الرشفات الأخيرة القليلة للرجل الذي أبقاه حيًا. أخذها إيدي وأنهاها بنهم، لكن فقط بعد أن أكد له كورت أنه أخذ كفايته.

عندما أُحضر الطعام اليومي في الصباح التالي، فاجأ كورت زميله.

– "سآخذ كل طعامك".

– "لا، سأعطيك النصف. حمل مؤخرتي المتعرقة فوق الدلو يحرق الكثير من السعرات يا صديقي".

سحب كورت كلا الطبقين القصديريين أمامه وهو يتحدث.

– "اسمع، أحتاج لطاقة إضافية اليوم".

– "لماذا؟ ماذا سيحدث؟"

– "إذا لم ينجح الأمر، أفضل ألا تعرف. قد يكون ذلك أفضل لك".

بدا إيدي قلقًا.

- "هيا يا (سالي). لستـ في حالة تسمح لك بمحاولة أي شيء. دعني أتحدث للحراس اليوم؛ إذا ظنوا أنك تتنازل عن بعض المعلومات وقدمت أنا بعض المعلومات المضللة، فربما يأتون بذلك الدواء الذي تحتاجه".

- "لا... الأمر لا يتعلق بحصولي على دواء. الأمر يتعلق بالخروج من هنا بحق الجحيم".

بدأ كورت الأكل من الطبقين. نظر غامبل إليه بجوع. وبين قضمات اللفت ورشفات مرق العظام، قال كورت:

- "أوه نعم، شيء آخر. أحتاج لكل ضماداتك".

ببطء، ودون أي فكرة عما يحدث بحق الجحيم، نزع إيدي غامبل الشاش والشريط اللاصق عن رأسه وناوله إياه.

قضى كورت النصف ساعة التالية مستلقيًا على جنبه تحت بطانيته، وظهره لزميله السجين. سأل إيدي مرارًا وتكرارًا عما سيحدث، لكن زميله في الزنزانة لم يجب.

جاء الحراس لاقتياد إيدي لاستجوابه. وبينما كانوا يغادرون، نادى كورت:

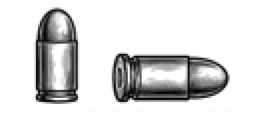
- "أخبرهم أنني أحتاج قلمًا آخر. نفد حبر هذا القلم. إذا أحضروه قبل أن أصعد، فستكون قائمتي جاهزة".

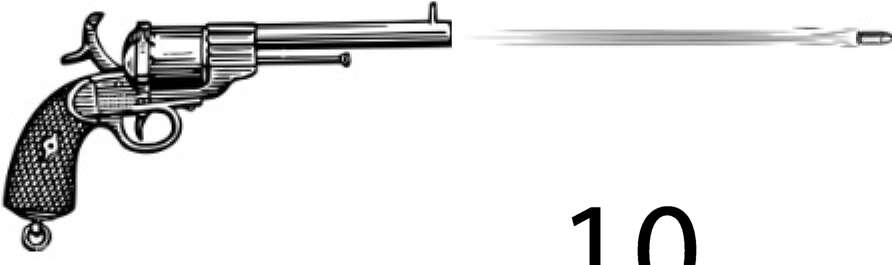
نظر إليه إيدي طويلًا قبل نقل الرسالة. كان واضحًا أنه يدرك أن شيئًا ما على وشك الحدوث، وكان قلقًا أكثر منه متحمسًا.

عندما انغلق الباب على إيدي والحارسين، استخدم كورت كل القوة التي منحتها إياه زجاجة الماء النظيف والوجبتان الكاملتان ليزحف نحو باب الزنزانة. أخرج القلم الذي أُعطي له في اليوم السابق، وكسره، ثم أزال أنبوب الحبر من المقبض البلاستيكي. مد يده عبر القضبان، وزلق رأس القلم داخل القفل، وتحسس المسننات بيد مرتعشة لكنها متمرسة. لقد عبث بالقفل لعدة أيام متتالية بينما كان

إيدي نائمًا، واستخدم قطعًا من القش لاستكشاف تجاويفه وكشف أسراره. مستخدمًا إحدى القطع البلاستيكية المكسورة كأداة شد، أدار الأسطوانة. لقد أنجز هذا العمل الفذ آلاف المرات حرفيًا في تدريبه ببرنامج تطوير الأصول المستقلة التابع لـ CIA في "هارفي بوينت"، بولاية كارولينا الشمالية، وكان هذا القفل في الواقع أسهل بكثير في التغلب عليه من معظم الأقفال التي تدرب عليها.

انفتح باب الزنزانة في ثوانٍ.





10

سار كورت برفقة إيلينا لما يقرب من ميل عبر شوارع سان بلاس؛ بدت المرأة الحامل مرتاحة تمامًا رغم الجهد المبذول، وإن غطى العرق بشرتها البنية الفاتحة. مروا بمطاعم على جانب الطريق، ومحطة الحافلات؛ وتنزهوا بجانب كلاب شاردة نائمة في ساحة البلدة، ودجاج ينقر بحثًا عن الحشرات في مكب نفايات. اتجهت إيلينا جنوبًا، ودخلت سوق خضار مفتوحًا واشترت بضعة أكياس من البطاطا الحلوة والمانجو. كان لدى كورت أسئلة لها؛ لم يستطع منع نفسه. عرف أنها من غوادالاخارا، والتقت بـ إيدي عندما كان عميلًا لإدارة مكافحة المخدرات يعمل هناك، وتزوجا قبل وقت قصير من عودته للهجرة إلى المكسيك للانضمام للشرطة الفيدرالية قبل خمس سنوات. اشتريا منزلًا في سان بلاس ليكونا بالقرب من عائلته، إذ لم يكن لديها أقارب مقربون.

غادر كورت وإيلينا السوق، وانعطفا في شارع ضيق وقذر يُدعى Calle de Canalizo. ورغم أنه غير معبد، إلا أنه كان محاطًا بعقارات متوسطة الحجم ذات بوابات، وبعد بضع دقائق من السير، دخلت إيلينا عبر بوابة مفتوحة. تبعها كورت في ممر قصير نحو منزل رمادي من طابقين مبني بالكتل الخرسانية ومحاط بنبات الجهنمية والكروم. منزل إيدي.

كانت الكلاب تركض وتلعب في الحديقة الأمامية وسط العديد من السكان المحليين؛ بينما تجول رجال ونساء شرطة يرتدون قمصان بولو صفراء وهراوات على أحزمتهم في الممر والساحة الأمامية.

كانت هناك شاحنة "فورد F-350 سوبر ديوتي" فضية ضخمة رابضة في الممر. كانت مزينة بنوافذ معتمة، ورف من الكشافات الضوئية، ورافعة كبيرة في المقدمة، والكروم يكسوها بالكامل، وملصق قديم للبحرية الأمريكية على النافذة الخلفية. شاحنة إيدي، لم يكن لدى كورت أدنى شك. تذكر حديث غامبل عن حبه لشاحنات "فورد" الضخمة، ورؤية المركبة الساكنة جعلت كورت يشعر بالحزن.

قادته إيلينا لداخل المسكن البسيط. في غرفة المعيشة الأمامية، كان هناك عشرات الأشخاص واقفين وجالسين، يتجاذبون أطراف الحديث بينما تصدح موسيقى الأكورديون الصاخبة من مسجل "بوم بوكس" على الأرض. وقف كورت خلف إيلينا وهي تحيي زوجين مسنين؛ ثم قدمتهما كوالدي زوجها، إرنستو ولوز. لم يكونا يتحدثان الإنجليزية، لذا قدم كورت نفسه بالإسبانية كصديق قديم لابنهما من الولايات المتحدة.

كانت لوز غامبوا في الستينيات من عمرها، قصيرة وممتلئة، بوجه عريض يظهر ابتسامة ودودة وحزنًا عميقًا في عينيها في آن واحد. كان زوجها أطول وأنحف، ربما أكبر بخمس سنوات، مع تجاعيد عميقة وداكنة تغطي وجهه. حياة كاملة قضاها على متن قارب صيد صغير في المحيط الهادئ مع الرياح والشمس تركت أدلة محفورة بالملح للسنوات والبحر على جلده. بدا مرتابًا قليلًا من الأمريكي الواقف في غرفة معيشة ابنه الميت، لكن الرجلين تصافحا ورحب إرنستو بـ "خوسيه" في سان بلاس.

ناولت إيلينا المنتجات التي اشترتها من السوق لفتى في السادسة عشرة، قدمته كابن أخ لـ إدواردو، واختفى الفتى باتجاه الجزء الخلفي

من المنزل المفروش ببساطة. ثم اصطحبت المرأة الحامل الأمريكي في جولة، وعرفته على عمات وأعمام إدواردو، وعدد آخر من أبناء وبنات الإخوة، وشقيقين، والعديد من الأصدقاء من المنطقة.

وضع سيزار غامبوا، أحد أعمام إيدي، زجاجة بيرة "باسيفيكو" باردة في يد كورت وتبادل المجاملات مع الأمريكي في الممر الخلفي للمنزل، بينما اختفت إيلينا لتحية المزيد من الضيوف. بينما كانا يتحدثان، نظر كورت حوله إلى الصور المعلقة في الممر. كانت الجدران مزينة بصور زفاف إيدي وإيلينا. تذكر كورت تلك الابتسامة العريضة من لاوس – حينها وجد أنه من المدهش أن الرجل استطاع الابتسام في وقت كهذا. كانت هناك أيضًا عدة صور لـ إيدي مع رجل أمريكي أشيب الشعر على قارب صيد. في إحدى الصور كانا يحملان معًا سمكة "مارلين" ضخمة. السمرة، ونظارات "راي بان"، والابتسامات تغطي وجوههما.

ثم مسح جينتري الصور المؤطرة لـ إيدي وهو أصغر سنًا بكثير مع فريق "SEAL" الخاص به. وقف الرجال بأسلحتهم. بدا إيدي شابًا ولائقًا بشكل لا يصدق، ورغم أن بقية الرجال معه كانوا أطول برأس من الأمريكي المكسيكي، بدا إيدي غامبل مرتاحًا و"مسيطرًا".

نقرت إيلينا على كتف كورت من الخلف. استدار كورت ليجد نفسه واقفًا أمام الرجل العجوز الذي رآه للتو في الصورة مع إيدي وسمكة المارلين. كان قصيرًا، في السبعين أو نحو ذلك، ويرتدي قبعة زرقاء للبحرية الأمريكية.

تبًا، فكر كورت. غرينغو.

تحدثت إيلينا بالإنجليزية:

– "خوسيه، أود أن أقدمك لأحد أصدقاء إيدي الأعزاء، القبطان تشاك".

قال الرجل العجوز وهما يتصافحان:

– "تشاك كولين، البحرية الأمريكية، متقاعد".

كانت قبضته طويلة وشرسة في محاولة واضحة للترهيب؛ وعيناه لا تشيان بأي ثقة. كان عجوزًا، لكنه كان رشيقًا ولائق بدنيًا، ومن المؤكد أنه يعتني بنفسه جيدًا بحق الجحيم.

تابعت إيلينا الحديث، ربما استشعرت انعدام الثقة المبدئي بين الرجلين:

– "كان خوسيه صديقًا لـ إدواردو".

تجعد وجه كولين الخشن المسمر في ابتسامة ممتعضة:

– "حسنًا، أي صديق لـ إيدي هو صديق لي".

لكن كورت أدرك أنه لم يكن يعني ذلك. نظر جينتري إلى مظهره الخاص، وعلم أنه يبدو أشبه بمرافق لفرقة "هيفي ميتال" من أن يحظى باحترام ضابط بحرية سابق سبعيني. مع الارتياب الواضح علي وجهه الآن، سأل كولين:

– "كيف عرفتَ إيدي بالضبط؟"

– "التقيتُ به عندما كان في إدارة مكافحة المخدرات".

سأل كولين بابتسامة وكأنها مزحة:

– "إذًا، هل أنت في مكافحة المخدرات، أم أنه اعتقلك ذات مرة؟"

لكن جينتري شعر بأن العجوز يعتبر "ذا الشعر الطويل" الواقف أمامه إنسانًا يستحق الارتياب. بدأ كولين في قول شيء آخر، بلا شك ملاحظة توبيخية أخرى. لكن إيلينا عادت وقاطعت المحادثة.

– "كدت أنسى. تعال يا جو. لدينا المزيد من الناس لتقابلهم. يمكنكما الحديث على العشاء".

كانت مسافة قصيرة عبر الممر الضيق إلى المطبخ. هنا كانت نصف دزينة من النساء من مختلف الأعمار يحضرن الوجبة؛ يستخدمن كل سطح مستوٍ ممكن في الغرفة الصغيرة لتقطيع الفواكه والخضروات، وتبريد البيرة بالثلج، وتحريك القدور الكبيرة من الحساء

والأرز، ودهن الخبز الطازج من الفرن بالزبدة. قُدمت اثنتان كعمات لـ إيدي، وأخرى كأخت زوجته.

عند الحوض، كانت امرأة ذات شعر أسود قصير تغسل البطاطا الحلوة؛ كانت ترتدي مئزرًا وظهرها لـ كورت وإيلينا، لكنها استدارت لتسأل زوجة إيدي سؤالًا.

انغرزت عينا كورت في عينيها، ووجد نفسه عاجزًا عن تحويل نظره. كانت جميلة، بشكل استثنائي، لكن ليس مثل إيلينا. كانت أصغر حجمًا، ببشرة بلون القهوة بالحليب، أغمق قليلًا من بشرة زوجة إيدي. عيناها البنيتان المتألقتان كانتا ضخمتين، نصف مخفيتين تحت غرة نفختها بعيدًا عن وجهها وهي تجفف يديها بالمنشفة. كانت تشبه الصبيان تقريبًا في بنيتها وحركاتها، وأظهر كتفاها لمحات من العضلات تحت بلوزتها البيضاء البسيطة ذات النقوش الزهرية المخيطة يدويًا.

قالت إيلينا:

– "هذا جو من لوس إيستادوس يونايدوس (الولايات المتحدة). جو، هذه..."

أكمل كورت الجملة:

– "أخت إيدي الصغيرة. لوريتا".

قالها بصوت خافت، بتبجيل. استطاع رؤية الكثير من صديقه القديم فيها. في سيل من الذكريات، عادت إليه الأسابيع في تلك الزنزانة اللاوسية الملطخة بالقاذورات. كان إيدي يتحدث عنها بلا توقف، وكان ندمه الوحيد بشأن الهروب إلى أمريكا هو ترك تلك الفتاة الصغيرة خلفه. كان يرسل معظم راتبه الضئيل كمجند إلى الوطن، ليعيل والديه وأخته عن بعد، لكن كان من الواضح بشكل مؤلم أنه شعر بأنه تخلى عن الطفلة بتركها خلفه هنا في سان بلاس.

أنهت لوريتا تجفيف يديها بقطعة قماش وتقدمت؛ صافحت كورت، وشعر بعينيها عليه. تمتم بشيء ما بالإسبانية عن كونه صديقًا قديمًا لأخيها. بدت كلماته غبية في أذنيه.

تحدثت إليه بالإنجليزية:

- "لا أحد يناديني لوريتا منذ وقت طويل. أنا لورا. تشرفت بلقائك".

قال كورت:

- "Igualmente" (وأنا كذلك). مشيرًا لها بإمكانية الاستمرار بلغتها الأم إذا رغبت.

سألت:

- "هل كنت مع إدواردو في البحرية؟"

لكن إيلينا تدخلت بسرعة:

- "لا يمكنه الحديث عن كيفية معرفته بـ إدواردو. نوع من المهام السرية، أعتقد".

وغمزت لـ كورت. كان هناك حزن في عينيها لكنه ممزوج بمرح تآمري أيضًا.

أومأ كورت، وقال:

- "كان ذلك منذ فترة. كان شابًا رائعًا".

أومأت لورا:

- "نعم".

نظر في عينيها ووجد نفسه يتراجع للخلف. واصل بالإسبانية من أجلها:

- "قضيت... الكثير من الوقت مع إيدي. تحدث عنك. كنت مجرد طفلة حينها، أظن".

تلعثم باحثًا عن شيء آخر لقوله، لكن لم يأتِ شيء أصيل.

- "لقد تحدث عنك".

ابتسمت في البداية، لكن في ثوانٍ ضاقت عيناها المستديرتان واحمر وجهها. وبدأت تبكي.

قالت بابتسامة محرجة:

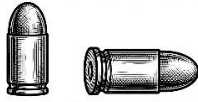
"Lo siento" –(أنا آسفة).

رفعت مئزرها ومسحت عينيها الدامعتين به، ثم غادرت الغرفة بسرعة.

تجاهلت إيلينا هذا العرض العاطفي؛ كانت قد تحركت بالفعل وبدأت العمل على البطاطا الحلوة في الحوض.

وقف كورت هناك بمفرده في وسط المطبخ، خائفًا الآن من قول كلمة لعينة أخرى.

تبًا لك يا جينتري.



لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

عام 2000

لعشر دقائق، استند كورت بظهره إلى الجدار المجاور لباب الدرج وزجاجة الماء في يده.

لقد ملأ الزجاجة البلاستيكية الفارغة بالزغب من البطانية الصوفية والشاش من رأس إيدي، ولف الجزء الخارجي بقطعة من البطانية مغطاة بالشريط الطبي الأبيض. هدد هذا المجهود بإدخاله في النوم لساعات. قاومه بكل قوته. كان قد بدأ يغفو للتو عندما سمع شخصًا ينزل السلم.

هب جينتري واقفاً. استنشق الهواء العفن الملوث برائحة فضلاته، مالئًا رئتيه بالأكسجين الذي يحتاجه ليمنحه دفعة من القوة للحظات القادمة.

انفتح الباب. دخل حارس يحمل قلمًا. توقف وهو يغلق الباب، ملاحظًا الآن أن السجين ليس في الزنزانة.

تحرك كورت جينتري من خلف الباب، واصطدم بالرجل بعناق الدب، وطرحه أرضًا بثقل جسده.

نهض كورت على ركبتيه. أمسك برأس الجندي المذهول بكلتا يديه، ورفعه، وضرب به الأرضية الحجرية. مرة، مرتين، ثلاثًا.

ظلت عينا الشاب مفتوحتين ومتجمدتين في الموت. سقط كورت فوقه. منهكًا تمامًا.

بعد ثوانٍ، مد قدمه الحافية ودفع الباب ليغلقه. استعاد عافيته أخيرًا بما يكفي لسحب المسدس الصيني من طراز "Type 77" من حزام اللاوسي. كان يطلق خرطوشة ضعيفة عيار 7.65 × 17، وكان جينتري ليكره الرهان بحياته عليه، إلا في الوضع الذي وجد نفسه فيه الآن. جاهد للعودة زاحفًا عبر الأرضية، مكافحًا موجة من الإسهال أرادت الخروج من أمعائه وهو يتحرك، وأخيرًا وصل للباب ولزجاجة مائه. حشر فوهة السلاح في عنق الجهاز البلاستيكي المحشو، وتأكد من تثبيته قدر الإمكان، وحاول النهوض على قدميه.

لا فائدة. لم يملك الطاقة ولا التوازن للوقوف.

سيتعين عليه القتال وهو مستلقٍ على ظهره.

ستعمل زجاجة الماء ككاتم صوت كافٍ للمسدس الصغير، على الأقل لطلقة أو اثنتين. سيكون دوي المسدس مكتومًا، لكنه لن يكون صامتًا بأي حال، فالكاتم لا يمكنه فعل شيء حيال الدوي الصوتي المصغر الناتج عن كسر الرصاصة لحاجز الصوت.

ومع ذلك، فإن هذا الكاتم المرتجل، تمامًا مثل أرقى كواتم الصوت العسكرية، صمم ليس لجعل السلاح صامتًا بل لجعله لا يبدو كصوت طلق ناري عند الإطلاق.

ناظرًا للجندي الميت بجانبه على الأرض، عدل كورت خطته التشغيلية مرة أخرى. كان قد خطط لسحب الرجل لداخل الزنزانة وتغطيته ببقايا البطانية لخداع الحراس العائدين مع إيدي. لكن العميل الأمريكي كان يعلم جيدًا أنه إذا لم يستطع حتى الوقوف بمفرده، فهو بالكاد يملك القوة لسحب الوزن الميت عبر الأرضية.

بدلًا من ذلك، استلقى على ظهره، على بعد خمسة أقدام من الباب، وانتظر.

غفا، واستيقظ فزعًا حين سمع مفتاحًا في قفل الباب أمامه. كان يود لو دخل إيدي والحراس الغرفة وأغلقوا الباب خلفهم حتى لا يُسمع طلق النار المكتوم في الأعلى. لكن مع الجثة الملقاة على بعد بضعة أقدام من الباب، علم أن ذلك غير ممكن. لذا بمجرد أن أُدير المفتاح وفُتح المزلاج، جلس جينتري، متمنيًا بشدة أن يكون هناك حارس أو اثنان فقط مع إيدي.

لكن كان هناك خمسة رجال ينزلون الدرج الضيق في طابور واحد. كانوا جميعًا مبللين من العاصفة الرعدية بالأعلى، ومتراصين بإحكام، لا يفصل الواحد عن الآخر أكثر من خطوتين؛ وكان إيدي غامبل الثالث في الطابور. كان الحارس الأول لا يزال يده على مزلاج الباب عندما دخل. أمسك جينتري المسدس بيده اليمنى وثبّت الكاتم منزلي الصنع بإحكام على الفوهة بيده اليسرى. وقبل أن يتمكن الجندي الأول من رد الفعل، وجه كورت زجاجة الماء نحو وجه الرجل وأطلق طلقة واحدة. انفجرت نهاية الزجاجة بفرقعة عالية لكن يمكن السيطرة عليها، وارتد رأس الجندي للخلف. سقط للخلف على الأرض ويداه ترتفعان لوجهه الملطخ بالدماء.

لم يتردد كورت. رفع المسدس والكاتم الذي يتصاعد منه الدخان للأعلى وأطلق النار على الرجل أمام إيدي مباشرة. لم يكن اللاوسي قد بدأ حتى في التحرك نحو سلاحه قبل أن يتلقى رصاصة صغيرة في العين اليمنى، وسقط ميتًا على الفور.

اشتعل الصوف في كاتم صوت كورت وتصاعد منه الدخان الآن، وكان الدوي الثاني ضعف الأول. رفعه باتجاه إيدي غامبل، الذي بحكمة سقط على ركبتيه عند الدرجة السفلية للسلم. أطلق كورت النار على الرجل خلفه في الحلق تمامًا بينما كان مسدس الجندي يرتفع لمواجهة التهديد المفاجئ في القبو.

هذه المرة، تحطمت زجاجة الماء المشتعلة تمامًا، مرسلة شظية بلاستيكية حادة في إبهام كورت الأيسر. كان الطلق مكتومًا، بلا شك، لكن أعلي صوتًا بكثير من الطلقتين الأوليين. أصبح السلاح الآن عديم الفائدة كأداة سرية. ألقى كورت الزجاجة جانبًا ووجه المسدس نحو الحارس المتبقي.

لم يمد الجندي الأخير في الطابور يده لسلاحه؛ بل استدار ليركض عائدًا أعلى الدرج. استدار إيدي غامبل، وتسلق فوق اللاوسي المتخبط ووريده الوداجي يتدفق دمًا، وأمسك بالرجل الهارب من كاحله. صرخ الجندي وهو يسقط، وارتطم وجهه أولًا، ثم تدحرج عائدًا لأسفل، ساحبًا رفيقه الجريح وسجينه معه أثناء سقوطه. تدحرجت الأجساد الأربعة أسفل الدرج واصطدمت بـ جينتري عند قاعدة السلم، لتتجمع فوق الجندي الأول الذي قُتل، ستة رجال في كرة من الأذرع والسيقان المتشابكة. غطى الدم المتدفق من جرح حلق الضابط المحتضر الجميع وكل شيء بتيار قرمزي سميك وحار.

انتهى المطاف بـ كورت على ظهره، وسقط المسدس من يده، ومنعه ضعفه من المشاركة في القتال الدائر فوقه. كان إيدي والحارس الرابع يرفسان ويلكمان ويعضان ويخربشان بعضهما البعض بينما

استلقى جينتري هناك فقط، ذراعاه ممدودتان على وسعهما. تدحرجت المعركة بعيدًا عنه، تاركة الرجل ذا جرح الحلق، الميت الآن من فقدان الدم، ملقى عبر قدميه. حجم غامبل وقوته وتدريبه منحه في النهاية الأفضلية ضد الجندي. وأخيرًا، بعد صراع وحشي دام ثلاثين ثانية، سدد إيدي لكمة قاصمة نظيفة لوجه الحارس، أفقدته الوعي تمامًا.

تدحرج إيدي عن اللاوسي يلهث من الإنهاك لكنه سرعان ما تعافى وزحف نحو جينتري. كانت عينا إيدي متسعتين من الصدمة. وبين لهاثه وأزيز صدره قال:

– "انهض يا أخي! علينا الخروج من هنا!"

لم يكن كورت ليذهب لأي مكان بقوته الذاتية. هز رأسه فقط وأصدر الأوامر.

– "اسمع جيدًا. خذ سلاحًا من أحد هؤلاء الحراس. ارتدِ معطف مطر واخرج من الباب الأمامي وكأنك تملك المكان. اذهب لمرآب السيارات يسار كوخ الاستجواب. ستحتاج لاختيار سيارة يمكنك تشغيلها بأسلاكها. انطلق!"

رد غامبل:

– "ليس بدونك يا صديقي".

وسحب مسدسًا من أحد الحراس القتلى ثم رفع كورت وحمله على ظهره.

– "استسلم للأمر! لا يمكنك إخراجي من هنا!"

لكن غامبل تجاهل التعليق. وبينما كان يعاني في طريقه ببطء صعودًا عبر الدرج، ساحبًا نفسه للأعلى بكلتا يديه على الدرابزين الخشبي، مصارعًا الوزن الميت للرجل الضعيف والمريض فوقه، خارت ركبتاه أكثر من مرة. لكنه وصل لأعلى الدرج، خارجًا للكوخ ذي الغرفة الواحدة، ووجده فارغًا. أنزل كورت للأرض ثم التقط معطفين أخضرين كانا معلقين على أوتاد بجوار الباب. ألبس جينتري واحدًا

وأخذ واحدًا لنفسه. كافح كورت للوقوف على قدميه بمفرده، مستعينًا بالمكتب لمساعدة نفسه على التسلق. أنزل الرجلان غطاء الرأس فوق وجهيهما وخرجا معًا، وجينتري يستند على صديقه.

كان مطر الصباح المتأخر ينهمر في صفائح أفقية تقريبًا، حاجبًا الرؤية عن أبراج الحراسة وشرفات الأكواخ الأخرى حول المجمع المشبع بالماء. تعثر كورت، فأمسك به إيدي بقوة أكبر، وسارا مباشرة عبر خمسين ياردة من الممرات نحو مرآب السيارات. مروا بالقرب من مستودع صغير بما يكفي لرؤية مجموعة من أربعة جنود بالداخل، ينظرون إليهم في المطر. لم يلاحقهم الرجال، لكنهم لم يصرفوا نظرهم أيضًا.

في المرآب وجد الرجلان دزينة من سيارات الجيب، والسيارات، والشاحنات الصغيرة، والشاحنات المسطحة. أنزل إيدي جينتري في المقعد الخلفي لسيارة سيدان صينية صغيرة، ثم قفز في المقدمة وانخفض أسفل عمود التوجيه.

كافح كورت لرفع نفسه ليرى من النافذة. سمع أصوات رجل مكافحة المخدرات وهو يكسر عمود التوجيه البلاستيكي، ويلعن بالإسبانية وهو يصارع لتشغيل المركبة بأسلاكها بأيدٍ مبللة تمامًا، وإضاءة ضعيفة، والتهديد المستمر بالموت الوشيك.

رآهم جينتري عبر المطر المنساب على الزجاج الخلفي. جنديان يقتربان من خط السياج، بنادقهما ذات الأخمص الخشبي تتدلى من أكتافهما، وأغطية معاطفهما تحجب وجوههما مثل "حاصد الأرواح". كانا يسيران مباشرة نحو إيدي وكورت.

قال كورت:

– "هاي! (إيدي السريع)؟ ستكون (إيدي الميت) خلال حوالي خمس عشرة ثانية إن لم تجعل هذا الشيء يتحرك".

– "لم أسرق واحدة من هذه من قبل. لا ينبغي أن يستغرق الأمر أطول من ذلك".

– "دبر أمرها! لدينا ضيوف قادمون!"

– "حسنًا! علي فقط أن..."

دار المحرك. نظر كورت ليرى إيدي يرسم علامة الصليب على نفسه، ثم يقبل أطراف أصابعه ويلمس بها لوحة القيادة للسيارة الصغيرة. وضع ناقل الحركة في وضع القيادة، ونظر للخلف لـ جينتري، وقال:

–"Vamanos"

تدحرجت السيدان الصينية للأمام فوق الحصى ومياه الأمطار. انعطف إيدي نحو البوابة الرئيسية للمجمع، باذلًا قصارى جهده للقيادة ببطء وبشكل طبيعي. نظر كورت من النافذة الخلفية مرة أخرى. كان الجنديان قد أنزلا بنادقهما. بدا عليهما الارتباك للحظة فقط. ثم رفع كلا الرجلين أسلحتهما نحو السيدان المغادرة.

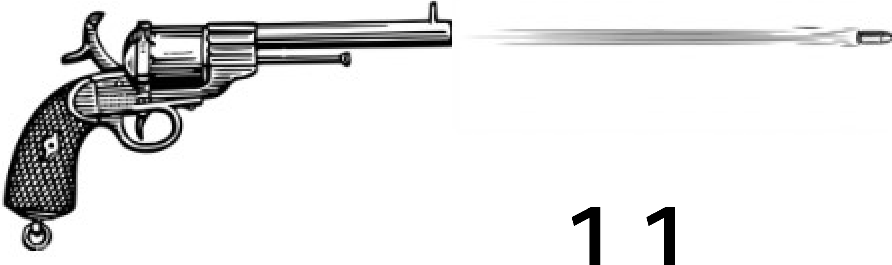
صرخ كورت:

– "تحرك!"

تحطم الزجاج الخلفي، وتناثر الزجاج في المقعد الخلفي، وضغط إيدي غامبل على دواسة الوقود.

انطلقوا بسرعة عبر المطر؛ أخبرتهم فرقعات البنادق من الأعلى أنهم أسفل برجي الحراسة التوأمين داخل مدخل المجمع مباشرة. صرخ إيدي لراكبه ليتمسك، وحطمت السيارة الصغيرة ذات الأبواب الأربعة البوابة الخشبية والسلكية، في اللحظة التي أطاحت فيها المزيد من الطلقات ببقية الزجاج الخلفي. أدى منعطف حاد لليسار إلى انزلاق السيارة على الطريق الممهّد، لكن غامبل انعطف مع الانزلاق وعدّل مسار المركبة تمامًا عندما وصلت إطاراها الأيمنان إلى حافة الأسفلت.

تركت السيدان التي بها الهاربان الأمريكيان السجن خلفها.



11

بينما كان الشفق يخيم على ساحل المكسيك المطل على المحيط الهادئ، قُدم العشاء على عدة طاولات نزهة مصطفة ـ في الفناء الخلفي الكبير لمنزل إيدي. وعلى الممر الخلفي، استقر قارب قديم من طراز "بوسطن ويلر" بطول ثلاثة وعشرين قدمًا ومكشوف السطح على كتل خشبية. واستندت إلى الجدار قرب البوابة الخلفية دراجتان هوائيتان؛ بينما تدلت صنارات الصيد من خطافات بجوار المرآب الصغير. كانت هذه أشياء إيدي، وشعر جينتري بالغرابة للجلوس هنا بينها دون صديقه القديم. ـ في لاوس، لم يمتلك إيدي سوى طاقم بيجامة أزرق فاتح قذر، تمامًا مثل كورت. لا شيء آخر. أما الآن وقد أصبح كورت ـ في عالم إيدي، فقد رأى ما كان إيدي يستمتع بفعله، ومن كان إيدي يحبهم، ولم يستطع جينتري منع نفسه من الشعور بأنه يتطفل على عالم إيدي.

أحصى كورت اثنين وثلاثين شخصًا على الطاولات، بمن فيهم عائلة غامبوا، وعائلات عدد قليل من ضباط الـ "GOPES" القتلى الآخرين، وأصدقاء محليين، وعدة أفراد قُدّموا له كمسؤولين عن النصب التذكاري ـ في بويرتو فالارتا. نما عدد رجال الشرطة المحليين غير المسلحين، الذين رآهم سابقًا يراقبون التجمع، ليصبح قوة من ثمانية أفراد يتجولون ـ في الممر، وفي الشارع أمام المنزل، وحتى يقومون بدوريات ـ في الحديقة حول طاولات العشاء. لم يعرف سبب

وجودهم، وما إذا كانوا يعتقدون بإمكانية حدوث نوع من المتاعب، أو حتى ما سيفعلونه حيال ذلك إذا ظهرت المتاعب.

لم يكن كورت جينتري يعرف أي متاعب حقيقية يمكن إخمادها بصفارة وعصا.

تجولت ثلاثة ديوك بنية اللون في الحديقة أيضًا؛ وبدت دورياتها مشابهة بشكل غريب لدوريات رجال الشرطة العزل. تمدد قطيع صغير من الكلاب المهجنة مختلفة الأحجام بالقرب من رواد العشاء، تتوسل للحصول على بقايا الطعام. شعر كورت بارتباط بدوافعهم البدائية. فهو، بشكل أو بآخر، يفعل الشيء نفسه هنا.

جلس القبطان تشاك كولين على رأس صف الطاولات غير الرسمية، وظهره للمطبخ وشواية فحم كبيرة بجانب الجزء الخلفي من المنزل فوق كتفه الأيمن. كانت سحالي سوداء طويلة تركض صعودًا وهبوطًا على الجدار الجصي الأبيض خلف رأسه.

وُضع كورت في الطرف المقابل، مواجهًا لـ كولين؛ الذي حدق فيه العجوز بصمت لفترات طويلة. على يمين جينتري كانت إيلينا وأهل زوجها، وبذل قصارى جهده للبقاء خارج محادثتهم. بدلاً من ذلك، انهمك في تناول سمك "مارلين" مشوي ممتاز، وسلطة طازجة وخضروات أكثر مما تناوله في أي وقت مضى في حياته دفعة واحدة، وشرب بيرة باردة لدرجة أن الزجاجات كانت تلسع أطراف أصابعه.

تخيل كورت أن العديد من وجبات العشاء مثل هذه قد أقيمت هنا، في هذا المكان نفسه، مع جلوس إيدي غامبل في الكرسي الذي يشغله كولين الآن.

لاحظ كورت العجوز الأمريكي يحدق فيه بتركيز مرة أخرى، عبر طول الطاولات، وفوق اثنين وثلاثين طبقًا كبيرًا من الطعام. بذل كورت قصارى جهده لتجاهله. وبدلًا من ذلك، وجد جينتري نفسه يحدق في شخص آخر.

في لورا.

كانت في منتصف الطاولة على يمينه، تجلس بين عمتيها وتركض باستمرار إلى المطبخ لجلب المزيد من الأطباق والأوعية والزجاجات والمقالي المليئة بالطعام والشراب.

نظرت باتجاهه مرة، وربما مرتين. من المؤكد أنها ضبطته يحدق فيها. تمنى ألا يبدو في نظرها كما يبدو كولين بالنسبة له، يراقب كل ما يفعله بشكل مفضوح.

لم يكن هذا احتفالًا. كانت المحادثات خافتة وهادئة؛ كان الحضور حزينين وغاضبين. وظف كورت تدريبه في قراءة الناس وهو يمسح الطاولة ببصره ذهابًا وإيابًا، محاولًا تمييز ما يدور بالضبط في رأس كل شخص.

كان بارعًا في هذا. كان بارعًا لدرجة محزنة، مستشفًا البؤس والغضب الفردي لثلاثين شخصًا، معظمهم فقدوا للتو شخصًا مهمًا بالنسبة لهم. شخصًا قويًا وشجاعًا. شخصًا أفضل من البقية.

نظر كورت إلى طبقه، وغرف شوكة من شرائح الموز المقلي. أخبر نفسه أنه سيشرب بيرة أخرى ثم ينطلق.



لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

أغسطس 2000

سأل إيدي من المقعد الأمامي:

– "هل أنت مصاب؟"

فحص كورت جسده بحثًا عن ثقوب دامية. وعندما لم يجد شيئًا، أجاب:

– "أنا بخير".

ثم سحب نفسه للأعلى في المقعد لينظر من بقايا النافذة الخلفية.

– "سيكونون خلفنا بمسافة قريبة، لكن هذا الطقس سيساعدنا. سيبقي المروحيات بعيدة عن الجو".

لكن عقل غامبل كان مشغولًا بشيء آخر.

– "أرجوك أخبرني أن لديك تصريحًا (Sanction) لقتل هؤلاء الحراس؟ لا أريد الهرب من هنا فقط لأذهب مباشرة إلى سجن ليفنوورث[3]".

– "لدي تصريح".

– "إذًا يمكنك ببساطة تصفية من تشاء، دون طرح أسئلة؟" لم يصدق ذلك.

– "ابقَ في جانبي الجيد، ولن تكتشف ذلك". تمتم جينتري وهو يتكئ بظهره على المقعد؛ كان متعبًا وضعيفًا لدرجة أنه شعر بالغثيان، وكان حتى مجرد الحفاظ على وضعية الجلوس أمرًا شاقًا للغاية. لقد استنفد 110 بالمائة من كل طاقته في الهروب، حتى مع حمل غامبل له لجزء من الطريق.

لم يعد مفيدًا لأحد الآن.

– "بجدية. قل لي إننا بخير".

– "نحن بخير. أنت لم تقتل أحدًا".

– "أقسم أنني أود بشدة معرفة من تعمل لصالحه. أعني، لقد عملت مع الـ CIA، وهم لا يبدون ولا يتصرفون مثلك".

– "أعتقد أنك بحاجة للتركيز على الطريق يا إيدي. الجيش اللاوسي سيقيم حواجز طرق بأسرع ما يمكن".

---

[3] **سجن ليفنوورث** هو منشأة عسكرية أمريكية للجرائم الخطيرة، وأي فرد عسكري، بغض النظر عن تخصصه، يمكن أن يُسجن هناك إذا أدين بارتكاب جريمة قتل.

تنهد رجل مكافحة المخدرات بإحباط لكنه فعل ما قيل له. لم يمر أكثر من خمس دقائق حتى انتهى الطريق عند تقاطع على شكل حرف T. انعطف غامبل يميناً، قاصداً نهر الميكونغ.

كان كورت قد غفا، لكنه استيقظ عندما توقفت السيارة في الطريق وبدأت في الرجوع للخلف. بعد بضع ثوانٍ، استداروا عائدين.

– "ما الأمر؟"

أجاب إيدي بنبرة خطيرة:

– "حاجز طريق. عسكري. على بعد ربع ميل. أربع مركبات. خمسة عشر جنديًا مترجلًا على الأقل".

نظر كورت من النافذة ولاحظ أن المطر قد توقف.

– "حسنًا. جد مكانًا للتخلص من السيارة. عليك المتابعة برًا. لا يمكن أن تكون المسافة بعيدة جدًا. يمكنك الوصول للنهر إذا اتجهت جنوبًا. جد شخصًا لديه قارب، اغرس مسدسك في وجهه، واطلب بأدب توصيلة عبر النهر إلى تايلاند".

ساد الصمت في السيارة لعدة ثوانٍ. قال كورت:

– "ستذهب وحدك".

كان من الواضح أن غامبل كان قلقًا بشأن الشيء نفسه.

– "اسمع يا (سالي)، ربما يمكننا..."

– "لا. أنا لا أستطيع المشي، وأنت لا تستطيع حملي. لن أذهب لأي مكان".

بدا إيدي وكأنه يصارع نفسه بشدة، لكن من الواضح أن كورت كان محقًا. أخيرًا، أومأ إيدي.

– "سأجد مخبأً لك. سأغطيك وأحدد المكان بطريقة ما. سأذهب لطلب المساعدة، وأعود، وآخذك بأسرع ما يمكن".

أدرك كورت أن إيدي لم يصدق أن جينتري سينجو الليلة في العراء.

– "اعبر النهر إلى تايلاند. أخبر جماعتك أين تركتني. جماعتي سيأتون ويأخذونني".

حاول جينتري أن يبدو مقنعًا، لكنها كانت كذبة. لن يأتي أحد لأجله. كان يعرف ذلك، وبالتأكيد، لا بد أن إيدي قد شك في ذلك.



بعد عشرين دقيقة، غاص سقف السيدان الصينية تحت سطح بركة ماء. خرجت فقاعات الهواء من السيارة بصوت قرقرة، وسرعان ما هدأت المياه وعادت أوراق زنابق الماء لتغطي الفجوة التي أحدثها دخول المركبة بالقرب من الضفة. استلقى كورت جينتري بالجوار على ظهره، على بعد خمسة وعشرين قدمًا من حافة الماء وخمسين قدمًا أسفل منحدر حاد من الطريق، وجسده محمي بالعشب الطويل.

غطاه إيدي بأوراق الموز وأحاطه بجدار صغير مرتجل من الحجارة والأغصان. على بعد بضعة أقدام فقط، كان ممر مشاة صغير يمتد جنوبًا مرورًا بالبركة، باتجاه نهر الميكونغ.

كان جينتري غير مرئي من الطريق بالأعلى، لكن إذا غامر أي شخص بالنزول من التلة، فمن المحتمل أن يلاحظ الشذوذ بحجم رجل وسط العشب.

ركع إيدي بجوار جينتري؛ وبالكاد استطاعا رؤية بعضهما البعض عبر أوراق الشجر.

قال كورت بضعف:

– "ستكون هناك ذخائر غير منفجرة (UXO) بالخارج". كان إيدي يعرف أن الـ UXO تعني ذخائر لم تنفجر. "لقد ألقينا قنابل على هذا البلد أثناء فيتنام أكثر مما ألقيناه على ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. الكثير من تلك القنابل لم ينفجر؛ إنها فقط هناك في الغابة،

تنتظر شخصًا يمر ويركلها. لا تحاول الخروج عن المسار المطروق هنا".

نظر إيدي أسفل الممر.

– "نصيحة جيدة. كنت أعلم أنني أحضرتك لسبب وجيه". تحولت نبرة غامبل للجدية. "لن يكون لديك طعام، لكن الماء (H_2O) لن يكون مشكلة. فقط أبق فمك مفتوحًا ودع المطر يقطر من أوراق الموز".

– "حسنًا".

– "سأحرص على أن يعود أحدهم لأجلك، أقسم بذلك".

– "بالتأكيد. شكرًا على كل شيء. يومًا ما ستكون زوجة رائعة لشخص ما".

ضحك إيدي. وتردد. كان من الواضح أنه ممزق بشأن ترك رفيقه السابق في الزنزانة خلفه.

– "سأراك خلال يومين، كحد أقصى. ستكون في مستشفى في بانكوك تغازل ممرضات جميلات، وسأتوقف لإحضار شيء لك. أي طلبات؟"

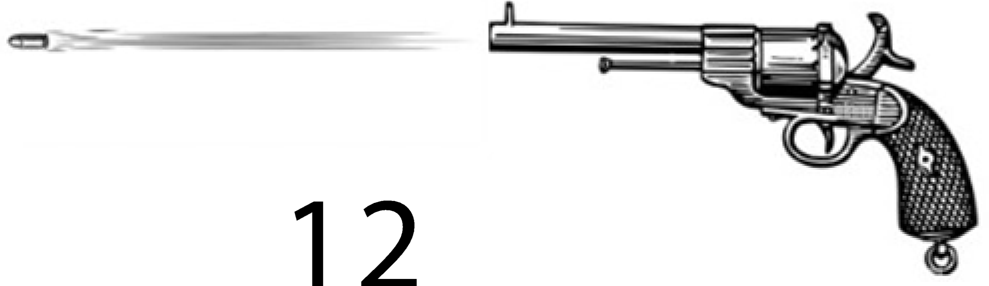
ابتسم كورت. سيجاريه في هذا الخيال إذا كان ذلك سيساعد إيدي على إنقاذ نفسه.

– "جعة الجذور (Root beer) ستكون رائعة".

– "لك ذلك". ربت إيدي على جبهة كورت عبر الأوراق. "أراك قريبًا يا صاح".

وقف وبدأ يمشي نحو الممر باتجاه الجنوب.





12

نظر كورت إلى ساعته، فإذ بها قد تجاوزت التاسعة مساءً. كان بعض ضيوف العشاء قد انصرفوا بالفعل، بينما جلس آخرون في جماعات متفرقة في الحديقة الخلفية، وعلى ممر السيارات بجوار القارب، وفي أنحاء الطابق السفلي من المنزل. أما رجال الشرطة المحليون، فكانوا يذرعون المكان ذهابًا وإيابًا عند أطراف الحفل. كانت لورا وإيلينا قد قدمتا لكل شرطي طبقًا وافرًا من العشاء وكوبًا بلاستيكيًا كبيرًا من شراب الـ «هورشاتا» المثلج؛ ذلك المشروب بنكهة القرفة والفانيليا والمصنوع من الأرز المغلي وبذور السمسم. كان رجال الشرطة يتناولون طعامهم وقوفًا، حريصين على إبقاء أعينهم شاخصة نحو البوابة المؤدية إلى الشارع.

رشف كورت رشفة أخرى من زجاجة جعة «باسيفيكو» الرابعة التي تصبب منها العرق البارد، وبدأ يتساءل أين سيقضي ليلته. لا بد أن حافلات «سان بلاس» قد توقفت عن العمل في مثل هذه الساعة، ولا أملك مالاً أبدده على الفنادق. فكر أنه قد يجد مقعدًا في الحديقة المركزية الصغيرة التي تبعد بضعة شوارع إلى الشمال، ثم يستقل أول حافلة صباحية عائدًا إلى «بورتو فالارتا».

كان هناك خيار آخر؛ فقد علم من الآخرين أن الكابتن كولين، ضابط البحرية الأمريكي المتقاعد، يعيش في «بورتو فالارتا». فكر كورت في سؤاله أن يقلّه معه، لكن الفكرة لم تدم طويلاً. إن قضاء

تسعين دقيقة في سيارة مع ذلك العجوز المتصلب يعني خضوعي لتدقيق لا يرغب فيه طريد دولي مثلي.

شعر جينتري بالرضا حين لاحظ أن بقية الحشد قد نسوا أمره؛ كان يجلس وحيدًا عند طاولة نزهة صغيرة بالقرب من الجدار الخلفي للمجمع، بعيدًا عن صفوف المصابيح المتدلية فوق الحديقة والمشاعل المشتعلة المغروسة في الأرض هنا وهناك، وبعيدًا عن الأحاديث التي كانت تدور من حوله. رمق البوابة الخلفية بنظرة؛ كانت مغلقة لكنها لم تكن موصدة، وكان الظلام خلفها يناديه.

سينسل الآن دون أن يلحظه أحد؛ فقد جاء ليقدم واجب العزاء، وقد فعل. حان وقت الاختفاء الآن.

هذا هو الإجراء المعتاد لـ «الرجل الرمادي».

أنهى كورت زجاجته، ثم نهض ببطء.

– "ما بالي أجد نفسي مدفوعًا بالفضول تجاهك؟"

التفت كورت ليجد كولين يقف على بعد عشر أقدام خلفه، ممسكًا بزجاجة «تيكيلا» في يد، وبضع كؤوس بلاستيكية صغيرة فوق فوهتها، وفي يده الأخرى ثمرتان من الليمون الأخضر اللامع.

– "لا أدري."

أجابه كولين دون أن ينتظر ردًا، وجلس على طاولة النزهة الصغيرة مقابل كورت، ووضع الزجاجة أمامه:

– "هل تشاركني شرابًا؟"

أخرج كولين سكينًا صغيراً من جيب سرواله العسكري القصير، وقطع لكل منهما فصًا من الليمون.

تردد كورت قائلاً:

– "يجب أن أرحل."

– "إلى أين أنت ذاهب يا بطل؟"

– "آه... سأعود إلى بورتو فالارتا..."

– "ليس الليلة، إلا إذا أردت إنفاق مائة دولار على سيارة أجرة. لقد قالت إيلينا إنك وصلت بالحافلة."

– "حسنًا... سأجد فندقًا هنا."

– "يمكنني أن أقلك معي إلى هناك."

عاد كورت وجلس مكانه. صب كولين سائلًا شفافًا كثيفًا في كأسين صغيرين، وناول أحدهما لـ جينتري. رشف كورت الـ «تيكيلا»، وعض على فص الليمون، ثم غيّر الموضوع ليبعد الدفة عن نفسه:

– "كيف عرفت إيدي؟"

اتكأ كولين إلى الخلف وابتسم، ثم خلع قبعته التي تحمل شعار المدمرة «يو إس إس بوكانان» ورفعها للأعلى. لمع شعره الفضي تحت ضوء المشاعل المشتعلة في الحديقة.

سأله كورت:

– "هل التقيته على سفينتك بالقوات البحرية؟"

هز الكابتن رأسه نفياً:

– "كلا، كلا. لم أعرفه قط في البحرية. التقيته في بورتو فالارتا قبل نحو أربع سنوات. كنت أركض على الشاطئ كل صباح، أو هكذا كنت أفعل. أما الآن فقد أصبح الأمر مجرد مشي سريع، لكنه أسرع من مشي معظم العجائز الأجانب المترهلين هنا. المهم، في أحد الصباحات، وبعد انتهائي من الركض، اقترب مني رجل مكسيكي صلب الملامح على الممشى الخشبي. ظننت في البداية أنه يطمع في محفظتي، لكنه أشار إلى قبعتي، وسألني عن خدمتي العسكرية. بدأنا الحديث، وقال إنه كان في البحرية أيضًا. فكرت بالطبع أنها البحرية المكسيكية، ولكن حين علمت أنه كان عضوًا سابقاً في قوات النخبة «SEALs»، كدت أصعق من المفاجأة."

تابع قائلاً:

– "أصبحنا أنا وإيدي صديقين. كنا نذهب للصيد على قاربي كلما كان في بورتو فالارتا. لقد جلست هنا، على هذه الطاولة تحديدًا، في ليالٍ كثيرة. كان إيدي يجلس حيث تجلس أنت الآن."

تنهد كولين قليلاً. كان كبيرًا بما يكفي ليختبر الكثير من الفقد في حياته، ومع ذلك، استطاع كورت أن يلمس مدى الجرح الذي خلفه موت صديقه الشاب في نفسه.

– "قضيت ساعات طوال وأنا أتعرف على ذلك الشاب النبيل."

– "نعم يا سيدي."

أعاد كولين قبعته فوق رأسه وانحنى للأمام:

– "عليّ أن أخبرك، غريب يظهر في منزله فور مقتله... كيف يبدو لك هذا الأمر؟"

هز جينتري كتفيه:

– "أنا مجرد رجل جاء ليودعه. لو كان الأمر بيدي، لما كنت هنا الآن."

أومأ كولين برأسه، ورشف الـ «تيكيلا» بتفكر، ثم نظر خلف كتفه نحو المنزل المكتظ بالناس:

– "ستكون الأيام القادمة قاسية عليهم. إيدي يُعتبر وغدًا في نظر الكثيرين هنا. الصحافة تصوره كأنه مجرد «سيكاريو» آخر."

– "سيكاريو؟"

– "قاتل مأجور. الرأي السائد هو أنه ورجاله كانوا يعملون لصالح كارتل[4] منافس لـ «دي لا روشا». بعد مقتله، جاءت الشرطة الفيدرالية وشرطة ولاية نايريت إلى هنا، وفتشوا كل مقتنياته الشخصية، وصادروا حاسوبه وأسلحته، حتى راتبه التقاعدي تم إيقافه بانتظار

[4] كارتلات المخدرات في أمريكا الجنوبية هي منظمات إجرامية نشأت خلال النصف الثاني من القرن العشرين للسيطرة على زراعة وتصنيع وتهريب المخدرات، خصوصًا الكوكايين، عبر شبكات عنف وفساد عابرة للحدود. ازدهرت في دول مثل كولومبيا وبيرو وبوليفيا، وبلغ نفوذها ذروته في الثمانينيات مع كارتلات ميديلين وكالي، قبل أن تتفكك أو تتحول إلى شبكات أصغر وأكثر سرية.

التحقيق. هراء محض؛ لقد مات وهو ينفذ الأوامر لحماية الناس هنا، لكنهم يروه مجرد شرطي فيدرالي فاسد آخر."

– "لماذا يظنون ذلك؟ أنا لا أفهم شيئًا مما يحدث هنا."

– "لا يهم يا بطل. ستغادر غدًا، ولا جدوى من تعلم تعقيدات الحكمة المحلية السائدة."

أدرك جينتري أن العجوز كان يوبخه، ويعامله كأنه مجرد متشرد عابر، وهو ما أثار حنقه. كان كورت مستعدًا للموت من أجل إيدي غامبل، لو كان هناك إيدي غامبل لا يزال حيًا ليموت لأجله.

– "أخبرني."

– "لماذا؟"

– "لأن الأمر يهمني. ولأنني أظن أن لديك بعض الآراء حول هذه المسألة."

مد كورت يده إلى زجاجة الـ «تيكيلا»، وصب كأسين آخرين.

أومأ كولين ببطء وقطع فصين آخرين من الليمون:

– "كان إيدي يقود فريقًا من ثمانية رجال. كانت وحدته تتلقى الأوامر مباشرة من المدعي العام في مكسيكو سيتي، الذي فوضه الرئيس بتصفية كبار زعماء الكارتلات في المكسيك."

– "تصفيتهم؟"

أومأ كولين.

– "فرقة اغتيالات رسمية؟"

– "بالضبط."

لم يرف لـ كورت جفن، وقال:

– "تابع."

– "كان إيدي ورجاله بارعين. لقد اغتالوا زعماء أربعة من أكبر ستة كارتلات في الداخل المكسيكي خلال الأشهر الستة الماضية. وكان دانييل دي لا روشا سيكون الخامس."

– "لكن الفريق بأكمله أُبيد في العملية."

– "للأسف، نعم."

– "لا أفهم لماذا فجر اليخت."

هز كولين رأسه:

– "ولا أنا. هناك الكثير مما لا أفهمه. بالطبع لم يخبرني إيدي قط عن التفاصيل العملياتية، كان الأمر مجرد دردشات عابرة هنا وهناك."

رشف كورت شرابه وسأل:

– "ما قصة هذا الدعم الشعبي لهذا الحثالة «دي لا روشا»؟"

لوّح كولين بذراعه في دائرة واسعة:

– "ليس هنا فقط، بل في كل مكان. هناك أفلام وكتب وأغانٍ عنه. إنه مشهور، كنجم روك. كان والده أسطورة أيضًا؛ أدار كارتل «بورفيديو دي لا روشا» في الثمانينيات والتسعينيات، وعمل مباشرة مع الكولومبيين لنقل بضاعتهم إلى الولايات المتحدة. لكن دانييل لم يعتمد على فضل والده؛ بدلاً من ذلك انضم إلى الجيش ثم إلى وحدة «غافيس»، وهي وحدة نخبة من قوات الصاعقة والمظليين في الجيش. تدرب في الولايات المتحدة في «فورت بينينج» و«فورت براج»، وفي مدرسة الأمريكيتين. ترك الجيش عندما قتلت الحكومة والده في عام 1999. سُجن دانييل نفسه لبضع سنوات، وعندما خرج، أحاط نفسه بزملائه العسكريين السابقين، رجال من وحدته الكوماندوز. إنهم مجموعة متماسكة حقًا، يظهرون كمزيج بين رجال الأعمال والقوات شبه العسكرية. لديهم جميعًا نفس قصات الشعر، ويرتدون نفس البدلات، ويحافظون على لياقتهم، ويسافرون دائمًا في قافلة كأنها عملية عسكرية. بدأت الصحافة تطلق عليهم اسم «لوس تراجيس نيغروس»... أي «البدلات السوداء»."

وتابع:

– "منذ خروجه من السجن، ظل دي لا روشا نظيفًا من الناحية الرسمية؛ هو يملك شركة طيران محلية تنقل المسافرين من المدن الكبرى على الساحل إلى البلدات والقرى الصغيرة في أنحاء جبال سييرا مادريس. لديه الكثير من الأعمال الأخرى أيضًا؛ بساتين، مزارع، ومصانع خشب. كلها أعمال مشروعة تمامًا. يدعي أن أمواله تأتي من هناك، ويبدو أنه اشترى ما يكفي من موظفي الحكومة لدرجة ألا أحد يجرؤ على فحص ميزانياته."

– "لكنك متأكد تمامًا أنه يتاجر في الكوكايين؟"

أنهى العجوز رشفة من الـ «تيكيلا» قبل أن يهز رأسه:

– "يتعامل دي لا روشا في بعض الكوكايين، والهيروين، والماريجوانا، لكن ليس هذا مصدر ثقله المالي. تدير «البدلات السوداء» ثاني أكبر كارتل للـ «فوكو» في العالم."

– "فوكو؟"

– "كريستال ميث. معظم الكارتلات المكسيكية لا تتخصص في مخدر معين، بل تسيطر على منطقة أو طريق توزيع، وتتاجر في أي شيء؛ الماريجوانا، الكوكايين، الميث، اختطاف الرهائن، وحتى الأقراص المدمجة المقرصنة. لكن دي لا روشا لديه نموذج عمل خاص به، يجمع بين التصنيع والتوزيع. يُفترض أنه يمتلك مختبرات معالجة ضخمة للكريستال ميث –يسمونها المختبرات العملاقة– في مكان ما في جبال سييرا مادريس. لكن لا أحد يعرف مكانها، وحتى لو عُثر عليها، أشك في إمكانية ربطها مباشرة بـ دي لا روشا."

– "لا أزال لا أفهم سر حب الناس له هنا."

شعر كورت أن كولين قد بدأ يأنس إليه نوعًا ما، فقد خفتت نبرة التحفظ التي كانت تغلّف حديثه سابقًا:

– "معظم تجار المخدرات أشباح، لكن دانييل ليس كذلك. إنه يتحكم في صورته كنجم سينمائي، ولا يشبه الصورة النمطية لزعماء

الكارتلات. عمره تسعة وثلاثون عامًا فقط، لديه ستة أطفال، لا يخون زوجته، يرتدي ملابسه كأنه أمير ويلز، ويدعم نصف الجمعيات الخيرية الرسمية في البلاد. هنا في نايريت، وفي خاليسكو، وميتشواكان، اتُّهمت شرطة الولاية بحمايته. ومن المؤكد أن هذه الاتهامات صحيحة."

رشف كورت شرابه ونظر إلى النجوم الساطعة في السماء. انحنى كولين للأمام وقال:

– "لا تفكر في دانييل دي لا روشا كتاجر مخدرات، بل فكر فيه كـ «روبن هود». إنه يعيل المحتاجين، ويحمي الضعفاء، ويدعم القضايا المشروعة هنا أكثر من أي شخص آخر."

– "إذن، السكان المحليون لا يهتمون بما تفعله هذه المخدرات؟"

– "لا أحد، أكرر لا أحد في المكسيك يأبه لملايين المدمنين في الولايات المتحدة الذين يريدون هذا المنتج. لا أحد هنا يشعر بالأسف تجاههم لأنهم يدمرون حياتهم. هم يكرهون القتل الذي يجلبه تجار المخدرات إلى هنا، بالتأكيد، فمن لا يكره ذلك؟ لكن المواطن العادي في الشارع يعرف أن آخر وسيلة لمواجهة تجار المخدرات هي دعم الشرطة أو الحكومة في هذه الحرب. الفساد هنا هائل ومتفشٍ. وأي شخص يملك عقلاً يعرف أن هناك طريقتين فقط لحماية نفسك وعائلتك؛ إما أن تبتعد تمامًا عن طريقهم، أو تنضم إلى الكارتلات. وخمن ماذا يا بطل؟ الانضمام إلى الكارتلات يدر مالاً أكثر بكثير من الجلوس في المتفرجين، فضلاً عن أنه أكثر أمانًا بكثير."

وكما توقع كورت، كان كولين عجوزًا ممتلئًا بالآراء الحادة.

– "الشرطة، القضاة، الجنود، العمد... لا يمكنك الثقة بأحد هنا. يبدأ الكثيرون بأفضل النوايا، لكن تجار المخدرات يضعونهم أمام خيار واحد: بلاتا أو بلومو."

تمتم كورت:

– "الفضة أو الرصاص."

– "الترجمة الأفضل هي المال أو الرصاص. سيعطيك تاجر المخدرات أحدهما، ولك الخيار."

أومأ كورت برأسه، ثم أشار إلى رجال الشرطة الواقفين في الحديقة الخلفية:

– "هؤلاء الشرطيون هنا، الرجال والنساء الذين يحملون الهراوات. يبدو أنهم يرون في إيدي رجلاً صالحًا."

لوّح كولين بيده في الهواء، وكأنه ينحي ذكرهم جانبًا:

– "هؤلاء شرطة محليون، شرطة «سان بلاس». نعم، هم يحبون العائلة. إرنستو، والد إيدي، يعيش هنا منذ الأزل. لكن الشرطة في بورتو فالارتا؟ فاسدون حتى النخاع. شرطة الولاية؟ لا يمكن الثقة بهم. وكذلك قطاعات واسعة من الفيدراليين. حتى الجيش المتمركز في هذه الأنحاء فاسد. أنا لا أعرف حتى ماذا أظن بشأن وحدة إيدي نفسها، مجموعة العمليات الخاصة. يبدو الأمر مريبًا نوعًا ما أن يتم سحق جميع منافسي دي لا روشا الإقليميين في الأشهر القليلة الماضية، باستثناء واحد."

– "من هو المستثنى؟"

– "رجل في الشمال في جبال سييرا مادريس يُدعى كونستانتينو ماديغال بوستامانتي. يلقبونه بـ «إل فاكيرو»، أي «راعي البقر». إنه وغد أكبر حتى من دي لا روشا. يقول البعض إن وحدة الكوماندوز التابعة لـ إيدي كانت تعمل سرًا لصالح كارتل «مادريغال»، لتصفية كل المنافسين."

قطب كورت حاجبيه:

– "إذا كانت هناك قائمة بالأوغاد الذين يجب تصفيتهم، فكيف نعرف أن مادريغال لم يكن مجرد الاسم الأخير في القائمة؟"

ابتسم كولين بمرارة:

– "المكسيكيون لا يفكرون بهذه الطريقة. نظريات المؤامرة هنا في كل زاوية."

سبق لـ كورت أن سمع هذا الكلام؛ فالثقافة اللاتينية ليست غريبة عليه.

– "إذن يا كابتن، من هم الأخيار؟"

تأمل كولين السؤال لبرهة طويلة، وكأنه لغز رياضي مستعصٍ:

– "أنا أعرف أن إيدي كان رجلاً صالحًا. ولا أصدق مؤامرة «مادريغال» لثانية واحدة. وبعض الفيدراليين الآخرين أخيار، لا شك في ذلك."

– "وكيف أعرف الفيدرالي الصالح حين أراه؟"

– "يمكنك تمييزهم عن الشرطة المحلية؛ يرتدون بدلات سوداء، ودروعًا واقية، وأقنعة تزلج. وسياراتهم ودراجاتهم ومروحياتهم مكتوب عليها (PF)، أي الشرطة الفيدرالية."

كان هذا هو نوع المعلومات الاستخباراتية التي اعتاد جينتري جمعها في نحو ثلاثين منطقة عمليات أخرى عمل فيها أو سافر إليها خلال مسيرته، سواء كعميل لوكالة الاستخبارات المركزية أو كقاتل مأجور خاص.

– "إذن... الأخيار يرتدون الأقنعة هنا. عليّ أن أعتاد على هذه الفكرة."

– "نعم، ولكن الكثير من الأشرار يرتدونها أيضًا."

– "ممتاز."

نظر كورت إلى أربعة من رجال الشرطة المحليين يتسكعون في الفناء، متكئين على دراجاتهم الجبلية المتهالكة. كانت لورا تقف بينهم، وتعيد ملء أكوابهم البلاستيكية بالـ «هورشاتا» التي تصبها من إبريق بلاستيكي.

– "لماذا يبدو أن رجال الشرطة الذين في صفنا هم من يحملون العصي والدراجات، بينما يحمل رجال الشرطة في الطرف الآخر البنادق والمروحيات؟"

– "ربما اخترنا الفريق الخطأ."

تجرع كورت الـ «تيكيلا» دفعة واحدة وقال:

– "بدأت أظن أن إيدي هو من فعل ذلك."

نظر إليه كولين بتفكر:

– "أتمنى لو كنت أعرف من تكون حقًا يا جو."

نطق العجوز الاسم المستعار بطريقة توضح أنه يدرك تمامًا زيفه.

غيّر كورت الموضوع مرة أخرى:

– "لماذا عاد إيدي إلى وطنه؟ هل تحدثت معه في ذلك؟"

لوّح كولين بيده:

– "لينقذ بلده. ليحارب إرهابيي المخدرات. لينقل المهارات التي اكتسبها في الولايات المتحدة إلى هنا حيث يمكنها أن تقدم أعظم فائدة."

– "ولكن؟"

– "ولكن ليس لهذا السبب عاد."

التفت كولين نحو ممر السيارات، وأشار إلى لورا غامبوا، شقيقة إيدي الصغرى:

– "لقد عاد من أجلها. مائة بالمائة. قُتل زوج لورا قبل خمس سنوات في الشمال. كان ملازمًا في الجيش. تعرضت شاحنته لكمين نصبه الـ «ماتاميليتاريس»، وهم عصابات خاصة من القتلة المأجورين الذين يقتلون العسكريين. تعرض للضرب، وأُقتلعت عيناه وهو لا يزال حيًا، ثم أُطلق عليه الرصاص كالكلب. حُرق جسده في برميل سعة خمسة وخمسين جالونًا، وعُلّق رأسه على وتد سياج على مرأى من حدود أريزونا. كانت لورا حطامًا بعد ذلك."

وتابع:

– "لديها شقيقان آخران، لكنهما لا نفع منهما. سكيران. أحدهما ميكانيكي سيارات عاطل، والآخر بائع أجهزة منزلية عاطل."

أشار كولين إلى الرجلين البدينيْن الواقفين عند باب المطبخ، وهما يدخنان ويشربان؛ رودريغو وإغناسيو. بدا كلاهما ثملاً للغاية. كان كورت قد قرأ لغة جسدهما أثناء العشاء؛ واستطاع أن يجزم أن أيًا منهما لا يرغب في التواجد هنا.

– "عندما مات زوج لورا، ترك إيدي وكالة مكافحة المخدرات، وانتقل إلى هنا في «سان بلاس»، وبدأ العمل مع الفيدراليين."

أخذ كولين نفسًا طويلاً:

– "أفترض أن لورا الصغيرة تلوم نفسها الآن على موت إيدي. لقد كان الأمر عليها أقسى حتى مما كان على إيلينا أو والديه."

– "اللعنة."

خطر لـ كورت لأول مرة الليلة أن الروابط العائلية الوثيقة لها عيوبها كما لها مزاياها.

وكأنها تنتظر إشارتها، خرجت إيلينا من الباب الخلفي وسارت عبر الحديقة نحو الرجلين، وقالت بالإنجليزية:

– "جو... لقد أعددتُ فراشك، يمكنني أن أريك مكانه عندما تنتهي أنت والكابتن تشاك من شرابكما."

– "شكرًا لكِ، لكن يجب أن أعود إلى بورتو فالارتا."

هزت إيلينا رأسها برفض. لم يكن كورت قد التقى بهذه المرأة إلا قبل بضع ساعات، لكنه أدرك بالفعل أنها قوية الإرادة بشكل هائل.

– "ستبقى معنا. ليلة واحدة فقط. فرانسيسكو، عم إيدي، سيتوجه بسيارته إلى «سايوليتا» في الصباح الباكر؛ سأجعله يوصلك إلى محطة الحافلات في فالارتا."

أمسكت بيده وضغطت عليها؛ وبدت كأنها أهينت بصدق لمجرد تفكيره في مغادرة منزلها في جوف الليل. نظر كورت إلى كولين، فابتسم الأخير ورفع حاجبيه وأومأ برأسه.

قال جينتري:

– "أظن أنني سأبقى."

انتقل كولين إلى الإسبانية ليتحدث مع إيلينا. لم يعرف كورت إن كان العجوز فخورًا بتمكنه من اللغة أم أنه يحاول إبعاد الأمريكي الآخر عن الحديث.

– "اسمعي يا إيلينا، هل فكرتِ مجددًا في صرف النظر عن الاحتجاج غدًا؟"

تدخل كورت لكن بالإنجليزية:

– "أي احتجاج؟"

أجابت إيلينا:

– "أخبرتك، في بورتو فالارتا."

– "لقد سميتِهِ تأبينًا."

هزت كتفيها:

– "بالنسبة لي، ولأفراد العائلة الآخرين هنا، هو تأبين. سنتحدث بالنيابة عن أحبائنا الموتى. لكن الكابتن تشاك يعتقد أنه سيتحول إلى مظاهرة ضد «البدلات السوداء»."

ثم نظرت إلى العجوز الأمريكي وقالت:

– "هو لا يريدني أن أذهب."

قال كولين:

– "إنهم يتوقعون حشدًا كبيرًا. لا أظن أنها فكرة جيدة لامرأة حامل في شهرها السابع أن تكون وسط كل هذا الغوغاء. هناك الكثير من الغضب والتوتر بعد..."

تلاشت صوته قبل أن يكمل.

فقالت إيلينا:

– "بعد مقتل إدواردو وهو يقاتل ضدهم. أعرف ذلك يا تشاك، ولهذا السبب تحديدًا يجب أن أذهب."

لم يملك كورت إلا أن ينحاز لجانب الكابتن:

– "أنا أتفق مع الكابتن. أنتِ حامل، ولا داعي لأن تكوني في وسط أعمال شغب؛ تدافع واشتباكات—"

قاطعته قائلة:

– "لن تكون أعمال شغب، وسأكون على المنصة، لا وسط الحشود. سأكون بخير."

هز كولين رأسه:

– "لا يعجبني هذا. لم يكن إيدي ليرغب في أن تكوني وسط كل ذلك."

– "إدواردو كان سيذهب، وأنت تعلم ذلك."

– "نعم،" قال كولين، "إيدي كان سيذهب هناك مع فريق تكتيكي وبندقية هجومية، وكان سيحمي الاحتجاج من كل التهديدات التي يشكلها الوحوش الذين يدعمون «دي لا روشا». لكنه لم يكن ليريدكِ أن تكوني هناك، ولا عائلته، ولا ابنه الذي لم يولد بعد. الأمر خطير للغاية."

ابتسمت إيلينا للعجوز لفترة طويلة:

– "أنت تقلق عليّ كثيرًا يا كابتن تشاك." ثم تابعت بامتنان: "لقد كنت صديقًا رائعًا للعائلة."

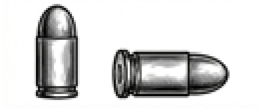
اعتدل كولين في جلسته وقال بصوت واثق:

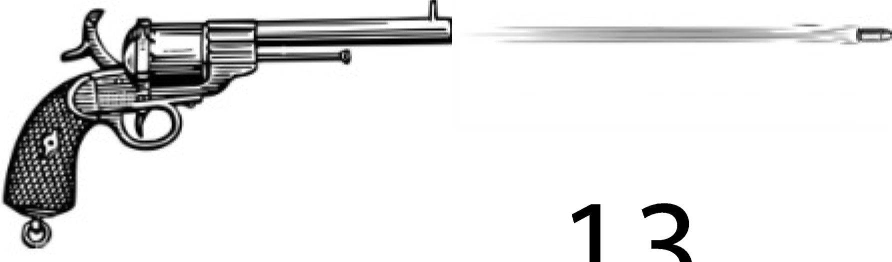
– "وسأظل كذلك ما حييت. موت إيدي لم يغير ذلك."

أعجب كورت بالعجوز، حتى وإن لم يكن العجوز معجبًا به بنفس القدر. تمنى كورت لو كان هناك ما يمكنه فعله من أجل إيلينا وعائلة غامبوا، لكنه لم يجد شيئًا. ودع كولين وهو يتوجه نحو سيارته في

الأمام، ثم تبع إيلينا إلى الداخل، مارًا بما لا يقل عن اثني عشر شخصًا آخرين وجدوا لأنفسهم زوايا صغيرة مع أغطية ووسائد للنوم. صعدت به إلى غرفة نوم صغيرة، حيث بسطت له فراشًا مع غطاء ووسادة.

كانت جدران الغرفة مطلية بطلاء حديث بلون أزرق سماوي. تخيل كورت أن إيدي هو من طلاها بنفسه من أجل ابنه الذي لن يقدَّر له رؤيته أبدًا.





13

لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

أغسطس 2000

التصقت رطوبة الظهيرة بجلده كما تلتصق المحاريات بهيكل السفينة. راح جينتري يغيب عن الوعي ويفيق طوال ما تبقى من الظهيرة. تسببت حمى الملاريا في ارتعاش جسده بشدة مما أدى لإزاحة بعض أوراق الموز عن جلده، لكنه تمكن من حماية نفسه من الشمس بإعادة سحب الغطاء النباتي فوق جلده المكشوف.

جاء الليل حاملًا معه الخلاص من الشمس. كما جلب معه نسيمًا كان قويًا بما يكفي لبعثرة غطائه الواقي، لكنه لسبب ما لم يكن قويًا بما يكفي لإبعاد البعوض. بيد واهنة، غرف الطين من الأرض بجانبه، ولطخه بكثافة على وجهه ورقبته محاولًا تغطية أكبر قدر ممكن من جلده، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا حقًا.

أرقته لسعات الحشرات طوال الليل، وركضت العناكب فوق جسده، ولم يبق في جعبته أي طاقة لقتلها أو حتى نفضها عنه. اكتفى بالاستلقاء هناك كجذع شجرة ساقط بينما شقت المخلوقات مساراتها فوقه.

تسببت الحمى في تورم دماغه داخل جمجمته، ومع هذا التورم انفصل عن الواقع وبدأ يرى خيالات. عدة مرات اعتقد أنه مات؛ لم يعد

يشعر بألم أو حرارة أو جوع أو ضعف، بل شعر فقط بخفة وسكينة. لكن الرؤى كانت قاسية؛ داعبته بسكينتها كسراب الصحراء، وتماما كما في الصحراء، عندما تبددت، جلبت معها يأسًا متجددًا.

رأى شاحنة بيك أب "شيفي" كبيرة تتوقف بجوار البركة. ترجل منها والده وتشيس، شقيقه الأصغر. أشارا إليه لينهض ويقفز إلى المقصورة؛ أخبراه أنهما متجهان إلى المدينة لتناول فطائر "البان كيك"، ويريدانه أن يأتي معهما.

تحدث كورت إليهما، ومع حركة أحباله الصوتية الخشنة، تبددت الرؤية، تاركة إياه في المكان نفسه الذي رقد فيه لأربع عشرة ساعة.

تبًا.

أراد الموت. لم يرد أن يكون حيًا عندما تشرق شمس الصباح التالي.

تحت ضوء القمر الساطع، حامت مروحية فوق رأسه مباشرة، وهبطت بجوار البركة، وقفز منها موريس، مدربه الرئيسي في الـ CIA ومعلمه القديم.

صرخ المحارب المخضرم من حرب فيتنام، مناديًا كورت باسمه الحركي:

– "انهض بمؤخرتك الكسولة يا (فايوليتور)!"

لم يرد كورت في البداية. هز رأسه فقط. وفكر في نفسه: أنا متعب للغاية واللعنة.

– "تشارلي[5] لا يهمهم إن كنت متعبًا!"

أجاب كورت بصوت مسموع:

– "لا أستطيع يا سيدي. لا أستطيع".

لكن عندما تحدث، وحين أحدث ضجيجًا حقيقيًا في الليل، اختفت الرؤية. كان وحيدًا. واهنًا، متألمًا.

[5] تعبير عسكري يعود لحرب فيتنام، حيث "تشارلي" يرمز للعدو، والمعنى الضمني :العدو لا يمنحك رفاهية الإنهاك.

يحتضر.

لكنه لم يمت تلك الليلة؛ وعاش ليرى الصباح. كانت ساعات النهار الثلاث التي سبقت العواصف هي الأسوأ في محنته. صلى من أجل المطر، وعندما هطل، برده وروى عطشه، لكن الوحل المحيط بجسده تسبب في تجمع المياه، وأصبحت أعمق. شعر بضع مرات أن جسده يتحرك قليلًا، كان يطفو وسط هطول المطر فوق الأرض المشبعة بالماء. تساءل عما إذا كان سينجرف إلى داخل البركة، وارتعب من فكرة الغرق في المياه العكرة.

لكن من حسن الحظ أن المطر هدهده لينام.

استيقظ على صوت الطيور، ثم أصوات، أصوات بشرية. عرف أنه النهار، فقد توقف المطر، والشمس التي اخترقت أشعتها الهواء الرطب كانت تلسع جلده.

سمع الأصوات مرة أخرى؛ افترض هذه المرة أن الأصوات ليست أكثر من بداية لرؤية أخرى. لم يشعر بالبهجة أو الخوف؛ اكتفى بالاستلقاء هناك، بالكاد حيًا ولكنه ينجرف بعيدًا.

كانت الأصوات خافتة في البداية، لكنها أصبحت أعلى، وكأن المتحدثين يقتربان. بدأ كورت يدرك أنه لا يحلم، وأنه لا يتخيل هذا، وشعر بشعور باهت بالقلق. لم يكن معه سلاح، وكأن الأمر يهم – فهو لم يكن ليتمكن من إزاحة صمام الأمان بإبهامه أو سحب الزناد، ناهيك عن تحديد التهديد وتوجيه السلاح نحو هدف.

كانت الأصوات تحيط به الآن، وكانوا يتحدثون اللاوسية. لقد وجدوه، وبالنسبة له، فليأخذوه. بإمكانهم إطلاق النار عليه هنا والآن؛ سيكون ذلك بالتأكيد أفضل من سحبه أعلى التل ورفعه إلى مركبة لترتطم به في الطرق البائسة في طريق عودته إلى زنزانة سيموت فيها حتمًا في غضون ساعات.

تبًا للأمر، فكر، وعقله صافٍ بشكل لا يصدق في هذا الموضوع بالذات. سيقاتلهم. هؤلاء الأوغاد الصغار لن يأخذوه إلى أي مكان.

ركع رجلان فوقه، وأزاحا القليل من أوراق الموز المتبقية التي تغطي جسده. رفع يده ليلكم أحدهما، لكن ذراعه اهتزت قليلًا فحسب بجوار جسده. لم تكن هناك أرجحة، ولا لكمة.

جاء المزيد من الرجال، ورُفع عن الأرض إلى الهواء؛ صرخ احتجاجًا ثم ألمًا حين جُذبت ذراعه اليسرى في اتجاه مختلف عن بقية جسده. شعر بنفسه يُسحب صعودًا أعلى التل؛ وسمع بنادق الرجال تقرقع ضد المعدن على أحزمتهم وهي تتأرجح بحرية؛ أُسقطت ساقاه مرة، وسقط الرجال معهما، وصرخوا ونبحوا في وجوه بعضهم حتى رُفع مرة أخرى.

الصفع المنتظم، صفع الأحذية في الوحل بينما يتركون البركة الطينية خلفهم.

كانت لغتهم المقتضبة المبهمة كمعاول ثلج تُغرس في أذنيه.

رفعوه إلى الطريق أخيرًا وسحبوه نحو شاحنة "فان" سوداء.

حُمل جينتري برأسه أولًا ووجهه للأعلى، لكن رأسه كان يتدلى مقلوبًا ويقفز مع خطوات الجنود. فُتح الجزء الخلفي للشاحنة السوداء، وكان مظلمًا بالداخل. تحدث الرجال بسرعة وخشونة فيما بينهم، وكأنهم يتجادلون. لم يعنِ زيهم العسكري شيئًا له، لكن أسلحتهم كانت بنادق "كلاشينكوف" وبنادق "SKS" طويلة، مثل رجال الشرطة المحليين وحراس السجن تمامًا.

أزلقوه إلى داخل الشاحنة، وأُغلقت الأبواب. ترنحت الشاحنة وانطلقت مسرعة، تتقافز فوق الحصى بمحاذاة الطريق المعبد. حاول كورت رفع رأسه لكنه استسلم، ودحرجه من جانب لآخر. استغرق الأمر لحظة، لكنه سرعان ما أدرك أن أحدًا من الجنود لم يصعد معه.

كان وحيدًا.

هاه؟

لا، لم يكن وحيداً. تحرك خيال من مقعد الراكب الأمامي إلى الخلف؛ كانت عضلات رقبة كورت الضعيفة قد أراحت رأسه عائدًا على السطح الصلب للشاحنة، وتدحرج باتجاه الجدار.

امتدت يد إلى جبهته وكأنها تقيس حرارته.

- "أخبار سيئة يا (سالي)، لم يحالفني الحظ مع (جعة الجذور). أحضرت لك بعض (بيرلاو). إنها الجعة المحلية. هل يفي ذلك بالغرض؟"

ابتسم كورت وحتى ذلك آلمه؛ فلسع وجهه المحروق بالشمس. لكن موجة من الارتياح المسكن للألم بدأت في قلبه وانطلقت عبر جسده في كل الاتجاهات. أجبرت طاقة جديدة عضلات رقبته على العمل لمرة أخيرة. التفت نحو إيدي. شعر بدموع تتجمع في عينيه، وقاومها. كان صوته خافتاً وخشناً.

- "هل هي باردة، على الأقل؟"

هز إيدي رأسه. كانت عيناه واسعتين ومرتاحتين. اتسعت ابتسامة إيدي غامبل الكبيرة وهو يتحدث:

- "ساخنة كالجحيم يا أميجو. وطعمها يشبه بول الياك قليلًا. آسف".

- "الجنود. هل هم من تايلاند؟"

- "لم أغادر البلاد. لم يكن لديك وقت لي كي أخرج وتعود مجموعة أخرى لتجدك، لذا ذهبت إلى فيينتيان. طلبت رد بعض الجميل الذي كسبته مع قوة متمردة. ليسوا أشداء بالقدر الذي يظنونه، لكنني افترضت أنهم جيدون بما يكفي لمساعدتي في انتشال رجل من الوحل ورميه في شاحنة".

رفع كورت ذراعه بكل قوته، فأمسكها غامبل وهزها.

قال كورت:

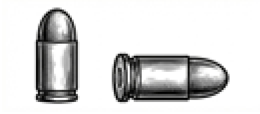
– "شكرًا لعودتك".

ابتسم غامبل، وسحب حقيبة ظهر كبيرة من بين المقاعد الأمامية، وفتحها، وبدأ بإخراج أكياس سوائل وحقن وأدوية.

– "إذا بدأت بالبكاء، سأخبر رفاقك في الـ CIA. ولن تسلم من لسانهم أبدًا".

جهز محقنة وريدية وغرزها في ذراع جينتري.

– "لنعدك إلى الوطن يا أميجو".





14

في تمام الحادية عشرة صباحًا، كان كورت يقف في طابور وئيد الحركة لابتياع تذكرة حافلة من «المحطة المركزية في بورتو فالارتا»؛ المحطة الرئيسية في المدينة. كانت حقيبته القماشية الخضراء ملقاة على الأرض أمامه، وكل دقيقة أو اثنتين، كان يركلها بقدمه لتتحرك للأمام مع كل خطوة يخطوها في الطابور.

لقد استيقظ مبكرًا، وطوى فراشه، ثم هبط الدرج في صمت متجاوزًا الضيوف النائمين على الأرض، وغادر وحيدًا عبر باب المطبخ. استقل أول حافلة صباحية من «سان بلاس»، وظل يحدق من النافذة نحو المحيط الهادئ طوال الرحلة التي استغرقت ثلاث ساعات. كان يفكر في إيدي.. في عائلته.. في شقيقته. حاول كورت طرد هذه الأفكار من رأسه مرارًا، لكنه وجد الأمر عسيرًا؛ فقد كانت مشاعر قديمة خامدة تنهش وجدانه؛ حنين، ووحدة، ورغبة جامحة.

كان بحاجة ماسة للخروج من هذا المكان اللعين.

ولهذه الغاية، وضع خطة؛ سيشتري تذكرة إلى «غوادالاخارا»، ومن هناك، وبعد يوم أو يومين، سيستقل حافلة إلى «مكسيكو سيتي»، ثم يشق طريقه إلى «تامبيكو». قدر أن عبور البلاد بالسرعة التي خطط لها سيستغرق أسبوعًا أو أكثر.

كانت المحطة تعج بالحركة، لكن سرعة الطابور تحسنت قليلاً. لم يكن يفصله عن شباك التذاكر سوى أربعة أشخاص حين أجرى مسحًا

أمنيًا روتينيًا للمكان؛ فانقبضت عضلة كتفه ودقت أجراس الإنذار في رأسه.

لقد دخل المحطة بخطوات عسكرية واثقة ومندفعة: الكابتن تشاك كولين.

كان كولين يجري مسحًا للمكان هو الآخر، ولم يساور كورت أدنى شك في أن العجوز يبحث عنه، محاولاً تمييزه وسط حشود المسافرين. أشاح جينتري بوجهه بدافع العادة؛ فهو يعلم أنه قادر على التملص من الرجل والبقاء متخفيًا حتى يغادر. لكن شيئًا ما في مشية كولين، وتلك النظرة الحادة الباحثة في عينيه، استوقفه.

أدرك كورت أن ثمة خطبًا ما.

خرج «الرجل الرمادي» من الظلال، وحمل حقيبته على كتفه، ثم انسحب من الطابور وسار نحو الأمريكي الوحيد الآخر في تلك القاعة المكتظة. سأله بحذر:

– "ما الخطب؟"

لم يخفِ كولين مفاجأته؛ فقد كان يبحث بيأس عن رجل تجسد فجأة أمامه. لكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة وقال:

– "قالت إيلينا إنك لم تنتظر حتى لوداعنا."

هز كورت كتفيه:

– "أخبرها أنني أودعها الآن."

صوب كولين نظرة حادة نحو جينتري لفترة، وكان من الواضح أنه يريد قول شيء ما، لكنه تردد مرتين. وأخيرًا، تنحنح قائلاً:

– "أيها الشاب، لست مدركًا تمامًا من أنت أو ما هي حقيقتك، لكن يراودني انطباع بأنك قد تكون مفيدًا الآن. وأيًا كنت، فأنا أؤمن أنك تريد فعل الصواب تجاه عائلة إيدي."

أمال كورت رأسه قليلاً، ثم أومأ موافقًا وقال ببطء:

– "بالتأكيد."

أومأ الكابتن وتابع:

– "لقد توجهت إيلينا ومعظم أفراد عائلتها إلى التجمع الشعبي بوسط المدينة."

لم يتفاجأ كورت، وعلق قائلاً:

– "نعم، هذا ما قالته الليلة الماضية."

– "أنا أسكن في وسط المدينة. وهذا الصباح استيقظت على صوت سيارة تجوب الشوارع بمكبرات صوت؛ كان المنادي يحث الجميع على الخروج للمشاركة في التأبين هذا الصباح والاحتجاج على «قتلة الحكومة». يتحدثون عن الأمر منذ الصباح في الإذاعة. هناك موجة عارمة من الاستياء في المحطات المحلية تجاه محاولة الاغتيال التي قامت بها الشرطة الفيدرالية، والمذيعون يشجعون عناصر... معينة... على الخروج وإسماع أصواتهم. أنصار دي لا روشا وعصابة «البدلات السوداء». السلطات تقول إنها تتوقع الآلاف؛ سيغلقون الشوارع. الأمر يبدو... مريبًا. سأكون هناك تحسبًا لوقوع أي شيء، وأود منك أن تأتي أيضًا. فلم أعد شابًا كما كنت."

– "هل تتوقع حقًا حدوث مشاكل؟"

– "مشاكل منظمة؟ ربما لا. ولكن في هذه اللحظة، يمتلك (دي إل آر) معجبين في بورتو فالارتا أكثر مما يمتلك إيدي غامبل. الأمر يعتمد على طبيعة الحشد، وتوجه رجال الشرطة الذين يغلقون الطرق، ومدى شحن أنصار دي لا روشا للجمهور، وعدد السكارى والحثالة الذين قد يندسون في الاحتجاج... يا إلهي، يمكنني أن أرى هذا الموقف يخرج عن السيطرة بسهولة شديدة."

دون تردد، رفع كورت حقيبته القماشية الخضراء عن الأرض وربت على كتف الرجل العجوز قائلاً:

– "قرار صائب يا تشاك. لننطلق."

توجها جنوبًا في سيارة كولين الحمراء من طراز «كروس فوكس». كانت حركة المرور خانقة، لكن الأمريكي البالغ من العمر اثنين وسبعين عامًا كان ينسل بين السيارات ببراعة. أدرك كورت أنه لم يكن ليقود في هذه الشوارع بنصف مهارة هذا العجوز.

راح كولين يطلعه على التفاصيل أثناء القيادة:

– "اليوم هو الإثنين، لذا ستكون هناك سفينة سياحية في الميناء. آلاف السياح يتجولون الآن في «الماليكون»، وهو الممشى المحاذي للشاطئ. بالإضافة إلى أن السكان المحليين يتوافدون على وسط المدينة في أيام الإثنين. الشوارع ستكون ضيقة حتى بدون هذا الاحتجاج. أعرف مكانًا يمكنني ركن السيارة فيه شرق موقع الحدث، فوق التلة مباشرة."

سأله كورت:

– "كيف هو موقع هذا التجمع؟"

– "يُدعى «باركي هيدالغو». كان حديقة في السابق، لكن المدينة أزالت العشب والأشجار والسوق، فأصبح الآن مجرد ساحة أسمنتية مسطحة ومفتوحة تقع فوق مرآب سيارات تحت الأرض. مساحة الساحة تبلغ نحو خمسين ياردة مربعة، وتبعد حوالي ثلاثة شوارع عن الشاطئ. هناك درج كبير ينطلق من الساحة جهة اليسار ويؤدي إلى شارع فوق التلة؛ حيث تقع كنيسة «تالبا»."

– "هل توفر الكنيسة إشرافًا بصريًا على الموقع؟"

– "إشراف بصري؟ يا بني، لم أكن قط جندي مشاة، لكني أفهم ما تعنيه. نعم، ربما توفر ذلك. لست متأكدًا تمامًا."

– "وماذا عن الجهة الأمامية للساحة؟"

– "مجرد طريق مزدحم بوسط المدينة. ثلاثة مسارات، كلها في اتجاه واحد، وتكون الحركة فيها مشلولة في مثل هذا الوقت. توجد مبانٍ على الجانب الآخر؛ عقارات تجارية. مكتب طبيب أسنان يقع

هناك تمامًا. وهناك بعض أعمال البناء الجارية إن لم تخني الذاكرة. كل المباني بارتفاع أربعة طوابق تقريبًا."

قال كورت بينما بدأت خطة عمل تتبلور في رأسه:

– "أحتاج إلى هاتف."

– "خذ هاتفي." ومد كولين يده نحو هاتف الـ «BlackBerry» المعلق في حزامه.

– "كلا، أحتاج إلى هاتف خاص بي، كي أتمكن من التواصل معك بعد أن نفترق."

– "ولماذا نفترق؟ يجب أن نبقى بالقرب من إيلينا والعائلة. إنها حامل في شهرها السابع؛ لو رمى أحدهم زجاجة جعة فلن تتمكن من الابتعاد بسرعة. إرنستو ولوز ليسوا بعمري، لكنهم ليسوا في كامل لياقتهم أيضًا. لورا يمكنها تدبر أمرها، لكن شقيقي إيدي لا فائدة منهما؛ أما أعمامه وأخواله فهم أناس بسطاء من الجبال، وربما لم يروا حشدًا بهذا الحجم من قبل. نحن بحاجة لحماية العائلة."

– "سنفعل ذلك. ثق بي، لنقم بالأمر على طريقتي."

نظر كولين إلى كورت بطرف عينه وهو يقود وسط الزحام الذي يزداد اختناقًا:

– "ساعدني لأفهم ما هي المهارات التي ستقدمها لنا في هذا الموقف؟"

تصلبت ملامح كورت الصارمة ببطء وقال:

– "لو كنت مسلحًا، لكنت قدمت مهارات أكثر بكثير."

تنهد الكابتن:

– "لا نريد فعل أي شيء يزيد الوضع سوءًا. اندفاع أحدهم في استعراض بطولي لن—"

– "أنا لا أبحث عن البطولة. إذا لم تسُؤ الأمور، فلن تشعر بوجودي حتى."

- "جيد."
- "هذا التجمع... هل تتوقع وجود الصحافة هناك؟"
- "بكل تأكيد."

مد كورت يده إلى كولين، وسحب قبعة «يو إس إس بوكانان» من فوق رأسه، ثم وضعها على رأسه هو وأنزلهما إلى الأسفل قليلاً لتغطي عينيه. نظر إليه كولين وهو يقود، فأوضح كورت قائلاً:

- "أنا خجول قليلاً أمام الكاميرات."
- "هل يجب أن أسأل عن السبب؟"

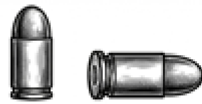
هز كورت رأسه ونظر إلى الطريق:

- "صدقني، لا تريد ذلك."

عاد كولين ليركز في الطريق؛ وازدادت التجاعيد في وجهه عمقاً بفعل التفكير والقلق.

- "ماذا فعلت يا بني؟"
- "أنا تمامًا مثل الأخيار الآخرين هنا. هناك ما يكفي من الأشرار حولي، ولا أريدهم أن يروا وجهي."

أومأ كولين برأسه، لكن كان من الواضح أنه لا يزال مرتابًا. مد يده إلى المقعد الخلفي وسحب قبعة «بوكانان» مماثلة من الأرض ووضعها فوق شعره الفضي. توقفا عند متجر ضخم، واندفع كولين إلى الداخل، ليعود بعد بضع دقائق ومعه هاتف محمول وسماعة أذن سلكية. كان كورت قد أخرج الأجهزة من غلافها قبل حتى أن تخرج السيارة من موقف المتجر.



كان التأبين قد بدأ بالفعل حين ركنا السيارة على بعد بضعة شوارع خلف كنيسة «تالبا» الحجرية الكبيرة، فوق تلة شديدة الانحدار تطل على الساحة. تتبعا ضجيج الحشد، وكانت موسيقى وطنية مسجلة تصدح من نظام صوتي رديء بينما هما يهبطان التلة. توقفت

الموسيقى، وبدأت امرأة تتحدث إلى الحشد. لم يكن صوت إيلينا غامبوا، لكن كورت ظن أنه صوت إحدى زوجات رجال الشرطة الأخريات اللاتي حضرن العشاء الليلة الماضية. كانت تهاجم تجار المخدرات، وانعدام الفرص لشباب المكسيك، والفساد في جهاز الشرطة المحلي. لم يفهم جينتري أكثر من نصف الكلام، لكنه بدا مشتتًا وغير مترابط، رغم إلقائه بحماس شديد. تجاوز هو وكولين بعض رجال شرطة «بورتو فالارتا» المحليين الذين كانوا يحرسون حاجزًا خشبيًا، في اللحظة التي وصفت فيها المتحدثة جهازهم بأنه «في جيب الإرهابي» دانييل دي لا روشا. رمق رجال الشرطة المتظاهرين بنظرات غاضبة، بينما كانت أيديهم اليمنى تستقر على مقابض مسدساتهم.

قال كورت وهما يبدآن في شق طريقهما وسط الباعة المتجولين والمتسكعين عند قمة الدرج الحجري الطويل الذي يمتد بمحاذاة الساحة الكبيرة:

– "هذا الموقف قد ينقلب إلى كارثة."

قال كولين باقتضاب:

– "أجل." وكان ينظر من فوق السور نحو المنصة، بحثًا عن عائلة غامبوا.

كان الهبوط عبر ذلك الدرج الكبير يتطلب مزيجًا من الدبلوماسية والعدوانية. كان كورت ينقر على كتف شخص ويطلب منه الإذن بالمرور بأدب، ثم يزيح الشخص الذي يليه ببدنه ليفتح الطريق لنفسه وللعجوز. كانت الساحة التي تقع أسفله إلى اليسار مكتظة تمامًا؛ ما لا يقل عن ألفي شخص محشورين في مربع واحد من المدينة للاستماع إلى الخطاب. شعر كورت بالقلق من وجود البعض في الحشد ممن جاءوا لإثارة المتاعب، وربما آخرين من هواة المشاكل الذين يأملون في بعض الإثارة.

وأخيرًا، عند أسفل الدرج، قال كورت:

– "لماذا لا تقترب أنت من العائلة؟ كن مستعدًا لتحريكهم بعيدًا عن قلب الحدث إذا ساءت الأمور."

– "حسناً. ولكن ماذا عنك؟"

التفت كورت ببطء في دائرة كاملة، ثم نظر إلى كولين:

– "أحتاج للبقاء عند الأطراف. لأستشعر حركة الحشد، والشوارع.. لأفهم الجو العام."

– "وكيف سيحقق ذلك أي شيء؟"

– "أنا بارع في هذا الأمر. لقد أحضرتني إلى هنا لأنك تظن أنني قد أكون مفيدًا. فدعني أساعد."

أومأ كولين:

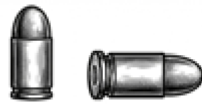
– "اتصل بي إذا رأيت شيئًا."

– "لنفتح خط التواصل الآن، ونبقي الخط مفتوحًا بيننا."

اتصل كولين بـ جينتري، ووضع سماعته في أذنه، وفعل كورت الشيء نفسه وأجاب. قال «الرجل الرمادي» في الميكروفون:

– "بالتوفيق."

وافترق الرجلان في اتجاهين مختلفين.



بتحركه غربًا وسط تلك الكتلة البشرية، بعيدًا عن المنصة، استطاع كورت على الفور تمييز مثيري الشغب في الحشد. كانت هناك مجموعات من المعارضين هنا وهناك؛ وسمع من حوله تعليقات غاضبة، ومشادات، وحتى بعض التدافع. تمتمت امرأة بأن الشرطة الفيدرالية لا ينبغي أن تفجر القوارب في الخليج، فردت عليها امرأة

أخرى بحدة بأن (دي إل آر) هو ابن عاهرة، والأسف الوحيد هو أنه نجا.

خلال ستين ثانية من مغادرة الكابتن، رصد جينتري رجالاً من الواضح أنهم لا ينتمون لهذا المكان. رجال أشداء، بملامح صخرية، يراقبون من حولهم بدلاً من التركيز على الخطيب. مر بشخصين من هؤلاء في مسافة لا تتجاوز بضع ياردات، وصنفهما كعملاء سريين يعملون لصالح الشرطة، أو الحكومة، أو ربما حتى لصالح أحد كارتلات المخدرات.

رأى كورت نتوءات عند خصورهم؛ دليل على أن الرجال يحملون مسدسات مخبأة تحت أحزمة سراويلهم الجينز. كان وجود رجال شرطة بملابس مدنية في مظاهرات أمريكا اللاتينية أمرًا شائعًا؛ وهو شيء سبق لـ كورت أن رآه في البرازيل وغواتيمالا وبيرو ونصف دزينة من الأماكن الأخرى. غالبًا ما لا يكونون بالخطورة التي يبدون عليها، ومع ذلك، كان يعلم أن عليه مراقبة هؤلاء الأوغاد.

تحدث كورت في ميكروفونه:

– "تشاك، هل وصلت إلى إيلينا؟"

– "تقريباً. سأصعد إلى المنصة مع العائلة. هناك متحدث واحد آخر بعد هذه المرأة ثم يأتي دور إيلينا. عندما تنتهي من خطابها، سأبذل قصارى جهدي لإعادة الجميع إلى أعلى الدرج بعيدًا عن هذا الزحام."

– "علم."

وصل كورت إلى الشارع ذي المسارات الثلاثة أسفل ساحة «باركي هيدالغو». كانت هناك بضع سيارات وشاحنات مركونة بجوار الرصيف، لكن لم تكن هناك حركة مرور. بدلاً من ذلك، كان شرطة المدينة يغلقون الشارع من الشمال، وما لا يقل عن مائتي شخص

يقفون في منتصف الطريق أو على الرصيف المجاور، وأعينهم شاخصة نحو المنصة.

أنهت المتحدثة كلامها، فتلقّت تصفيقًا مهذبًا من البعض وصيحات استهجان غاضبة من الآخرين. مر جينتري برجل آخر صلب الملامح لم يصفق ولم يعر المتحدثة أي اهتمام؛ بل تلاقت عيناه بعيني الغريب الملتحي الذي يشق طريقه شرقًا قبل أن يحول نظره إلى جزء آخر من الجمهور.

استقر نظر كورت على مبنى يطل على الساحة. كان الطابقان الأول والثاني مكتملين؛ ويضمان مكتب طبيب أسنان، ووكالة سفر، وصيدلية، وبعض المكاتب الأخرى. لكن فوق مستوى الشارع، كان الطابقان الثالث والرابع قيد الإنشاء؛ عوارض حديدية، وقضبان تسليح، وكتل أسمنتية، وأسلاك كهربائية، وسقالات، ونوافذ واسعة ومظلمة تطل على الحشد والمنصة بالكامل. بالنسبة لرجل مثل كورت جينتري، بدا هذا الموقع واعدًا. كان هذا هو «موقع الإشراف»، المكان الذي يمكنه من خلاله الحصول على رؤية شاملة للحدث.

بدأ يسير نحو المبنى.

كان المتحدث التالي على المنصة رجلاً، وهو مدعٍ عام في الولاية. بدأ يشيد بالمسيرة القصيرة واللامعة للرائد إدواردو غامبوا، تمهيدًا لإلقاء زوجة الضابط الراحل بضع كلمات.

بمجرد تحرره من الزحام الخانق، توجه جينتري نحو زقاق يمتد غربًا حتى الشاطئ. وعلى يساره، انفتح قوس يؤدي إلى ممر يمر تحت المبنى غير المكتمل. عند القوس، مر بمدخل متجر للحيوانات الأليفة؛ حيث تدلت دزينة من أقفاص الطيور من سقف الممر بجوار نوافذ المتجر، مما اضطره للانحناء أثناء سيره. وبتحركه ببطء في الممر الضيق، تفادى المزيد من طيور الحسون والدرة التي كانت تزقزق في أقفاصها الخشبية البارزة في طريقه. كان الحمام يتبختر عند قدمي

جينتري وهو يتحرك ببطء نحو ضوء يلوح في الأفق؛ حيث توجد بئر سلم عند نهاية الممر المظلم.

وفجأة، وعلى بعد ثلاثين قدمًا أمامه، ظهر ظل من جهة اليسار.

توقف كورت في مكانه. عبر رجل الممر تحت الضوء، من غرفة على اليسار نحو بئر السلم على اليمين. كان الرجل متشحًا بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه، ووجهه مغطى بقناع تزلج أسود.

كان يبدو كأنه من الشرطة الفيدرالية، أو على الأقل يرتدي ملابسهم، لكن حركاته وتصرفاته المريبة لم تكن تصرفات شرطي جاء ليحفظ الأمن. تجمد جينتري في مكانه، متمنيًا ألا ينظر الرجل نحو الممر المظلم أثناء مروره وأن يواصل طريقه نحو السلم.

لم ينظر الرجل، وتابع سيره، وقبل أن يختفي عن الأنظار، لمح كورت رشاشًا قصيرًا أسود اللون في يد «الفيدرالي» اليسرى.

ثم سمع كورت صوت سيارة تدخل الزقاق خلفه. التفت فرأى حافلة مصفحة سوداء تابعة لقوات التدخل السريع التابعة للشرطة الفيدرالية تتوقف مباشرة تحت القوس عند متجر الحيوانات الأليفة الذي جاء منه، مما أدى فعليًا إلى محاصرته في الداخل ما لم يجد مخرجًا آخر.

وقف كورت وحيدًا في الممر لما يقرب من نصف دقيقة، غير متأكد مما يجب فعله. أمامه، في مكان ما فوق السلم، يوجد رجل مسلح يبدو أنه يخطط لأمر سيء. وخلفه، لا يعلم كم من رجال الشرطة المريبين يظهرون على بعد زقاق واحد من الحدث.

– "كولين، هل تسمعني؟"

كان الاستقبال سيئًا للغاية في الممر. سمع كورت صدى صوت الرجل الذي يتحدث في مكبرات الصوت في سماعة هاتفه، لكنه لم يستطع سماع تشاك.

اللعنة. بدأ يتوجه نحو بئر السلم.

كان باب الطابق الثاني مغلقًا، ولم يظن كورت أن الرجل قد دخل منه، وإلا لسمع صدى صوت المزلاج في بئر السلم وصولاً للممر. همس في ميكروفونه مجددًا محاولاً مناداة الكابتن كولين، لكن الاستقبال في بئر السلم كان أسوأ من الممر.

خلع حذاءه الرياضي ليتمكن من التحرك دون أن يتردد صدى وقع أقدامه في المكان، وبدأ يصعد الدرج الأسمنتي بجواربه فقط.

في الطابق الثالث، غادر كورت بئر السلم ودخل منطقة البناء في المبنى، بحثًا عن ذلك «الفيدرالي» الوحيد المسلح بالرشاش. كان الطابق غير المكتمل يضم نوافذ مفتوحة تطل على ساحة «باركي هيدالغو» والشوارع المحيطة. توقع أن يجد الشرطي المقنع هناك، وسط الظلام ومواد البناء، لكن لم يكن هناك أحد. تقدم جينتري للتحقق من الحشد في الأسفل.

كانت الساحة مكتظة عن آخرها؛ ومن هذا الموقع المرتفع، استطاع رؤية الازدحام الرهيب بشكل أوضح. أنهى المتحدث كلماته وسلم المنصة لـ إيلينا غامبوا؛ فغرق المكان في التصفيق والهتافات التي طغت على الصراخ والشتائم، لكن كورت استطاع تمييز المعسكرات المختلفة في التجمع. تدافع، وتلويح بالأصابع، وإيماءات غاضبة أخرى تعبر عن الاستياء كانت مندسة وسط أولئك الذين جاءوا بوضوح لتكريم الرجال الراحلين.

ثم بدأت أبواق السيارات تدوي بصخب في الأسفل وإلى يمينه، طاغية على صوت التصفيق. سيارة واحدة، ثم اثنتان، وأخيرًا خمس شاحنات ضخمة بيضاء من طراز (SUV) شقت طريقها ببطء وسط تلك الكتلة البشرية. كانت تتحرك في الاتجاه المعاكس في الشارع ذي الاتجاه الواحد. واصلت الشاحنات الكبيرة إطلاق أبواقها، وكان السائقون يلوحون بغضب من النوافذ ليجبروا الحشد على الانقسام. وأخيرًا، توقفت الشاحنات البيضاء الضخمة، وبدأ الرجال يترجلون

منها. كان دخولهم للحدث دراميًا لدرجة أن إيلينا غامبوا نفسها توقفت عن إلقاء كلماتها الافتتاحية لترى ما يحدث.

تساءل كورت إن كان هذا جزءًا من التأبين، لكن نظرة واحدة نحو المنصة بددت تلك الفكرة؛ فقد بدا الذهول والتخبط على وجوه العائلات والمتحدثين الواقفين هناك أمام القادمين الجدد. كان شرطة «بورتو فالارتا» يتسكعون عند أطراف الحشد، لكنهم لم يتحركوا نحو المركبات أو الرجال؛ بل وقفوا يتفرجون مثل بقية الحاضرين.

على استحياء، بدأت إيلينا غامبوا تتحدث مرة أخرى، تشكر المنظمين على إقامة هذا التأبين وتشكر الجمهور على حضورهم لتكريم عمل زوجها ورفاقه الراحلين. لكن كورت أبقى عينيه معلقتين بالشاحنات. خرج رجل بلحية صغيرة ويرتدي بدلة سوداء وربطة عنق من الشاحنة الثانية. راقبه كورت وهو يتناول مكبر صوت يدويًا من رجل يرتدي ملابس مماثلة ويصعد فوق غطاء محرك الشاحنة الضخمة. وفورًا، وقبل أن ينطق بكلمة، انطلقت صيحات الهتاف وشهقات الرعب من الحشد في آن واحد.

قال الرجل:

– "داماتس إي كابابيروس! سيداتي وسادتي! انتباهكم من فضلكم."

كان صوته يبدو ضئيلاً وأجوف مقارنة بنظام الصوت الذي يخرج منه صوت إيلينا.

تحدث كورت في سماعته:

– "مهلاً تشاك، هل تسمعني؟"

– "أسمعك بوضوح."

– "من هو هذا الوغد؟"

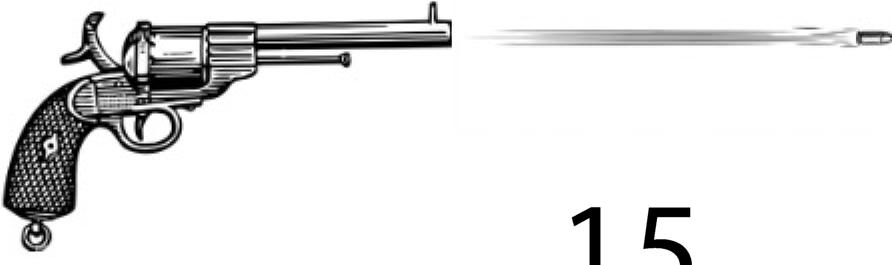
ساد صمت لثانية. نظر جينتري عبر الساحة، وميز كولين وسط الناس الذين يقفون خلف المنصة، وكان يشرئب بعنقه ليرى الشاحنات البيضاء والرجل الذي يقف فوقها. وسرعان ما هتف العجوز الأمريكي:

– "يا للهول! إنه هو!"

– "هو مَن؟"

– "هذا هو دانييل دي لا روشا."





15

لم يصدق كورت وقاحة هذا الرجل. هذا الحدث بأكمله أقيم لتخليد ذكرى رجال الشرطة الذين ماتوا أثناء محاولة قتله، وها هو يظهر، في إهانة صارخة للشرطة ولعائلات هؤلاء الرجال الذين سقطوا.

سأل كورت:

– "ما الذي يفعله هنا؟"

– "يفعل ما يفعله دائمًا. يقدم عرضًا مسرحيًا".

اختلط الارتباك بالقلق في دماغ جينتري. فكر في الرجال بملابس مدنية الذين رآهم في الحشد. هل كانوا (سيكاريوس)، قتلة مأجورين يشكلون جزءًا من حاشية دي لا روشا؟ أم كانوا يعملون لدى كونستانتينو مادريغال، عدوه اللدود؟ هل هناك ما هو أكثر من مجرد تهديد السكارى والمشاجرات وزجاجات البيرة؟

– "لا يعجبني هذا. أخرج العائلة من هنا. الآن".

– "حاولت للتو. إيلينا لن تتزحزح حتى تنهي كلمتها".

قال كورت:

– "تبًا".

وأسرع عائدًا إلى الدرج للعثور على الرجل المقنع الموجود معه في المبنى.

واصل دي لا روشا التحدث عبر مكبر الصوت، وكان كورت يسمع كل كلمة، وما لم يفهمه، كان يركبه من سياق الحديث.

– "لقد جئت أمامكم اليوم، لأخبر الناس والسلطات بأنني لست مختبئًا. ليس لدي ما أخفيه! محاولة الاغتيال ضدي على يختي فشلت، gracias (شكرًا) لحاميّ ومنقذي فقط. محاولة الاغتيال قام بها sicarios (قتلة) حكوميون يعملون مباشرة بأوامر إل فاكيرو، السيد كونستانتينو مادريغال بوستامانتي، تاجر المخدرات الحقيقي، المجرم الحقيقي الذي يهدد المنطقة وأمتنا المسكينة. مادريغال وعصابات الشرطة المرتشية التابعة له يريدونني ميتًا لأنني أملك أدلة على فساد حكومي على أعلى المستويات في مكسيكو سيتي! بيدي هذه أحمل أسماء الفاسدين العاملين لصالح مادريغال".

حول دي لا روشا انتباهه من الحشد العام إلى إيلينا غامبوا المذهولة، التي لا تزال تقف خلف الميكروفون على المسرح.

–" Señora (سيدتي)، أطلب عفوك لقول هذا، لكن اسم زوجك موجود في هذه القائمة"!

صرخت إيلينا في الميكروفون على المنصة:

– "!Mentiroso" (كاذب!).

تجاهلها دي لا روشا، وخاطب الحشد مرة أخرى بشكل عام.

– "جئت اليوم، واضعًا حياتي في خطر، لأنني أؤمن بأنه لا ينبغي أن يكون هناك تجمع لدعم القتلة والأشرار وضباط الشرطة غير الشرفاء..."

استمر في التحدث، وبدا الحشد منقسمًا في رد فعله الآن؛ بدا أن وصول "البدلات السوداء" قد أرهب البعض وحشد البعض الآخر، حتى مع إثارة غضب الكثيرين في الحشد.

لكن كورت جينتري عزل كل ذلك. كان قد عاد إلى بيت الدرج الآن ومتجهًا للأعلى، باحثًا عن الفيدرالي المتلصص. في أعلى بيت الدرج بدأ يتحرك عبر طابق مظلم آخر مليء بغبار البناء، مرة أخرى باتجاه النوافذ المطلة على الحديقة.

ثم رآه، أمامه في الظلال. كان الرجل المقنع يحمل الرشاش، وجاثيًا خلف الجدار الخرساني، مخفيًا جسده وناظرًا للأسفل باتجاه الحشد. استطاع كورت سماع صوت إيلينا عبر مكبر الصوت، تحاول الرد ومجادلة دي إل آر بينما كان الحشد يهتف ويستهجن كلماتها في آن واحد.

سحب الشرطي جهاز لاسلكي من حزامه، وبدأ يتحدث فيه بصوت خافت. لم يستطع كورت سماع ما يُقال. اقترب قليلًا بقدميه المرتديتين الجوارب فقط، ملازمًا للجدران.

دلف إلى الغرفة المظلمة مع الضابط الآن، وتحرك يسارًا بمحاذاة الجدار نحو الزاوية، وانبطح خلف كومة منخفضة من ألواح الجبس الملقاة على الخرسانة المغبرة.

تحدث الشرطي مرة أخرى، ومرة أخرى، لم يستطع جينتري تمييز حديثه الخافت، لكن كورت لم يثق بالرجل على الإطلاق. لماذا يكون هنا بالأعلى، جاثيًا، يهمس بتآمر في جهازه اللاسلكي لشخص ما؟ لم تبدُ هذه تصرفات شرطي أثناء تأدية واجبه.

ببطء، رفع الشرطي سلاحه؛ ميزه جينتري على أنه "كولت 635"، المسمى "شورتي"، وهو رشاش عيار 9 ملم. رفع الفيدرالي الماسورة فوق الكتل الخرسانية ووجهها للأسفل نحو الحشد. لم يتحرك جينتري بعد، ولم يعرف ما الذي يحدث بحق الجحيم. هل الشرطي هناك لحماية الموجودين على المسرح، وهل رأى تهديدًا ما؟ أم أنه يخطط لقتل إيلينا غامبوا؟ لم يكن الـ "كولت" بندقية قنص، لكن رشقة طويلة من السلاح قد ترسل ثلاثين طلقة عيار 9 ملم منطلقة لمسافة مائة وخمسين قدمًا نحو المنصة، لتطرح كل الواقفين هناك قتلى على الأرض.

تبًا، فكر كورت. لم يعرف ما عليه فعله. إذا كان هذا الرجل من الأخيار، فبالتأكيد لا يريد قتله، لكن إذا كان من الأشرار، فهو لا يريد الجلوس والمراقبة بينما يمزق الأبرياء بالرصاص.

لم يكن يعلم، لكن غريزته أخبرته أن الوضع أمامه يفوح برائحة كريهة، وقد شُحذت غريزته وصُقلت عبر سنوات وسنوات من الخطر. وفي لحظة شبه حسم، وقف جينتري في الغرفة المظلمة، ومشى عبر الأسمنت على رؤوس أصابعه المرتدية الجوارب نحو الرجل المتشح بالسواد. خمسة عشر قدمًا، عشرة أقدام، خمسة أقدام خلفه. كانت خطواته صامتة، وما صدر عنها من صوت ابتلعه ضجيج الشارع والحديقة.

ركع كورت للأسفل، بعيدًا عن مجال رؤية النافذة المفتوحة، خلف الشرطي الجاثي مباشرة.

– "مرحبًا".

دار الضابط الفيدرالي المكسيكي على عقبي قدميه، والتف رأسه بسرعة ليقابل لكمة يسارية وحشية من القاتل الأمريكي. بفرقعة وطقطقة، التقت القبضة بالوجه. طارت نظارات الشرطي الداكنة، وارتجفت عيناه الواسعتان، وارتخى الرجل، وسقط ككيس طحين بوزن مائة وأربعين باوندًا نحو الأسمنت. أمسكه كورت، بشكل أو بآخر، ومدد الرجل الفاقد للوعي على ظهره. وبسرعة، أخذ جينتري سلاحه.

نظر كورت للأسفل عبر كتلة تشبه "السباغيتي" من الأسلاك الكهربائية وكابلات الهاتف الممتدة من موقعه المرتفع هنا، عبر الشارع إلى أعمدة بالأسفل عند مستوى الشارع بجوار الحديقة. تحت هذه الأسلاك، أسفل موقعه مباشرة، رأى مجموعة جديدة من الشخصيات المتشحة بالسواد تشق طريقها عبر الحشد في الشارع. كانوا من الشرطة الفيدرالية أيضًا، وجاءوا من الزقاق حيث الشاحنة المدرعة.

كانوا يرتدون ملابس مطابقة تمامًا للشرطي الممدد عند ركبتي جينتري.

أسفل كورت وإلى يمينه، واصل دي لا روشا الثرثرة في مكبر الصوت. حاولت إيلينا غامبوا التحدث مرتين أخريين، لكن في المرتين واصل الرجل ذو الملابس الأنيقة الواقف في الشمس على غطاء محرك السيارة البيضاء الحديث، مجبرًا إياها على الاستسلام والوقوف فقط عند المنصة. قال شيئًا عن عدم وجود لائحة اتهام، وشيئًا عن فساد مجموعة العمليات الخاصة بالشرطة الفيدرالية، وشيئًا عن كيف أن الأغاني وأفلام الحركة مجرد ترفيه وليست أساسًا للحكم على رجل بأنه مذنب. لوّح بأوراق مطوية في يده، "قائمته" للمتآمرين ضده، وهاجم كونستانتينو مادريغال ورجاله.

حدق كورت للأسفل في الفيدراليين الذين يشقون طريقهم عبر الحشد. بدأ الحشد نفسه في التدافع والابتعاد عنهم. خمسة شرطيين على الأقل، وربما أكثر؛ كان من الصعب إحصاء عددهم بالطريقة التي تحركوا بها داخل الكتلة النابضة والمرتدة من المدنيين حولهم، والجميع يحترق تحت شمس الظهيرة الحارقة.

صرخت إيلينا الآن باتجاه دي لا روشا:

– "Señor أنا أتحدث نيابة عن زوجي الميت! ستسمح لي بالانتهاء"!

تحدث كورت في ميكروفون هاتفه المحمول:

– "لديك خمسة أو أكثر من الأوغاد المريبين يشقون طريقهم نحو المنصة وسط الحشد. ضباط فيدراليون".

سمع كورت كولين ينقل هذه المعلومة لـ لورا، ورآها تخطو خلف منصة القراءة لتتحدث لـ إيلينا. دفعت إيلينا أخت زوجها بعيدًا برفق وهي تواصل مخاطبة دي لا روشا.

نظر كورت مرة أخرى للفيدراليين. كان المدنيون يهرعون حرفيًا بعيدًا عن طريقهم الآن، لكن الرجال المقنعين تحركوا بعدوانية عبر المواطنين، دافعين بأيديهم وأذرعهم، ثم... نعم. أسلحة! حيث كانت أيديهم فارغة من قبل، رأى الآن معدنًا أسود. لقد سحبوا أسلحتهم: رشاشات "كولت" للبعض ومسدسات نصف آلية سوداء للبعض الآخر.

كل مشهد وصوت وحاسة سادسة رآها أو سمعها أو شعر بها جينتري منذ وصوله للساحة أصبحت منطقية فجأة؛ تشكلت كلها معًا في كتلة صلبة من اليقين في أحشائه.

لقد فهم الآن.

لن يكون هناك شغب.

ستكون هذه مذبحة، وهو يملك رؤية شاملة لها من الأعلى.

– "اسحبها من على المسرح يا تشاك! الأمر على وشك أن يصبح صاخبًا!"

صرخ العجوز ردًا عليه:

– "حسنًا!"

سمع كورت القبطان يصرخ في إيلينا:

– "Vamanos!" (لنذهب.)!

نظر كورت للأعلى وعبر الحشد المكون من ألفي شخص في الوقت المناسب ليرى الأمريكي ذا الشعر الأبيض وقبعة البيسبول الزرقاء يمسك إيلينا من ذراعها.

وفجأة دوت طلقة نارية.

نظر كورت عائدًا للفيدراليين، لكن رأسه تبع فورًا مصدر الصوت، أسفل منه وإلى يمينه. انفتح فمه من الصدمة. أسقط دانيال دي لا روشا مكبر الصوت، ويداه مفرودتان بعيدًا عن جسده؛ وأرسلته طلقة ثانية يترنح للخلف، متعثرًا عن غطاء محرك سيارة "شيفروليه

سوبربان" الضخمة البيضاء وساقطًا في أذرع حراسه الشخصيين البدلات السوداء.

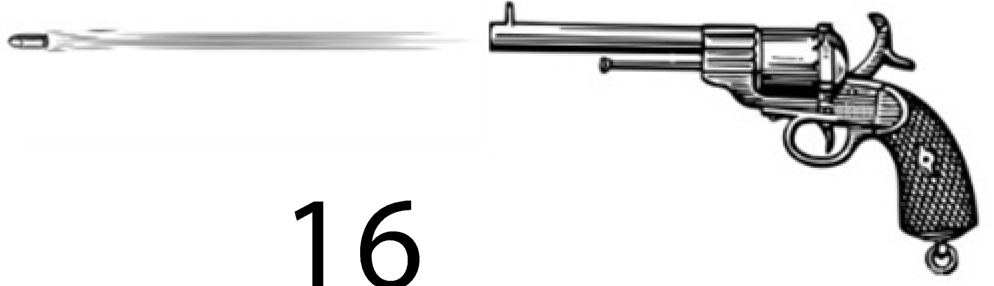
تصاعد دخان مسدس من وسط الحشد أمام السيارة الرياضية متعددة الاستخدامات.

تمتم جينتري لنفسه:

– "يا للهول".

لم يتوقع حدوث ذلك بالتأكيد.





16

– "لقد اغتال أحدهم دي لا روشا."

قالها كورت عبر الميكروفون، لكن دويّ رصاصٍ انفجر أمامه إلى اليسار أجبر رأسه على الالتفات مجددًا. كان رجال الشرطة الفيدرالية المتشحون بالسواد يطلقون النار عشوائيًا على الحشد وهم يندفعون نحو المنصة، حاصدين في طريقهم أرواح المدنيين الذين عجزوا عن الفرار.

كانت الشاحنات البيضاء الضخمة تطلق أبواقها بصيحات هستيرية، وإطاراتها تصرخ فوق الأسفلت وهي تحاول بكل قوتها التراجع والفرار من وسط تلك الكتلة البشرية.

أدرك كورت أن عليه التدخل؛ فلا يمكنه الوقوف مكتوف الأيدي وهو يشهد هذه المجزرة الجماعية.

انتصب «الرجل الرمادي» واقفًا أمام نافذة الطابق الرابع المفتوحة. استلّ قضيبًا حديديًا (مفصلة من حديد التسليح) بطول قدمين من كومة أدوات بجانبه، وأمسك به بقبضة محكمة في يده اليمنى، بينما علّق حزام بندقيته الـ «كولت» القصيرة حول عنقه بيده اليسرى. وبخطوات هادئة بجواربه الصامتة، اعتلى حافة النافذة الأسمنتية. وبنظرة خاطفة وسريعة إلى الأسفل، قفز محلقًا فوق الحشد، فوق الصرخات وأبواق السيارات وأزيز الرصاص، ليهوي نحو الشارع من ارتفاع أربعة طوابق.

أثناء سقوطه، سمع صوت رشاش قصير يفرغ مخزنه بالكامل في تتابع جنوني إلى يساره.

علق جينتري الخطاف الحديدي حول حزمة من أسلاك الهاتف التي تتدلى تحت النافذة بثلاث أقدام فقط، ودفع يده اليمنى تحت الأسلاك مقبضًا على الطرف الآخر من القضيب الحديدي وهو يهوي، ضاغطًا بكل ما أوتي من قوة بكلتا يديه. وبخلعٍ عنيف كاد يفتك بكتفيه، تلقفته الأسلاك ونجح في التشبث بها. اندفع جسده وساقاه بقوة نحو اليمين، ليدور في الهواء بشكل أفقي تقريبًا قبل أن تستعيده الجاذبية، ويبدأ بالانزلاق بزاوية حادة نحو ساحة «باركي هيدالغو»، بينما كان الحديد يمزق الطبقة المطاطية لأسلاك الهاتف أثناء انحداره السريع.

كان يندفع الآن فوق الشارع، محلقًا فوق فوضى عارمة من البشر المكدسين الذين يحاولون يائسين فك اختناق الزحام والفرار من فوهات البنادق.

على ارتفاع ثلاثين قدمًا في الهواء، كان ينزلق بأقصى سرعته، مصارعًا للبقاء متشبثًا بالأسلاك. طار هاتفه وسماعته السلكية بعيدًا عن جسده ليهويا في الشارع بالأسفل. تفرق الحشد الواقف أمام الدرج الأسمنتي الفاصل بين الرصيف والساحة أمام وابل الرصاص المنهمر من الشمال والجنوب؛ وأدى دوي انفجار رصاص جديد بالقرب من الدرج المؤدي إلى كنيسة «تالبا» إلى دفع البعض في اتجاه معاكس لبقية الجموع، مما خلق ما يشبه حلبة صراع من الأجساد المتخبطة والمتساقطة على الرصيف بالقرب من العمود المعدني حيث تنتهي أسلاك الهاتف.

اختار كورت هؤلاء التعساء ليكونوا منطقة هبوطه. وبينما كان ينزلق بسرعة البرق، أفلت القضيب الحديدي وقدميه لا تزالان على ارتفاع ثماني أقدام عن الأرض، وهو في منتصف المسافة فوق الشارع

ذي المسارات الثلاثة. طار في الهواء، وضم ركبتيه إلى صدره، لمح رجلًا ضخمًا بملابس مدنية يمسك بجهاز لاسلكي في يد ومسدس فضي في الأخرى. اصطدم كورت بظهره بقوة، ليتدحرج هو والرجل البدين بعنف، مرتطمين بمن سقطوا قبلهما على الرصيف.

صارع كورت للنهوض، وكان أسرع من أي شخص آخر أطاح به هجومه الانتحاري من الطابق الرابع. ركض فوق ظهر شاب كان ممددًا ووجهه للأسفل على الأسمنت، ثم قفز فوق سور صغير يمتد بمحاذاة الرصيف، متجهًا نحو الدرج الذي خطط كولين لاستخدامه لإخراج عائلة غامبوا من الساحة.

انفجر وابل جديد من الرصاص من جهة الأمام، فتعالت صرخات الحشد. رجال ونساء وأطفال، الكل يركض ويتصارع ويصرخ هربًا من هذه المذبحة. راح كورت يبحث عن مصدر النيران أثناء ركضه، مائلاً بجسده ومستخدماً يده الحرة كحربة لإزاحة المذعورين والمندهشين من طريقه وهو يتقدم نحو مصدر التهديد. وصل الآن إلى أولى الضحايا: جثث مزقها الرصاص، ومدنيون جرحى يتلوون من الألم، تضاعفت معاناتهم بدهس الآخرين فوقهم وهم يحاولون الفرار من هذا الجحيم. شق كورت طريقه مع الحشد نحو الدرج الطويل المؤدي إلى الشارع والكنيسة؛ وأمامه سد بشري منيع من البشر المذعورين الذين يصرخون وهم يقاتلون في طريقهم نحو الدرج بحثًا عن الأمان.

في هذه الأثناء، كان تشاك كولين قد نجح في نقل إيلينا وعائلتها بعيدًا عن المنصة؛ وسرعان ما أرشدها هي ولورا وإرنستو ولوز نحو الدرج المؤدي بعيدًا عن «باركي هيدالغو». كان يتحرك معهم، تارة خلفهم وتارة بجانبهم أو أمامهم، وفقًا لما تفرضه فوضى الحشد المتلاطم، بقية أفراد عائلة غامبوا الثمانية: خالا إيدي وخالاته، وشقيقاه الأكبر، وزوجة أخيه، وابن أخيه البالغ من العمر ستة عشر عامًا. وانضم إليهم أفراد من عائلات ضباط الشرطة الفيدرالية

الآخرين الذين قُتلوا في حادثة «لا سيرينا»، فارّين من المنصة نحو الدرج. لكن الحشد كان كثيفًا لدرجة أن خطة هروب كولين المستعجلة تعثرت على الفور. بدا إيقاع إطلاق النار المنتظم وكأنه فوق رؤوسهم تمامًا، لكنهم بالكاد استطاعوا التنفس، ناهيك عن التحرك بعيدًا. وبعد ما بدا له دهرًا من التدافع، نجح كولين أخيرًا في إيصال عائلة غامبوا إلى الجدار المحاذي للدرج. وبدأ يقاتل ويشق طريقه بمحاذاته للوصول إلى الانعطافة المؤدية للأعلى، لكن أمواج المتظاهرين المذعورين الذين يتحركون في الاتجاه المعاكس كانت تدفع خطته للوراء.

وأخيرًا، استدار عند قاعدة الدرج وتقدم الركب، ممسكًا بيد إيلينا، يتناوب بين الالتفات للخلف للتأكد من عدم تخلف أحد من العائلة، والمسح البصري للأمام نحو الدرج وسط الفوضى العارمة، بحثًا عن أي تهديد أو فرصة تسرع من فرارهم من دائرة الخطر.

دوت طلقات أخرى من الخلف، من مناطق متفرقة في الساحة والشارع، ومن أنواع مختلفة من الأسلحة. كانت لورا تتبع والديها، وتدفع بوالدها الذي كان، مع زوجته، يختنقان عند أسفل الدرج، وقد تكدسوا كالحطب وسط الآخرين.

من فوقهم مباشرة، صاح كولين:

– "انطلقوا! انطلقوا! تحركوا! تحركوا!"

كان يتحدث الإسبانية بطلاقة، لكنه صرخ بالإنجليزية، واثقًا أن معناه واضح للجميع.

طوال تقدمه البطيء والمضني عبر الساحة المكتظة، لم يستطع كورت رؤية أكثر من بضع أقدام أمامه. صارع الكتل البشرية، مستخدماً قبضتيه ودافعًا وخادشًا ليشق طريقه.

– "تحركوا! تحركوا! تحركوا!"

وبالقرب من الدرج، وهو يقفز فوق الجثث والجرحى في طريقه، لمح ثلاثة من القتلة المأجورين «السيكاريو» المتنكرين بزي

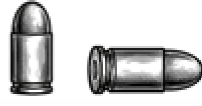
الفيدراليين، وظهورهم إليه. كان هؤلاء الرجال يندفعون للأمام وهم يعيدون تلقيم رشاشاتهم التي يتصاعد منها الدخان، غافلين تمامًا عن وجود عدو مسلح خلفهم. كان الرجال يرتدون سترات ضخمة واقية من الرصاص، لذا وبحزم قتّال، جثا القاتل الأمريكي على الرصيف الساخن، ليصنع مسارًا لطلقاته لا ينفذ عبر أهدافه ليصيب الأبرياء. أطلق بعناية دفعة قصيرة من الرصاص على مؤخرة رأس كل رجل منهم، تحت الخوذة مباشرة. سقطوا وتدحرجوا للأمام وسط المدنيين الهاربين؛ وطارت رشاشات الـ «كولت» ومسدسات الـ «بيريتا» من أيديهم لتسكت إلى الأبد. أمسك كورت بندقيته بيده اليمنى وأطلق النار مرة أخرى على الرجال الممددين على الأرض، مصوبًا رصاصتين إلى جبهة كل منهم وهو يتجاوزهم.

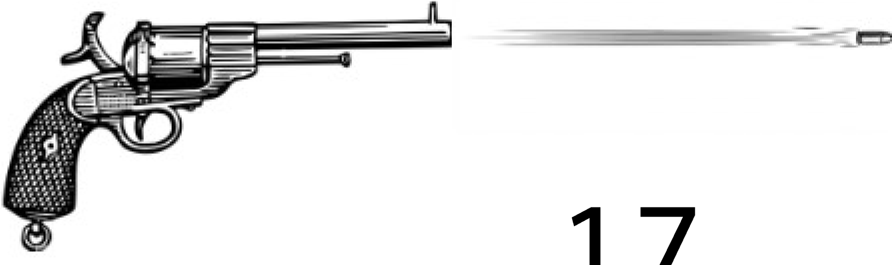
وصل إلى مجموعة من المدنيين الذين تجمدوا من الخوف؛ كانوا بوضوح عائلة واحدة، وكان الأب شبه هستيري وهو يحاول حماية زوجته وأطفاله الثلاثة من الرصاص المتطاير والأجساد التي ترفس وتتخبط، محاولاً الابتعاد عن كل ذلك. وفور أن تلاقت عينا كورت بعيني الرجل المذعور، انتفض رأس المكسيكي جانبيًا، وانفجرت الدماء من فكه. أدار جينتري رأسه ليجد أحد المحرضين بملابس مدنية في الحشد يعيد تصويب مسدسه الفضي الضخم، بعد أن أخطأ كورت في طلقته الأولى. انحنى كورت وتدحرج على الأرض ككرة بولينج، مرتطمًا بالآخرين من حوله، لكنه نجح في تفادي طلقة أخرى من المسدس لا شك أنها أصابت شخصًا بريئًا خلفه.

أفرغ «الرجل الرمادي» مخزن بندقيته الـ «كولت» (9 ملم) في أحشاء الرجل البدين من على بعد اثنتي عشرة قدمًا، مما أدى إلى إصابته بتشنجات قبل أن يسقط جثة هامدة.

ألقى كورت الرشاش الذي نفدت ذخيرته، وزحف للأمام على يديه وركبتيه، ثم استل مسدس القتيل الذي كان لا يزال ينبعث منه الدخان.

انتصب واقفاً، وانطلق راكضًا نحو الدرج؛ كان سلاحه الجديد يتصبب دمًا، وكان يدفع ويزيح بل ويصوب المسدس نحو الأبرياء ليجبرهم على إخلاء طريقه اللعين. بذل كل ما في وسعه للحاق بـ كولين وعائلة غامبوا الهاربة، الذين كانت تحجبهم مئات الأجساد التي تتدافع في كلا الاتجاهين على الدرج الواسع المؤدي إلى الشارع أمام كنيسة «تالبا». وفي لحظة ما، وجد نفسه يتسلق مقعدًا خشبياً، ليقفز عاليًا فوق ظهور ورؤوس الحشد، وكأنه يركب أمواجًا بشرية فوق تجمع بشري مكتظ من سكان «بورتو فالارتا» الذين شلهم الرعب عن الحركة.





17

كان تشاك كولين يسبق كورت ويعلوه بثمانين قدمًا، وقد تجاوز منتصف السلم بقليل، وخلفه مباشرة عائلة غامبوا وبقية أفراد عائلات الـ GOPES. فجأة خف الازدحام عن يمينه، فقرر القبطان المتقاعد توجيه مجموعته في ذلك الاتجاه. دفع إيلينا لتتقدمه وتجاوزه، ليتمكن من إمساك يد لوز وسحبها وسط الفوضى المتلاطمة من الناس الصارخين حولهم.

عند قمة الدرج، وعلى بعد ثلاثين قدمًا أخرى، شق ثلاثة من رجال الشرطة الفيدرالية طريقهم عبر الحشد على دراجات "سوزوكي" نارية ثم ترجلوا؛ سحبوا مسدساتهم من الحافظات المثبتة على أفخاذهم، ونظروا أسفل الدرج باتجاه إطلاق النار. لوحوا للحضور الفارين من التأبين بالمرور، حاثين إياهم على الركض للنجاة بحياتهم، وبدوا وكأنهم يغطونهم بأسلحتهم، باحثين عن تهديدات في الساحة بالأسفل.

المزيد من إطلاق النار. المزيد من أبواق السيارات. المزيد من الصراخ والصياح.

والمزيد من صرخات الاحتضار والألم.

قادت إيلينا غامبوا عائلتها صعودًا عبر الدرج الآن. أبطأت حين لاحظت الفيدراليين، لكنها رأت دراجاتهم النارية، تمامًا مثل دراجة إدواردو؛ وزيهم الرسمي، تمامًا مثل زي إدواردو؛ وأقنعة التزلج ونظاراتهم الشمسية، تمامًا مثل التي كان يرتديها إدواردو. صعدت

الدرج المزدحم بأقصى سرعة سمح بها جسدها الحامل. أشار إليها الشرطي الذي يقف فوقها مباشرة عند قمة الدرج بيده الحرة لتتقدم، بينما كان يمسح الحشد بضراوة بحثًا عن تهديدات.

دوت طلقات أخرى خلف إيلينا بينما كانت تهرع نحو ما ظنت أنه بر الأمان لدى زملاء إدواردو.

دفع تشاك كولين لوز للتحرك مجددًا، وتأكد بسرعة من أن لورا تمسك إرنستو من خصره وتدفعه للأمام خلف زوجته. كان الأعمام والعمات والفتى والشقيقان قد اندفعوا للأمام؛ وتجاوزوا كولين على الجانب الأيسر من السلم. التفت ضابط البحرية الأمريكي المتقاعد ذو الاثنين وسبعين عامًا ليرى إيلينا تتقدم بسرعة على اليمين؛ كانت قد سبقته بينما كان يساعد والدة إيدي. أسرع ليصل إلى قمة الدرج في نفس لحظة وصولها ليتمكن من حمايتها من أي خطر هناك أيضًا، وليوجهها نحو الزقاق خلف الكنيسة حيث رُكنت سيارته.

كان لا يزال خلفها ببضعة أقدام وإلى يسارها عندما رأى الشرطي، عند قمة الدرج، وعلى بعد سبع درجات فوق إيلينا.

وقف الفيدراليان الآخران إلى يساره. وجميعهم يصوبون مسدساتهم الآلية أمامهم. وكحركة رجل واحد، تحولت فوهات أسلحتهم عن التهديدات في أسفل الدرج، واستقرت بدلًا من ذلك على عائلات رجال الـ GOPES القتلى المندفعين نحوهم.

هؤلاء الرجال لم يكونوا يحمون أحدًا. لقد كانوا قتلة.

راقب تشاك في رعب مطلق بينما كانت ماسورة مسدس تشير مباشرة إلى زوجة إيدي غامبوا الحامل.

تحرك القبطان كولين أسرع مما تحرك طوال أربعين عامًا، قاذفًا نفسه للأعلى، واثبًا الدرجات الأربع، وحاشرًا جسده بين السلاح والمرأة.

نبح المسدس رصاصًا، ومزق الألم أحشاء العجوز، ومع ذلك تشبث بالشرطي، وجذبه بقوة في عناق دب.

بدأ الشرطيان المقنعان الآخران بإطلاق النار أيضًا، وصبّا الرصاص أسفل الدرج على عائلة غامبوا وهم يقتربون من القمة.

أُصيب القبطان كولين مرة أخرى في القفص الصدري برصاص الرجل الذي يمسكه، فارتخت ذراعاه عن العناق، وانزلق ببطء لأسفل جسد الشرطي، جاثيًا على ركبتيه عند قمة الدرج الحجري. وببطء أشد، تهاوى للأمام على صدره بينما صرخت إيلينا.

ولتجنب الحشد على السلم، قفز جينتري بقدميه المرتديتين الجوارب عاليًا ليعتلي الدرابزين الحجري العريض والشديد الانحدار الذي يمتد على الجانب الأيمن للدرج؛ وبدأ يركض صعودًا باسطًا ذراعيه للتوازن، والمسدس الذي أخذه من المسلح بملابس مدنية يبرز من يده اليمنى. صرف نظره عن قدميه للحظة ونظر للأعلى نحو اضطراب جديد في الحشد الكثيف المتكدس عند قمة الدرج. وقبل أن تتمكن عيناه من تثبيت المشهد، دوت طلقة مسدس ورأى كورت إيلينا. كان القبطان أمامها، وأمامه وقف فيدرالي متشح بالسواد.

فهم كورت كل شيء في لحظة. كان الشرطي يستهدف زوجة إيدي وطفله الذي لم يولد بعد، وقد ألقى العجوز تشاك كولين بجسده فوق السلاح.

المزيد من الطلقات، ونيران المسدسات السريعة تشتعل، ورأى كورت الضابطين الآخرين يقتلان عائلات مجموعة العمليات الخاصة أثناء صعودهم نحوهم.

انطلق جينتري صعودًا على الدرابزين الحجري. رفع مسدس "سميث آند ويسون" الفضي ووضع ناشن السلاح الأمامي على مؤخرة رأس إيلينا غامبوا، ثم أزاح التصويب جزءًا من البوصة إلى اليمين، وأطلق طلقة واحدة من عيار "357 ماغنوم".

غادرت الرصاصة السلاح، وعبرت صعودًا وفوق الحشد على الدرج، ومرت على بعد بوصتين يمين أذن إيلينا غامبوا، لتضرب قاتل تشاك كولين في عظمة الترقوة اليسرى فوق سترة الـ "كيفلار" الواقية، مفجرة العظم والدم والعضلات من كتف الرجل، وتديره بعنف ليسقط أرضًا، بينما طار مسدسه من يده ودار في الهواء فوقه كلعبة دوّارة.

كان كورت لا يزال على بعد ثلاثين قدمًا من القمة. استمر إطلاق النار، واستدار الحشد خلف آل غامبوا ككتلة واحدة وبدأوا بالركض للأسفل الآن، هربًا من هذا الخطر الجديد فوقهم. قفز بعض الأصغر سنًا والأكثر قدرة على الحركة فوق الدرابزين، ساقطين من ارتفاع خمسة عشر إلى خمسة وعشرين قدمًا نحو حديقة "باركي هيدالغو" الخرسانية بالأسفل للنجاة من الرصاص المتطاير. تقاطع بعض هؤلاء الأشخاص مع خط نيران جينتري، ومنعوه من الحصول على تسديدات نظيفة على القاتلين المتبقيين من الشرطة.

أصبح كورت قريبًا من القمة الآن؛ وأخيرًا، حصل على خط رؤية لهدف أمامه. كان كلا الشرطيين جاثيين خلف دراجتيهما، يعيدان تلقيم مسدسيهما. صوب كورت نحو الرجل الأول، وبدأ يضغط على الزناد وهو يقفز عن الدرابزين إلى الدرجات، لكن مرة أخرى اعترض أحدهم طريقه. في نصف نبضة قلب، رفع إصبعه عن الزناد.

كانت إيلينا، وهي تسقط للخلف؛ كان الحشد قد أفرغ الجزء العلوي من الدرجات، وخلفها لم يكن ينتظرها سوى الخرسانة الصلبة لمسافة عشرة أقدام.

ألقى جينتري بنفسه نحوها، مسقطًا المسدس ليحرر كلتا يديه. هبط خلفها وأمسك بها؛ زلق ذراعيه حول رأسها وبطنها، وانزلق كلاهما مع الجثث الأخرى المتدفقة أسفل الدرج.

تلقى كورت وطأة الارتطام أثناء سقوطهما؛ وأبقى زوجة إيدي آمنة ورأسها وبطنها محميين بينما كانا ينزلقان. رشقة طويلة من بندقية آلية

أسفله ركزت جهود جينتري على إيقاف انزلاقه، والوقوف على قدميه، والدفع للصعود مجددًا. رفع إيلينا بين ذراعيه، واحتضنها، وصارع وزنها وهو يصعد، دافعًا جسده رغم الألم في ظهره وذراعيه الناتج عن الارتطام بالدرجات. عدل مسار صعوده لليسار، باذلًا قصارى جهده لإبقاء مدنيين آخرين بينه وبين المسلحين بالأسفل.

عن يساره، تساقط رجال ونساء وأطفال؛ ومن طرف عينه رأى عمي إيدي وإحدى عماته في كومة من القتلى والجرحى تتدفق أسفل الدرج، مخلفين لطخات طويلة من الدماء الطازجة عبر الدرجات وهم يتدحرجون وينزلقون.

واصل التسلق وإيلينا بين ذراعيه. وضع قدمه على المسدس الذي أسقطه، وأخذ لحظة ليركع ويلتقطه؛ ارتجفت فخذاه من جهد النهوض مجددًا وهو يحمل زوجة إيدي الحامل. وسرعان ما اندفع العدد الهائل من المدنيين، تدافع بشري لا هوادة فيه، من خلف كورت، ودفع أولئك الذين لم يكن لديهم مكان للركض سوى مباشرة عبر القتلة، دفعوا القتلة المأجورين عند قمة الدرج للخلف، وطرحوهم أرضًا، وبحلول الوقت الذي وصل فيه جينتري إلى الرصيف بالأعلى، كان رجال الشرطة قد تخلوا عن دراجاتهم وبدأوا التراجع شمالًا، يعيدون تلقيم أسلحتهم المستنزفة مرة أخرى وهم يفعلون ذلك.

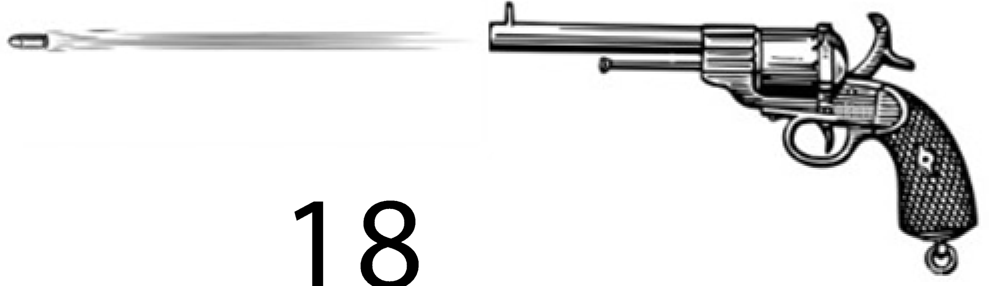
نظر كورت لأسفل إلى جثة تشاك كولين. كان ممددًا على وجهه وملتويًا بعنف، مفرودًا على الدرجات الثلاث العليا؛ وسقطت قبعة "يو إس إس بوكانان" عن رأسه واستقرت بجانبه. وضع جينتري إيلينا برفق، وبحث عن السلاح السائب الذي أسقطه الرجل الذي أطلق عليه النار في الترقوة، لكنه لم يجد له أثرًا.

صرخ:

– "تبًا!"

وهو محاط بالموتى والجرحى والمذعورين، والآن دوت رشقات نارية أخرى عند أسفل الدرج.





18

عند الطريق الممتد فوق ساحة باركي هيدالغو، وأمام الكنيسة مباشرة، كان جينتري ممسكًا بيد إيلينا غامبوا، ورأسه يلتفت يمنة ويسرة بحثًا عن أي ناجٍ من عائلة زوجها الراحل. وعلى بعد، كان المدنيون المذعورون يركضون صرعى الخوف، لكنه لم يلمح أيًا من أحباء إيدي بينهم.

أخيرًا، تناهى إليه صوت يناديه من الباب الأمامي لكنيسة «فرجين دي تالبا»:

– "جو! نحن هنا!"

كان المنادي هو دييغو، ابن أخ إيدي ذو الستة عشر ربيعًا، وهو يشير للأمريكي بالدخول إلى الكنيسة. عبر هو وإيلينا الشارع ذا المسار الواحد وركضا معًا إلى الداخل.

كان قدس الأقداس واسعًا ومظلمًا، تتردد في أرجائه صرخات وعويل الذين احتموا به كأنها أصداء أجراس جنائزية. كان هناك قرابة العشرين شخصًا داخل المبنى العتيق، معظمهم من أقارب ضباط وحدة «GOPES»، يقفون مرتجفين معًا بالقرب من المذبح. كانوا يتبادلون العناق والنحيب، ويواسي بعضهم بعضًا في مصابهم. ووقف فوقهم كاهن بردائه الأبيض، واضعًا يديه على خصريه، وقد علت وجهه ملامح الذهول والحيرة والخوف.

توقف جينتري عند المدخل للحظة ليتفحص حال إيلينا. وبدا جليًا أنها تحت تأثير صدمة عنيفة؛ فقد هرب الدم من وجهها تمامًا، وهو ما استطاع تمييزه حتى تحت ضوء الشموع الخافت وأشعة الشمس الضئيلة التي كانت تتسلل عبر نوافذ الزجاج الملون. ومع ذلك، لم يبدُ عليها أثر لإصابة جسدية. أحكم قبضته على يدها وبدأ يتحرك معها بين المقاعد الخشبية؛ كان دييغو يتحدث إليه، لكن كلماته كانت سريعة ومضطربة لدرجة عجز معها عن فهم ما يقول.

سألته إيلينا بصوت خافت:

– "هل نحن في أمان؟ هل انتهى الأمر؟"

أجابها كورت بصدق:

– "أشك في ذلك تمامًا."

وواصل تحركه معها نحو المذبح.

لم يكن هناك وقت لإحصاء الناجين؛ فكل من كان هناك سيعينه كورت على النجاة، لكنه لم يكن لينتوي العودة أبدًا إلى الخارج حيث لا يزال دويّ الرصاص مستمرًا. كان واثقًا من أن معظم أفراد عائلة غامبوا قد قضوا نحبهم، لكن لوز وإرنستو كانا واقفين عند المذبح دون أذى، وكذلك لورا، شقيقة إيدي الصغرى. تنفس كورت الصعداء حين رآها.

صاح دييغو:

– "لقد قتلوا والديّ!"

فهم كورت قوله هذه المرة، لكنه لم يدرِ بمَ يجيب، فخرجت كلماته بالإسبانية جافة وعملية:

– "سنقلق بشأن هذا لاحقًا."

وعندما رفع بصره، رأى العديد من الناجين عند المذبح وقد جثوا على ركبهم للصلاة، بينما ظل الكاهن العجوز بجبته يقف فوقهم دون أن يشاركهم فعلهم.

حمقى!

حدث كورت نفسه، ثم قاطع صلواتهم صائحًا:

– "مهلاً! ما هذا الذي تفعلونه؟ علينا أن نلوذ بالفرار من هذا المكان اللعين..."

ثم انتقل إلى الإسبانية:

– "لا وقت لهذا!"

التفت إليه الساجدون بأعين لا تزال شاخصة بذهول الصدمة. بدأ يركض نحوهم عبر الممر الأوسط.

نهضت لورا والتفتت؛ فأدرك كورت أنها تحمل مسدسًا من طراز «بيريتا» في يدها اليمنى، وهو على الأرجح السلاح الذي لم يتمكن من العثور عليه بجانب الشرطي الذي أرداه قتيلاً عند قمة الدرج. رفعت المسدس بسرعة نحوه، فتوقف في مكانه كأنه صُعق، ورفع ذراعيه ببطء.

– "لورا. لا بأس. ضعي السلاح أرضًا. سيكون كل شيء بخير."

بدلاً من ذلك، رأى عضلات ساعدها المفتولة تتقلص وهي تضغط على الزناد. ارتمى كورت منبطحًا على أرضية الممر الأوسط بينما دوت رصاصتان فوق رأسه مباشرة. وعبر الصدى المتردد في المكان والطنين الذي أصاب أذنيه، سمع وقع جسد يرتطم بالأرض خلفه عند مدخل الكنيسة. التفت خلف كتفه ليرى أحد رجال الشرطة الفيدرالية ساجدًا على وجهه عند الباب المفتوح على بعد أربعين قدمًا، وبجانبه رشاش من طراز «كولت» ينزلق فوق البلاط.

لقد أردته قتيلاً برصاصة في الرأس.

قال كورت وهو ينهض ببطء:

– "حسنًا. لمَ لا تحتفظين بهذا السلاح معكِ الآن؟"

أومأت برأسها في ذهول؛ فمن الواضح أنها كانت تعاني من صدمة لا تقل عن صدمة إيلينا، لكنها –بكل تأكيد– كانت تجيد الرماية ببراعة.

قال جينتري بالإنجليزية:

– "أيها الجميع، استمعوا إليّ!"

ثم تدارك نفسه وانتقل للإسبانية:

– "أين سياراتكم؟"

أجابه إرنستو غامبوا، والد إيدي، نيابة عن المجموعة:

– "إنها في المرآب الموجود أسفل ساحة باركي هيدالغو."

شتم كورت بصوت عالٍ؛ فسياراتهم تلك أصبحت الآن وكأنها في الجانب المظلم من القمر، ولن يعودوا إلى هناك أبدًا. كما لم يكن بمقدوره نقل الجميع في سيارة تشاك الصغيرة ذات البابين المركونة خلف الكنيسة، حتى لو كان يملك مفاتيحها، وهو ما لم يكن يملكه.

تقدم نحو الكاهن الذي وقف ساكنًا كتمثال المسيح المصلوب خلفه، وقال:

– "سيتعين علينا استعارة سيارتك أيها الأب."

هز العجوز رأسه بإصرار:

– "هذا غير وارد! حافلة الكنيسة ملك لأبناء الرعية، وهم بحاجة إليها!"

دون تردد، سحب كورت مطرقة مسدسه الذي كان لا يزال يمسكه بجانبه. تردد صدى الطقة المعدنية في أرجاء المكان المظلم:

– "يمكن لأبناء رعيتك أن يحصلوا على حافلة، أو يمكنهم أن يحصلوا على كاهن. الخيار لك."

حدق الكاهن في السلاح، ثم مد يده ببطء داخل جبته، وأخرج مفاتيحه وناولها له.

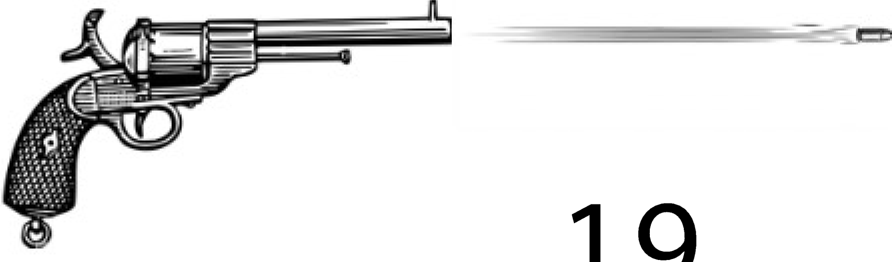
أومأ جينتري برأسه:

– "قرار حكيم أيها الأب."

لمح كورت بطرف عينه نظرة قاسية من لورا غامبوا؛ فخمن أن وازعها الكاثوليكي قد طغى على منطقها العملي في تلك اللحظة. لكنه لم يملك ترف الوقت للمجاملات. وتجاهل نظرات اشمئزازها، وأرخى مطرقة المسدس قبل أن يغرزه في حزامه، ثم اقتاد المدنيين عبر الباب الخلفي للكنيسة إلى الحافلة. فكر للحظة في العودة لاستعادة بندقية الـ «كولت» التي سقطت من الشرطي القتيل عند الباب، لكنه لم يدرِ كم من الوقت سيمضي قبل أن تقتحم فرقة أخرى من القتلة الكنيسة للإجهاز على الناجين.

امتلأت الحافلة بالركاب، وجلس كورت خلف المقود، بينما جلست إيلينا في مقعد الراكب الأمامي، وانطلقوا مسرعين نحو الشمال.





19

على بعد ثلاثة أميال شرقي وسط مدينة بورتو فالارتا، كانت خمس سيارات دفع رباعي بيضاء ضخمة من طراز Suburban Half-Ton تقف في صف منتظم على طريق جبلي مكسوٍّ بالحصى، ومحركاتها تعمل في هدوء. وقف السائقون الخمسة خارج أبوابهم المفتوحة، يرتدي كل منهم قميصًا بياقة صلبة، وسترة تكتيكية فضفاضة مائلة للصفرة، وسروالًا عسكريًا بلون «الكاكي». قبَض كل واحد منهم بيده على رشاش من طراز Mendoza HM-3 الذي يصرفه الجيش المكسيكي. وبجانب السيارات، انتشر خمسة رجال آخرين من الحراس الشخصيين، يرتدون بدلات سوداء متطابقة ذات قصة إيطالية فاخرة، وقد جثا بعضهم أو وقفوا متأهبين، شاهرين بنادق AK-47، التي يطلقون عليها اسم «قرون الماعز» نظرًا لمخازن ذخيرتها الطويلة والمقوسة. كانت عيون هؤلاء الرجال وفوهات بنادقهم شاخصة نحو أسفل التلة، ترقب المدينة القابعة في الأسفل.

في فسحة تبعد نحو عشرين ياردة عن قارعة الطريق، جثا دانييل دي لا روشا فوق العشب، مطأطئ الرأس في ضراعة، وقد علت وجهه الوسيم ملامح مشدودة تفيض بالتركيز. كانت يده اليسرى تقبض على يد الرجل الجاثي بجانبه، إميليو لوبيز لوبيز، الحارس الشخصي لـ دي لا روشا وقائد وحدة حمايته. أما يده اليمنى، فكانت تضغط على يد

قائد جناح الاغتيالات والخطف في عصابة «البدلات السوداء»، خافيير "العنكبوت" ثيبيدا دوارتي.

تحلق حول هؤلاء الثلاثة سبعة عشر رجلًا آخرين، ما بين جاثٍ وواقف بوقار. كان الجميع يرتدون بدلات رسمية سوداء متطابقة من ثلاث قطع، ويحملون مسدسات عند خصورهم أو في جرابات تحت أكتافهم، بينما حمل «العنكبوت» وآخرون رشاشات Micro Uzi قصيرة.

تراصَّ الرجال العشرون بضيق شديد، حتى تشابكت أيديهم، أو التفت أذرعهم حول أكتاف بعضهم، أو ببساطة التصقت أجسادهم ببعضها البعض، ليشكلوا عقدة بشرية متماسكة من الأخوة، وقد نكسوا رؤوسهم أمام ضريح لافت للأنظار مقام على جانب الطريق.

كان دانييل دي لا روشا هو الأقرب إلى الضريح. أفلت يده من قبضة «العنكبوت» للحظات، ليرفع وردة بيضاء من فوق العشب عند ركبتيه، ويضعها عند قدمي هيكل عظمي يبلغ طوله ست أقدام، مصنوع من الجص ومتربع على عرش من الخشب الرقائقي. كان رأس الهيكل العظمي يرتدي شعرًا مستعارًا أسود طويلاً، ويغطيه خمار شفاف. أما جسده وأطرافه، فقد وُريت في ثوب زفاف أرجواني طويل يتلألأ تحت أشعة الشمس، رغم أنه كان محميًا جزئيًا من عوامل الجو بسقف معدني صغير أُقيم فوقه. كانت اليد اليمنى للهيكل العظمي الأنثوي تمسك بمنجل من الخشب والحديد، بينما قبضت يدها اليسرى على شمعة نذرية مشتعلة.

غرس دي لا روشا وردته البيضاء الوحيدة بين عشرات الزهور المتنوعة والشموع العديدة التي ذاب معظمها ليترك بقعًا ملونة من الشمع فوق البلاطة الأسمنتية أسفل «عرش العظام» هذا. وإلى جانب الزهور والشموع، تناثرت عشرات القرابين الأخرى المقدمة لهذا الرمز:

سجائر، وأموال سائلة، وزجاجات «تيكيلا»، ورصاص، وأقراص مدمجة، وثمار تفاح.

تربع الهيكل العظمي في سكون وسط كل هذا الغنيمة، شاخصًا ببصره في فراغ مع ابتسامة صخرية باردة.

بعد انتهائه من تقديم وردته، أعاد دانييل يده لتمسك بيد قائد فدائييه؛ أغمض عينيه بشدة وتمتم بصلاة لـ «سانتا مويرتي[6]»؛ أو «قديسة الموت». كانت هناك مئات الأضرحة المشابهة لهذا الضريح المقيم على جانب الطريق والمنتشرة في أنحاء البلاد، فقد تبنى الفقراء والمستضعفون هذا الرمز، وكذلك الكثيرون ممن يعملون في تجارة المخدرات.

تحدث دانييل بصوت منخفض يملؤه الورع:

– "أيتها الموت المجيدة والقوية؛ أشكركِ لأنكِ أنقذتني اليوم، ولأنكِ أوقفتِ الرصاصات التي كانت تسابق الريح نحو قلبي وحنجرتي، ولأنكِ حميتني وحميتِ إخوتي من كيد المعتدين."

وتابع:

– "يا قديسة الموت، لقد أنقذتني اليوم. أنتِ كنزي العظيم، فلا تتركيني أبدًا؛ لقد أكلتِ الخبز وأعطيتني الخبز، وبما أنكِ المالكة القوية لقصر الحياة المظلم وإمبراطورة الظلام، أريدكِ أن تمنحيني فضلكِ بأن تجعلي أعدائي تحت قدمي، أذلاء نادمين."

استمر في الصلاة بصوت مسموع، بينما كانت «البدلات السوداء» يلتصقون به في خشوع، في حين انشغل الرجال العشرة عند السيارات بمراقبة الطريق النازل نحو المدينة، وهم يختلسون النظر إلى ساعاتهم بقلق.

---

[6] سانتا مويرتي (*Santa Muerte*) تعني قديسة الموت، وهي شخصية شعبية في المكسيك تُجسَّد على هيئة هيكل عظمي يُعبد طلبًا للحماية والشفاء والرزق. ارتبطت عبادتها بالطبقات المهمَّشة، ثم اشتهرت بعلاقتها بعالم الجريمة وكارتلات المخدرات، التي تلجأ إليها طلبًا للحصانة والقوة في مواجهة الموت.

كان نيستور كالبو، الذي يبلغ من العمر سبعة وخمسين عامًا ويعد الأكبر سنًا في الدائرة المقربة لعصابة «البدلات السوداء» بأكثر من عقد من الزمان، منغمسًا في زحام الصلاة عند الضريح، لكنه لم يستطع منع نفسه من فتح إحدى عينيه واختلاس نظرة إلى ساعته الـ Rolex. تناهى إلى مسامعه صرير صفارات الإنذار القادمة من «فالارتا»، وهدير المروحيات التي تحلق غرب موقعهم مباشرة، وأدرك أن المئات من رجال الشرطة والجيش يهرعون الآن لتأمين موقع المجزرة التي وقعت للتو. وسرعان ما سينتشرون للبحث عن أدلة أو مسلحين في التلال، وسيأتون إلى هذا المكان لا محالة.

أتمنى لو نرحل قبل أن يحل ذلك "الحين".

كان القلق ينهشه بسبب هذا المجهول؛ فبصفته مديرًا للاستخبارات، كان عمله يقتضي معرفة كل شيء، قبل أن يطرح رئيسه أي سؤال. ومنذ مغادرته ساحة «باركي هيدالغو» قبل أقل من خمس عشرة دقيقة، تلقى بضع تحديثات سريعة من مصادره في الموقع، وعلم أن العديد من عائلات الـ GOPES قد أُبيدوا تمامًا كما هو مخطط له، ولكن الجائزة الأكبر، عائلة الرائد إدواردو غامبوا، تمكنوا من الفرار. لا شك أن هناك المزيد من المعلومات المتاحة الآن؛ فهاتفه المحمول لم يتوقف عن الاهتزاز منذ أن أمر دي لا روشا القافلة الهاربة بالتوقف عند أول ضريح لـ «سانتا مويرتي» صادفوه وهم يفرون من الخطر. لكن كالبو كان لديه عمل يجب إنجازه، وكان يرى أن هذا التوقف السخيف لأجل هذه الطائفة الهزلية التي يقدسها زعيمه وغالبية زملائه هو قمة الحماقة.

لكنه لم يكن يملك سوى الوقوف والانتظار؛ فزعيمه كان مؤمنًا بالخرافات، والوقوف بين المفتون وصنمه لم يكن فكرة سديدة قط، خاصةً عندما يكون هذا المفتون هو من يوقع شيكات راتبك ويحمل سلاحًا.

لقد طلب دانييل دي لا روشا من «قديسة الموت» علامة؛ فهو يعلم أنها لا تقدم شيئًا دون مقابل، وقد منحته هدية عظيمة اليوم. أراد رد الجميل لها، وكان يشعر بضرورة ذلك، مدركًا أن الوردة البيضاء ليست شيئًا يذكر. فماذا تريد منه؟ وكيف يوفيها حقها؟ انتظر في صمت وهو جاثٍ على ركبتيه لثلاث دقائق. صمت رجاله من حوله؛ فسيمنحونه كل الوقت الذي يحتاجه عند الضريح. حتى العجوز نيستور كالبو، الذي كان يرتعد حنقًا الآن بسبب هذا التأخير، كان يدرك تمامًا عواقب إزعاج دي لا روشا.

ساد السكون، ولم يقطع صمته سوى زقزقة العصافير في الأشجار والخشخشة المتقطعة الصادرة من أجهزة اللاسلكي في السيارات خلفه، وبالطبع أصوات المروحيات والصفارات عند المحيط. لم يكن هناك شيء آخر، لدرجة أنه كان يسمع نبضات قلبه، وهذا الوعي بالذات جعله يركز أخيرًا على الكدمات الموجودة في صدره وحنجرته، حيث استقرت الرصاصات دون أن تخترق جسده.

أجل!

انفتحت عيناه ببطء، واتسعتا بذهول. نظر إلى صدره، فرأى الثقب في طية صدر سترته اليسرى، وفي لحظة، أدرك أنه وجد العلامة. خلع ربطة عنقه بسرعة، ثم نزع سترته، وخلع صدارته وقميصه الأبيض الفاخر الذي كان يكاد ينفجر من عضلات كتفيه وذراعيه. بدأ يفك أزرار القميص لكنه وجد يديه ترتعشان بشدة، من فرط حماسه لما كان يوقن أنه سيجده.

كفَّ عن هذه المهمة الدقيقة، وبدلاً من ذلك مزق قميصه؛ فتطايرت الأزرار العاجية في الهواء في كل اتجاه كطلقات الرش. تراجع الرجال الذين كانوا يلتصقون به أثناء الصلاة إلى الوراء ليتسنى له خلع قميصه، كاشفًا عن صدره وظهره المفتولين، وعن جرابي المسدسين الفضيين التوأم عيار 45 المعلقين عند خصريه.

نظر دانييل ألونزو دي لا روشا ألفاريز إلى جسده، إلى كدمة حمراء وحيدة حيث استقرت الرصاصة الأولى، فوق قلبه تمامًا. كانت الكدمة تتمركز بدقة في منتصف بطن الوشم الضخم لـ «سانتا مويرتي» المرسوم على صدره؛ حيث تمد التمثال الهيكل العظمي يدًا مستعطفة للأمام.

كانت الكدمة في بطن المرأة.

اغرورقت عينا دي لا روشا بالدموع؛ فقد وجد العلامة. عرف الآن ما تريده منه راعيته، وعرف كيف يرد لها الجميل.

– "نيستور؟"

صرف نيستور كالبو، أكبر الرجال سنًا، نظره عن ساعته بسرعة وأجاب:

– "أمرك يا زعيم."

– "زوجة الرائد، لقد نجت، أليس كذلك؟"

– "أجل يا زعيم."

– "وهي حامل؟"

– "أجل يا زعيم."

– "أين «العنكبوت»؟"

– "أنا هنا يا زعيم."

نهض دانييل دي لا روشا ببطء، وفعل الجاثون بجانبه الشيء نفسه، وإن ظل إميليو لوبيز لوبيز منحنياً لوقت كافٍ ليلتقط سترة زعيمه وصدارته وربطة عنقه وقميصه من على الأرض. ألقى بها جميعًا لأحد الحراس الشخصيين الآخرين واقترب من (دي إل آر).

وقف دي لا روشا وجهًا لوجه أمام ضريح الجمجمة ذات العينين الغائرتين تحت الخمار الأبيض الشفاف. قبّل أطراف أصابعه ومد يده ليضغط بها على أسنان الجص المبتسمة:

– "أيها «العنكبوت»... جِد المرأة. واقتل الجنين. لقد نطقت «سانتا مويرتي» بحكمها."

– "أمرك يا زعيم."

بعد دقيقة واحدة، عادوا إلى سيارات الـ Suburban الخمس واتجهوا شرقًا. ركب (دي إل آر) في المقعد الأوسط من السيارة الثالثة، مرتديًا سترة بدلتها، رغم أنه ترك القميص والصديرية وربطة العنق. كان معه في السيارة السائق وإميليو حارسه الشخصي، و«العنكبوت» قائد جناحه المسلح، واثنان من أفضل قناصة «العنكبوت». كما كان يركب معهم نيستور كالبو، رئيس استخبارات (دي إل آر) ومستشاره الشخصي. شعر دانييل بعدم ارتياح كالبو، فالتفت إلى صف المقاعد خلفه وابتسم لمستشاره العجوز:

– "ما الخطب يا نيستور؟ ألا تعجبك زياراتي لـ «الفتاة النحيلة»؟ ألا تزال لا ترى قوة «سانتا مويرتي»؟"

هز العجوز ذو اللحية الرمادية كتفيه قائلاً:

– "لم تكن «العذراء الموت» هي من أوقفت الرصاصات المنطلقة نحو قلبك، بل كانت بدلة الـ Kevlar التي ترتديها، والتي يبلغ ثمنها مائة وعشرين ألف بيزو، وكان الخياط في «بولانكو» هو من صممها، وكان اقتراحي أنا بأن يرتديها الجميع في الدائرة المقربة للمنظمة كل يوم." ثم هز كتفيه وانحنى بسخرية: "اعتذاري للعذراء المقدسة الجالسة هناك على جانب الطريق وفوق رأسها روث الحمام."

ضحك دي لا روشا بصوت عالٍ، مدويًا في ضيق المساحة داخل السيارة المكتظة. كان كالبو مضحكًا عندما يستشيط غضبًا، وكان دانييل يعلم أنه يثير حنق الرجل إلى أقصى حد، وهو ما كان يمنحه متعة كبيرة. في الحقيقة، كان زعيم «البدلات السوداء» يقدر الصدق والصراحة من رجاله، لكن النظام الطبيعي للأمور كاد يمحو الآراء الشخصية لتابعيه من أحاديثهم اليومية؛ فقد قتل موظفين وشركاء لم

يتفق معهم مرات عديدة، ورغم أنه وجد ذلك ضروريًا، إلا أنه أدرك أن هذا الفعل قد كتم أنفاس الصراحة في بيئة عمله.

لكن نيستور كالبو كان الصديق الصدوق لوالده، وكان عبقريًا في عالم الكارتلات. وبصفته رئيسًا للاستخبارات في «البدلات السوداء»، كان يعمل كوسيط في علاقات (دي إل آر) مع الحكومة والشرطة والجيش، ولذلك كان كالبو يعلم أنه في مأمن من العقاب العنيف. كان دي لا روشا يحب هذا العجوز النكد كما يحب والده –فلتحفظ «سانتا مويرتي» روحه الخالدة– وكان مستعدًا للاستماع لـ نيستور وهو يقول ما يشاء، حتى لو كان تجديفًا.

أشار دانييل إلى الكدمة في حنجرته:

– "هل ترى هذا يا نيستور؟ هل ترى أين أصابتني الرصاصة الثانية؟"

– "في عقدة ربطة عنقك؟"

– "أجل!"

– "في عقدة ربطة عنقك المصنوعة من الـ Kevlar؟"

– "تباً لك يا نيستور، أعلم أن ربطة العنق كانت واقية من الرصاص، لكن الرصاصة كادت تصيبني فوقها بوصة واحدة، لتخترق حنجرتي."

هز نيستور كتفيه:

– "إذن، استنتاجك هو أن هيكلاً عظميًا من الراتنج يرتدي ملابس نسائية قد تحكم بطريقة ما في مسار الرصاصة؟ لو لم تصر على الذهاب إلى التجمع في المقام الأول، والوقوف فوق شاحنة بمكبر صوت، جاعلاً من نفسك هدفًا سهلاً، لما احتجت إلى سحر فتاتك العظمية. وحتى بدون هذه المحاولة لاغتيالك، فإن فرق الاغتيال التي جهزها «العنكبوت» لمهاجمة من هم فوق المنصة قد خلقت بيئة خطرة لم يكن ينبغي لك تعريض نفسك لها."

تحدث «العنكبوت» ثيبيدا بغضب:

– "كان رجالي يعرفون مكان الشاحنات، وكانوا يعلمون بضرورة توجيه كل النيران نحو المنصة. الرجل الذي أطلق النار على الدون دانييل لم يكن من فدائييَّ."

بدأ دي لا روشا ـ في دخول المشادة، لكن نيستور أمسك بهاتفه المهتز للرد على مكالمة. فالتفت دانييل إلى إميليو، قائد حمايته، الجالس إلى يمينه:

– "الرجل الذي أطلق النار عليّ، هل نلت منه؟"

– "أظن ذلك يا زعيم."

– "تظن؟"

– "كنت ـ في الجانب الآخر من الشاحنة، لكن أحد رجالي يقسم أنه قتل ذلك الوغد اللعين."

– "مهمتك، لا تنسَ، هي قتل الأوغاد اللعناء قبل أن أُقتل أو أُصاب. لو أُصبتُ، لكنتَ الآن ـ في عداد الموتى، أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟"

قال إميليو:

– "لقد شرفتنا «عذراء الموت» بهدية اليوم."

حدق دانييل ـ في الرجل طويلاً، ثم ابتسم ابتسامة عريضة ومد يده وعانقه:

– "بالفعل لقد فعلت يا صديقي."

والآن اهتز هاتف دي لا روشا. نظر إلى الشاشة وأجاب؛ كانت زوجته:

– "أهلاً يا مامي. لا، لا، أنا بخير والحمد لله. أوه، حاول بعض الحمقى إطلاق النار عليّ لكنهم فشلوا. لقد تولى إميليو ورجاله الأمر. كيف حال الأطفال؟ ممتاز. حسناً يا حبيبتي، قبّليهم جميعًا نيابة عني، سأعود للمنزل قريبًا."

أغلق دي لا روشا الهاتف، وارتشف جرعة من الماء شعر بحرقتها وهي تنزلق في حلقه بسبب الكدمة في حنجرته.

– "زعيم؟" كان المنادي هو نيستور كالبو، وهو يعيد هاتفه إلى جيبه.

– "ما الخطب أيها الملحد؟" سأله بابتسامة.

لم يبادله كالبو الابتسامة، وقال:

– "كان هذا اتصالي مع الشرطة المحلية. كان هناك «غرينغو» (أمريكي) في ساحة «باركي هيدالغو»."

– "أجل، رأيته، ذلك العجوز ذو القبعة الزرقاء على المنصة."

– "كلا، ليس هو، بل آخر. شاب ذو قبعة زرقاء ولحية. لقد قتل خمسة من رجالنا الفيدراليين وواحداً من شرطة «بورتو فالارتا» العاملين لصالحنا."

حدق دي لا روشا فيه لفترة طويلة، واحمرّ وجهه ببطء. وأخيرًا، صرخ فيه:

– "ستة فدائيين؟ لم أفقد ستة رجال في وقت واحد منذ عامين وأنا أحارب كونستانتينو مادريغال والحكومة. مَن يكون هذا اللعين بحق الجحيم؟"

أغلق «العنكبوت» هاتفه وأجاب على السؤال:

– "علمتُ أنه هرب مع عائلة غامبوا. لا أعرف مَن يكون، لكنني سأكتشف أمره."

صاح كالبو من المقعد الخلفي:

– "أنا أعمل على ذلك أيضًا."

– "وماذا عن عائلات قتلة الشرطة؟"

– "عشرون قتيلاً على الأقل."

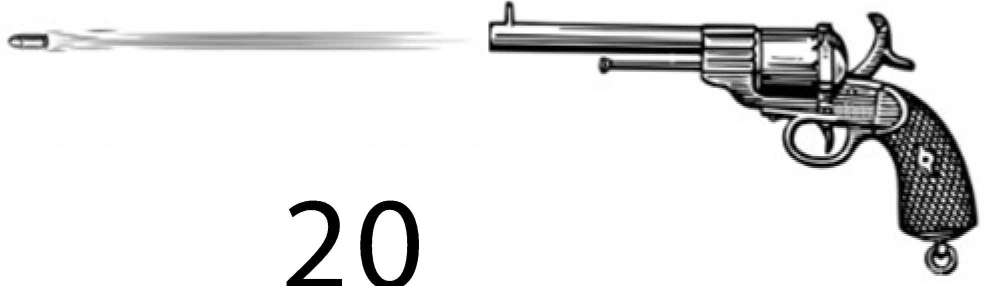
هز دي لا روشا رأسه، لا يزال مندهشاً من ظهور أجنبي من حيث لا يدري والقضاء على فرقة كاملة من فدائيي «العنكبوت» المتنكرين

بزي الفيدراليين. لم يكن من المفترض أن تسير الأمور هكذا؛ كان من المفترض أن يقتل «الفيدراليون» كل من فوق المنصة ثم يختفون. الآن هناك جثث لرجال شرطة يمكن التعرف عليهم، وقد يُربط بعضهم بمنظمته. ومع ذلك، كان يعلم أنه لن يكون هناك تحقيق واسع النطاق؛ فالحكومة هنا في جيبه، وكذلك الإعلام والكثير من ضباط الثكنة العسكرية في الطرف الشمالي من المدينة. ستكون هذه فوضى، لكنها ستمر.

على أي حال، كان لديه نيستور ليتولى التبعات السياسية؛ فذلك لم يكن همَّ دي لا روشا الأساسي. سينصب دوره في اليومين القادمين على العلاقات العامة.

وعلى استرضاء «سانتا مويرتي» عبر قتل ابن الرائد غامبوا الذي لم يولد بعد، ووضع جثمانه فوق ضريحها.





20

قاد كورت جينتري حافلة الكنيسة شمالًا، مغادرًا ولاية خاليسكو ليدخل حدود ولاية نايريت. وطوال الطريق، كانوا يُنزلون الناجين من العائلات الأخرى عند المطار ومحطة الحافلات ومكتب لتأجير السيارات؛ فكل واحد منهم لم يكن يبتغي سوى الفرار بعيدًا عن جحيم بورتو فالارتا.

ولم يتبقَّ معه في الحافلة الآن سوى من نجا من عائلة غامبوا: إيلينا زوجة إيدي، وشقيقته لورا، وشقيقه إغناسيو، وابن أخيه دييغو، ووالداه إرنستو ولوز.

كان مذياع الحافلة مضبوطًا على محطة لا تبث سوى أخبار إطلاق النار في بورتو فالارتا. بدأت التقارير تتحدث عن أحد عشر قتيلًا، ثم ارتفع العدد إلى اثنين وعشرين، حتى استقر أخيرًا عند ثمانية وعشرين قتيلًا، من بينهم رجل الأعمال البارز وزعيم المخدرات المشتبه به دانييل ألونزو دي لا روشا ألفاريز، وثلاثة من شرطة بلدية بورتو فالارتا، وخمسة من الفيدراليين، ومواطن ألماني، وآخر أمريكي. كما أُصيب نحو ثلاثين آخرين من المدنيين ورجال الشرطة. كانت الفرضية الأولية تشير إلى أنه بعد إطلاق النار على دي لا روشا –إما على يد مغتالين حكوميين أو قتلة مأجورين من كارتل «مادريغال»– اندلع اشتباك عشوائي بين القتلة والشرطة والحراس الشخصيين

وسط الحشد، مما أدى إلى أبشع حمام دم تشهده البلاد منذ قرابة خمسة أشهر.

جلست لورا غامبوا خلف كورت، وكانت تمده بإرشادات الطريق وتعليمات دورية:

– "انعطف يسارًا هنا."

ثم تتابع:

– "سيكون الأمر خطيرًا أمام القاعدة العسكرية؛ لنأخذ طريق الشاطئ."

و:

– "سيكون هناك حاجز عند سايوليتا؛ يمكننا العودة إلى الطريق السريع بعد تجاوزه."

بدت خبيرة بشكل مريب بالشوارع والطرق السريعة وأنماط المرور في بورتو فالارتا، وكانت هادئة ومسيطرة على نحو احترافي يثير العجب، على عكس الخمسة الآخرين في الحافلة الذين لم يكفّوا عن الصراخ والنحيب. تساءل كورت إن كانت لورا في حالة صدمة أو إنكار، أم أنها خبرت من الاضطراب والخطر والفقد في حياتها ما جعلها –إلى حد ما– تتقبل هذا الواقع بصلابة.

كانت إيلينا تجري مكالمتها الهاتفية الرابعة الآن. تركها كورت لشأنها لفترة، مدركًا أن رغبتها المحمومة في معرفة من نجا ومن قضى ستستنزف كل كيانها. لكنه لم يعد يطيق هذا الخرق الأمني الصارخ؛ فصاح بها محذرًا:

– "اغلقي الهاتف فورًا."

تجاهلته إيلينا تمامًا، وواصلت الاتصال بالأصدقاء والمستشفيات والعيادات في بورتو فالارتا، محاولةً تقصي أخبار شقيق إيدي وأعمامه وأخواله.

حتى تلك اللحظة، لم تخرج من مكالماتها بأي خبر يقين. وفقط من خلال تبادل الأخبار بين أفراد العائلة داخل الحافلة، بدأت تتضح معالم مصير أحبائهم:

– "لقد قُتل رودريغو.. لقد فقدتُ ابنًا آخر!"

– "رأيتُ الخال أوسكار؛ أُصيب في بطنه، وأظنه فارق الحياة!"

– "كانت الخالة إسبيرانزا بجانبي تمامًا؛ كانت تصرخ، ثم فجأة سكتت وسقطت."

– "أظن أن عائلة أورتيجا كانت أمامنا، لكنهم لم يكونوا في الكنيسة.. أتمنى أنهم.."

– "لقد رأيتُ السيد أورتيجا ملقى في الشارع؛ كانت ساقه تنزف، لكنه كان حيًا."

– "لقد مات الكابتن تشاك.. هل رأيتموه؟"

لم يشترك كورت في حديثهم؛ فإسبانيتهم الصارخة والمضطربة كانت غير مفهومة بالنسبة له تقريبًا، وكان عقله منشغلًا بخطة هروبهم.

ثم فكر في هروبه هو؛ فعليه إيصالهم إلى منزلهم ثم الاختفاء من هنا قبل أن تأتي الشرطة لاستجواب عائلة غامبوا.

راحت إيلينا تطلب رقم أحد الأقارب الذين كانوا على المنصة، دون أن تدري إن كانت تلك المرأة لا تزال على قيد الحياة لتجيب.

صاح الأمريكي خلف المقود:

– "أنهي المكالمة!"

أومأت برأسها لكنها استمرت في الإنصات لصوت الرنين، متمنيةً أن يجيب أحد.

فتح كورت النافذة بجانبه، ومد يده لينتزع الهاتف من يد إيلينا غامبوا بقوة، ثم ألقى به خارجًا على الطريق السريع.

– "لماذا فعلت ذلك؟"

– "يمكنهم تعقب مكالماتكِ.. أنتِ مستهدفة."

– "مستهدفة؟"

– "نعم. أولئك الشرطيون الفيدراليون كانوا يطلقون النار على كل من كان فوق المنصة. لم يكن هناك شيء عشوائي فيما حدث للتو."

– "لقد قُتل دي لا روشا.. لماذا يقتله أحدهم ثم يقتل عائلات رجال الـ «GOPES»؟"

– "لا أدري. التفسير الوحيد الذي يتبادر إلى ذهني هو وجود أكثر من جماعة وسط الحشد؛ جماعة تحاول تصفيتكم، وجماعة أخرى تحاول تصفيته هو." هز كورت رأسه ممتعضًا: "هذا المكان غارق في الفوضى اللعينة."

وضعت إيلينا رأسها بين يديها وانفجرت في البكاء.

قال كورت مخاطبًا نفسه أكثر من الركاب الستة:

– "علينا تبديل هذه السيارة."

سألت إيلينا:

– "لماذا؟ ما خطب هذه الحافلة؟"

– "هذا يسمى الأمن العملياتي. لقد غادرنا موقع الجريمة بهذه الحافلة؛ وعلينا استبدالها بأخرى «نظيفة»."

نظرت إيلينا حولها في أرجاء الحافلة وقالت:

– "إنها نظيفة بما يكفي."

تحدثت لورا من المقعد الخلفي:

– "إنه يقصد سيارة لم ترتبط بموقع الحدث. جو، من أين سنحصل على سيارة أخرى؟ لقد تجاوزنا آخر مكتب لتأجير السيارات عند المطار."

– "يمكننا الحصول على أي سيارة نريدها.. أنا أملك مسدسًا، أتتذكرين؟"

ساد الصمت في الحافلة لعدة ثوانٍ، ولم يُسمع سوى نشيج لوز غامبوا الخافت في الخلف. وأخيرًا، قالت لورا:

– "لا يمكنك سرقة سيارة أخرى."

– "أتراهنين؟"

– "هذا مخالف للقانون."

ضحك كورت بتعجب:

– "ماذا؟ هل أنتِ شرطية؟"

– "نعم."

– "حسنًا." هز كورت رأسه وواصل القيادة، ثم نظر ببطء إلى لورا عبر مرآة الرؤية الخلفية: "هل تتحدثين بجدية؟"

– "نعم."

تدخلت إيلينا في الحديث وهي تمسح أنفها بمنديل، وقالت بنبرة استخفاف:

– "إنها تعمل في «شرطة السياحة» في بورتو فالارتا.. ليست شرطية حقيقية."

ردت لورا بحدة على زوجة أخيها:

– "بل أنا ضابطة شرطة حقيقية. وتدريبي ومسؤولياتي تمامًا مثل—"

انفجرت إيلينا في الصراخ ردًا عليها، واحتدم النقاش بين المرأتين. استعاد كورت توازنه ببطء من هول الصدمة، وأدرك الآن لماذا كانت لورا خبيرة بالشوارع والحواجز وأنماط المرور. ثم انحاز إلى صف شقيقة إيدي ضد إيلينا؛ وكأنه رجل يركض متهورًا نحو حقل ألغام، دخل في هذا الشجار النسائي اللاتيني:

– "الشرطة «الحقيقية» قتلت الكثير من الأبرياء اليوم، وقد رأيتُ كيف تصوب لورا، لذا أنا سعيد لأنها في صفنا."

نظر مجددًا في المرآة نحو شقيقة إيدي:

– "لماذا لم تخبريني أنكِ من الشرطة؟"

هزت كتفيها:

– "لم تسألني."

– "آه."

لماذا أجد نفسي دائمًا مضطرًا لمجاهدة نفسي كي أصرف بصري عنها؟

أجبر نفسه على التحديق في الطريق أمامه.

تابعت لورا:

– "على أي حال، عندما مات إدواردو، تم إيقافي عن العمل. يقول الكثيرون إنه تصرَّف دون إذن، وكان عليَّ الخضوع للتحقيق وتبرئة ساحتي قبل العودة للعمل."

– "هذا هراء."

– "أعلم، لكن هذا ما قالوه. لقد صادروا سلاحي عندما أخذوا أسلحة إيدي من منزله."

– "لا يزال معكِ ذلك الـ «بيريتا» الذي استخدمتِه في الكنيسة."

هزت رأسها:

– "كلا. أعطيته للقس ليحتفظ به. لا يمكن ضبطي ومعي سلاح."

تنهد كورت. هو أيضًا لا يمكن ضبطه ومع السلاح، لكن ذلك لم يمنعه من الاحتفاظ بواحد الآن. تمنى لو أنها لا تزال مسلحة. ترك الأمر، ورفع بصره مجددًا لتلتقي عيناه بعيني لورا في المرآة لنظرة طويلة، وقال:

– "لقد أبليتِ بلاءً حسنًا هناك."

قالت:

– "وأنت أيضًا.. شكرًا لك."

شخص بصر كورت نحو الطريق لثانية، ثم عاد للمرآة؛ كانت لورا غامبوا لا تزال تحدق فيه، فقالت:

– "أرجوك، لا تسرق سيارة أخرى."

استمر تلاقي الأعين لفترة طويلة، قبل أن يشيح جينتري بنظره أخيرًا:

– "كما تشائين يا حضرة الضابطة."



بدأت عائلة غامبوا الصلاة معًا؛ قادت لورا الصلاة، وكان صوت إرنستو هو الأعلى، بينما تمتم إغناسيو بكلمات غير مفهومة، ولم تستطع لوز سوى المشاركة بنشيج خافت مع الكلمات. وبعد الصلاة، خفت وطأة الحديث؛ ظل الناجون الستة يحدقون من النوافذ بينما يقود كورت. كان هو نفسه منهكًا من الجهد والخطر، وشعر بحزن عميق على ذلك العجوز البحّار. أدرك جينتري أن كولين كان رجلًا فذًا؛ وكان ليودّ قضاء ليلة أخرى في شرب الـ «تيكيلا» معه وسماع قصصه. بل – يا للهول– كان سيسعد حتى بتوبيخ العجوز له بسبب شعره الطويل وإجاباته الغامضة.

لكن ذلك العجوز النكد رحل كبطل.

وحدث نفسه أن هذا بحد ذاته ميتة تليق به.

وصلوا إلى منزل إيلينا قبل الثالثة مساءً بقليل. سارع إرنستو بفتح التلفاز وجلس أمامه، بينما انسحبت لوز إلى المطبخ لتبدأ في تقديم ما تبقى من طعام الليلة الماضية. تناول إغناسيو الضخم جعة من الثلاجة وخرج للخلف ليدخن، واختفى دييغو في الحمام، بينما كانت إيلينا ولورا تجوبان المنزل وهما تتجادلان بصوت عالٍ حول ما ستفعلانه تاليًا.

لم يفهم كورت كلمة واحدة مما دار بين المرأتين. وقف في غرفة المعيشة مع إرنستو أمام التلفاز، يشاهد التقارير الإخبارية من فالارتا؛ حيث كان أحد المراسلين يبث تقريره من داخل المشرحة المحلية

وسط صفوف من الجثث المصطفة على الأرض. كانت الملاءات والأغطية الملطخة بالدماء تغطي الجثث الطازجة، ولا يظهر منها سوى الأقدام، مع بطاقات تعريف ورقية معلقة في إبهام القدم اليسرى لكل جثة بخيط أحمر.

أدرك أن الشرطة ستصل إلى منزل إيدي عاجلاً أم آجلاً. لم يدرِ أي نوع من الشرطة سيكونون، ولا إن كانوا أصدقاءً أم أعداءً. تمنى لو أن ما تبقى من هذه العائلة يملك الحكمة لمغادرة البلدة لفترة، وربما اللجوء إلى أصدقاء أو أقارب في جزء آخر من البلاد حيث لا تغلغل لعصابة «البدلات السوداء».

لكن غريزة البقاء المتجذرة في نفس كورت بدأت تعمل بأقصى طاقتها أثناء الطريق، وتجلى مأزقه بوضوح أمام عينيه. عائلة غامبوا لم تخرج من دائرة الخطر بعد، لكن لديه مشاكله الخاصة؛ فهو في البلاد بشكل غير قانوني، وقد أردى للتو حشدًا من الناس قتلى، معظمهم يرتدون شارات أمنية، وأي شرطي سيصادفه سيرغب بالتأكيد في استجوابه حول ذلك.

لم يعد هناك الكثير ليفعله الآن سوى الاختفاء. لا يريد البقاء حتى وصول السلطات. فبالرغم من كل تلك المواعظ الرنانة التي تلقيها الحكومة المكسيكية حول معاملة الولايات المتحدة للمهاجرين غير الشرعيين، فإن أي مهاجر غير شرعي يُضبط في المكسيك لا يحصل على أكثر من زنزانة في السجن.

خمن أيضًا أن وسائل الإعلام ستظهر هنا قريبًا؛ فسكان هذا المنزل كانوا في التأبين، والستة الموجودون هنا هم على الأرجح أكبر عائلة نجت ممن كانوا فوق المنصة عندما اندلعت المعركة، ولم يكن المراسل الذي يظهر على الشاشة يفلح كثيرًا في إجراء مقابلات مع شهود العيان الذين يحملون بطاقات التعريف في أقدامهم.

بدأ كورت يتحرك نحو إرنستو ليوضح له سبب رحيله الآن ويتمنى له ولعائلته الحظ الطيب. لكن فجأة، انقطعت صورة المراسل لتظهر ساحة باركي هيدالغو. كانت هذه لقطات للواقعة نفسها بوضوح؛ الساحة كانت مكتظة، والكاميرا مصوبة من مكان مرتفع يطل على الشارع. التقط المصور لحظة إطلاق النار على دي لا روشا وسقوطه من فوق غطاء محرك الشاحنة، ثم اهتزت الكاميرا ودارت؛ وتحرك الناس أمام العدسة، وبدا أن المصور تعثر ثم استعاد توازنه وسط تدافع من حوله.

جلس كورت على حافة الأريكة يشاهد إعادة لما حدث في يومه.

دوي الرصاص، ولفافات الدخان الرمادي فوق الحشد، ثم.. لا.. مستحيل..

تباً.

لقد رصدته الكاميرا.

أطلق كورت أنيناً مكتومًا بينما كان التلفاز يعرض صورة رجل ملتحٍ يرتدي قبعة بيسبول زرقاء، وسروالًا قماشيًا مكرمشاً، وقميصًا بنيًا، وهو يستخدم قضيبًا حديديًا منحنياً لينزلق عبر سلك هاتف فوق الشارع، وبندقية قصيرة الماسورة تتدلى من صدره، قبل أن يسقط ويختفي وسط الحشد.

لم يساور كورت جينتري أدنى شك في أن عدة رجال ونساء في «لانغلي» بولاية فيرجينيا، يمسكون بأكواب القهوة في أيديهم، يشاهدون الآن هذه اللقطات نفسها على شاشة ضخمة في غرفة مظلمة. وفي هذه اللحظة، سيقوم أحدهم بتعديل نظارته، وينحني قليلًا للأمام، ويقول لمن حوله: "يا للهول! أليس هذا هو «فايوليتور»؟"

كان كورت يعلم أن هذا يحدث الآن وكأنه معهم في الغرفة. سيتردد اسمه الرمزي في وكالة الاستخبارات المركزية عبر المستويات العليا للوكالة، وكل من عمل معه سيحصل على صورة محسنة لذلك

الأحمق الذي يحمل بندقية الـ «كولت» القصيرة وهو ينزلق بين أعمدة الهاتف، ليتمكنوا من تحديد هوية موظفهم السابق الذي يحمل حاليًا أمرًا بالقتل فور الرؤية.

ثم ستأتي شعبة الأنشطة الخاصة (SAD). تلك الشعبة التابعة للسي آي إيه تريد رأسه، والآن بعد أن عرفوا مكانه، ستحط الطائرات التنفيذية القادمة من فيرجينيا في مطار بورتو فالارتا خلال ساعات، لا أيام.

قالها كورت بصوت عالٍ، وكانت تلك هي الإنجليزية الوحيدة التي نُطقت في منزل عائلة غامبوا ذلك اليوم:

– "لا بد أن أخرج من هذا الجحيم فوراً."

نهض مرة أخرى ليغادر؛ وبذل كل ما في وسعه كي لا يركض مسرعًا في غرفة المعيشة.

لكن شاشة التلفاز تغيرت مرة أخرى، بعيدًا عن ساحة باركي هيدالغو. كانت مقابلة مع دانييل دي لا روشا. افترض كورت أنها مقابلة قديمة. كان الرجل الوسيم ذو القصة المهذبة واللحية المحددة بدقة يرتدي بدلتها السوداء المعتادة وربطة عنقه السوداء؛ كان يجلس في كنيسة كاثوليكية بسيطة على مقعد خشبي بسيط؛ وبجانبه مراسلة تمسك بميكروفون وتتحدث بصوت خافت يملؤه التوقير. كانت جميلة، وتبذل قصارى جهدها لتبدو جادة ومهنية، لكن لغة جسدها كانت تفضح لخبير مثل جينتري انجذابًا شديدًا لضيفها.

– "أخبرنا عما حدث اليوم يا سيد دي لا روشا."

– "لقد جئتُ إلى الساحة لأرفع صوتي ضد فساد مكتب المدعي العام، واضطهادهم غير العادل لي. إن تأبين القتلة الذين ماتوا وهم يعملون لصالحه كان أمرًا مخزيًا—"

كان إرنستو يجلس على الأريكة إلى يمين كورت تمامًا. وبما أن الإسبانية هي لغته الأم، فقد فهم ما يحدث قبل الأمريكي. صرخ بصوت عالٍ أرعب كورت:

– "تباً! الوحش لا يزال حيًا!"

كلا، فكر كورت، مستحيل أن يتلقى هذا الوغد رصاصتين في صدره ويجري مقابلة بعدها بثلاث ساعات.

كان هذا بثًا مباشرًا، ولم يبدُ على ذلك الوغد المتغطرس خدش واحد. لقد رآه كورت بوضوح أثناء إطلاق النار، سواء عيانًا أو في إعادة التلفاز قبل قليل. كان يعلم أن الرجل لم يكن يرتدي درعًا واقيًا، ولا حتى سترة «كيفلار».

– "بعد أن أُصبتُ برصاصة، ظننتُ أنها النهاية؛ فكرتُ في زوجتي وأطفالي، ولكن بينما كان زملائي يسرعون بي إلى المستشفى، قلتُ لهم: مهلًا يا رفاق، انتظروا لحظة، لا أظن حتى أن الرصاص قد اخترق جسدي. لقد كانت معجزة، والحمد لله."

رسم علامة الصليب على صدره ثم مسح الدموع من عينيه. ناولته المراسلة منديلاً، فأخذه مع إيماءة شكر. بالنسبة لـ كورت، بدا كل هذا تمثيلًا، وكأنه يؤدي نغمات محددة مسبقًا من الإيمان والحزن والضعف والسحر. ابتسم (دي إل آر) للمراسلة وقال:

– "شكرًا لكِ.. أنا آسف، لقد كان يومًا عصيبًا بالنسبة لي."

نظر جينتري حوله ليجد لوز وإيلينا ولورا في الغرفة معه الآن. دخل دييغو من الممر، وحتى إغناسيو دخل من الخارج بعد سماع صرخة والده. رأى كورت الغضب الأحمر في وجوههم؛ وتمنى لو كان بيده ما يفعله لأجلهم؛ فهم الآن في ورطة أكبر مما كان يظن.

لكن سحقاً.. عليَّ الرحيل.

بنهاية مقابلة دي لا روشا، كانت المراسلة قد وقعت تمامًا تحت سحره. سألته بقلق بادٍ على وجهها:

– "ماذا تود أن تقول للمشاهدين أيضًا يا سيد دي لا روشا؟"

– "لقد حاول عملاء حكوميون يعملون لصالح كارتل مادريغال قتلي مرتين في الأسبوعين الماضيين لأنني أملك معلومات تربطهم ببعضهم البعض. إنني آسف على الفقد الهائل في الأرواح اليوم في ساحة باركي هيدالغو، لكن هذه ليست سوى البداية إذا سُمح للشرطة بقتل من يريدون نيابة عن الإرهابي كونستانتينو مادريغال. من الواضح بالنسبة لي، وأنا متأكد أنه واضح للسلطات الفيدرالية في مكسيكو سيتي، أن السيد مادريغال هو من أمر بالمجزرة في بورتو فالارتا هذا الصباح لمعاقبة الـ «GOPES» على فشلهم في قتلي قبل أسبوعين. ستستمر هذه المأساة طالما بقي كونستانتينو مادريغال حرًا طليقًا."

بينما كان يتحدث، كان أفراد عائلة غامبوا ينصتون بتركيز شديد باستثناء لوز. اختفت المرأة ذات الخامسة والستين عامًا في الممر نحو المطبخ، وعادت بعد ثوانٍ وهي تحمل صينية عليها أطباق من الـ «إمبانادا» المقلية والفاصوليا والموز والسلطة؛ وهي بقايا طعام الليلة الماضية. تأوه كورت داخليًا وهي تحاول تقديم الغداء له.

التفتت لورا نحو كورت:

– "ماذا نفعل الآن؟"

نظر جينتري خلفه، ليرى مع مَن تتحدث بحق الجحيم. لم يكن هناك أحد غيره.

– "عفوًا؟"

– "ماذا الآن؟ ما هي خطتنا؟"

– "لماذا تسألينني أنا؟"

بدت لورا مرتبكة:

– "ظننتُ.. ظننتُ أنك ستخبرنا بما يجب علينا فعله."

– "ليس لدي أدنى فكرة عما يجب عليكم فعله الآن. أنا لا يفترض بي حتى أن أكون في المكسيك. عليَّ أن أنجو بنفسي وأخرج من هنا."

– "تذهب؟ هل ستتركنا هنا؟"

– "أنتم تعيشون هنا."

– "وهل تعتقد أنه يجب علينا البقاء؟"

بالطبع لا ينبغي لهم ذلك، وكورت يعلم هذا جيدًا. لكنه لا يملك أصدقاء ولا معارف في المكسيك. في الحقيقة، لم يكن يملك أصدقاءً حقيقيين في أي مكان.

– "أنتم لا تريدون المجيء معي؛ أضمن لكم ذلك. ابحثوا عن مكان آمن، واتصلوا ببعض الأصدقاء الذين يمكنهم المساعدة."

تجاوزت إيلينا شقيقتها، وقالت المرأة الحامل بنبرة استعطاف:

– "نحن لا نعرف مَن يمكننا الثقة به."

– "وأنا أيضًا لا أعرف. لستُ من أهل البلاد."

– "لقد وثقنا في الـ «GOPES» حتى قُتل إيدي.. ووثقنا في الكابتن تشاك.. ونحن نثق بك."

اللعنة.

قال كورت:

– "بالتأكيد كان لـ إيدي بعض الأصدقاء هنا، في الحكومة أو الجيش، يمكنهم حمايتكم."

ارتفع صوت إيلينا، والذعر يتسلل إلى قلبها وهي تدرك أن الرجل الذي أنقذ حياتهم على وشك الرحيل:

– "لقد أُبيدت وحدته بالكامل. ويبدو من المرجح أن رؤساءه متورطون في الفساد. إلى مَن نلجأ الآن؟"

– "وماذا عن الولايات المتحدة؟"

هزت إيلينا رأسها:

– "عمل إيدي في العمليات السرية لثلاثة عشر عامًا، معظمها خارج البلاد. والعمل السري لا يصنع أصدقاء. كان له أصدقاء في البحرية، لكني لا أعرفهم. لا يمكنني الظهور فجأة، وأنا حامل وأهرب من القتلة، لأطلب المساعدة من أشخاص لا أعرفهم."

شعر كورت بأنه محاصر. كانت العائلة بأكملها تحدق فيه، فتراجع خطوة غير واعية للوراء حتى ارتطم بالجدار الأسمنتي. وبصوت خافت، هز كتفيه:

– "أنا.. لا أعرف. أعتقد أن عليكم الابتعاد عن هنا. لكن إلى أين تذهبون.. وماذا تفعلون.. ومَن تثقون به؟ ليس لدي أدنى فكرة. لا أستطيع مساعدتكم. أتمنى لو كنت أستطيع."

ساد صمت طويل. نظر جينتري بلهفة نحو الباب الأمامي في الطرف الآخر من الغرفة؛ وكأنه يبعد أميالًا.

هز الشاب دييغو رأسه باشمئزاز، ثم استدار واختفى في الممر. لم يكن يفهم كل الإنجليزية التي قيلت، لكنه أدرك حقيقة أن «جو» قرر الرحيل.

قالت لورا:

– "يمكنك مساعدتنا.. لقد ساعدتنا بالفعل، وتوليت زمام الأمور.. إطلاق النار وكل ما حدث في بورتو فالارتا.. أنت—"

أرادهم كورت أن يفهموا:

– "إطلاق النار وكل ذلك.. هذا تخصصي تقريبًا. لا أجيد فعل أي شيء آخر. خطتي انتهت بمجرد اختفاء الأشرار. عليكم فقط مغادرة البلدة.. والابتعاد عن «البدلات السوداء». لن أكون مفيدًا لكم في ذلك."

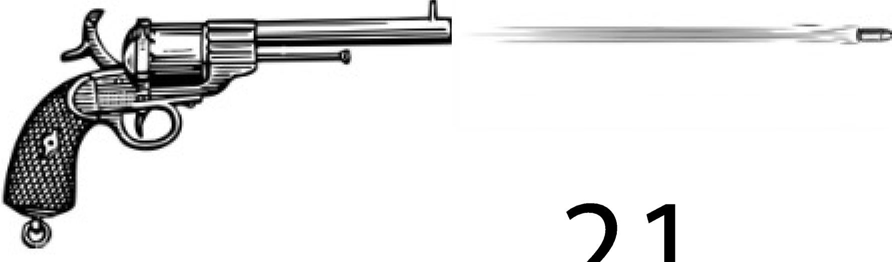
بدأت إيلينا تتوسل إليه للبقاء.

– "اتركيه وشأنه." صرخت لورا مقاطعةً زوجة أخيها، "لقد انتهى أمره معنا! وهذا حقه." ثم نظرت إليه وقالت: "شكرًا لك على كل شيء. سنكون بخير." لم تكن مهارات كورت في التواصل الاجتماعي كافية

ليدرك إن كانت تقصد ذلك أم أنها تسخر منه، لكن الشكوك كانت تساوره.

أومأ كورت برأسه، وصافح الجميع متمنيًا لهم الحظ الطيب، ثم خرج من الباب الأمامي وغادر.





21

سار كورت جينتري عبر السوق الممتد بمحاذاة الطريق شمال ساحة البلدة، قبالة كنيسة سان بلاس. كان الألم يعتصر قلبه تعاطفاً مع آل غامبوا، لكن يقينه كان راسخاً: إن لم يغادر هذا المكان فورًا، فسيكون مصيره الموت على يد وكالة الاستخبارات المركزية أو رجال غريغور سيدورينكو، أو في أحسن السيناريوهات بؤسًا، سيُلقى به في سجن مكسيكي لافتقاره للأوراق الثبوتية أو لقتله عناصر من الشرطة الفيدرالية.

راح يبرر قراره بترك العائلة المنكوبة خلفه، مقنعًا نفسه بأن وجوده بينهم يجلب الضرر أكثر مما يحقق النفع. فـ إرنستو يتمتع بعلاقة طيبة مع الشرطة المحلية، وهي علاقة ستنهار حتمًا إذا أدركوا أنه يؤوي هاربًا تطارده الحكومة الأمريكية والشرطة المكسيكية على حد سواء.

وماذا لو هبط القتلة الروس في سان بلاس؟ حسنًا، سيثير ذلك حفيظة الشرطة المحلية حقاً.

سيكونون بخير. لورا وإيلينا ودييغو ولوز وإرنستو. سيلتف حولهم السكان المحليون ويحمونهم كما فعلوا الليلة الماضية. لقد أوصل دي لا روشا رسالته عبر إطلاق النار في فالارتا؛ وآل غامبوا الآن تحت الأضواء، لذا سيكونون في مأمن.

كما شرح كورت لإيلينا ولورا، تكمن فائدته في الاشتباكات المسلحة. لكنه ذكّر نفسه بأن وجوده يمثل عائقًا في معظم المواقف الأخرى. يا إلهي، لقد ظهر على شاشة التلفاز!

والرجل الرمادي اللعين لا يظهر على شاشات التلفاز اللعينة!

تجاوز الكنيسة واقترب من محطة الحافلات، متأرجح الذراعين بحرية أثناء سيره. حقيبته القماشية بقيت في سيارة تشاك كولين، لذا لم يكن يحمل سوى محفظة ومسدس مخفي بثلاث طلقات حية. مر بصالون حلاقة ومتجر لمستلزمات التجميل، وواصل المشي للحظة، ثم أبطأ خطواته.

لفتت انتباهه لافتة صفراء كبيرة على جدار أحد المتاجر. بدت كأي إعلان آخر؛ لمدرسة، أو تأمين سيارات، أو مشروب غازي.

لكنها لم تكن كذلك.

كانت مختلفة تمامًا.

«انضم إلى صفوف رعاة البقر في كارتل مادريغال. نقدم مزايا وتأمينًا على الحياة ومنزلاً لعائلتك وأطفالك. توقف عن العيش في الأحياء الفقيرة وركوب الحافلات. سيارة جديدة أو شاحنة، الخيار لك. سيحصل أفراد الشرطة أو الجيش أو مشاة البحرية على مكافأة خاصة للانضمام إلينا».

كُتب رقم هاتف في الأسفل بجوار صور لعائلة سعيدة ومبتسمة.

تسمر كورت في مكانه. قرأ الإعلان مرة أخرى، متأكدًا من استيعابه. نعم، لقد فهمه تمامًا.

ما هذا الجحيم؟ هل توظف عصابة المخدرات علنًا؟

هذا المكان مجنون تمامًا.

قال رجل عجوز يجلس على مقعد أمام المتجر، وقد لاحظ ذهول كورت:

– "يسمونها رايات المخدرات (Narcobanderas). إعلانات توظيف للكارتلات. أمر لا يصدق، أليس كذلك؟"

من الواضح أنه لاحظ فك كورت المتدلي دهشةً؛ وإلا لظن أن الرجل الملتحي مهتم بالوظيفة.

نظر كورت إلى الرجل وقال:

– "مادريغال ينشرون هذه الإعلانات، والشرطة لا تزيلها؟"

هز العجوز كتفيه:

– "يفعلون ذلك أحيانًا."

الحمد لله. ليس الجميع فاسدًا.

– "هذا جيد."

رد العجوز:

– "نعم، الشرطة التي تدعم دي لا روشا (DLR) تزيل أحيانًا إعلانات مادريغال. أو يكتبون عليها ملاحظة في الأسفل تقول إن «البدلات السوداء» يقدمون خطة تأمين على الحياة أفضل من «رعاة البقر»."

هز كورت رأسه غير مصدق.

تجار المخدرات في كل مكان، حتى هنا. مثل ورم خبيث، تغلغلت الكارتلات في كل مناحي الحياة على ساحل المحيط الهادئ في المكسيك.

لا يمكنني خداع نفسي. لورا وإيلينا والبقية ليس لديهم أي فرصة. ولكن، ماذا عساي أن أفعل؟

نظر كورت نحو الشارع باتجاه محطة الحافلات، وخطا خطوتين في ذلك الاتجاه، ثم توقف مجددًا.

تردد. تردد كامل ومطبق.

تبًّا لك يا جينتري.



بعد جدال عائلي طويل في غرفة المعيشة، تولت لورا غامبوا كوراليس القيادة المؤقتة للناجين من عائلتها، إضافة إلى إيلينا غامبوا غونزاليس، زوجة أخيها الراحل. أعلنت لورا قرارها بضرورة مغادرة سان بلاس بعد الظهر، والتوجه إلى صديق للعائلة يقع منزله على بعد ساعة تقريبًا باتجاه الداخل في مدينة تبيك. كان الرجل محاميًا بارزًا، وكانت واثقة من مساعدته لهم.

تعبت إيلينا من الجدال، فرضخت لرغبة أخت زوجها، ثم تمددت على الأريكة لتريح ظهرها المتعب وقدميها المتورمتين. في البداية قاوم إرنستو ولوز قرار الرحيل؛ فسان بلاس هي موطنهم، لكن عندما أقسمت لورا أنها لن ترحل بدونهما، وافقا على مضض.

فقد دييغو والديه اليوم. ورغم أنه نظريًا في عهدة إرنستو ولوز، إلا أنه كان ناضجًا بما يكفي لاتخاذ قراراته بنفسه. كان بإمكانه الخروج من الباب الخلفي والقفز على دراجة والابتعاد لو أراد، لكنه بقي مع العائلة.

كان يعلم أن جده إرنستو عجوز، وأن عمه إغناسيو وغد عديم الفائدة.

أدرك دييغو أنه يجب أن يكون رجل البيت. لم يكن قرارًا سهلاً. هو نفسه باع حشيش سينالوا لراكبي الأمواج والرحالة الأمريكيين في بويرتو فالارتا وسايوليتا، لذا كان عمليًا عضوًا في تنظيم مادريغال، وإن كان في أدنى درجات السلم. لكن ذلك بات من الماضي. الأمر ليس متعلقًا بالمال أو الصواب والخطأ؛ بل بالعائلة، وبالبقاء. سيفعل كل ما يلزم لضمان سلامة عائلته.

كان إغناسيو قد وصل إلى حالة السُكر النصفي بفضل البيرة والتكيلا خلال الساعة الماضية. وافق على الذهاب مع العائلة إلى تبيك

دون جدال. لم تكن لديه عائلة خاصة، ولا مكان يذهب إليه سوى العودة لمنزله الواقع شمال بويرتو فالارتا.

ورغم كؤوس التكيلا المعتقة والبيرة في دمه، لم يكن سكرانًا لدرجة تمنعه من إدراك أن ذلك لم يعد خيارًا بعد أحداث اليوم.

شعرت لورا بالرضا لوجود خطة، لكنها كانت ستشعر بتحسن أكبر لو بقي «جو» للمساعدة. خاب أملها في الغريب الأمريكي لرحيله. لقد أنقذ حياتهم جميعًا؛ لم ترَ ما فعله في حديقة هيدالغو، لكن وفقًا للأخبار، قتل أحدهم ستة من القتلة المأجورين (sicarios) الذين أطلقوا النار على الحشد. وبما أن لورا أطلقت النار على واحد فقط، فقد استنتجت أن هذا الأمريكي الغامض تكفل بالبقية.

كان ثمة انجذاب أيضًا، لكنها كبتته الآن بعد رحيله. لم تنظر لرجل منذ سنوات، منذ أن عُذب زوجها حتى الموت على يد تجار المخدرات في الشمال. لكنها نظرت إلى جو. لم تعرف السبب. تساءلت إن كان السبب مجرد معرفته بـ إدواردو في تلك السنوات التي اقتصرت علاقتها به على مكالمات هاتفية وبطاقات بريدية من مدن بعيدة. جعلها ذلك تشعر بالقرب من الأمريكي، وكأنهما صديقان من الماضي.

والآن، جاء الأمريكي الغامض ورحل، ظهر واختفى في غضون أقل من أربع وعشرين ساعة، وأخرج نفسه من حياتها.

مع كل ما حدث اليوم، لم تفهم حقًا لماذا تهتم.

أمرت العائلة بالاستعداد للرحيل. سيتكدس الستة في شاحنة إدواردو الكبيرة من طراز F-350. بدأ والدها بالحزم، ودخلت والدتها المطبخ لتجهيز الطعام والشراب، وأخذ دييغو الشاحنة لملئها بالوقود وإضافة الزيت.

استراحت إيلينا على الأريكة، وخرج إغناسيو للتدخين والشرب في الخلف.

رن الهاتف في غرفة المعيشة لأول مرة منذ عودة العائلة. أجابت إيلينا.

– "ألو؟"

– "مساء الخير يا إيلينا. كيف حال العائلة؟"

– "من معي؟"

– "اسمي دانيال."

شهقت إيلينا قبل أن تتكلم. لقد ميزت الصوت.

– "دانيال دي لا روشا؟"

– "في خدمتك. لم نلتقِ رسميًا اليوم. ولم أحظَ بفرصة لقاء زوجك رسميًا أيضًا. يا للأسف على ما حل بإدواردو."

انقطع نَفَس إيلينا:

– "أنا... رأيتك تُصاب بالرصاص."

ضحك قائلاً:

– "يا سيدتي، إذا كان زوجك القوي، المدرب على القتل بيد الـ «غرينغوس» (الأمريكيين)، قد عجز عن قتلي، فهل تظنين حقًا أن قتلي بتلك السهولة؟ لا، ليس بي خدش واحد."

– "لماذا تتصل بي؟ ماذا تريد؟"

– "سأخبرك بما أريد. لن يعجبك الأمر، لكنني سأخبرك. أريد طفلك. يجب أن يدفع ابنك ثمن جرائم زوجك. أعطني طفلك، وستنجين بحياتك. لن أهددك أنت أو عائلتك بعد ذلك."

– "طفلي؟ ستقتل طفلي؟"

– "نعم، لكن الأمر ليس بهذا السوء. اسمعي، سأجعل الأمر سهلاً للغاية. اذهبي إلى طبيب، وسأتحدث إليهم وأشرح الوضع. سيعتنون بك ويأخذون منك ما أريد فقط. إذا فعلتِ هذا، ستنقذين حياتك وحياة بقية أفراد عائلتك الذين نجوا من حديقة هيدالغو هذا الصباح،

وستنقذين حياة كل من يحاول منعي من أخذ طفلك. بمن فيهم الـ «غرينغو» الغامض."

– "تريد... طفلي؟ هل أنت مجنون؟"

– "أنا بعيد كل البعد عن الجنون. أنا رجل أعمال عقلاني. وأقدم لك عرضًا لفترة محدودة. وافقي الآن وإلا ستندمين."

– "أنت معتوه. اتركني وعائلتي وابني الذي لم يولد بعد لنحزن على كل ما سرقته منا!"

تغيرت نبرة دي لا روشا المهذبة، لتصبح لاذعة كالأسيد:

– "اسمعي أيتها العاهرة! زوجك حاول أن يسرق مني! حياته لم تسدد ثمن المتاعب التي سببها. حياته لم تكن تساوي القذارة العالقة بحذائي! سلميني ذلك الطفل وإلا سأقتل كل..."

أغلقت إيلينا غامبوا الهاتف بقوة، ورفعت يديها إلى وجهها، وأطلقت صرخة مدوية. ضمت لورا زوجة أخيها بين ذراعيها واحتضنتها بقوة. وبدأت تصلي بصوت عالٍ وهي واقفة في غرفة المعيشة.

– "يا رب، احمِنا!"



انفتح الباب الأمامي، فالتفتت المرأتان نحوه معًا. كان جو، الأمريكي.

تلعثمت لورا في حيرتها، مذهولة:

– "هل... نسيت شيئًا؟"

نقل وزنه بتوتر من قدم لأخرى قائلاً:

– "يمكنني فقط حراستكم الليلة. وغدًا إذا لم تهدأ الأمور، يمكنني الاختباء في قارب إيدي إذا جاءت الشرطة."

أخبرته إيلينا فورًا عن مكالمة دي لا روشا. أحاط كل من لوز وإرنستو ودييغو ولورا بإيلينا وهي تتحدث. توترت عضلات فك كورت

عندما نقلت المرأة الحامل مطلب زعيم المخدرات بحياة طفلها الذي لم يولد بعد.

سأل:

– "لماذا؟ لماذا الطفل؟"

– "لا أعرف. ربما لأنه ذرية إدواردو الوحيدة."

قال كورت بصوت خافت وهو يهز رأسه:

– "إرثه. هذا الوغد قادم من قرون وسطى لعينة."

فكر لبضع ثوانٍ ثم قال:

– "عليكم الهرب. يجب أن تخرجوا من هنا فورًا."

قالت لورا:

– "نحن ذاهبون إلى تبيك. لدينا صديق هناك، محامٍ بارز. يمكنه..."

قاطعها كورت:

– "لا. لا أصدقاء. يمكن لفرقة «البدلات السوداء» تتبعكم إلى أي صديق يعيش قريبًا. تحتاجون لمكان منعزل، مكان يمكنكم الاختفاء فيه ليوم أو يومين حتى نعرف من يقف في صفكم."

تردد قليلاً ثم أضاف:

– "إذا كان بإمكانكم التفكير في مكان كهذا... سأرافقكم، فقط لأتأكد من وصولكم إليه."

حك إغناسيو بطنه الضخم ونظر إلى كورت:

– "لدينا أبناء عمومة يملكون مكانًا في مازاتلان. يمكننا الذهاب إلى هناك."

– "لا. لا أصدقاء، ولا عائلة."

تدخلت لورا:

– "أعرف مكانًا."

سأل جينتري:

– "أين؟"

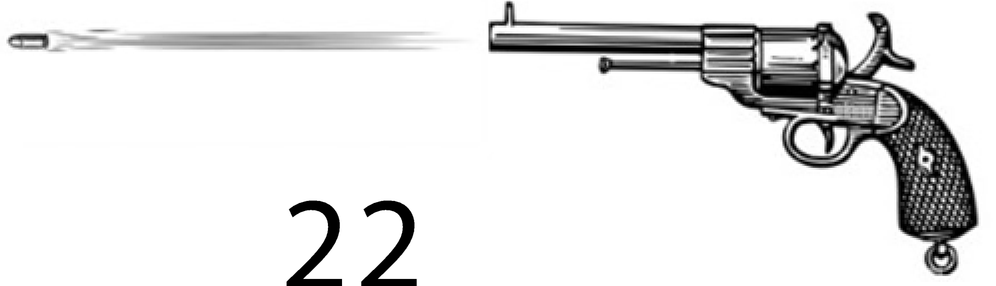
– "مزرعة قديمة في أعالي جبال «سييرا مادري»، تبعد ثلاث أو أربع ساعات من هنا، حسب حالة الطرق. تملكها عائلة زوجي الراحل، لكنهم كبروا في السن وانتقلوا إلى المدينة. وحسب علمي، المزرعة غير مأهولة."

أعلن كورت للعائلة:

– "هذا هو المكان الذي سنذهب إليه."

لقد عاد لتولي القيادة.





22

لو كان الأمر يقتصر على كورت وحده، لغادر المكان منذ أمد بعيد، فدقيقة واحدة كانت ستكفيه للتواري عن الأنظار عقب اتخاذ القرار بالتوجه إلى مزرعة في أعالي الجبال. لكنه لم يكن وحده؛ إذ كان ثمة ستة آخرون سيرافقونه في هذه الرحلة. وبالنسبة لرجل مثل "الرجل الرمادي"، كان يشعر وكأن له ذيلاً طويلاً ثقيلاً يتدلى من خلفه، ذيلاً يزحف وراءه مكشوفاً، ويتعثر بكل ما يصادفه في طريقه. لم يكن بمقدوره ببساطة أن يخرج من بوابَة الحديقة الخلفية إلى الزقاق، ويختفي وسط الغبار؛ بل كان عليه انتظار ثلاث نساء، وطفل، وسكير سمين، وعجوز حتى يجمعوا شتات أنفسهم. حاول في البداية استعجالهم، لكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى الموافقة على أنه لا وقت لديهم لإضاعته، ثم استمروا في لملمة أشيائهم ووضعها ثانية وهم يهرعون في أرجاء المنزل.

وبينما كان كورت ينتظر، تولى مهمة الحراسة؛ كان يحمل مسدساً من نوع "ريفولفر" فيه ثلاث رصاصات فقط. وضعه خلف ظهره أسفل قميصه وهو يقف بجوار شاحنة إيدي. كانت الشاحنة كبيرة بما يكفي لسبعتهم، بالكاد، لكنها كانت أيضاً مركبة دفع رباعي قوية قادرة على السير في الطرق الوعرة إذا لزم الأمر. بل كانت مزودة بمصابيح كاشفة ضخمة فوق سقف المقصورة، قد تفيدهم في طرق الجبل القاسية. كان دييغو قد أطلع كورت على تفاصيل المقصورة، وكيفية تشغيل أزرار

التحكم في الإضاءة والرافعة، وكيفية استخدام جهاز التحكم عن بعد لتشغيل المحرك دون وضع المفتاح في مكان التشغيل.

لم يكن التجول في مركبة ضخمة ومبهرجة خيار جينتري المفضل بكل تأكيد، فهي تجذب أنظار الشرطة الفاسدين الذين قد يستهدفون هذه العائلة، لكنه على الأقل جعل دييغو يستبدل لوحات الأرقام الأمامية والخلفية بلوحات سيارة لورا، وهي سيارة "هوندا" صغيرة ببابين. كان يأمل أن تكون هذه الخديعة كافية لمنحهم بضع ساعات من الأمان بعيداً عن سان بلاس.

بينما كان كورت ينتظر "ذيله" بفارغ الصبر، ظل يراقب البوابة القابعة في نهاية الممر الصغير. لم يمضِ على وقوفه هناك سوى دقيقتين حتى ظهرت شرطية من بلدية سان بلاس في منتصف العمر عند البوابة، وأخذت تسترق النظر فيه من بين القضبان. تذكرها كورت من مأدبة العشاء في الليلة السابقة؛ كانت واحدة من أفراد الشرطة الذين وقفوا في الحديقة الخلفية. لقد عانقت لورا عدة مرات؛ وهو أمر لاحظه دون شك لأنه كان يراقب لورا باهتمام. أومأ كورت لها بيده محيياً، لكنها اكتفت بالتحديق فيه. كانت هيئتها قد تغيرت عن الليلة الماضية، وتساءل عما تعرفه عن تورطه في أحداث بورتو فالارتا.

علينا الرحيل فوراً!

قال ذلك لنفسه، لأن تكرار الأمر على مسامع آل غامبوا لن يكون سوى هباء منثور.

تراجعت الشرطية بعد ثوانٍ، ليحل محلها شرطي آخر من سان بلاس عند البوابة. سرعان ما انصرف هذا الرجل أيضاً، ولكن بعد فترة وجيزة، سمع كورت صوت طنين جهاز لاسلكي للشرطة في الشارع خلف الجدار، فأدرك أن الشرطي – وربما الشرطية أيضاً – لا يزالان واقفين هناك. تمنى لو كانوا هنا لحماية عائلة غامبوا، رغم أنه

لم يكن هناك الكثير مما يمكنهم فعله بهراواتهم الغبية إذا ظهر "البدلات السوداء".

توقفت شاحنة صغيرة بيضاء مهترئة نزل منها شرطيان ثالث ورابع. ترجلا من المقصورة، ومثلهم مثل الآخرين ظلوا واقفين في الشارع. خرج دييغو من المنزل، وساعده جينتري في قذف حقيبتي ظهر كبيرتين في حوض شاحنة إيدي من طراز F-350.

وصل شرطيان آخران غير مسلحين على دراجتين هوائيتين وأخذا ينظران عبر البوابة. شعر كورت وكأنه قرد في حديقة حيوان مع كل تلك العيون التي تراقبه من خلف القضبان الحديدية. استشعر القلق في حركات رجال شرطة البلدية وهم ينظرون نحو الممر بينما يتحدثون إلى زملائهم. وأخيراً، تقدم أحدهم – ربما كان الأقدم بينهم – وحدق في جينتري بحدة عبر القضبان. قرر كورت البحث عن إرنستو ليجعله يتحدث إليهم.

عاد إلى الداخل، واخترق المنزل بأكمله، وشعر بالانزعاج حين وجد لورا تقود الجميع – باستثناء إرنستو – في صلاة أخرى في غرفة المعيشة، فاندفع خارجاً إلى الحديقة الخلفية. هناك وجد العجوز جالساً وحده في الساحة الخلفية، عند الطاولة المجاورة لمشروع إيدي لترميم قارب "بوستون ويلر".

كان يبكي، وينتحب في عزلته.

اللعنة، فكر كورت، وكأننا نملك ترف الوقت لهذا.

تحدث بصوت خفيض لكنه ملح:

– "سامحني يا إرنستو، الشرطة بالخارج."

نظر العجوز إلى جينتري وقال باقتضاب:

– "لقد فقدتُ ابناً آخر وأخوين اليوم."

لم يجد الأمريكي رداً سوى قوله:

– "أنا آسف."

– "ابنتي."

– "لورا؟"

– "هل ستحميها؟"

– "سأفعل كل ما في وسعي. من أجلكم جميعاً."

مد غامبوا يده ومررها على الهيكل الناعم لقارب إيدي.

– "أرجوك يا خوسيه. أرجوك ساعدني لإنقاذ ما تبقى من عائلتي."

– "سأعتني بـ لوريتا. من الأفضل أن تذهب لترى ما يريده رجال الشرطة."

نهض إرنستو، ومد يده، وعانق الأمريكي عناقاً حاراً. تيبس جسد كورت كلوح خشب؛ لم يكن قادراً على تخيل الألم القابع في قلب الصياد العجوز، لكنه لم يكن يملك شيئاً ليفعله حيال ذلك.

سار إرنستو عبر المنزل ثم خرج نحو البوابة؛ تبعه كورت مراقباً حركاته من الخلف، ورأى كيف تجسدت الخسارة الفادحة التي تحملها العجوز في كتفيه المتهدلتين ورقبته المحنية. بدا والد إيدي قوياً من الناحية الجسدية رغم تقدمه في السن، لكنه كان منهاراً من الداخل.

فتح العجوز البوابة؛ فوقف أمامه الضابط ذو البنية الضخمة والشارب الكثيف.

– "الرقيب مارتنيز. هل سمعت بما حدث؟"

أجابه الرقيب:

– "نعم يا سيد غامبوا. أنا آسف جداً."

تعانق الرجلان عناقاً رسمياً مشوباً بالبرود. بقي كورت في الخلف بجوار الشاحنة؛ لم يكن يريد أن يتسبب وجوده – وأي شكوك قد يثيرها – في خلق مشكلات.

قال إرنستو:

- "البقاء هنا ليس آمناً لنا. لقد حاول (البدلات السوداء) قتلنا اليوم. سنغادر فوراً."

نظر رقيب الشرطة نحو الشارع للحظة، ثم قال:

- "أنا آسف يا إرنستو، ولكن يجب أن أطلب منك عدم مغادرة سان بلاس."

- "ولماذا؟"

- "في الواقع.. أنا لا أعرف السبب. لقد تلقينا اتصالاً من مدير شرطة ولاية ناياريت في تيبيك؛ وقد أمرني أن أطلب منكم البقاء."

أومأ إرنستو برأسه:

- "فهمت."

خرج بقية أفراد العائلة من الباب الأمامي الآن، وهم يحملون حقائب وعلباً مختلفة، مما جعل شاحنة إيدي تصل إلى أقصى حدود طاقتها الاستيعابية مع وجود سبعة ركاب. حملوا أمتعتهم في الشاحنة، وسرعان ما شقت لورا وإيلينا طريقهما إلى الشارع للوقوف مع إرنستو. وبعد فترة وجيزة، تبعهم بقية أفراد العشيرة. استمر إرنستو والرقيب في مناقشة الأمر.

كان الرقيب مهذباً، لكنه طلب من العائلة مرافقته مع رجاله إلى المركز المحلي، حيث سينتظرون تعليمات أخرى. شكره إرنستو على عرض الحماية، لكنه لم يأمر عائلته بمرافقة رجال الشرطة.

بدأ نوع من المواجهة الودية للغاية يتشكل هناك في الشارع الحار.

دخل جينتري وسط الحشد، متلهفاً لتحريك رفاقه. كفانا هذا الهراء المهذب، فكر في نفسه. فرغم وديتهم وعدم تشكيلهم تهديداً مباشراً، إلا أن هؤلاء الشرطيين - بتأخيرهم لعملية هروبهم من "البدلات السوداء" - بدأوا يتحولون بسرعة إلى تهديد لعملية كورت. تحدث بالإسبانية:

– "أيها الرقيب. أنت تطلب منهم البقاء، وهم يقولون لك (لا). لم يعد هناك ما نناقشه. وداعاً."

ثم نظر إلى العائلة وقال:

– "الجميع إلى الشاحنة. نحن مغادرون."

قال رقيب الشرطة:

– "يا سيد، أنت حر في الذهاب. لم نؤمر باحتجازك، لكن على عائلة غامبوا المجيء معنا إلى المركز." ثم التفت ثانية إلى إرنستو غامبوا: "سنحميكم جميعاً هناك. تفضلوا من هذا الطريق."

ابتسم الشرطي لهم وأشار إلى شاحنته الصغيرة، وكأن على السبعة جميعاً أن يتكدسوا في حوضها الخلفي. لم تكن هذه المركبة تبلغ نصف حجم شاحنة إيدي الضخمة.

سأل كورت:

– "هل هم قيد الاعتقال؟"

– "بالطبع لا. نود فقط حمايتهم في الوقت الحالي."

– "لن يذهبوا إلى أي مكان إلا معي. الآن.. ابتعد عن الطريق."

– "يا صاحبي، إذا كنت تتدخل في عمل الشرطة، فيمكنني اعتقالك."

– "يمكنك أن تحاول."

حدق كورت في الرجل الضخم بصرامة، لكنه لم يضع في حسبانه كبرياء الضابط ورجولته. كان بإمكان كورت أن يطحن هذا الرجل الأربعيني المترهل في التراب دون أن يتصبب عرقاً، لكن هذا الرجل لم يكن ليتراجع عن مواجهة جسدية.

تبادل الرجلان نظرات حادة. قال مارتنيز:

– "أرني أوراقك."

لم يرمش لـ جينتري جفن:

– "أوراقي ناقصة بعض الشيء."

– "جواز سفرك؟ بطاقة الدخول؟"

اكتفى كورت بهز رأسه، ونظرته الفولاذية ثابتة:

– "لا شيء."

– "كيف دخلت البلاد؟"

– "لقد رشوّتُ أحد زملائك في تشياباس ليسمح لي بعبور الحدود الغواتيمالية. يبدو أن هناك الكثير من الشرطيين الفاسدين في المكسيك."

ارتعش شارب الرقيب بخلجة عصبية، لكن بقية جسده ظل ثابتاً كالصخر. ظل الرجلان يحدقان ببعضهما لفترة طويلة. كاد كورت يرى التروس تدور في رأس هذا الرجل: ما مقدار المتاعب التي سيسببها هذا "الغرينغو"؟

تقدم إرنستو للأمام، كاسراً صراع النظرات، ومخففاً من حدة المواجهة الوشيكة.

– "حسناً يا رقيب، كل شيء على ما يرام. نحن نقبل عرض الحماية. سنأتي معك."

– "لا تركب تلك الشاحنة."

قالها كورت لـ إرنستو، لكن العجوز وزوجته المطيعة سارا نحو مركبة الشرطة. خفض شرطيان محليان الباب الخلفي واستعدا لمساعدة الزوجين على الصعود. كرر كورت قوله لـ إيلينا وهي تمر بجانبه في الشارع. بدت متوترة ومرتبكة، لكنها مستسلمة لحقيقة أنهم لن يغادروا سان بلاس بسرعة بعد كل شيء.

مرت به لورا الآن، وتحدثت إلى جينتري بصوت خافت:

– "هؤلاء أصدقاؤنا. ليس لهم علاقة بتجار المخدرات."

– "لكنهم لا يستطيعون حمايتكم. إذا جاء القتلة المأجورون، أو إذا أرادت الشرطة الفيدرالية أخذكم، فلن يتمكنوا من إيقافهم. إذا جاءت شرطة الولاية أو الجيش–"

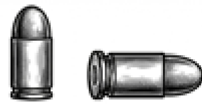
في تلك اللحظة، جعل دويٌّ قادم من أعلى الشارع الجميع يلتفتون. انعطفت ثلاث شاحنات صغيرة زيتية اللون من الطريق المؤدي إلى الساحة ودخلت شارع كاناليزو، وهو الشارع الذي يقطنه آل غامبوا. كان يقف في أحواض الشاحنات ويستند إلى أسقف مقصوراتها جنديان من الجيش المكسيكي في كل مركبة، يرتديان سُترات واقية من الرصاص خضراء ضخمة ويحملان بنادق G3 سوداء كبيرة. وخلفهم في أحواض الشاحنات كان هناك جنديان آخران مسلحان يواجهان الخلف، وأسلحتهما موجهة نحو الشارع. وبإحصاء السائق والراكب في كل مقصورة، أدرك كورت أن ثمانية عشر سلاحاً ومسلحاً قد وصلوا للتو إلى مكان الحادث.

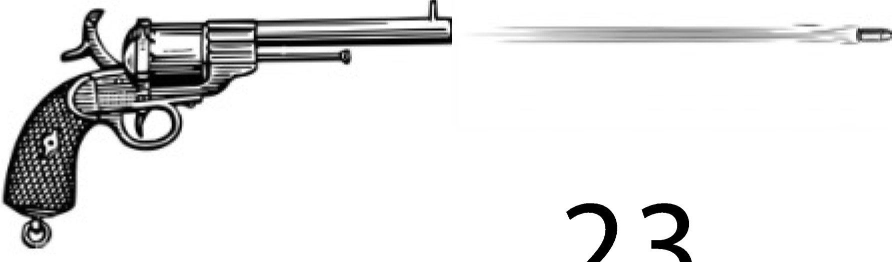
كرر كورت قوله، لنفسه أكثر مما هو لـ لورا:

– "أو الجيش."

بدت رصاصات الماغنوم الثلاث من عيار 357. التي يملكها الآن وكأنها أسوأ من عدم امتلاك أي سلاح على الإطلاق.

توقفت مركبات الجيش، وترجل الجنود وقفزوا منها، وبدأوا يتحدثون مع رجال شرطة سان بلاس الستة، الذين بدا الآن أنهم غير مستعدين بتاتاً لحماية أي شخص، بملابسهم المكونة من قمصان "بولو" زرقاء فاتحة وهراوات خشبية.





23

مرت خمس دقائق ولم يُحسم شيء، بل على العكس، زاد الموقف حرجًا وتعقيدًا. وصلت شاحنة أخرى مكتظة برجال الشرطة المحلية، ليرتفع عددهم الآن إلى أحد عشر شرطيًا. اصطف عناصر شرطة سان بلاس في مواجهة ثمانية عشر جنديًا من جيش الدفاع الوطني. وقف رقيب الشرطة وملازم الجيش يتجادلان وسط الشارع؛ بدأ النقاش مهذبًا، لكنه سرعان ما احتدم واشتعل.

خلفهما، اندلع تدافع بين الطرفين. استند جندي إلى إحدى شاحنات الشرطة، فدفعه شرطي شاب بعيدًا عنها. صرخ الملازم في رجاله، فصوبوا أسلحتهم نحو الشرطة. كان الجو مشحونًا بالتوتر واستعراض القوة والرجولة بما يكفي لإشعال معركة تضاهي تلك التي اندلعت في بويرتو فالارتا في وقت سابق من اليوم.

كان إغناسيو غامبوا، شقيق إيدي، مستندًا إلى جدار منزل أخيه، محتميًا بظله الشحيح. وحين ارتفعت فوهات البنادق، رفع الرجل الضخم يديه مستسلمًا. ولكن عندما لم يحذُ أحد حذوه، أنزلهما ببطء.

استنتج كورت من جدال ملازم الجيش أنه تلقى أوامر من رؤسائه في قاعدتهم ببويرتو فالارتا باقتياد آل غامبوا إلى هناك. بينما أوضح رجال شرطة سان بلاس أنهم تلقوا تعليمات من رؤسائهم بإبقاء العائلة هنا حتى وصول شرطة ولاية خاليسكو لاصطحابهم وتسليمهم لشرطة بويرتو فالارتا لاستجوابهم بشأن اشتباك حديقة هيدالغو.

لم ترغب عائلة غامبوا في الذهاب مع أي من الفريقين. رأى كورت الشك في عيون إرنستو وعائلته؛ فكلا الجهازين الموجودين في الشارع يزعم تنفيذ أوامر الجهة نفسها في بويرتو فالارتا، لكن أوامرهما كانت، في الجوهر، متناقضة تمامًا.

نعم، هذا هراء محض. فكر كورت. على الأقل، إحدى المجموعتين اللتين تتقاتلان للسيطرة على عائلة إيدي تكذب. لم يكن صعبًا عليه تخيل أن كلا الفريقين يعمل لصالح تجار المخدرات أو عناصر فاسدة داخل أجهزتهم، سواء بشكل مباشر أو دون علم. ومع تحول المواجهة بين الطرفين إلى خصومة شخصية، ومع تحول الجدال العقيم إلى تهديدات ومزيد من التدافع والنظرات الغاضبة، ازداد يقين جينتري بأن صراع القوة هذا الذي يدور في الشارع المترب لا علاقة له بالسلطة القضائية، بل بالجائزة التي وضعها دي لا روشا على رؤوس آل غامبوا، وكان كلا الفريقين، أو سادتهم على الأقل، عازمين على نيلها.

وقف آل غامبوا وجينتري في الشارع أمام المنزل. كانت الشاحنة محملة وجاهزة للانطلاق في الممر؛ فكر كورت للحظة في محاولة تحميل العائلة أثناء انشغال الجميع بالجدال والهروب ببساطة، لكن عندما شكل الجنود فرقًا على جانبي الطريق، ألغى الفكرة. لا، سيجلسون هنا وينتظرون ليروا من سيفوز في هذا الجدال، من سيفوز بجائزة «عائلة غامبوا».

لم تكن الشرطة المحلية لتصمد في قتال حقيقي، لكن الرقيب مارتنيز الضخم والغاضب كان يتمتع بشخصية قيادية شرسة، ولم يكن ليتراجع.

فجأة، شق الأجواء طنين بعيد لمحركات عالية الكفاءة قادمًا من الشمال. استمر الصوت وتضخم؛ بدت الآلات مختلفة عن أي شيء آخر في هذه البلدة الصغيرة المليئة بالسيارات القديمة والشاحنات المتهالكة والدراجات الترابية التي تنفث دخانًا رماديًا أكثر من

القاطرات. أدار المسلحون في الشاحنات فوهات بنادقهم شمالًا نحو الآلات المقتربة، لكنهم تبادلوا النظرات مع قائدهم بحثًا عن التوجيه.

أدرك كورت أن المشهد لو رآه غريب لكان هزليًا: ستة وثلاثون شخصًا، لا أحد منهم لديه أدنى فكرة عمن هو قادم أو ماذا سيفعلون حين يصل، يقفون هناك محاولين الظهور بمظهر الحزم والصلابة، مدركين أن أي ضيف جديد في هذه الحفلة قد يقلب الموازين تمامًا.

انعطفت دراجتان ناريتان نحو شارع كاناليزو قادمتين من شارع سينالوا، الطريق الواقع أمام الساحة الكبرى. حتى من مسافة مائة ياردة، ميز كورت الزي الرسمي، والخوذات، والأقنعة، والنظارات الداكنة الخاصة بالشرطة الفيدرالية (Policía Federal). كانت دراجاتهم بيضاء ذات حواف خضراء، ولاحظ جينتري أنها دراجات «سوزوكي» رياضية قوية؛ اندفع الرجال بسرعة وثقة نحو الحشد المتجمهر أمام منزل غامبوا.

كان الأمر واضحًا. رغم أن عنصري الفيدرالية كانا أقل عددًا بكثير، إلا أنهما، في نظرهما، كانا سيدي الموقف.

لم يساور جينتري شك يذكر في أن هؤلاء الأوغاد بملابس النينجا ينتمون للوحدة ذاتها التي أطلق عليها النار قبل ثلاث ساعات ونصف في فالارتا. تساءل عما إذا كان هذان الاثنان هما القاتلان اللذان وقفا أعلى الدرج يمطران عائلات القوات الخاصة بالرصاص أثناء محاولتهم الهروب من الحديقة.

رجح بقوة أنهما كذلك.

تمتم بسخرية خافتة:

– "مرحى، لقد نَجَوْنا."

للحظة، مجرد لحظة عابرة، فكر في التسلل بعيدًا، والتراجع إلى ممر آل غامبوا، ثم الهروب عبر بوابة الحديقة الخلفية. كان بإمكانه ترك كل هذا خلفه؛ كان بإمكانه النجاة.

كان بإمكانه الهرب.

لكنه لم يهرب.

أوقف الرجلان دراجتيهما في منتصف الطريق. كانا يحملان رشاشات «كولت 635» على ظهريهما، وفوهاتها موجهة لأسفل، ومسدسات سوداء في أغماد مثبتة على الفخذ. كانت أحذيتهما سوداء لامعة؛ وارتديا نظارات شمسية وخوذات وأقنعة تزلج تخفي وجوههما تمامًا. أنزلا مساند الدراجات في حركة واحدة، وأطفآ المحركين في وقت واحد، وترجلا بانسجام تام. تحركا وسط جمهرة شرطة القرية وجنود الجيش العاديين بهدوء واثق وهالة لا تُنكر من السلطة.

في البداية، سار الشرطيان الفيدراليان عبر الجنود، وتجاوزا عائلة غامبوا، وتوجها مباشرة إلى الرقيب المسؤول عن الشرطة المحلية. تولى أحد الوافدين الجدد الحديث؛ وتكلم بصوت خافت مع الشرطي البدين. حاول مارتنيز المجادلة، لكن الفيدرالي أسكته، ووضع يدًا ودودة مرتدية قفازًا على كتف الرجل، وواصل الحديث.

حاول مارتنيز مرة أخرى، نافخًا صدره هذه المرة، لكن الفيدرالي الأصغر حجمًا هز رأسه فقط، وواصل الحديث بصوت خافت ولكنه حازم.

بعد أقل من ستين ثانية من المحادثة، أومأ رقيب الشرطة المحلية، والتفت إلى الرجال والنساء الآخرين بقمصانهم وقبعاتهم، وأمر الجميع بالعودة إلى واجباتهم السابقة. لقد حُسم الأمر.

الفيدراليون يتولون القيادة.

لم يفاجأ جينتري بأن شرطة سان بلاس كانت أول من تراجع. بدا الرقيب محبطًا، إما لأنه يعرف مدى غضب رؤسائه منه، أو لأنه أدرك ضياع المكافأة التي وعدته بها «البدلات السوداء»، لكنه بدا شاكرًا مع ذلك لأن سلطة عليا جاءت لتخليصهم من المواجهة التي كانت تختمر بينهم وبين الجنود.

لكن رحيل هؤلاء الرجال والنساء ذوي العصي والدوافع الضعيفة لم يملأ كورت جينتري بالثقة. أبقى عينيه على البنادق القتالية الثقيلة التي كانت تلوح في اتجاهه. تلاشت شاحنات البيك أب والدراجات الهوائية ودوريات المشاة بسرعة، والتفت الفيدرالي الأكثر طلاقة وبدأ يتحدث الآن إلى ملازم الجيش. كان هناك صراخ وجدال من جانب الجندي، لكن لم يقابله سوى صوت هادئ وحازم من جانب ضابط إنفاذ القانون. بالكاد استطاع كورت فهم كلمة من أي طرف، لكنه أدرك أن «النينجا» كان يقول إن عائلة غامبوا والـ «غرينغو» (الأمريكي) سيُعادون إلى بويرتو فالارتا، وأنه وزميله سيتوليان مرافقة العائلة والأمريكي إلى هناك.

انتهى النقاش.

كان كورت قد خاطر ببقائه، وأصبح الآن في المركب نفسه مع البقية. استند بظهره إلى الجدار الخرساني المطلي بالجير الأبيض المحيط بمنزل آل غامبوا، بجوار لورا. دخل إرنستو ودييغو إلى المنزل وأحضرا المقعد الطويل من إحدى طاولات النزهة في الفناء الخلفي، ووضعاه في الظل لـ لوز وإيلينا. جلست المرأة العجوز وزوجة ابنها الحامل تروّحان عن نفسيهما بقطع من صحيفة التقطتاها من المزراب على جانب الطريق.

بعد حديث طويل من الشرطي المتشح بالسواد، مالت لورا، التي كانت تقف عند كتف كورت، لتهمس في أذن الأمريكي:

– "هل فهمت ذلك؟"

لم يلتقط كلمة واحدة من جدال الرجال في الدقيقة الماضية.

– "لا، ماذا يحدث؟"

– "يقول الفيدرالي إنه يعد بإخبار «لا آرانا» (العنكبوت) بأن وحدة الجيش هذه تستحق مكافأة لاحتجازها العائلة حتى تمكن هو وزميله من القدوم وتولي الحراسة."

فكر كورت للحظة.

– "العنكبوت؟ من بحق الجحيم هو «العنكبوت»؟"

– "خافيير سيبيدا."

– "حسنًا، ومن هو خافيير..."

– "أحد كبار رجال دي لا روشا. من «البدلات السوداء». يقولون إنه زعيم القتلة المأجورين (sicarios) التابعين لدي لا روشا."

– "ممتاز."

– "نحن في خطر يا جو."

أراد أن يقول لها «لا تقولي!»، لكنه نظر إلى الفتاة، إلى عينيها البنيتين الواسعتين، وتمالك نفسه.

– "سنكون بخير."

– "ماذا سنفعل؟"

– "لا أعرف بعد."

– "إذن كيف تقول إننا سنكون بخير؟"

– "لدي ثلاث رصاصات. وهناك شرطيان. سنذهب مع الشرطيين وسنكون بخير."

اتسعت عينا لورا.

– "جو... أرجوك لا تقتلهما. يمكننا تجريدهما من السلاح و..."

قال جينتري:

– "لن أقتلهما إلا إذا أجبراني على ذلك."

لكنه كان يتوقع تمامًا أنهما سيجبرانه.

بدا أن صفقة الفيدراليين مع الجنود تؤتي ثمارها. كانت ديناميكية مثيرة للاهتمام لرجل مثل كورت جينتري؛ شرطيان بأسلحة خفيفة مقابل ما يقرب من عشرين جنديًا مدججين بالسلاح. لم يلمس الشرطيان أسلحتهما؛ ولم يصرخا في أجهزة الراديو لطلب الدعم؛ ولم يصرخا أو يهددا. شك كورت في أن الشرطيين كانا أكبر سنًا، وأكثر

ثقة بنفسيهما، ومخيفين لملازم الجيش الشاب، وقد فرضا سلطتهما وثقتهما عليه بكلمات مهذبة، كقفاز رقيق يغلف قبضة حديدية، لفرض إرادتهما.

كان كورت متيقناً من أنهما رجلان سيئان، لكنه كان يشجعهما في هذه المعركة الصغيرة.

ونجح أسلوب الترهيب الهادئ. أمر الملازم رجاله بالتراجع والعودة إلى المركبات. وفي غضون ستين ثانية، اختفت شاحنات الجيش الثلاث المحملة باتجاه الجنوب، منعطفة يسارًا خارج شارع كاناليزو، مخلفة وراءها سحابة من غبار الطريق.

راقب الفيدراليان الجنود وهم يغادرون ثم استدارا لمواجهة العائلة.

بدلًا من ذلك، وجدا نفسيهما يحدقان في فوهة مسدس الـ «غرينغو» على بعد خمسة أقدام.

تحدث الشرطي الذي كان يتولى الكلام ببطء بينما ارتفعت ذراعاه استسلامًا. كانت لغته الإنجليزية ممتازة.

– "أبعد مسدسك عن وجهي يا أميجو (صديقي)."

– "لو كنتُ صديقك، لما كان مسدسي في وجهك، أليس كذلك؟ انزلا على الأرض! كلاكما! وجهاكما للأسفل، وأيديكما ممدودة."

– "عليك أن تستمع إلي بعناية شديدة يا سينيور (سيدي)."

– "إن لم تمرغ أنفك في التراب الآن يا سينيور، سأفجر رأسك اللعين. كومبريندي (مفهوم)؟"

جثا الرجلان ببطء على ركبتيهما ثم انبطحا على الشارع الحار المترب.

– "أنت لا تفهم. نحن لسنا فيدراليين عاديين مثل الرجال الذين قتلوا آل غامبوا."

عقد كورت حاجبيه.

– "أوه، رائع. أنتم مجرد قتلة مأجورين عاديين. هذا يجعل قتلكما أقل تعقيدًا."

– "لا. نحن من «مجموعة العمليات الخاصة» (GOPES). عملنا تحت قيادة الرائد غامبوا. جئنا هنا لحماية عائلته من «البدلات السوداء»."

أبقى كورت مسدسه ثابتًا نحو الرجلين الممددين أمامه.

– "هراء. قُتل كل أفراد فريق إيدي على اليخت."

– "لا. لقد نجونا. واختبأنا لحماية عائلاتنا."

ركع كورت فوق المتحدث.

– "إذن من أين جاء ذلك الدم على بنطالك؟"

كان كورت قد لاحظ بقعًا حمراء متناثرة على فخذ الفيدرالي.

همّ الضابط بالنهوض، لكن جينتري ضغط بفوهة المسدس على مؤخرة رأسه، مجبرًا الرجل على الحديث ووجهه في التراب؛ أزاحت كلماته الغبار والرمال عن الأسفلت الأسود مشكلة دائرة صغيرة.

– "كنا قادمين إلى هنا بسيارتي، لكننا سمعنا بثًا على قناة الراديو التي تستخدمها «البدلات السوداء». كان اثنان من القتلة الفيدراليين قادمين لقتل إيلينا. قتلناهما على بعد خمسة عشر كيلومترًا جنوب هنا، ثم أخذنا دراجتيهما."

لم يعرف كورت ماذا يصدق، لكن نبرة الرجل كانت مقنعة للغاية. ورغم أن محادثتهما كانت مزيجًا من لغتين، إلا أن جينتري التقط نبرة صدق. لكنه أراد الحصول على انطباع من الرجل الآخر. ركع بجانب الفيدرالي الملثم الآخر، الذي لم يتحدث بعد. وضع فوهة المسدس على مؤخرة عنقه.

– "هل تتحدث الإنجليزية؟"

هز الرجل رأسه. تحول كورت إلى الإسبانية.

– "بويينو (حسناً)، وماذا لديك لتقوله عن نفسك أيها كابرون (الوغد)؟"

لم يُجب الرجل، لكنه نظر لأعلى نحو كورت، مديرًا رأسه ببطء ليفعل ذلك. زحفت يده اليمنى على الأسفلت الساخن نحو وجهه، وخلع خوذته، ونظارته الشمسية، ثم قناعه.

كان خده الأيمن وفكه باللونين الأسود والأزرق، كدمة قبيحة بحجم قبضة اليد. فكر كورت في الرجل الذي كان في المبنى قيد الإنشاء مقابل حديقة هيدالغو. الرجل الملثم الذي أفقده وعيه بلكمة على الفك.

– "هل أنا من فعل ذلك؟"

قال الضابط:

– "سي (نعم)."

مع التورم، بدا صوته وكأن كرة تنس محشورة في فمه.

– "هاه..."

فكر كورت في الأمر. هل يعقل أن الرجل كان هناك حقًا لتوفير الحماية للعائلة؟ لم تكن هناك طريقة ليعرف؛ لقد أفقده الوعي تمامًا قبل بدء القتال.

اكتفى كورت بالقول:

– "آسف."

رد الرجل:

– "نو هاي بروبليما (لا مشكلة)."

لكن جينتري تخيل أن فك الرجل سيشكل مشكلة له لبضعة أيام.

– "ما اسمك؟"

– "مارتن. الرقيب مارتن أوروزكو فرنانديز."

وبالعودة إلى الضابط الأول، سأل كورت:

– "ماذا عنك؟"

– "أنا الرقيب رمسيس سينفويغوس كورتيلو."

– "أين تعلمت التحدث بالإنجليزية بهذه الطلاقة يا رمسيس؟"

– "عندما كنت صبيًا عشت ست سنوات في إلباسو، تكساس."

– "هل أنت أمريكي؟"

– "لا."

– "فهمت. كنت مهاجرًا غير شرعي؟"

نظر رمسيس إلى الأمريكي الجاثي فوقه.

– "أفضل مصطلح «مهاجر غير موثق»."

– "أراهن أنك تفضل ذلك."

ابتسم المكسيكي خلف قناعه وقال:

– "وماذا عنك؟ رأيت ما فعلته اليوم. أنت قاتل محترف (assassin)."

– "أفضل مصطلح «جلاد لا يملك أوراقًا ثبوتية»."

أومأ رمسيس برأسه.

– "أنت مع الحكومة الأمريكية؟"

– "لا. أنا مجرد صديق قديم لإيدي تعثر وسقط وسط هذا الهراء كله."

– "وبقيت للمساعدة؟"

تحدث رمسيس بالإسبانية إلى مارتن للحظة، ثم وجه انتباهه مرة أخرى إلى الـ «غرينغو» المسلح.

– "هل تمانع إن وقفنا؟"

– "ببطء."

هذه المرة سمح لهما كورت بالوقوف، لكنه أبقى المسدس موجهًا نحوهما. نفضا الحصى والغبار عن زيهما الأسود.

– "ماذا كنتما تفعلان في حفل التأبين؟"

شرح رمسيس:

– "شككنا في حدوث متاعب. جئنا فقط لمراقبة عائلات زملائنا. تولى مارتن المراقبة من أعلى؛ وبقيت أنا في الأسفل وسط الحشد. رأيت المسلحين يقفون في الجوار، عملاء معروفين لـ «البدلات السوداء». ثم ظهر دي لا روشا بنفسه."

سأل كورت، وقد ظن أنه يعرف الإجابة:

– "ثم؟"

– "ثم... أطلقت عليه النار. مرتين."

أضاف بنبرة حيرة لا تخطئها الأذن:

– "لم أخطئ الهدف. لا أعرف كيف نجا. ثم بدأت المجزرة."

صدقه كورت. عينا هذا الرجل، صوته، لغة جسده، كل ذلك كان يشير إلى أنه محتار بشأن ما حدث تمامًا مثل جينتري. أعاد كورت مسدسه إلى بنطاله وطلب من الفيدراليين اللحاق به إلى داخل منزل إيدي. كان الجميع قد عادوا بالفعل إلى داخل البوابة؛ انتهى آل غامبوا من تحميل شاحنة الـ F-350 الآن، ومرة أخرى، كانت لورا تؤم عائلتها في الصلاة، شاكرة الرب على انتهاء المواجهة في الخارج.

سأل كورت الشرطيين:

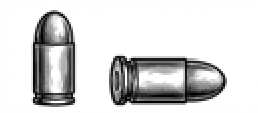
– "إذن خطتكم هي التظاهر بالموت والتسكع هنا؟ لا تبدو خطة محكمة."

– "لا يمكننا الذهاب إلى منازلنا؛ لا نريد أن ينكشف أمر نجاتنا. لو عُرف ذلك... ستنتهي عائلاتنا مثل الآخرين اليوم. نحن رجال ميتون – نعلم ذلك – لكن عائلاتنا في أمان. وإذا تمكنا من المساعدة في حماية عائلة الرائد غامبوا، فتلك ميتة نتشرف بها. إذا كنتم ستغادرون الآن، فسنرافقكم بالدراجات لتأمين الطريق أمامكم. سيتعين علينا التخلي عن الدراجات النارية في وقت ما، لكن في الوقت الحالي أعتقد أننا أكثر أمانًا باستخدامها."

أومأ كورت برأسه. للحظة فكر في استخدام هذا كذريعة للمغادرة مرة أخرى. الآن أصبح لدى إيلينا أصدقاء، رجال أكفاء سيحمونها وعائلتها. لكن لا، أدرك كورت أنه يحاول فقط مساعدة نفسه بهذا التفكير؛ ربما كان هذان الرجلان أفضل من نصف دزينة من رجال الشرطة الفاسدين العاديين أو قتلة الكارتل، لكن هناك حشودًا من رجال الشرطة الفاسدين وقتلة الكارتل يجوبون المكان. لم يكن بوسع كورت أن يغسل يديه من هذا الوضع برمته لمجرد أن آل غامبوا حصلوا على بندقيتين إضافيتين في صفهم.

لا، سيبقى بجانبهم طالما احتاجوا إليه، وسيعمل مع هذين الرجلين.

لكنه، كما أخبر نفسه، سيبقي عينه عليهما. الثقة لم تكن مطروحة على الطاولة.





24

تجاوزت الساعة التاسعة حين بلغوا "الهاسيندا". قطعوا المسافة كاملة بخزان وقود واحد؛ إذ لم يتوقف كورت بتاتاً، وأثبتت شاحنة الدفع الرباعي الضخمة قيمتها التي لا تُقدر بثمن في تلك الطرق الجبلية الصخرية الوعرة. وكما وعدت لورا، كان هذا المخبأ معزولاً تماماً، يحتضنه وادٍ صغير يحميه من الجهات كافة. كانت القافلة الصغيرة قد مرت ببلدة "تيكويلا" قبل ثلاثين دقيقة، ثم سلكت طريقاً عبر أميال وأميال من مزارع نبات "الأغاف" لتصل إلى هنا، غير أن التضاريس المحيطة بالعقار نفسه كانت عبارة عن غابات كثيفة وحقول غير مستصلحة.

اتبع كورت إرشادات لورا، متصدراً الطريق بشاحنة إيدي، تتبعه دراجتان ناريتان من طراز "سوزوكي". انعطفوا من الطريق ذي الحارة الواحدة إلى ممر مرصوف بالحصى ينتهي عند بوابة حديدية علاها الصدأ، تحت قوس مبني من حجارة مبيضة. وعلى جانبي القوس، امتد جدار من الجص الأبيض يتلاشى في ظلام المساء، وخمن كورت أنه يحيط بالعقار كاملاً. ترجل رمسيس عن دراجته وقطع القفل السلسلي بقطاعة براغي وجدها في صندوق الأدوات خلف شاحنة إيدي؛ ثم دفع البوابة، فسمع جينتري صرير مفاصلها الصدئة المحتجّ رغم أن نوافذ شاحنته كانت مغلقة بإحكام لاتقاء هواء الجبل البارد.

استأنف الشرطيان ركوب دراجتيهما ليتصدرا الركب الآن؛ وتبعتهما القافلة المكونة من ثلاث مركبات عبر ممر طويل وتليّ ممهد بحجارة "الكوبرستون" التي نأت بها الأرض المتموجة عن مكانها. نمت الأعشاب الضارة في حزم كثيفة بين الحجارة المخلخلة وغير المستوية، وكانت الأشجار المهملة على جانبي الممر تحتك بجوانب الشاحنة بينما كانوا يصعدون نحو المبنى الرئيسي. بدا العقار وكأن أحداً لم يسكنه منذ سنوات؛ إذ لم تظهر المشاهد التي أنارتها مصابيحهم الأمامية سوى نباتات برية، وتلال قاحلة غطاها الصنوبر والصبار والسرو وأشجار الليمون والبرتقال، إضافة إلى الكروم المتدلية والأعشاب الطويلة.

أوضحت لورا أن العقار بأكمله، سواء داخل الجدران أو لأميال خارجها، كان في السابق "هاسيندا" ضخمة، وهي مزرعة لنبات "الأغاف" بُنيت في عشرينيات القرن التاسع عشر. كان المجمع المسور يقع في قلب المزرعة، وأشارت بيديها إلى عدة مبانٍ حجرية مهدمة في الغابة الخلفية، غطتها الكروم وأزهار "الجيرانيوم" و"الأزاليا".

سرعان ما وصلوا إلى "البيت الكبير"، وهو المنزل الرئيسي في مجمع "الهاسيندا". خُيل لـ جينتري أن البيت مسكون بالأشباح في هذا الظلام، بجدرانه الوردية المتآكلة وجصه الأبيض العتيق وحجارته المحطمة. تسلق نبات "المونيدا" – وهو لبلاب أخضر ينمو بسرعة وكثافة – أركان البناء، والتف حول الأعمدة الممتدة على طول الشرفة الأمامية المقوسة، وتسلل عبر المشغولات الحديدية في شرفة الطابق الثاني ليصبح جزءاً من العمارة نفسها. توقفت الشاحنة والدراجتان في ممر حصوي مستدير تتوسطه نافورة قديمة. فوق النافورة، انتصب تمثال لملاك صخري، في نصف حجم امرأة تقريباً؛ كانت أجنحته محطمة، وعيناه البيضاوان تحدقان في كورت عبر الزجاج الأمامي

للسيارة. أطفأ المحرك والمصابيح، فبدت النافورة أسفل الملاك – حتى في ضوء القمر – وكأنها غارقة في الطحالب والنفايات.

فجأة، ظهر ضوء وحيد في نافذة بالطابق الثاني؛ كان باهتاً ويرتجف مثل لهب شمعة.

ثمة أحد هنا.

قالها كورت وهو يلتفت إلى لورا، فاتسعت عيناها دهشة.

– "هذا مستحيل، لا يمكن أن يكون أحداً. لم يسكن أحد هنا منذ ثلاث سنوات."

ترجل جينتري من الشاحنة وبدأ يسير فوق الحصى الذي أحدث صوتاً تحت قدميه. تبعته لورا مسرعة وأمسكت بذراعه؛ كانت أصابعها صغيرة لكنها قوية، وحازمة.

– "علينا الرحيل. لا يمكننا تعريض حياة أي شخص آخر للخطر."

– "وإلى أين سنذهب؟ إيلينا مستلقية في حوض الشاحنة منذ أربع ساعات في طرق وعرة. إنها بحاجة للراحة. علينا البقاء هنا، الليلة على الأقل."

بدت ملامح القلق على وجه لورا، لكنها لم تستمر في الجدال. تبعت "خوسيه" والضابطين المكسيكيين صعوداً عبر درجات متآكلة نحو باب ضخم من خشب البلوط والحديد. طرقه جينتري، بينما كانت يده اليمنى تحوم فوق مقبض المسدس المحشور في حزامه. تقدمت لورا لتصبح بجانبه وقالت:

– "قد يكون حارساً أو مزارعاً من أقرب قرية تسلل إلى هنا. دعني أتحدث إليهم."

– "تفضلي."

بعد دقيقة، فُتح الباب ببطء؛ ووقف رجل في ممر مظلم مرصوف بالبلاط بعيداً عن الباب، وكانت فوهة بندقية صيد طويلة مصوبة نحو

صدر كورت جينتري. تسلل ضوء القمر إلى الداخل، ليضيء الرجل العجوز وكأنه شبح رمادي.

لم يسحب جينتري مسدسه؛ فقد تفهم ريبة الرجل، وتمنى من كل قلبه أن تنجح شقيقة إيدي في شرح الموقف لهذا العجوز سريعاً بما يرضيه.

شهقت لورا صدمة، ووضعت يدها الصغيرة على فمها، ثم استجمعت شتات نفسها وقالت بصوت خفيض:

– "طاب مساؤك يا سيد كوراليس. هذه أنا، لورا، زوجة غييرمو."

– "غييرمو؟"

– "نعم، غييرمو. ابنك."

كان الرجل طاعناً في السن؛ هذا ما استنتجه كورت على الفور. كان أكبر سناً من إرنستو بكثير، وله شارب أبيض يتدلى على جانبي وجهه. وبدا من هيئته أنه كان نائماً على وجهه، فقد كان شعره الخشن يتطاير في اتجاهات عشوائية.

– "نعم يا سيد كوراليس. كيف حالك؟"

سأل العجوز:

– "هل غييرمو هنا؟"

أجابت لورا بهدوء:

– "لا يا سيدي. غييرمو ليس هنا."

في تلك اللحظة، ظهر طيف شبحي آخر خلف الرجل العجوز في بقعة ضوء القمر المنبعثة من الباب المفتوح. تحرك الخيال نحو الباب من أعماق المنزل.

صاح صوت امرأة عجوز:

– "لوريتا؟"

– "إينيز، كيف حالكِ؟"

– "أنا بخير يا صغيرتي."

اندفعت العجوز إلى ضوء القمر وعانقت شقيقة إيدي بقوة، ثم قالت:

– "يا لويس، أنزل السلاح ودعهم يدخلون."

خفض العجوز سلاحه، وتقدم للأمام وعانق كورت. قال بالإسبانية:

– "غييرمو، يا بني. لقد افتقدتك."

اتضح على الفور، من كلمات السيد كوراليس وتصرفاته، أن والد زوج لورا يعاني من نوع من الخرف.

بعد خمس دقائق، كان السكان والضيوف الأحد عشر جميعاً يجلسون في غرفة جلوس واسعة تضاء بالشموع. كان هناك درج يؤدي إلى طابق ثانٍ يطل على الغرفة المعتمة، لكن الظلام كان حالكاً فلم يتمكن جينتري من رؤية ما وراء الدرابزين. أحضرت إينيز، حماة لورا، زجاجة من عصير البرتقال الطازج الفاتر وسكبته في أكواب مكسورة وأقداح بلاستيكية، ووضعت هذا القِرى على طاولة قهوة خشبية طويلة. وُضعت بجانبه زجاجة "تيكيلا"، لكن وحده إغناسيو الصامت والمتجهم هو من مزج العصير بجرعة منها.

كان "البيت الكبير" ضخماً، لكنه بدا وكأنه ينهار حرفياً فوق رؤوس الزوجين المسنين. تدلت خيوط العنكبوت الكثيفة في الزوايا المظلمة لغرفة الجلوس، وغطى الغبار الأرضيات، بينما كانت الأثاثات القديمة – رغم متانة صنعها من جذوع البلوط والأرز – تئن تحت وطأة الجلوس عليها. كانت الأسقف عالية، والأرضيات من البلاط الحجري، وفاحت في الهواء المعتم رائحة شمع العسل والغبار والعفن. كانت الأصوات تتردد أصداؤها كلما ارتفعت فوق مستوى الهمس، وساد المكان جو يشبه الأديرة؛ لم يتخيل جينتري العيش في مكان موحش كهذا.

كانت سحالي سوداء وخضراء رشيقة تنسلّ على الجدران والأسقف، تظهر وتختفي في الظلال الطويلة التي تلقيها أضواء الشموع.

لم يرغب كورت في السؤال، لكن تولد لديه انطباع قوي بأنه لا توجد كهرباء في المنزل باستثناء مولد غاز صغير يسمع ضجيجه خارج المطبخ. كانت إينيز تحمل مصباحاً يدوياً صغيراً تستخدمه لتصل إلى الشمعدانات في الزوايا المظلمة للغرفة الكبيرة، فتشعلها بأعواد ثقاب خشبية، مما أضفى مزيداً من الضوء وهالة أكثر رعباً على المشهد.

جلس لويس كوراليس في مقعد ضخم بمساند جانبية، وكانت عيناه تتنقلان في أرجاء الغرفة، يراقب ضيوفه المتأخرين. أدرك جينتري أن عقله كان في مكان آخر تماماً، ولم يستغرق الأمر طويلاً ليدرك أن العجوز الأخرى لم تكن في كامل قواها العقلية هي الأخرى. ومع ذلك، وبينما كانت لورا تشرح بعناية وصدق سبب ظهورهم، بدت إينيز واعية بما يكفي لتفهم الورطة التي وضعتها فيها زوجة ابنها.

دعت إينيز كوراليس الجميع للبقاء بقدر ما يشاؤون، معلنة أن الحاضرين جميعاً في "حفظ الله"، ثم قادت المجموعة إلى ممر معتم، وطلبت منهم التكاتف حول "نيتشو" – وهو محراب صغير في الجدار – حيث وُضع تمثال خشبي صغير للسيد المسيح وسط حلقة من شموع النذور. استغرقت بضع دقائق لإشعالها، فأنار توهج أحمر الضريح الصغير ووجوه الجميع، ثم طلبت من لورا أن تقود المجموعة في الصلاة. لم يفهم كورت الكثير منها، وربما لم تكن لتألف أذناه الكلمات حتى لو كانت بالإنجليزية، لكن الجميع بدا وكأنهم يحفظون اللحن؛ وسمع تفاوت درجات الإيمان في الأصوات من حوله.

بعد الصلاة، ذهبت لوز مع إينيز لمساعدتها في إيجاد مكان مريح لتستلقي فيه إيلينا. لا بد أن تلك الرحلة الوعرة كانت قاسية على المرأة

الحامل، لكن كورت لاحظ بتقدير أنها لم تشتكِ مرة واحدة، بل ولم تجادل طوال الطريق.

انتحى جينتري بـ لورا جانباً بينما كانوا يفرغون حقائب الظهر من السيارة، وسألها بصوت خفيض:

– "ما خطبهما؟"

– "من؟"

– "الزوجان العجوزان."

هزت كتفيها وقالت:

– "إنهما (مجانين) قليلاً."

– "(قليلاً) فقط؟"

– "هذه الهاسيندا ملك لعائلة كوراليس منذ أكثر من مئتي عام. عاش لويس هنا طوال حياته؛ كان (خيمادور)، أي مزارع (أغاف). لكنه مصاب بألزهايمر. أما إينيز.. فأعتقد أنها تفقد عقلها هي الأخرى. انهارا تماماً بعد وفاة غييرمو؛ فقد كان كل شيء بالنسبة لهما."

– "لماذا ظننتِ أنهما لن يكونا هنا؟"

– "لقد انتقلا إلى غوادالاخارا، إلى دار للمسنين. لكن إينيز أخبرتني أنه لم يكن لديهما المال للبقاء، فعادا إلى هنا. لم أكن لأحضركم إلى هنا لو علمتُ أنهما–"

– "لا بأس."

– "بل بأس شديد؛ ليس من الأمان بقاؤهما هنا."

– "ربما يمكنهما الذهاب إلى مكان ما أثناء وجودنا هنا."

هزت لورا رأسها وقالت:

– "انظر إليهما يا خوسيه. إلى أين سيذهبان؟ علينا حمايتهما."

– "أنا لا أعِدكِ حتى بقدرتنا على حماية أنفسنا. إذا اكتشف (دي لا روشا) مكاننا، فسيضرب هذا المكان بقوة. سيقتل قتلتُه المأجورون الجميع ليصلوا إلى إيلينا."

بدت لورا وكأنها على وشك البكاء، لكنها بدلاً من ذلك اكتفت بالتحديق في الأفق البعيد، نحو الغابة في مقدمة العقار.

– "هذا منزلهما؛ إذا كان على أحد الرحيل، فهو نحن."

– "أجل، لكننا نحن من يحاول زعيم المخدرات قتلهم، لذا سنبقى هنا حتى نقرر وجهتنا التالية."

لم تتغير تعابير لورا، وفي النهاية التفتت إلى كورت وقالت:

– "الأمر كله بيد الله على أي حال."

– "ربما، ولكن مع احترامي التام له ولقدره، سأتأكد بنفسي من إغلاق الأبواب كافة."

قبيل العاشرة، تجول كورت في أرجاء العقار داخل الجدران مع مارتن ورمسيس. اتفق الثلاثة على أن هذه "الهاسيندا" الكبيرة والمنعزلة في الجبال مكان رائع للتخفي، لكنها ستكون موقعاً بائساً للدفاع إذا ما تأزم الموقف. كانت الأسوار المحيطة بالعقار بارتفاع عشرة أقدام، لكنها مغطاة بالكروم ويمكن تسلقها بجهد يسير؛ الشرفة الخلفية الضخمة والحديقة يمكن مراقبتهما من شرفة الطابق الثاني، لكن العقار يمتص الكثير من النباتات والأشجار البرية والتماثيل، إضافة إلى قناة مائية حجرية عمرها أربعمئة عام وتعريشة طويلة من القرميد، مما يوفر للأعداء المتقدمين نحو "البيت الكبير" غطاءً وحماية من أي اتجاه تقريباً.

كانت هناك مبانٍ عديدة داخل الأسوار؛ كنيسة حجرية بسيطة بسقف قرميدي، ومخزن للحديقة في حجم الكثير من المنازل المكسيكية، وحظيرة خشبية متهالكة وإسطبلات، مما جعل هذه الهاسيندا تبدو كقرية صغيرة مسورة أكثر من كونها قلعة.

كان من الجلي لـ كورت أنهم لن يستطيعوا البقاء هنا طويلاً. إذا وجدهم "البدلات السوداء" هنا، فسيتم تطويقهم، واختراق الجدران، واقتحام المبنى.

بينما كانوا يسيرون في الظلام، يتفقدون السور المحيط للتأكد من إغلاق البوابات بإحكام وعدم وجود ثغرات، تعثروا في نباتات "الأغاف" الحادة والمغزلية. وبينما كانوا يبذلون قصارى جهدهم لشق طريقهم، سأل كورت رمسيس:

– "كيف نجوتما من يخت (دي لا روشا)؟"

أجاب المكسيكي بهدوء، وكاد صوته يضيع في الظلام:

– "كان دورنا هو قطع الطريق على هرب (دي لا روشا) عبر المروحية وقتل الحراس على السطح العلوي. كان (الرائد) في الأسفل مع فريق يهاجم غرفة النوم. كل ما أعرفه هو أنه تحدث عبر اللاسلكي وأمرنا بالخروج من اليخت فوراً، وأن الأمر كان فخاً. كنا فوق مهبط المروحيات، فقفزنا كلانا في الماء، ثم انفجر اليخت. استغرق وصولنا إلى الشاطئ عشر ساعات."

– "إذن أنتما بالتأكيد لم تحضرا القنبلة."

هز رمسيس رأسه مؤكداً:

– "لا، تلك (منتيرا).. أي كذبة؟ نعم، دخلنا لقتل (دي لا روشا)، ولم تكن لدينا أي نية لترك أي شخص حياً على متن اليخت. هذه حرب قاسية؛ أعداؤنا لا يأخذون أسرى، فلماذا نفعل نحن؟ لكن لا.. لم نتسلل نحو (لا سيرينا) لنضع قنبلة عليها. لو كان ذلك صحيحاً، لألصقنا القنبلة بالهيكل وسبحنا بعيداً؛ لم يكن ثمة داعٍ للصعود على متنها."

صدقه كورت، فذلك كان التفسير المنطقي الوحيد. بطريقة ما، تم تسريب خبر محاولة الاغتيال لـ (دي لا روشا).

– "من كان يعلم بالهجوم على (لا سيرينا)؟"

هز رمسيس كتفيه. كانوا قد وصلوا إلى بركة كبيرة تمتد حتى حافة العقار تقريباً؛ ساروا تحت أشجار الصفصاف الباكية على طول

جانبها البعيد، واضعين أيديهم اليمنى على جدار العقار المغطى بالكروم لحفظ توازنهم على الضفة الضيقة.

– "فقط الرائد غامبوا ونحن الاثنين، والخمسة الآخرون في فريقنا، بالإضافة إلى من هم أعلى منا رتبة، ليس في قوات (GOPES) ولكن في الحكومة الفيدرالية."

– "ومن يكون هؤلاء؟"

– "المدعي العام فقط، والمدعي الخاص المكلف بالمشروع."

– "إذن هو واحد من هذين الرجلين؟"

ضحك رمسيس قليلاً وهم يسيرون:

– "يمكنني حصر الأمر أكثر. كان الرائد غامبوا يشعر طوال الوقت أن المدعي العام يعمل لصالح كونستانتينو مادريغال."

توقف كورت في الظلام للحظة:

– "كان إيدي يعلم أن رئيسه يأمره بتنفيذ رغبات كارتل مادريغال؟"

هز رمسيس كتفيه، لكن كان من الواضح أنه يريد لـ كورت أن يفهم موقفهم:

– "كان الرائد غامبوا يقول دائماً: (لن نصل أبداً إلى الرجل الأخير، لأن الرجل الأخير هو من يخطط لكل هذا). كان.. ما هي الكلمة؟ (فاتال) بخصوص هذا الأمر."

صحح له جينتري:

– "قدرياً (Fatalistic)."

– "نعم. كانت المعلومات الاستخباراتية دقيقة جداً، وكان يعلم أن (الكارتيلات) تستخدمنا كقوة وكيلة. كان يعلم أن مادريغال ورجاله سيكونون آخر من في قائمة الكارتيلات، لذا افترض أن مادريغال هو من يحرك خيوطنا. لكننا لم نتوقع أبداً أن نتعرض للغدر في عملية (دي

لا روشا). الشيء الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه هو أن المدعي الخاص، ربما، كان في جيب (دانيال دي لا روشا)."

– "إذن ما تقوله هو أن المدعي العام يعمل لحساب مادريغال، والمدعي الخاص يعمل لحساب (دي لا روشا)."

أكد رمسيس قوله:

– "ونحن عالقون في المنتصف."

تمتم مارتن عبر فكه المتورم:

– "بالضبط (Exactamente)."

كان قد التقط ما يكفي من الإنجليزية ليدلي بدلوه في الأمر.

قال كورت بصوت مسموع ولكن لنفسه:

– "لا يمكن الوثوق بأي شخص في السلطة، أليس كذلك؟"

ضحك رمسيس بلا مرح:

– "هل أدركت هذا للتو؟ حسناً يا صديقي، الآن يمكنني قولها: أهلاً بك في المكسيك."

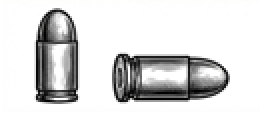
يا للهول، فكر كورت. لقد عمل في عمليات خطيرة في حياته، وتعامل مع أوغاد يلوحون بأعلام الحرية أو العدالة أو الشرف لإخفاء أهدافهم الدنيئة، لكنه لم يواجه قط فساداً متجذراً في مجتمع بهذا الشكل الكامل. إذا كان كل ما قاله "تشاك كولين" و"رمسيس" صحيحاً – وهو أمر مرجح تماماً بالنظر لما شهده وعاشه خلال ثلاثين ساعة في غرب المكسيك – فإن آل غامبوا ليس لديهم أحد يمكنهم الوثوق به.

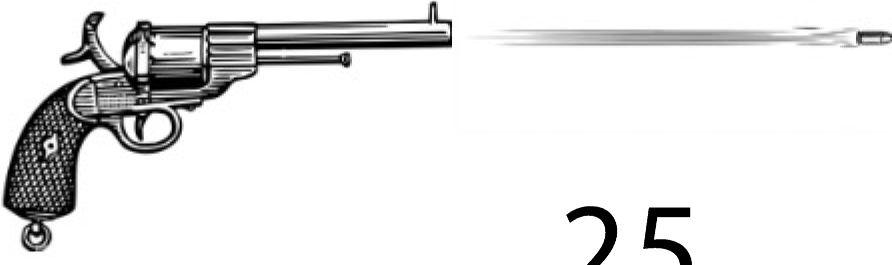
فكر كورت في مدى سوداوية موقف إيدي وهو يعمل عالماً بهذه الظروف، متلقياً معلوماته من رؤساء فاسدين لهم أجنداتهم الخاصة من أجل تنفيذ اغتيالاته. لكن كورت تفهم الأمر؛ كانت تلك هي القواعد هنا.

قواعد بائسة، لكنها كانت القواعد الوحيدة المتاحة.

كان إيدي يعلم طوال الوقت أنه في خطر، وأنه قد توغل بعيداً جداً. تساءل كورت إن كان صديقه القديم يتوقع أصلاً أن يعيش طويلاً بما يكفي ليرى ابنه. لا سبيل لمعرفة ذلك، لكن التفكير في ذلك الثقل الجاثم على صدر صديقه المرح أحزن كورت بشدة.

نمت داخل كورت عزيمة جديدة. عزيمة على.. إنقاذ شيء ما لـ إيدي غامبل. ولـ "تشاك كولين". نصر صغير، رد اعتبار بسيط، وخزة في عين أولئك الذين سلبوا كل شيء من هذين الرجلين الطيبين.





25

عندما عاد كورت ورجال فرقة «GOPES» إلى المنزل الكبير، تفقدوا المبنى بحثًا عن أفضل المواقع لنشر الحراس ولمراقبة المحيط. كانت العمارة الإسبانية القديمة – كتلك التي شيدت في المكسيك في سبعينيات القرن الثامن عشر – تستلهم الكثير من الأبنية الموريسكية التي زينت أفق إسبانيا الأندلسية. ومن أبرز سماتها «الميرادور» (mirador)؛ وهي شرفة أو فناء مكشوف، غالبًا ما يكون مسقوفًا ومزينًا بقنطرة تمنح إطلالة شاملة على المكان. كان هذا المبنى مشيدًا على شكل حدوة حصان، يواجه جزؤه المقعر جهة الجنوب، محيطًا بالفناء الواسع والمسبح المستطيل. وكانت هناك ثلاث شرفات في الطابق الثاني من المنزل الكبير، تطل على الممر الأمامي، والفناء، والجدار الخلفي، وبستان أشجار الفاكهة الكثيف الذي ينتهي عند الجدار المحاذي للبركة.

لم تكن المراقبة من الأعلى بالأمر العسير هنا.

أجرى الرجال جردًا سريعًا لأسلحتهم. ومن بين الأشخاص الأحد عشر المتواجدين في المنزل، اقتصرت الترسانة المتاحة على رشاشين قصيرين من طراز «كولت» بحوزة رجلي «GOPES»، وبندقية الصيد العتيقة مزدوجة الفوهة الخاصة بـ لويس كوراليس مع علبة ذخيرة من طلقات صيد الطيور، ومسدسي «بيريتا» عيار 9 ملم مع مخزنين لكل منهما، ومسدس «ماغنوم .357» ضخم يحوي ثلاث طلقات حية.

لم يملكوا أية معدات للرؤية الليلية، بل مجرد كشافين يدويين رخيصين ومتهالكين، ولا أية أسلحة يمكنها حقاً إصابة هدف من مسافة بعيدة.

نعم، أدرك جينتري أن الأمر قد يتحول إلى كارثة إن هاجمهم الأوغاد. وإن كان الهجوم شرسًا، فسينتهي كل شيء في غضون دقائق.

انعقد اجتماع ثانٍ في غرفة الجلوس الكبيرة عند العاشرة والنصف مساءً. كان لويس كوراليس قد عاد إلى غرفة نومه ليستريح، لكن بقية المجموعة كانت حاضرة بالكامل. تمددت إيلينا على الأريكة رافعة قدميها المتورمتين على وسادة بينما تولت حماتها تدليكهما، في حين وقف البقية مستندين إلى الجدار أو جالسين على الكراسي والطاولات التي كساها الغبار. سلم كورت مسدس مارتن لـ لورا؛ فقد علمتها أكاديمية الشرطة وشقيقها الشرس والمفرط في حمايتها كيفية إطلاق النار، وأدرك كورت من تصرفاتها في فالارتا أنها لا تتردد في تصفية الأوغاد الذين يستحقون الموت. أما المسدس الآخر فكان من نصيب دييغو الشاب. لم يسبق له أن أطلق النار من قبل، لذا أخذته لورا جانبًا وأعطته درسًا سريعًا في تحديد موقع صمام الأمان ومفهوم مخزن الذخيرة وآلية التصويب.

لم يتوقف إغناسيو عن شرب التكيلا منذ الجولة الأولى قبل ساعتين، فقرر كورت والفيدراليان أنه لن يكون ذا نفع في أي معركة. وبغضب، أرسل إرنستو ابنه البالغ من العمر خمسة وأربعين عامًا إلى غرفة نوم في الطابق الثاني.

تحدثوا عن الوضع الأمني لبعض الوقت، رغم أن آل غامبوا استبعدوا بشدة احتمال تعرضهم لأي خطر هنا في المزرعة. لكن كورت أصر على ضرورة الاستعداد بأقصى ما يمكن، وبعد أن استجوب إينيز حول الأماكن الآمنة في العقار، أرشدت المجموعة إلى باب متفرع من

المطبخ يقود إلى درج ضيق وشديد الانحدار، يهبط إلى ممر جوفي مظلم. ينتهي الممر بقبو حجري طويل، كان يُستخدم في الماضي – عندما كانت المزرعة قيد التشغيل – لتخزين براميل التكيلا. نقلت النساء ما يكفي من الأغطية إلى الأسفل للجميع، ليخلقن مخبأً ومهجعًا للنوم، لكن إيلينا ولوز وإينيز فقط هن من استلقين للنوم فورًا.

وافق كورت على القبو كخط دفاع أخير؛ فقد رأى فيه ميزة كونه مخفيًا إلى حد ما، وأي قوة مهاجمة ستضطر لحشد كل رجالها في ممر يمكن للمدافعين عن القبو تحويله إلى مصيدة موت مميتة.

لكنه أدرك أيضًا أنه لا يوجد مخرج آخر، ولا سبيل للهروب.

تبًا للأمر، قرر في نفسه. هذا أقصى ما يمكننا فعله في هذا المنزل العملاق المظلم والموحش. لم يملكوا ترف اختيار مواقعهم الدفاعية.

أخذ كورت بندقية لويس واحتفظ بمسدسه المسروق. قبل أن يعود الرجل العجوز إلى فراشه، كان قد تجول في المكان لبعض الوقت، مناديًا كورت باسم غييرمو عدة مرات أخرى. في الصباح، من يدري كيف سيفسر ما يجري في منزله؟ لم يكن جينتري ليسمح لرجل عجوز مشوش بالتجول في المزرعة حاملاً بندقية صيد. فلدى كورت ما يكفي من المشاكل المحتملة خارج أسوار المزرعة.

كانت البندقية قديمة وبسيطة، والذخيرة التي تطلقها لن تكون فعالة إلا من مسافة قريبة جدًا، لكنها أفضل من لا شيء. كان قد طلب من مارتن رشاشه القصير، لكن الضابط المكسيكي نظر إلى الـ «غرينغو» وكأنه فقد عقله تمامًا.

تمتم من بين فكيه المتورمين:

– "لن أعطيك سلاحي."

لم يلمه كورت، ولم يكلف نفسه عناء سؤال رمسيس.

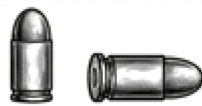
كانت هناك مسألة أمنية أخرى، مسألة كبيرة، ولم يرَ كورت طريقة جيدة للتعامل معها. فلكي يجدوا مخرجًا من هذه الورطة، أو

يستدعوا الصحفيين للمساعدة، أو يتواصلوا مع شرفاء الجيش أو أي شخص ذي سلطة لإنقاذهم، سيتعين على آل غامبوا استخدام الهاتف. وبطبيعة الحال، ستتصل إيلينا بأشخاص سيخضعون حتمًا لمراقبة تجار المخدرات، سواء بشكل مباشر أو عبر وسطاء في الشرطة الفاسدة. خشي أن يزل لسان أحدهم بكلمة تكشف موقعهم، أو أن يلفت انتباه الأشرار إلى أن إيلينا تختبئ في مكان ما، وأن هذه المزرعة الكبيرة المهجورة التي يملكها أصهار أخت زوجها قد تكون هي ذلك المكان.

بدا الربط بين هذه الخيوط أمرًا مستبعدًا، لكن كورت تعلم – خلال فترة عمله مع وضد تجار المخدرات – أن المال والقتل المتوفرين في هذه الصناعة يكفيان لتحفيز موارد وبشر لا حصر لهم للعمل. عدد كافٍ من الرجال يتتبعون خيوطًا كافية، سيقودون في النهاية أعداء آل غامبوا إلى «عائلة كوراليس».

وكان الرجل الرمادي يدرك استحالة انتصار فريقه في معركة مفتوحة، لذا كان يدعو الله أن يكون هو ومن سيضحي بحياته لحمايتهم قد رحلوا منذ فترة طويلة حين يصل الأوغاد.

لكن تلك كانت مشكلة الغد. منع الجميع من استخدام هواتفهم المحمولة أو الخط الأرضي في المزرعة قبل الصباح، لأن أي هجوم ليلي على هذا المكان المظلم سيكون بمثابة مجزرة.



قضى نيستور كالفو فترة ما بعد الظهر والمساء بأكملها في الفناء الخلفي الذي حوله إلى مكتب مؤقت. كانت مروحيتان تابعتان لدي لا روشا قد نقلتا رجال «البدلات السوداء» العشرين من بويرتو فالارتا إلى قصر فخم يقع على بعد ثلاثين دقيقة جنوب غرب غوادالاخارا.

هنا، وكما هو الحال في جميع المنازل الآمنة الخمسة عشر التي تملكها

قيادة الكارتل، كان المبنى والمناطق المحيطة به يخضعون لدوريات يشنها عشرات الحراس المسلحين، جميعهم مدربون عسكريًا على العمليات الخاصة. وهناك طوق أمني خارجي – يضم رجالاً من المشاة العسكريين ممن أثبتوا ولاءهم للتنظيم عبر سنوات من الخدمة – يجوبون الطرق السريعة والفرعية في شاحنات بيك أب. حتى على سطح القصر، كان هناك فريق حراسة مجهز بصواريخ مضادة للطائرات، تحسبًا لأي محاولة من الشرطة أو الجيش أو كارتل منافس لضرب المكان من الجو.

دخن كالفو سيجارًا كوبيًا واحتسى رشفات من رُم دومينيكي دافئ بينما كان يطبع ملاحظاته على حاسوبه المحمول، وظل على اتصال هاتفي دائم بجهات الاتصال الاستخباراتية التابعة له في بويرتو فالارتا، وعيناه تتابعان شاشة التلفاز الكبيرة التي أُحضرت من إحدى غرف النوم ووُصلت بطبق الاستقبال الفضائي عبر نافذة الحمام.

كان رئيس مخابرات «لوس تراجيس نيغروس» (البدلات السوداء) يراقب ردود الفعل الدولية على المجزرة، والاستجابة الحكومية الرسمية في مكسيكو سيتي، والقنوات الخلفية مع الجيش والحكومة والشرطة التي تبقيه على اطلاع دائم.

كان كل هذا العمل يتطلب عشرة رجال لإنجازه، لكن كالفو كان مسيطرًا، والحق يقال، كان يعشق هذا العمل. المؤامرات، المفاوضات، الظهور الإعلامي، والتهديدات في الغرف المغلقة. كان هذا عالمه، ووجد فيه متعة فائقة.

لكن كان لديه واجب آخر اليوم، وهو أمر أزعجه إلى أقصى حد. فـ دانيال الشاب، رئيسه، كان مهووسًا تمامًا بالعثور على جنين في بطن أمه وإزهاق روحه إرضاءً لنزوة صنم غبي. كان دي لا روشا يولي اهتمامًا بنظرات تمثال بلاستيكي على طاولة سريره يفوق اهتمامه

بتقارير رئيس مخابراته، وقد أمر كالفو بالتركيز على تنفيذ رغبات التمثال الصغير، بدلًا من إدارة شؤون ثاني أكبر كارتل في المنطقة.

ومن أجل هذه الغاية، ومن أجل هذه المهمة السخيفة والعبثية، أجرى كالفو واستقبل أكثر من خمسين مكالمة هاتفية خلال الساعات الثلاث الماضية. ورغم أن قلبه لم يكن في هذه المهمة، ورغم أنه وجد أن تشتيت انتباهه وتوجيه رجال «البدلات السوداء» ومواردهم ورأس مالهم السياسي نحو هدف تافه كحياة طفل لم يولد بعد هو مضيعة غبية وغير احترافية ومتهورة للوقت – إلا أن نيستور كالفو كان محترفًا من الطراز الرفيع، وقد قام بعمله.

وقام به على أكمل وجه، بدليل أنه تمكن بالفعل من تحديد الموقع التقريبي لعائلة غامبوا.

اندفع دي لا روشا خارجًا من الباب الخلفي. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا، لكنه كان لا يزال يرتدي بدلته وربطة عنقه؛ وكان وجهه حول شاربه ولحيته المشذبة حليقًا ونظيفًا من أجل العشاء مع رجاله، فبدا في غاية النضارة تمامًا كما كان حين رآه كالفو لأول مرة في الثامنة من صباح اليوم السابق.

قال دي لا روشا:

– "قال إميليو إنك تريد التحدث؟"

أجاب كالفو:

– "سي (نعم) يا دانيال."

– "أخبرني أنك وجدت شيئًا!"

– "لقد وجدت شيئًا."

اقترب دانيال، وجلس على أريكة من الجلد والخيزران بجوار المكتب. صب لنفسه كأسًا من الرُم من طقم كريستال «ووترفورد» بجوار رئيس مخابراته، واستند بظهره إلى الأريكة ووضع ساقًا فوق الأخرى.

قال:

– "ما هو؟"

– "تعلم بالفعل أن القاتلين الفيدراليين اللذين نجيا من الـ غرينغو في حديقة هيدالغو قد قُتلا في ناياريت في طريقهما لتصفية إيلينا غامبوا."

– "نعم."

– "أفاد شهود عيان على الهجوم في الطريق بأن رجلين يرتديان زي الشرطة الفيدرالية قتلا رجالنا."

– "فيدراليون قتلوا فيدراليين؟"

– "سي (نعم)."

– "هل فعل رجال مادريغال هذا؟"

– "لا أظن ذلك."

– "إذن، إذا لم يكن رجال «لوس فاكيروس» (رعاة البقر)، فما تفسيرك للأمر؟"

– "لدي نظرية."

ابتسم دانيال قائلاً:

– "بالطبع لديك يا مستشاري."

أومأ كالفو برأسه وتابع:

– "على متن يخت «لا سيرينا» – كم كان عدد رجال القوة المهاجمة بقيادة العقيد غامبوا؟"

– "ثمانية."

– "وكم جثة تم انتشالها؟"

أومأ دي لا روشا مفكرًا، وارتشف الرُم الدافئ من الكأس الكريستالي وقال:

– "ست جثث فقط."

– "بالضبط. اثنان لم يُعثر عليهما قط. واليوم، يظهر فيدراليان ويقتلان رجلينا. وتشير جهات اتصالي في الشرطة الفيدرالية إلى عدم وجود حالات هروب في منطقة ناياريت؛ وجميع العناصر المناوبة في مواقعها. بالطبع، لا يزال من المحتمل أن يكون رجال خارج الخدمة هم من فعلوا ذلك، ولكن لماذا؟ الشخص الوحيد الآخر في المنطقة الذي يملك أي سيطرة على القوات الحكومية هو كونستانتينو مادريغال، ولكن إذا كان هؤلاء الرجال يعملون لصالح «رعاة البقر»... فاشرح لي كيف يستفيد مادريغال من قتل مأجورين في طريقهم لقتل زوجة ضابط فيدرالي ميت."

اقتنع دي لا روشا بنظرية كالفو، وقال:

– "كونستانتينو لا يفعل شيئًا لا يعود عليه بالنفع."

– "أتفق معك. أعتقد أن هناك احتمالاً كبيرًا بأن اثنين من رجال غامبوا لا يزالان على قيد الحياة، وقد نجوا بطريقة ما من الانفجار على يخت «لا سيرينا»، وقتلوا رجلينا، وأنقذوا آل غامبوا من الشرطة المحلية والجيش في سان بلاس، وهم الآن يعملون على حماية ما تبقى من عائلة إدواردو غامبوا."

– "إلى جانب غرينغو، على ما يبدو."

– "نعم."

– "حسنًا... إلى أين يقودنا كل هذا؟"

كان كالفو قد فتح خريطة طرق على المكتب، فأدارها نحو الزعيم، وبينما انحنى دانيال إلى الأمام، وضع نيستور إصبعًا مشذبًا على مدينة في الداخل.

قال دانيال:

– "تيكويلا؟ اشرح لي."

– "شوهدت دراجتان ناريتان من طراز سوزوكي تابعتان للشرطة الفيدرالية، تمامًا كتلك التي يملكها رجالنا، على الطريق بالقرب من

تيكويلا. وكانت برفقتهما شاحنة فورد كبيرة، مشابهة لتلك التي يملكها الرائد الراحل غامبوا."

– "هل نسيطر على الشرطة المحلية في تيكويلا؟"

– "بالتأكيد."

نهض دي لا روشا، وتجرع ما تبقى من الرُم في فمه.

– "ممتاز! أرسلهم إلى الطرقات. اكتشف أين يختبئ هؤلاء الأشخاص. أخبر «سبايدر» (العنكبوت) بتجميع قوة محلية من القتلة المأجورين ووضعهم في مواقعهم. سنجد آل غامبوا، وسنقتلهم جميعًا حيث يختبئون!"

تنحنح نيستور، ونقر بأصابعه على المكتب المصنوع من خشب البلوط.

– "دانيال. لقد أوصلنا رسالة مذهلة اليوم. العثور على امرأة غامبوا وقتلها أمر في متناول أيدينا تمامًا، لكن ما الذي سيحققه ذلك أكثر؟ لماذا لا نطوي هذه الصفحة فحسب؟"

نظر دي لا روشا إلى الفناء، وتأمل عتمة الليل. تنهد قائلاً:

– "سأخبرك لماذا. يسيطر مادريغال على جزء من الفيدرالية، تمامًا كما لديه رجال في الشرطة المحلية، والشرطة القضائية، وشرطة الولاية، ويمكنني تقبل ذلك. لكن «GOPES»؟ لا... هؤلاء الرجال أنقياء للغاية. إذا بدأوا العمل لصالح مادريغال، فعليّ أن ألقنهم..."

قاطعه كالفو:

– "لا يوجد سبب للاعتقاد بأن الرائد غامبوا كان يعلم أنه ينفذ أجندة كونستانتينو مادريغال."

لوح دانيال بيده مبعدًا الفكرة.

– "كان غامبوا ذكيًا، لكنه اعتقد أنه أذكى مما هو عليه في الواقع. ظن أنه سيستخدم معلومات مجموعة مادريغال ثم يقتل مادريغال بنفسه. أنا لا أحب الرجال الأذكياء الذين لا يلتزمون بالقواعد. وأريد أن

أثبت لأي رجل آخر يظن أنه نقي وشريف ومثالي وذكي إلى هذا الحد، أنني سأبدأ بقتله، وسأنتهي بقتل كل ما أحبه في حياته."

لم ينبس كالفو ببنت شفة.

تابع دي لا روشا:

– "ستجد إيلينا غامبوا. وسيتولى رجال «سبايدر» قتلها وقتل طفلها وكل من يحيط بها."

أومأ كالفو لرئيسه. لا مجال لتغيير رأيه.

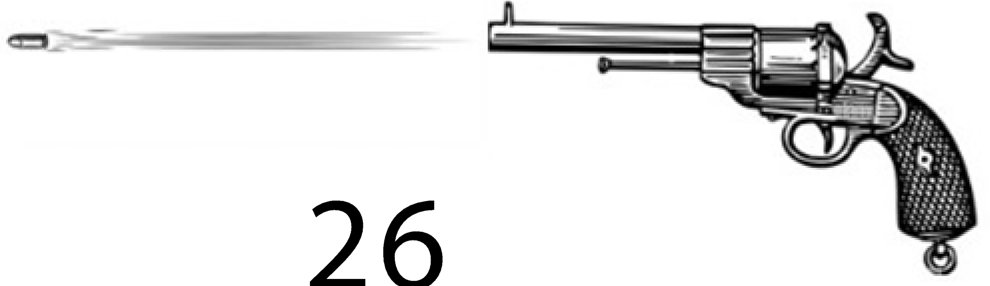
– "سي (نعم) يا زعيم."

استدار دي لا روشا ليدخل المنزل، لكنه توقف ونادى مستشاره.

– "ونيستور، لا تجادلني في هذا الأمر مرة أخرى."

– "سي (نعم) يا زعيم."





26

لم يكن بـ "الهاسيندا" كهرباء، لكنها كانت تضم هاتفاً أرضياً، وقد رنّ في تمام الساعة الثانية صباحاً، مفزعاً كل من في البيت وموقظاً النائمين. كانت لورا قد صعدت لتوها من القبو، فهرعت إلى غرفة الجلوس الرئيسية المضاءة بالشموع لتجيب. التقطت السماعة عند الرنة السادسة، في اللحظة ذاتها التي دخل فيها كورت الغرفة عبر الباب المؤدي إلى الشرفة الخلفية، بعد أن أمضى الساعتين الماضيتين في التحضير لهجوم كان يصلي ألا يأتي أبداً.

– "آلو؟"

أجاب صوت من الطرف الآخر:

– "صباح الخير، أعتذر لإزعاجكم في وقت مبكر كهذا. هل يمكنني التحدث إلى السيدة إيلينا غامبوا؟"

رفعت لورا بصرها نحو كورت، وقد شحب وجهها تماماً، وهمست:

– "دي لا روشا."

دون تردد، اندفع كورت عبر العتمة، قاطعاً بلاط الغرفة الفسيحة المغطى بالغبار. مدت لورا الهاتف إليه، فجذبه ووضعه عند فمه.

صاح بصوت هادر ترددت أصداؤه بين الجدران الحجرية وفي الممرات المظلمة المهجورة، حتى اهتز زجاج النوافذ القديم:

– "أخبرني أنك تتحدث الإنجليزية، أيها الوغد!"

ساد صمت طويل، تبعه ضحك مكتوم.

– "آه.. الأمريكي. ذاك الذي يتقافز كالقرد على شاشات التلفاز. كم هو جميل أن أتحدث إليك أخيراً، وجهاً لوجه."

– "لا أدري أي مسخ أنت، لكن استهداف طفل لم يولد بعد لا يجعل منك رجلاً بأي حال، يا سافل."

– "لن تفهم ذلك؛ فالفوارق الثقافية بيننا تخلق فجوة واسعة في منظوماتنا الفكرية. ولسوء حظك، أتوقع أنك ستقف عائقاً في طريق هدفي، لذا ستموت مع السيدة غامبوا."

ضحك كورت بغضب:

– "لسانك أمهر بكثير من قتال رجالك. لقد قتلتُ نصف دزينة منهم بالفعل، أتذكر؟"

– "نعم، سمعتُ كل شيء عن أفعالك. أنت بارع حقاً فيما تفعله. هل لديك أدنى فكرة عن مقدار المال الذي قد تجنيه لو عملتَ لحسابي؟ اسمع، من الواضح أنني عرفتُ أين تختبئون، ولدي رجال خارج أسوار الهاسيندا الآن. أنت والعائلة محاصرون تماماً."

– "ونحن مسلحون جيداً. قل لرجالك أن يتفضلوا ليأخذونا."

كان بقية أفراد عائلة غامبوا قد دخلوا الغرفة، حتى إغناسيو وقف عند الدرج، متكئاً على الجدار، يصغي إلى طرف واحد من محادثة بلغة لا يفهمها.

ضحك دي لا روشا ثانية:

– "اهْدَأ يا صديقي. استمع إليّ فقط. سنسمح لكم بالاستسلام والمغادرة. إذا أردت، يمكنك أخذ الجميع معك باستثناء إيلينا. نحن نريدها هي فقط."

– "لا اتفاق بيننا."

– "إذن هذه آخر مرة نتحدث فيها. ستكون ميتاً قبل الفجر، وبما أن هذا خيارك، فلا بأس عندي."

انقطع الخط. عبث كورت بالهاتف للحظة ليتأكد؛ نعم، لقد قُطعت أسلاك الهاتف الأرضي.

أمرهم كورت بحزم:

– "ليتحقق الجميع من هواتفهم المحمولة."

ولمدة دقيقتين، سادت حالة من الهرج في أرجاء المكان بينما كان أفراد العائلة يتسابقون للوصول إلى هواتفهم ومحاولة التقاط أي إشارة.

لكن دون جدوى.. لقد عُطل برج الاتصالات في المنطقة.

اللعنة.

أدرك جينتري أن تعطيل الهواتف المحمولة يتطلب طاقة بشرية وقدراً من الاستخبارات لدى خصمه. علم حينها أنهم لن يواجهوا مجرد مجموعة من عمال المزارع المكسيكيين السمان بقبعات القش، بل إن دي لا روشا قد نجح في حشد فرقة مدربة بشكل جيد، حتى هنا في هذه القفار.

كان مارتن ورمسيس عند مدخل الطابق الثاني؛ حيث عاد كل منهما من موقعه في جهتين متقابلتين من "البيت الكبير". كان أحدهما يغطي المرصد الشمالي، والآخر يغطي الجنوبي. بقي كورت في الطابق السفلي، وأخذ يطيل النظر في كل فرد من أفراد عائلة غامبوا. لم يحاول تجميل الواقع المرير، بل اكتفى بقوله:

– "إنهم قادمون."

لم يتحرك أحد.

– "أين لويس؟"

قالت إينيز:

– "إنه في فراشه."

– "هل يمكنكِ إقناعه بالنزول إلى القبو؟"

هزت رأسها بأسى:

– "لا، لن يفهم ما يحدث، ولن يوافق على الذهاب."

أومأ كورت برأسه. لم يكن لديه وقت للقلق بشأن لويس الآن. تنهد وهو ينظر حوله إلى قوته البائسة المكونة من تسعة أشخاص. لطالما كان "الرجل الرمادي" أداة للتنفيذ لا للإدارة؛ لم يكن يوماً قائداً. تمنى لو كان يملك خطاباً بليغاً يشحذ به همم رجاله، لكنه لم يدرِ ماذا يقول. الأمر كله سينحصر بينه وبين رمسيس ومارتن ولورا. أما هؤلاء المساكين الآخرون.. فقد كان يأمل فقط ألا يطلقوا النار على بعضهم البعض بالخطأ حين يبدأ الهجوم.

تمتم كورت لنفسه:

– "نحن في ورطة."

نهضت إيلينا التي كانت تجلس على الأريكة وقالت:

– "يمكننا إيقافهم."

اكتفى جينتري بالنظر إليها؛ حاول قول شيء مشجع لكنه لم يجد ما يسعفه.

أعلنت إينيز أن لديها خبزاً في الفرن وعليها إخراجه، وتبعتها لوز إلى المطبخ. اختفت العجوزان قبل أن يتمكن جينتري من توضيح أن هناك أموراً أكثر أهمية في هذه اللحظة.

التفت إلى الباقين في الغرفة وإلى الضابطين اللذين ينظران من الأعلى:

– "هناك أربعة مقاتلين مدربين هنا، واثنان منا فقط يملكان أسلحة حقيقية. أما أنا، فلا أملك سوى مسدس نصف فارغ وبندقية صيد عمرها خمسون عاماً، وكأنني في خضم مواجهة من مواجهات (الغرب القديم) اللعينة."

لم يفهم أحد هذا التشبيه، واكتفوا بالنظر إلى حاميهم الأمريكي. رأى في عيون إيلينا ولورا وإرنستو ودييغو وإغناسيو نظرات ملؤها الثقة.. نظرات ملؤها الأمل.. ونظرات الحمقى.

تسارعت أفكاره؛ كان يفكر في الهجوم الوشيك وما يمكنه فعله.

قالت إيلينا:

– "يا خوسيه، لا تيأس منا. قد لا نكون جميعاً جنوداً، لكن يمكننا المساعدة. كل واحد منا يستطيع فعل شيء!"

فاحت رائحة الخبز الطازج من المطبخ.

تنهد كورت محبطاً:

– "يا إيلينا، لن نتمكن من (خبز) طريقنا للخروج من هذه المحنة!"

احمرّ وجه إيلينا غامبوا غضباً وإحباطاً، بينما ضحك رمسيس في الطابق العلوي.

– "بخلاف رشق أعدائنا بفطائر (الشيميشانغا)، هل لدى أحدكم أي فكرة أخرى؟"

رفعت لورا غامبوا مسدسها قائلة:

– "نعم، لدي فكرة. ما رأيكم أن نردي أولئك (الأوغاد) قتلى حين يأتون؟"

هز كورت كتفيه:

– "حسناً.. نعم، أفترض أن هذه هي الخطة." ثم تيبس جسده وأردف: "ليذهب كلٌ إلى موقعه. أنتم تعرفون ما عليكم فعله."

اندفع كورت ماراً بالعائلة نحو أول مجموعة من الشمعدانات وأطفأ الشموع هناك. مر بهم ثانية في غرفة الجلوس وهو يتجه نحو الباب الخلفي وتمتم:

– "حظاً موفقاً."

توقف يده على المزلاج، والتفت لينظر إليهم نظرة أخيرة. وقفوا كالتماثيل الحجرية في الظلام يحدقون فيه، بينما خرجت لوز وإينيز من المطبخ تحملان صينية من لفائف الخبز.

صرخ فيهم بصوت غلبه الإحباط الشديد:

– "تحركوا، تباً لكم! إيلينا ولوز وإينيز إلى القبو! إرنستو إلى ممر القبو لحماية النساء؛ دييغو وإغناسيو إلى المطبخ لحراسة مدخل القبو؛ لورا عند شرفة الطابق العلوي لتكشف هذه الغرفة! أطفئوا كل الشموع في طريقكم. تحركوا! الأمر ليس بهذا التعقيد اللعين! وابتعدوا عن النوافذ!"

تفرق الجميع في اتجاهات مختلفة، وشعر كورت ببعض الراحة حين رآهم يتجهون – تقريباً – نحو المهام الموكلة إليهم.

قال لنفسه:

– "اللعنة."

رفع بصره نحو الطابق العلوي؛ كان مارتن قد عاد إلى موقعه، لكن رمسيس ظل ينظر إليه. قال الضابط المكسيكي من وسط الظلام:

– "حظاً موفقاً يا صديقي."

أجابه كورت:

– "سنحتاجه بالتأكيد."

ثم خطا خارج الباب الخلفي إلى قلب الظلام.



تكونت الموجة الأولى من ستة عشر رجلاً. لم يكونوا من نخبة القتلة المأجورين، لكنهم كانوا رجالاً قساة بلا رحمة، مدربين على استخدام السلاح، ومدفوعين من قِبَل قيادتهم لتنفيذ رغبات زعيم الكارتل.

في قاموس الكارتيلات المكسيكية، يُطلق على هؤلاء الرجال اسم "سولدادوس" (جنود)، أو بلقب أكثر ازدراءً وهو "إيستاكاس"، أي "أوتاد الأسوار". لم يكونوا من الصفوة، لكنهم كانوا قادرين على الوقوف بسلاحهم وتنفيذ ما يُطلب منهم.

تراوحت أعمارهم بين السابعة عشرة والحادية والستين؛ كان بينهم أبوان مع ابنيهما، وزوجان من الإخوة. خدموا جميعاً في الجيش، وكان أحدهم ضابطاً سابقاً، مما جعله قائداً لهذه المجموعة المرتجلة من القتلة.

لم يكن هؤلاء الرجال أفضل من يمكن لـ "البدلات السوداء" استدعاؤهم، لكنهم كانوا الأقرب إلى الهاسيندا، ولهذا السبب تم اختيارهم. كانوا جميعاً يعيشون في هذه التلال والجبال، وقد عمل معظمهم معاً في مهام سابقة لحساب عصابة "البدلات السوداء". ثلاثة منهم كانوا من الشرطة القضائية لولاية خاليسكو، وستة آخرون من شرطة بلدية بلدة تيكويلا القريبة. كانت سيارات شرطة الولاية والبلدية تقف بجانب الطريق الترابي خلف الجدار الخلفي للهاسيندا، بجوار شاحنتين وثلاث سيارات قديمة.

كان "العنكبوت" قد اتصل بقائد منفذيه في هذه المنطقة بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، واستغرق الأمر ثلاث ساعات كاملة لحشد هؤلاء المرتزقة. قاموا بإسقاط برجين للاتصالات باستخدام شاحنة وسلاسل حديدية، ثم انتظروا أمراً عبر اللاسلكي لقطع خط الهاتف الأرضي.

كان معظمهم يحمل بنادق صيد تابعة للشرطة أو بنادق "M1 كاربين" – وهي بندقية أمريكية قديمة لا تزال منتشرة في المكسيك، يستخدمها غالباً حراس الأمن في البنوك والمتاجر. ورغم قدمها مقارنة بالبنادق الحديثة، إلا أنها تطلق رصاصاً قوياً من عيار .30 وتؤدي المهمة بكفاءة.

وكما توقع جينتري وضابطا الـ (GOPES) عند فحصهم للميدان، جاء الهجوم عبر الجدار الخلفي، حيث تسلل المهاجمون وهبطوا في الظلام.

تحركوا عبر الأعشاب الطويلة في ثنائيات، وعيونهم معلقة بالمبنى المظلم الذي يبعد خمسين ياردة خلف الشرفة والمسبح. انحنوا خلف أشجار الليمون والبرتقال البرية، ثم ركضوا في خطوط متعرجة قصيرة ومجهدة نحو التماثيل، واختبأوا خلفها أيضاً.

باتوا قريبين الآن؛ وصل الستة عشر جميعاً إلى حافة الشرفة الخلفية، على بُعد خمس وسبعين قدماً من الرواق حيث تقع الأبواب الخلفية للغرفة الرئيسية التي بدت وكأنها تدعوهم للدخول. بدأت مجموعات الرجال مناورة تقدم غير منظمة، كاد بعضهم يصطدم ببعض، بينما انحنى آخرون خلف أحواض الزرع بجوار المسبح.

على بُعد خمسين قدماً، وقف ضابط الجيش السابق، القائد الفعلي لهذه المجموعة، وأشار بيده للجميع بالتقدم. لم يتوقع أن يصل إلى هذا الحد دون مقاومة، ولم يخطط لأن يقتحم الجميع من المدخل ذاته، لكن أبواب الشرفة كانت الأقرب، وبمجرد دخول المنزل، يمكن لرجاله التفرق وبدء المذبحة. كان الرجل يتخيل بالفعل مكافأة المال التي سيمنحه إياها "العنكبوت".

صرخ قائلاً:

– "هجوم! (Ataque)"

فجأة، ودون سابق إنذار، دوى زئير محرك ضخم إلى يمين موقعه على الشرفة، على الجانب الآخر من المسبح المستطيل. كانت شاحنة ضخمة قد وُضعت بطريقة ما بمحاذاة الجدار الخارجي للرواق وغُطيت بالكروم، بعيداً عن الممر الأمامي ومخفية تماماً عن الأنظار. وقف الرجال الستة عشر كالتماثيل المحيطة بهم لثوانٍ معدودة من الذهول القاتل، حين اشتعلت مصابيح الشاحنة الـ F-350 العالية ومجموعة الأضواء الكاشفة، لتغمر الشرفة الخلفية بأكملها بضوء أبيض باهر.

استدار القائد نحو مصدر الضوء، واضعاً يده فوق عينيه لاتقاء وهجه، ورفع بندقيته بيد واحدة ليطلق النار على مصدره.

لكن على بُعد عشرة أقدام من مقدمة حذائه، في المسبح الأسود القذر، لفت انتباهه صوت وحركة.

كان "الرجل الرمادي" قد أمضى قرابة ثلاث دقائق تحت الماء، بعد أن قضى الدقائق العشر السابقة ولم يبرز من السطح اللزج المليء بأوراق الشجر المتعفنة سوى رأسه وبندقيته. حين سمع الصفير الخافت من مارتن الذي يشير إلى قدوم المهاجمين، غطس تماماً وهو يتنفس عبر أنبوب من قصب البامبو، مغمض العينين، ينتظر صوت الشاحنة ليخبره أن وقت العمل قد حان. كان رمسيس قد شغّل المركبة باستخدام جهاز التحكم عن بعد حين صار القتلة على مسافة قريبة كافية.

حين برز كورت على السطح، حرص أن يكون وجهه بعيداً عن المصابيح الكاشفة الضخمة. رأى الأهداف أمامه كصيد سهل، ولم يظهر أي رحمة. ارتفع من الماء، باصقاً أنبوب البامبو من فمه، وصوّب بندقية الصيد المزدوجة نحو أول رجل رآه، وأطلق خرطوشاً في بطنه الضخمة.

دوى صوت الانفجار!

فوقه، وإلى يمينه، سمع رشقات قصيرة من مدفع رشاش عيار 9 ملم؛ كان رمسيس يطلق النار من المرصد في الطابق الثاني. كما انطلقت طلقة مسدس أخرى من مستوى الأرض، قادمة من باب الشرفة. لم يعرف كورت من أطلقها، فلم يكلف أحداً بهذا الموقع.

دوى صوت انفجار آخر!

أفرغ الطلقة الثانية، ليرسل أكثر من مئة حبة فولاذية صغيرة إلى جذع رجل يرتدي زي الشرطة الأخضر، فاستدار الرجل وسقط على الشرفة. تلاحقت رشقات الماء من حوله، فغطس ثانية تحت أوراق

زنابق الماء ليعيد حشو بندقيته تحت الماء. كان يحتفظ بالخراطيش في جيوبه الأمامية، فاستبدل طلقتين جديدتين بالقديمتين، ودفع نفسه نحو الجزء الضحل من المسبح ليخرج من الماء في مكان غير الذي غطس فيه.

اندفع للأعلى ثانية من الماء الأسود إلى هواء الليل البارد، فوجد هدفين قد تجاوزا موقعه وهما يركضان نحو "البيت الكبير". فأطلق النار على ظهريهما، ليسقطا مترنحين للأمام. غطس مجدداً ليعيد الحشو ويسبح إلى جزء آخر من المسبح.

سقط ستة من القتلة في أقل من عشر ثوانٍ؛ أما من كانوا في الخلف فقد تراجعوا بعيداً عن الأضواء الساطعة وارتموا في الأعشاب الطويلة. لكن رجلين، كلاهما من شرطة ولاية خاليسكو، كانا يتقدمان على الجانب الأيمن للمسبح، قرب الشاحنة، حين تم تشغيلها. أطلقا النار على الشاحنة ببندقيتيهما من طراز M1، فأصابا المصابيح الأمامية لكنهما لم يطالا الأضواء الكاشفة، ثم ركضا بجانبها بينما بدأ رجالهما يطلقون النار في اتجاههما بالخطأ.

نجح الرجلان في الوصول إلى الرواق الممتد خلف المنزل. كان الظلام هنا دامساً وآمناً من نيران زملائهما العشوائية. ركضا مبتعدين عن أبواب الشرفة، وبعد قرابة دقيقة من المسير بمحاذاة جدار الجص، وجدا نفسيهما ينعطفان عند الزاوية الجنوبية الغربية للمبنى. واصلا المسير في الظلام الحالك بمحاذاة الجدار المتشابك بكروم "المونيدا" الكثيفة. خلفهما، خفتت أصوات إطلاق النار لتتحول إلى طلقات متفرقة وانفجارات مجيبة.

وصلا إلى نافذة على مستوى الأرض. كانت مغلقة، لكن أحدهما استخدم كعب بندقيته لتحطيم الزجاج. مد يده وفتح المزلاج، ثم دفع النافذة ودخل، وتبعه شريكه.

لم يكن الشرف أو الواجب أو المجد هو ما يحركهما، بل المال. المال الذي سيحصلان عليه من هذه العملية، والمكانة التي سينالانهما في بلدتهما حين ترتفع أسهمهما لدى عصابة "البدلات السوداء".

وجدا نفسيهما في مكان مظلم، وبالكاد تمكنا من تمييز أثاث البلوط الضخم لغرفة نوم رئيسية. على الجانب الآخر من النافذة كان هناك باب كبير مغلق. كان الشرطيان واثقين تماماً من أن صوت تحطم الزجاج لم يلحظه أحد في الداخل، خاصة مع استمرار تبادل إطلاق النار المتقطع بالخارج. وقفا وبدأا في عبور الأرضية المبلطة نحو الباب، وحين قطعا أكثر من نصف المسافة، لفت انتباههما حركة مفاجئة على يسارهما.

جاء صوت من الظلام:

– "غييرمو؟ بني؟ هل هذا أنت؟"

أطلق كلا الرجلين النار من بندقيتيهما؛ وفي ضوء وميض الإطلاق، رأيا رجلاً عجوزاً يجلس في فراشه. انفجر صدره، وهوى من جانب السرير، وانقلب رأساً على عقب ليستقر جثة هامدة ومنحنية في زاوية الغرفة.



التقى رمسيس ومارتن في الصالة الكبيرة، كلاهما استجاب لصوت إطلاق النار داخل المنزل. تكاتفا، وتقدم مارتن في الأمام، وتحركا بمناورة تكتيكية متقنة تسمح لهما بمهاجمة الأعداء في الأمام مع حماية بعضهما البعض. وصلا إلى زاوية الممر، ثم سمعا خلف الانعطاف مباشرة طلقتين من مسدس وصراخ امرأة.

اندفع ضابطا القوات الخاصة حول الزاوية وكأنهما جسد واحد: مارتن في الأمام جهة اليسار، ورمسيس خلفه مباشرة جهة اليمين. وجّها أضواء أسلحتهما نحو الممر، فوجدا لورا غامبوا كوراليس جاثية

على ركبتيها أمام باب مفتوح، ظهرها لهما، ومسدسها موجه نحو ظلام غرفة النوم الرئيسية.

في تلك اللحظة، دوت طلقة أخرى ووميض ضوء من داخل الغرفة. طار رمسيس ثينفويغوس إلى الخلف وسقط على الأرض مع أنّة مكتومة بينما خرج الهواء من رئتيه دفعة واحدة.

فتح مارتن أوروزكو النار داخل الغرفة، ممطراً المدخل فوق رأس لورا مباشرة برصاص عيار 9 ملم. وبينما كان يطلق النار، تخطى جهة اليمين ليغطي شريكه الساقط. فرغت ذخيرته في ثلاث ثوانٍ، فجثا على ركبتيه ليعيد الحشو.

لكن لم يعد هناك إطلاق نار من الغرفة.

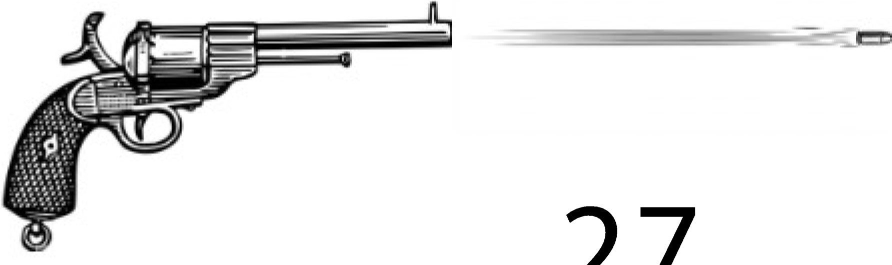
اندفع مارتن الآن متجاوزاً لورا، وبواسطة الضوء المثبت على بندقيته، رأى شرطيين من شرطة الولاية جثتين هامدتين بجوار النافذة المفتوحة، وجداراً مليئاً بالثقوب والكسور من أثر الرصاص، ثم على الأرض في الجانب الآخر من السرير، رأى جسد لويس كوراليس المنهار.

كانت لورا قد دخلت خلفه، وأطلقت صرخة وهي تركض لتنكبّ على والد زوجها.

تركها مارتن وعاد إلى شريكه في الممر. شعر بالارتياح حين رأى رمسيس يستند على مرفقيه، وكان (الغرينغو) هناك أيضاً، جاثياً فوقه في الظلام. كان الأمريكي مبللاً بالكامل. لقد تلقى رمسيس رصاصة مباشرة في صفيحة السيراميك الواقية على صدره؛ مما أفقده القدرة على التنفس للحظات، لكنه لم يُصب بأذى. نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم البعض، وتنفسوا الصعداء.

لقد انتهت المعركة.. في الوقت الحالي.





27

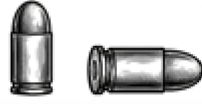
جلس كورت مع مارتن ورمسيس على الميرادور الجنوبي، وعيونهم شاخصة نحو الجهة الخلفية من العقار. كان كورت قد خلع قميصه المبلل واستبدله بآخر من قماش الدينيم، أخذه من خزانة لويس، لكنه لم يعثر على سروال جاف يناسب مقاسه في أي مكان بالمنزل. رائحة دخان البارود النفاذة ما زالت معلقة في الأجواء، وسرعان ما ستستبدل برائحة الجثث الملقاة في الفناء. كان كورت قد قرر بالفعل أنه إذا بقي هو وآل غامبوا هنا حتى طلوع الفجر، فسيربط الجثث بأحواض حجرية ويدحرجها جميعًا في المسبح. لم تعد رؤية جثث البالغين الموتى أو رائحتها تزعجه في شيء، لكن معنويات المدنيين عديمي الخبرة هنا في «المنزل الكبير» ستنهار إذا اضطروا للحركة حول جثث منتفخة بفعل الشمس وتزحف عليها الحشرات وسحالي الإغوانا.

في الداخل، تناهى إلى مسامعه صوت النساء وهن يبكين، ثم يصلين بصوت عالٍ، ثم يعدن للبكاء. انهارت لورا تمامًا عندما عثرت على جثة لويس، وبدا واضحًا أنها تلوم نفسها على موته. قامت إينيز ولوز وإيلينا بتغطية الرجل ببطانية في المكان الذي مات فيه، وحسب علم كورت، كان لا يزال هناك.

كان يعلم أن جثة العجوز ستبدأ بإطلاق الرائحة بحلول الظهيرة.

بمجرد انتهاء الاشتباك واختفاء القتلة المأجورين (sicarios) الناجين مرة أخرى في الظلام باتجاه الجدار الجنوبي للمزرعة، تفقد كورت شاحنة إيدي. تبخرت آماله في هروب سريع عندما وجد ثلاثة من إطاراتها الأربعة مثقوبة جراء وابل الرصاص الذي تعرضت له المركبة بعد أن أشعل الأضواء. كانت هناك ثقوب في الغطاء والشبكة الأمامية والرفرف الأمامي الأيسر، لكن المحرك كان لا يزال يعمل، في الوقت الحالي على الأقل.

لكن ذلك لم يكن ذا قيمة تذكر لشاحنة بإطار واحد منفوخ.



بين نوبات بكائها وصلواتها ولحظات التحديق الجامد في الفراغ، أخبرت إينيز كوراليس كورت أن الحظيرة الواقعة شرق المنزل الكبير تحتوي على شاحنة زراعية قديمة. لم يتم تشغيل محرك الشاحنة منذ سنوات، لكن حسب علمها، كانت الشاحنة صالحة للعمل. ورغم أن إغناسيو كان في حالة سكر شديد، إلا أنه كان ميكانيكي سيارات، لذا أرسل إرنستو ابنه إلى الحظيرة للتحقق من إمكانية استخدام المركبة لمساعدتهم جميعًا – وعددهم عشرة – على الهروب.

وضع كورت الشاب دييغو على الميرادور الشمالي لمراقبة واجهة العقار؛ زوده ببندقية «كاربين» أخذها من أحد رجال الشرطة القتلى، وأمره بتثبيتها على كتفه وتوجيهها نحو الهدف وسحب الزناد مرارًا وتكرارًا حتى يأتي أحد المحترفين ليحل محله.

تحدث رمسيس بصوت خافت إلى الأمريكي:

– "أبلينا بلاءً حسنًا. فقدنا واحدًا من أصل أحد عشر. وهم فقدوا ثمانية من أصل، لا أدري، خمسة عشر أو عشرين ربما. بالإضافة إلى أننا حصلنا على بنادق وذخيرة."

لم ينظر كورت إلى النصف الممتلئ من الكوب.

– "نعم، لكن الناجين حصلوا على كل المعلومات التي يحتاجونها. يعرفون أننا قلة؛ يعرفون أننا لا نستطيع تغطية جميع نقاط الدخول؛ يعرفون التصميم العام للمنزل. هؤلاء الرجال كانوا القوة التي تمكن دي لا روشا من إرسالها إلى هنا في غضون ساعتين. لم يكونوا نخبة قواته بأي حال من الأحوال."

تنهد ثم أضاف:

– "علينا الخروج من هذا الجحيم. لن نصمد أمام هجوم آخر."

– "إلى أين نذهب؟"

– "أنا منفتح على الاقتراحات."

أقر كورت.

لم ينبس أي من الفيدراليين ببنت شفة.

كان كورت متعبًا، محبطًا إلى أقصى حد، وبلا خطة تمامًا، وتجلى إحباطه في تعليقه التالي:

– "إذن، بخلافكما، هل تقولان إنه لا يوجد مكسيكي واحد جدير بالثقة في المكسيك كلها؟"

علق الاتهام في الهواء للحظة.

أجاب رمسيس سينفويغوس أخيرًا، بنبرة غضب لا تخطئها الأذن:

– "أعرف الكثير من الأشخاص الجديرين بالثقة. جنود، وشرطة، ومدنيون، وموظفون حكوميون. هناك الكثير من أبناء وطني ممن يستطيعون الموت، ويموتون بالفعل، وهم يقاتلون تجار المخدرات. لكن إقحامهم في هذا الأمر سيعرضهم للخطر. الفساد موجود في جميع مستويات كل مؤسسة في هذا البلد، بفضل الستين مليار دولار التي تنفقونها أنتم الـ «غرينغوس» (الأمريكيون) كل عام لتغذية ذلك الفساد."

هز كورت كتفيه.

– "لا تلمنا على حربكم الأهلية."

– "وكأنكم أنتم الأمريكيون لم تخوضوا حربًا أهلية بأنفسكم، أليس كذلك؟"

تجاهل كورت التعليق، لكن رمسيس لم ينتهِ بعد.

– "لو لم يكن هناك طلب، يا صديقي، لاضطر دي لا روشا وأمثاله إلى أن يصبحوا مزارعي قمح أو أي شيء تافه آخر. تحدث إلى مدمني المخدرات اللعينين في الولايات المتحدة؛ فهم يتحملون جزءًا كبيرًا من المسؤولية عن كل هذا الموت والقتل. كان المزيد من أبناء وطني ليكونوا جديرين بالثقة لو لم يكن المزيد من أبناء وطنك أبناء عاهرات عديمي القيمة يخرقون قوانينكم، وبذلك يزعزعون استقرار أمتنا!"

أومأ كورت برأسه في الظلام. وصلت الرسالة، والرسالة مفادها أنه كان يتصرف بحماقة.

– "آسف يا صاح. أنا فقط غاضب."

بعد لحظة، قال رمسيس:

– "لا بأس. كلنا كذلك."

عبث الرجال الثلاثة بأسلحتهم وحدقوا في عتمة الليل.

سمعوا صوت إغناسيو يحاول تشغيل محرك الشاحنة في الحظيرة، على بعد خمسين ياردة إلى يسارهم. كان شقيق إيدي السكير قد جعل بادئ التشغيل يدور، لكن حتى الآن لم يشتغل المحرك.

تنهد كورت. إذا لم يتمكنوا من تشغيل الشاحنة، فقد انتهى أمرهم. وحتى لو تمكنوا، لم يكن لديه أدنى فكرة إلى أين يمكنهم الهروب هنا في المكسيك. لم يكن من سكان المنطقة...

مهلاً. خطرت فكرة بباله.

– "وجدتها."

سأل رمسيس:

– "ماذا وجدت؟"

– "قلت إن الولايات المتحدة يجب أن تتحمل بعض المسؤولية. ماذا لو استطعنا إدخال إيلينا وعائلتها إلى الولايات المتحدة؟ دي لا روشا لا يملك المؤسسات هناك."

– "لا، لا يملكها."

– "لا يمكن أن يكون الدخول إلى الولايات المتحدة بتلك الصعوبة. أبناء بلدك ينجحون في ذلك طوال اليوم."

أومأ رمسيس برأسه.

– "في العام الماضي كنت في مكسيكو سيتي، ملحقاً بوكالة التحقيقات الفيدرالية (AFI). إنها تشبه الـ FBI في الولايات المتحدة. اكتشفنا «غرينغو» يعمل في القنصلية الأمريكية يبيع أوراقاً لدخول الولايات المتحدة. كان لدينا كل ما نحتاجه لاعتقال هذا الأمريكي وإيقافه، لكن العملية أُلغيت. لم نخبر الأمريكيين حتى بما عرفناه."

– "لماذا لا؟"

– "برأيك لماذا؟ المكسيك تجني أموالاً طائلة من عبور الناس للحدود. لم يكن هناك سبب لإيقاف هذا الرجل. توقعت أننا ربما نحاول مساعدته."

– "حسناً. إذن أنتم جيران سيئون. كيف يساعدنا هذا في..."

– "أعرف من هو هذا الرجل. يمكنك شراء تأشيرات لآل غامبوا، وإدخالهم إلى الولايات المتحدة."

فكر كورت في الأمر للحظة.

– "ماذا لو لم يكن معنا أي مال؟"

قالت لورا:

– "أنا أملك المال."

كانت قد دخلت الميرادور من ردهة الطابق الثاني، وجلست خلفهم تستمع إلى ثلاثة رجال لم تكن تعرفهم قبل ثمان وأربعين ساعة وهم يناقشون مصير عائلتها.

التفت كورت إليها.

– "تملكين المال؟"

– "هناك معاش تقاعدي من الجيش لغييرمو، زوجي الراحل. أحصل على مبلغ صغير كل عام. يمكنني سحبه بالكامل دفعة واحدة إذا أردت، رغم وجود غرامة."

– "كم يمكنك الحصول عليه؟"

– "خمسمائة ألف بيزو."

أجرى كورت الحسابات في رأسه.

– "ستون ألف دولار؟"

نظر إلى رمسيس.

– "هل هذا يكفي؟"

هز الفيدرالي كتفيه.

– "لثمانية أشخاص؟ لا فكرة لدي. لكنني متأكد أنه يكفي لجذب انتباه رجل السفارة."

نظر كورت مرة أخرى إلى لورا.

– "هل ستفعلين هذا؟ هل ستتخلين عن كل هذا المال من أجل إيلينا ووالديك و..."

– "بالطبع سأفعل."

بدت مستاءة من السؤال.

– "هذه عائلتي. سأفعل أي شيء من أجلهم."

– "وهل ستذهبين إلى الولايات المتحدة؟"

هزت رأسها.

– "يجب أن يذهبوا هم. أمي وأبي، وإيلينا ودييغو. لكن ليس أنا. موطني هو المكسيك. لا أريد المغادرة."

سأل كورت بذهول:

– "لماذا لا؟"

– "لا أستطيع ببساطة أن أحزم أمتعتي وأترك كل شيء خلفي."

– "لماذا لا؟"

كرر سؤاله، ثم أضاف:

– "أنا أفعل ذلك طوال الوقت."

نظرت إليه طويلاً في عتمة الليل.

– "إذن لن تفهم معنى أن تنتمي لمكان ما."

في الأسفل، حاولت الشاحنة الدوران مرة أخرى. كان جينتري يسمع صوت البطارية وهي تضعف، وتفقد المزيد من شحنتها مع كل دورة فاشلة للمفتاح. بعد محاولة ثالثة طويلة وعقيمة لتشغيل الشاحنة، سمع من في الميرادور إغناسيو يسب بصوت عالٍ.

– "إخو دي بوتا (ابن عاهرة)!"

قال كورت:

– "حسنًا، الأولويات أولاً، ما زلنا بعيدين جدًا عن الخروج من هنا."

تحرك رمسيس ومارتن إلى أجزاء أخرى من المنزل الكبير؛ كان هناك جناح غربي كامل يحيط بفناء بالقرب من الكنيسة الصغيرة يحتاج إلى دورية من حين لآخر، حيث لم يكن هناك ميرادور يغطي ذلك الجانب. لكن لورا جلست بجوار كورت على الشرفة؛ شربا قهوة سوداء قوية ونظرا معًا إلى الفناء الخلفي.

قالت لورا بعد فترة:

– "هذا المنزل رائع، أليس كذلك؟"

ضحك جينتري بخفوت، ونظر إلى العقار المهمل.

– "نعم، إنه خرابة لعينة."

شعر بأن لورا تنظر إليه للحظة، ثم أشاحت بوجهها.

– "أنا أحبه. كنا أنا وغييرمو سنعيش هنا عندما ينهي خدمته في الجيش."

تبًا لك يا كورت. في وقت ما، في يوم ما، بطريقة ما، حاول فقط أن تقول شيئًا لائقًا.

– "أعني... إنه لطيف... فقط يحتاج إلى بعض الترتيب."

سمع ضحكتها الخافتة؛ حتى أنها ترددت خلفهما في غرفة النوم. كان سماعها جميلاً، رغم أنها بطريقة ما لم تتناسب مع شخصيتها الحزينة والجدية والوقورة.

– "أنت محق. كان إصلاحه سيستغرق سنوات. لكن غييرمو أراد رعاية والديه، وإعادة تشغيل المزرعة، وإنجاب أطفال هنا، وتحويله إلى مكان سعيد."

قال كورت:

– "أنا آسف على كل شيء."

أجابت:

– "وأنا أيضًا."



بعد ساعتين، كان إغناسيو لا يزال في الحظيرة يعمل على الشاحنة. تولى كورت مكان دييغو عند نافذة الطابق الثاني فوق الباب الأمامي على الجانب الشمالي من المنزل. تمدد منبطحًا، ناظرًا إلى خط الأشجار والممر الصخري المتعرج الذي ينحدر ثم يختفي بعيدًا عن ضوء القمر الخافت في طريقه إلى البوابة الأمامية، على بعد مائة متر أو أكثر إلى الشمال.

تحسس بندقية لويس القديمة الملقاة على البلاط بجانبه. كان قد أعطى بنادق «M1 كاربين» للآخرين، وأخذ بعض خراطيش الخردق (double-aught buckshot) من إحدى البنادق المأخوذة من شرطي قتيل من تيكويلا، لكنه ترك سلاح الرجل في الفناء لأن الماسورة تضررت في الاشتباك. وجد كورت بندقية ضخ أخرى أسقطها شرطي

قتيل من ولاية خاليسكو، لكنه كان مرتاحًا لملمس وأداء تلك القطعة الأثرية الطويلة والثقيلة ذات الطلقتين، فقرر الاحتفاظ ببندقية لويس كسلاح أساسي له.

كان يشعر بالنعاس، لكن لوز أحضرت له لتوها المزيد من القهوة السوداء القوية للغاية، والتي ستساعده على الصمود لبضع ساعات أخرى.

كان بحاجة إليها من أجل التنبيه وكذلك الدفء؛ فقد كانت درجة الحرارة أقل من عشر درجات مئوية، ولم يكن يرتدي سوى سترة الدينيم وسرواله المبلل بينما كان مستلقيًا ومعرضًا لنسيم الليل على الشرفة.

تبًا، أراد الخروج من هذا الجحيم.

تم إحراز بعض التقدم في هذا الصدد. انتزع إرنستو ودييغو البطارية من شاحنة إيدي «F-350» ونقلاها إلى الحظيرة؛ وتم سحب وقود جديد من المركبة الأحدث ونقله إلى القديمة. كانت المسألة مجرد وقت قبل أن يتكدسوا جميعًا كالسردين في علبة، وينطلقوا نحو البوابة الأمامية بينما يتقدمهم مارتن ورمسيس على دراجتيهما الناريتين ورشاشاتهما القصيرة تطلق النار، آملين في الكثير من الحظ للخروج من هنا أحياء.

فرك كورت عينيه المحترقتين، وقاوم النوم للمرة الثالثة في هذه الدقيقة.

نظر إلى ساعته: 4:06 فجرًا. كان يعلم أنه إذا تمكنت «البدلات السوداء» من تجميع طاقم آخر في الوقت المناسب، فسيأتون قبل الفجر. لا سبيل لأن لا يأتوا؛ ليس لديهم سبب لانتظار ضوء النهار.

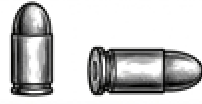
لقد تجاوز الوقتُ أفضلَ توقيت للهجوم في الحالات الطبيعية. في البداية كان الأمريكي سعيدًا؛ أمل أن تكون قوته الصغيرة، بصدها للموجة الأولى، قد دفعت العدو للتراجع ومغادرة المزرعة لفترة من

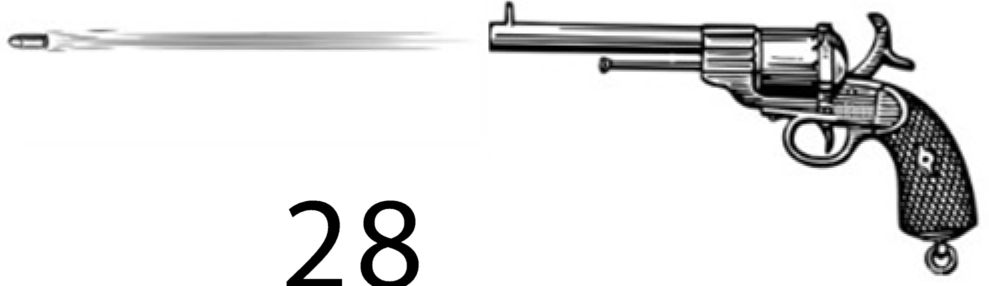
أجل إعادة التجميع. لكن لا، لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق. فتوقيت الساعة الثالثة صباحًا لضرب موقع العدو يعتمد عادةً على نوبات الحراسة القياسية.

وعدوه يعلم أنه لا يوجد ما يكفي من الرجال هنا لحراسة هذا المجمع بأكمله في المقام الأول، ناهيك عن التناوب للراحة وتناول الطعام.

نعم، أدرك كورت، أعداؤه أذكى منه. لم يفكر حتى في الاحتمال حتى الآن. سيضربون مرة أخرى قبل الضوء الأول. بغض النظر عن عددهم، كثيرين كانوا أم قلة.

هيا يا إغناسيو، أيها السكير الوغد. اجعل تلك الشاحنة تعمل!





28

تألفت الموجة الثانية من اثني عشر رجلاً فقط، لكنهم كانوا أوفر تدريباً، وأفضل عتاداً، وأدق استخباراتاً، وأحكم خطةً من تلك المحاولة الفاشلة الأولى. كان الاثنا عشر جميعاً من رجال "المارينز" – مشاة البحرية المكسيكية – وقد انطلقوا نحو "الهاسيندا" من قاعدتهم في غوادالاخارا بأوامر مباشرة من سبايدر سيبيدا نفسه.

ورغم أنهم كانوا جنوداً نظاميين، إلا أنهم كانوا يسترزقون بالعمل كقتلة مأجورين لحساب "البدلات السوداء". كانوا متمرسين في تكتيكات اقتحام الوحدات الصغيرة، ومسلحين بمدافع رشاشة من طراز HK MP5، وقنابل صدم، وسترات واقية، ويرتدون بدلات زيتية اللون تندمج ببراعة مع المشهد الجبلي الأخضر الداكن لجبال "سييرا مادري" قبيل الفجر. استجوبوا الناجين من الهجوم الأول عبر الجدار الخلفي؛ أولئك "الأوتاد" المذعورين الذين فروا عائدين إلى الأمان دون أن تستقر في أجسادهم شظايا بنادق الرش أو رصاصات عيار 9 ملم، حيث صُدرت إليهم الأوامر بالبقاء لشرح طبيعة ما سيواجهه الفريق التالي. بدأ رجال المارينز في تجهيز عتادهم بجانب شاحنتهم ذات الطنين، بينما انزوى الشرطيون يدخنون في توتر، ويقصون عليهم كل ما رأوه.

فحص الجنود أسلحتهم وأجهزة اللاسلكي فحصاً أخيراً، وانقسموا إلى ثلاث مجموعات، تضم كل منها أربعة رجال، ثم انصرفوا عن الهواة المنهكين، وبدأوا الزحف نحو أسوار الهاسيندا.

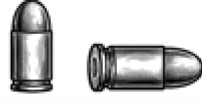
اقتحمت مجموعة "ألف" – أو أنتونيو وفق الأبجدية الصوتية – العقار بتسلق بوابة مقفلة بالسلاسل عند الجدار الغربي، وسط الأعشاب الطويلة ونبات "الأغاف" الأزرق البري. اندفعوا نحو المنزل المظلم في ثنائيات، يغطي كل زوج زحف الزوج الآخر. وصلوا إلى صومعة غلال حجرية مهدمة، واقتربوا من الكنيسة الصغيرة التي تبرز من الجانب الغربي لـ "البيت الكبير".

أما مجموعة برشلونة، فقد تسلقت الجدار الخلفي، قرب المنطقة التي عبرت منها الموجة الأولى قبل ثلاث ساعات. وبمجرد دخولهم أرض الهاسيندا، انحرفوا يميناً، وتسلقوا السياج الخشبي للحظيرة، وتحركوا خلف إسطبل قديم من الخشب المتآكل، يختارون مواضع أقدامهم بعناية لتجنب التعثر بالحجارة والأخشاب والنفايات.

بينما اقتحمت مجموعة كارمن الهاسيندا من الشرق، وهبط أفرادها خلف أشجار الصفصاف قرب البركة. تحركوا حول المبنى ثم إلى مقدمته، موجهين اهتمامهم وتقدمهم نحو حظيرة قديمة من الحجر والخشب، حيث سمعوا صوت محرك احتراق داخلي يحاول يائساً أن يشتعل.

في غضون دقائق، وصلت مجموعة برشلونة إلى التعريشة الممتدة على الجانب الشرقي من الشرفة. تواصلوا عبر اللاسلكي مع مجموعة أنتونيو ووجدوهم في مواقعهم غرب البيت الكبير. كان هذا الفريق قد أرسل أحد رجاله نحو الكنيسة المنفصلة القريبة من المنزل لاستطلاع ضوء يمكن رؤيته من خلال شقوق الحجارة القديمة.

بعد سبع دقائق من اختراق السور، كانت الفرق الثلاثة المستعدة، المكونة من اثني عشر رجلاً، في وضع يسمح لها بضرب المدافعين عن الهاسيندا في آن واحد من ثلاث جهات.



فرك كورت عينيه ثانية، وبدأ ينظر إلى ساعته.

دوى صراخ من الجانب الآخر للمنزل. صوت رجل.. أهو مارتن؟

ثم دويّ طلقة بندقية.

كان انضباط جينتري يدفعه للبقاء في موقعه ومراقبة الأشجار والممر الأمامي. لم تكن سوى أطراف أشجار الصنوبر تتمايل، ولا حركة أخرى في هذا الجانب من المنزل.

اللعنة، اللعنة، اللعنة.

كل تدريباته تملي عليه الصمود في مكانه، وألا يلتفت، وأن يثق في خطته وتحصيناته وزملائه المدافعين، وأن يلتزم كل منهم بقطاع النيران المسؤول عنه. لو تعرض قطاع مارتن للهجوم، فسيكون رمسيس ولورا على جانبيه، وبإمكانهما رؤية ما يحدث، والرد بشكل أفضل بكثير منه وهو هنا في الطرف المقابل من المبنى.

ثق بهم. لا تترك موقعك. ثق بخطتك فحسب.

دوت طلقة أخرى، تلتها رشقة كاملة من مدفع رشاش.

ركز جينتري قلقه، وحوله إلى نظرة ثاقبة في الظلام أمامه.

لا شيء. لا حركة، لا هجوم. لا شيء على الإطلاق.

ثق بخطتك يا كورت.

مزيد من إطلاق النار، ومزيد من الصراخ خلفه.

ثق بخطتك يا كورت!

وقع انفجار. قنبلة صدم انفجرت داخل المنزل في الطابق الثاني.

اللعنة! ثق بخطتك يا كورت!

ثم ارتفع صوت لورا غامبوا. صرخة.. ثم عويل.

لتذهب الخطة إلى الجحيم.

انتصب كورت جينتري على ركبتيه، ثم وثب واقفاً، وحمل بندقية الرش الثقيلة بيده اليمنى، واستدار وركض عائداً إلى المنزل بأقصى سرعة، تاركاً موقعه خلفه.

بمحض الصدفة وحدها، رأى القاتل الأول. ركض كورت في غرفة الجلوس المظلمة بمحاذاة الجدار الغربي؛ كان القوس المؤدي للمطبخ أمامه وإلى يساره، وإلى يمينه القوس المؤدي لغرفة الطعام الرسمية. كانت خطته تقتضي تجاوز هذه الغرفة للوصول إلى السلالم ومنها إلى الشرفة حيث موقع لورا في نهاية الممر.

لكن هناك في الظلام، وعلى بُعد أقل من عشر أقدام، ظهرت الفوهة السوداء لسلاح من غرفة الطعام. اتخذ جينتري قراره في وثبة واحدة؛ أطلق قدميه للأمام، وهوى على البلاط الحجري البارد كلاعب بيسبول ينزلق نحو القاعدة الأخيرة. انزلق متجاوزاً قوس غرفة الطعام على جنبه الأيمن، رافعاً فوهة بندقيته الطويلة نحو مصدر التهديد. وبينما هو ينزلق، رأى القناص في الظلام؛ كان الرجل قد سمع صوتاً بلا شك، لكنه لم يصوب سلاحه بعد نحو مصدر الصوت.

ضغط كورت فوهة بندقيته في إبزيم حزام جندي المارينز بينما توقف جسده على الأرض، وضغط أحد الزنادين، ليضخ تسع رصاصات من عيار .33 في أحشاء الرجل، مما كاد يشطره نصفين ويقذفه في الهواء ليطير خلف دوي الانفجار ووميض اللهب القصير. سقط جسده الممزق فوق طاولة غرفة الطعام، وهناك بدأت أطرافه تختلج وتنتفض بينما كانت التيارات الكهربائية من جهازه العصبي المركزي تتسرب إلى عضلاته المحتضرة.

انتصب جينتري على ركبتيه قبل أن يستقر جسد الرجل على الطاولة. لم يرَ أين طار سلاح القتيل، ولم يرد إضاعة الوقت في البحث

عنه في الظلام، فنهض وواصل ركضه، وهو يعيد حشو الفوهة التي يخرج منها الدخان بيده بينما بلغ الدرج.

قفز ثلاث درجات في وثبة واحدة.

تجدد إطلاق النار من موقعين الآن. عند قمة الدرج، انعطف يميناً، وسمع دوياً هائلاً آتياً من غرفة في نهاية الممر. ومن خلال الدخان والغبار والظلام، رأى لورا غامبوا تتراجع بسرعة من غرفة النوم الرئيسية. كان مسدسها مصوباً للأمام، لكن كورت رأى بوضوح أن مزلاجه قد ارتد للخلف، ما يعني أنها أفرغت رصاصتها الأخيرة.

كتف كورت كتفه بكتفها وهي تترنح للخلف نحوه في الممر، وأمسك بها قبل أن تسقط أرضاً. خشي في البداية أن تكون قد أصيبت، لكنه سرعان ما أدرك الآثار المعتادة لقنبلة ارتجاجية؛ كانت حدقتا عينيها متسعتين، وكانت تترنح بعنف وهي جاثية.

سألها:

– "كم عددهم؟"

كان جسدها صغيراً لكنه صلب وعضلي، فساعدها على الوقوف ثانية.

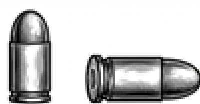
استعادت توازنها قليلاً ونظرت إليه:

– "لا أدري. إنهم من المارينز. لقد ظهروا فجأة في الممر!"

– "هل هم داخل المنزل؟"

– "نعم! إنهم في كل مكان!"

أمسك كورت بذراع لورا بقوة، واستدار وركض عائداً في الممر، مبتعداً عن المرصد نحو الجزء الشرقي من المنزل، مروراً بالشرفة المطلة على غرفة الجلوس المظلمة.



لم يمنع إطلاق النار القريب إغناسيو غامبوا من إجراء تعديل أخير على "المكربن". كما لم تمنعه الدموع التي غبشت رؤيته وانهمرت على وجهه. وبضوء شمعة حمراء وحيدة وضعها فوق المحرك، أنهى ربط البرغي الأخير. أغلق غطاء المحرك بعد ثوانٍ، وترنح نحو باب الركاب المفتوح، وسحب زجاجة "تيكيلا" نصف فارغة من فوق السقف الصدئ لشاحنة "دوج" القديمة.

تجرع منها جرعة كبيرة وطويلة.

ازدادت حدة طلقات ورشقات الأسلحة من عيارات مختلفة خلفه في "البيت الكبير" مع اشتداد وطأة المعركة. استدار إغناسيو وقذف زجاجة التيكيلا عبر الحظيرة؛ لترتطم بالجدار الحجري وتتحطم إلى شظايا كريستالية مبللة. ثم صعد خلف عجلة قيادة الشاحنة القديمة ومد يده نحو المفتاح. بدارة واحدة اشتغل المحرك؛ سعل واهتز قليلاً، لكن قوته كانت كافية وثابتة بما يبعث على الثقة.

وضع إغناسيو رأسه بين يديه وبكى.

كان يعلم طوال الساعة الماضية، بينما كان يعمل، أنه سيشغل الشاحنة، وسيجلس خلف المقود، وسينطلق هرباً من هذا المكان اللعين تاركاً الجميع خلفه.

والديه، شقيقته، ابن أخيه.. وابن شقيقه الذي لم يولد بعد.

لم يكن بمقدوره فعل شيء لإنقاذهم، وكان هذا السبيل الوحيد لإنقاذ نفسه.

أشعل المصابيح الأمامية.

لا أحد ينجو من حكم إعدام أصدرته عصابة "البدلات السوداء". البقاء مع عائلته يعني الانتحار، والانتحار يتطلب قوة يعلم إغناسيو غامبوا جيداً أنه لا يملكها. لم يكن مثل شقيقه الأصغر إدواردو، يقاتل أعداءه ببسالة ويعيل عائلته وأصدقاءه دوماً.

ولم يكن مثل شقيقته الصغرى، لوريتا، تضحي بنفسها وتعتصم بإيمانها.

لا، لم يملك إغناسيو غامبوا شجاعة البأس ولا قوة الإيمان. كان مجرد رجل، رجل ضعيف فحسب، وكان خائفاً.

كان يشبه شقيقه رودريغو؛ ضعيفاً، خائفاً، لا يبحث إلا عن خلاصه الشخصي. لقد رأى رودريغو يُصاب برصاصة في جبهته صباح أمس في متنزه "هيدالغو"، وشاهد دماغه يتناثر. كان إغناسيو يشبه شقيقه في أمور كثيرة، لكنه لم يرد أن يبلغ به الشبه حد الموت.

قال إغناسيو لنفسه: لا، لن أموت. سأهرب، وسأعيش!

لم يخبر الآخرين، لكنه كان يعرف مكاناً لن يطاله فيه "البدلات السوداء". كان لديه أصدقاء يعيشون في "دورانغو"، في ديار آل مادريغال. هناك عشرات، بل مئات القرى التي لن يجرؤ "دي لا روشا" وصبيانه ببدلاتهم الإيطالية على دخولها. نعم، إذا وصل إلى جبال "سييرا مادري" في "دورانغو"، فسيتعين عليه العمل لحساب "رعاة البقر" (الفاكيروس)، سيزرع الماريجوانا أو الكوكايين، أو يتاجر بهما، أو يقتل الآخرين من أجلهما.. وما المشكلة في ذلك؟ خير له من أن ينتهي به المطاف مثل رودريغو أو إدواردو.

لم يخبر عائلته من قبل، لأنهم لن يذهبوا معه. ولم يخبرهم الآن، لأنهم لن يذهبوا معه.

سيذهب وحده.

مسح الدموع عن عينيه بذراعه المشعرة المتصببة عرقاً، وعشّق ناقل الحركة.

كان ينوي تحطيم الأبواب المزدوجة المغلقة في مقدمة الحظيرة، لكنها انفتحت قبله بصرير واضح. ظهر رجلان في ضوء مصابيحه.

رفعا سلاحيهما نحوه.

صرخ: "لا!" وضغط بقدمه على دواسة البنزين بكل قوته.

فتح القاتلان النار بمدافع MP5، فحطما الزجاج الأمامي وغطاء المحرك واخترقت الرصاصات جسد الرجل الضخم خلف المقود، ومزقت الرصاصات المكسوة بالنحاس جسده الذي بدأ يختلج وينتفض بينما كانت الشاحنة تتدحرج للأمام متجاوزة إياهما، ثم انحرفت يساراً حين ارتطم وجهه بعجلة القيادة، وتباطأت مع انزلاق قدمه الميتة عن الدواسة، لتستقر بهدوء عند النافورة الحجرية في منتصف الممر المستدير.

أعاد القاتلان حشو بنادقهما وأطلقا النار ثانية على جسد الرجل السمين الذي لا يزال يرتجف.



لم تكن إينيز كوراليس في المكان الذي ينبغي أن تكون فيه. قبل ثلاثين دقيقة، كانت هي وإيلينا ولوز في القبو، كما أمرهم (الغرينغو)، مستلقيات على الفراش، وعلى ضوء شمعة نذرية وحيدة، صلين وتحدثن عن أحبائهن الراحلين. لكن بعد ساعة، أخبرت السيدتين أنها بحاجة لاستخدام الحمام، وسارت في الممر، متجاوزة إرنستو غامبوا الذي كان يغفو على الدرج الحجري. وعند قمة الدرج مرت بالشاب دييغو، المستلقي على أرضية المطبخ لكنه كان مستيقظاً، فأخبرته أنها ستعود حالاً. لكنها دخلت غرفة الجلوس، وعبرتها إلى ممر طويل يؤدي إلى الجناح الغربي من "البيت الكبير". عبرت فناءً صغيراً مفتوحاً، وسارت في رواق ذي جدران حجرية باردة، ودخلت مخزناً مغبراً في الطرف البعيد، وشقت طريقها في الظلام نحو باب يؤدي إلى الخارج.

كان الليل ساكناً إلا من نسيم بارد لطيف؛ اتبعت ممراً حجرياً غطته الأعشاب وكروم "المونيدا"، وسلكت هذا الدرب المهجور نحو الكنيسة القديمة. فتحت الباب الخشبي المتآكل ببطء؛ لم تجرؤ على إصدار أي صوت قد ينبه الأمريكي أو رجال الشرطة إلى مغادرتها

المنزل، خشية أن يأتي أحدهم ويعيدها إلى القبو. وعندما دخلت، أغلقت الباب بإحكام ليحجب ضوء الشموع.

كانت قد أحضرت ولاعة، واستخدمتها لإشعال شمعة، وضعتها على المذبح الصغير عند الجدار البعيد، ثم جثت على ركبتيها ببطء حتى لا يئن المقعد الخشبي أو ينكسر تحت ثقلها. أشعلت بضع شموع أخرى، بما يكفي لإنارة الصليب النحاسي أمامها. وببطء، اختلطت رائحة شمع العسل والفتيل المحترق برائحة العفن والغبار في الهواء، وبدأت إينيز كوراليس خيمينيز، ابنة التاسعة والسبعين، في الصلاة.

اندلع إطلاق النار في الخارج بعد وقت قصير. التفتت نحو الباب، وعيناها متسعتان في الضوء الخافت، لكنها هدأت روعها، وعادت لصلاتها. لقد جاءت إلى الكنيسة وحيدة، لتصلي من أجل زوجها الذي فارق الحياة منذ ثلاث ساعات فقط. ستصلي من أجله هنا، في الكنيسة التي عُمد فيها وهو صبي، وحيث جاءا لإشعال الشموع فور زفافهما عام 1957، وحيث تعلم ابنهما، غييرمو، محبة المسيح. الرصاص في الخارج لم يغير من جمال هذا المكان وأهميته في حياتها وحياة عائلتها.

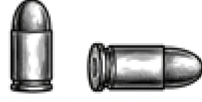
عادت إلى الصليب، وبدأت تصلي بصوت مسموع، ممسكة بالشمعة في يدها.

انفتح الباب خلفها بعنف؛ وعصف تيار الهواء بضوء الشموع في الكنيسة الصغيرة، مرسلاً ظلالاً طويلة تتمايل على الجدران.

تيبس جسدها من المفاجأة والخوف، لكنها لم تلتفت لترى من الداخل. اكتفت بخفض رأسها ورسم علامة الصليب على صدرها بسرعة.

أطلق أحد قتلة المارينز رصاصة واحدة على مؤخرة رأسها بمسدس من طراز "كولت .45". اندفع جسدها الضئيل المنهك للأمام

فوق المذبح، لتستقر جثتها عند قدم الصليب، بينما طارت الشمعة من يدها وانطفأت مع الحركة.



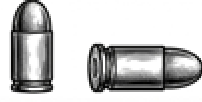
كان دييغو وجده يربضان عند قمة الدرج المؤدي للمطبخ، ويطلقان النار من بندقتيهما على شبح في غرفة الجلوس. كان ذلك الرجل هو من بدأ بإطلاق النار عليهما أولاً؛ وعلم دييغو يقيناً أن العمة لورا، أو (الغرينغو) الملتحي، أو الضابطين الفيدراليين اللذين عملا مع عمه إدواردو، لن يفعلوا ذلك، فاستنتج أن هذا الرجل القابع في الظلام خلف وميض الرصاص هو عدوهم.

لم يتلقَ الفتى ذو الستة عشر ربيعاً ولا الرجل السبعيني أي تدريب على مثل هذه الأمور، لذا لم يتركا مسافة كافية بينهما. كانت أكتافهما تتلامس حرفياً وهما يقاتلان، مما منح مهاجمهما ميزة التصويب نحو هدف واحد. كما أنهما لم يعلما كيف يغطي أحدهما الآخر أثناء إعادة الحشو؛ بل كانا يطلقان النار متى شاءا، ويتوقفان متى شاءا، ويعيدان الحشو متى نفدت ذخيرتهما. خلق هذا ثغرات طويلة وخطيرة في القتال، مكنت عدوهما من التسلل مقترباً لإيجاد زاوية إطلاق أفضل.

انتصب إرنستو على ركبتيه ليسحب مخزن ذخيرة ثالثاً من جيب سرواله، وانحنى ليصرخ بشيء في أذن دييغو، وفجأة دار جسده تسعين درجة، وأسقط بندقيته، وأمسك بكتفه الأيمن من الأعلى. انزلق بظهره حتى منتصف الدرج، وصرخ من أثر الاصطدام الذي شعر وكأنه ركلة بغل في كتفه.

عند أسفل الدرج ظهرت زوجته وبيدها شمعة؛ وبدأت في الصعود نحوه وهي تصرخ وتبكي؛ فصاح بها آمراً إياها بالعودة إلى القبو، ومؤكداً لها أنه بخير.

ورغم الخدر الذي أصاب ذراعه والقشعريرة الباردة التي اجتاحت جسده كموجة باردة تضرب قاربه الصغير، بدأ في تسلق الدرج ثانية ليقاتل بجانب حفيده، ماداً يده نحو بندقيته الخشبية في طريقه.



خاض رمسيس ثينفويغوس قتالاً مريراً ضد رجلين في المرصد الجنوبي بالطابق الثاني. في البداية كان يقاتل بجانب لورا، شقيقة العقيد غامبوا، لكن قنبلة صدم ألقيت من المرصد نحو الصالة العلوية وانفجرت بينهما. تعثرت لورا عائدة نحو الممر بعيداً عن الأنظار، لكن رمسيس استجمع قواه بسرعة واندفع للأمام بدلاً من التراجع. رأى رجلين في المرصد يستعدان للهجوم، لكنه باغتهما بتكتيك هجومي شرس. فر الرجلان منه بالقفز من الشرفة نحو الساحة في الأسفل، وحين وصل إلى السياج ونظر لأسفل، رأى جندي المارينز يختفيان في الليل حول الجانب الغربي من "البيت الكبير". كان على يقين أن القتلة سيعيدون تجميع صفوفهم ويحاولون الاقتحام من الطابق الأرضي، فركض نحو الدرج، وهبط منه، وانعطف نحو الممر المؤدي للجناح الغربي.

ركض في الممر، ماراً بعدة غرف، ثم انعطف بحدة ودخل فناءً يتكون من أروقة مفتوحة تحيط بحديقة من الأعشاب الضارة مع نافورة ضخمة مليئة بالنفايات في منتصفها. كان ضوء السماء ينير المكان بما يكفي ليرى طريقه فوق البلاط الحجري. ركض نحو مدخل في الطرف البعيد.

طهر الغرفة التي تلي الممر بمدفعه الرشاش، فوجدها مخزناً قديماً، واكتشف أيضاً باباً واسعاً مفتوحاً على الخارج.

أدرك في لحظة أن الرجال أصبحوا داخل المنزل بالفعل.

في مكان ما خلفه.

عاد رمسيس ثينفويغوس أدراجه. كان لا يزال يسمع إطلاق النار في الطرف البعيد من المنزل، لكنه علم أن الرجلين اللذين رآهما قبل قليل لا يمكن أن يصلا إلى هناك في هذا الوقت القصير. عاد إلى الفناء، متتبعاً الرواق الشرقي-الغربي نحو الشرق، ثم انعطف شمالاً ليعود للممر المؤدي للجزء الرئيسي من "البيت الكبير".

وبينما هو يركض، التفت للحظة نحو الحديقة، متسائلاً إن كان أحد يختبئ في الأعشاب الطويلة.

وحين أعاد بصره للأمام، وجد رجلاً هناك، على بُعد ثلاثين قدماً، يركض في الرواق المبلط نحوه.

جندي مارينز بكامل عتاده القتالي، يحمل مدفع MP5.

رأى المكسيكيان بعضهما في اللحظة ذاتها. ورفعا سلاحيهما وقد اتسعت عيونهما مفاجأة وخوفاً.

أطلق المارينز نيران مدفعه نحو الممر، ليمطر الضابط الفيدرالي بالرصاص. وأطلق رمسيس نيران مدفعه "كولت 635" نحو الممر، ليرد الرصاص على القاتل.

سقط رمسيس ثينفويغوس أولاً؛ شعر بلسعة حارقة في عضلة ذراعه اليمنى، وأخرى في كتفه الأيمن، ثم تهشمت خوذته وطارت عن رأسه في الهواء. استدار وهو يواصل إطلاق النار، لتخرج رصاصات خارقة من فوهة سلاحه وتصيب القاتل في ذراعه اليمنى، ثم في صدره، مما أدى لترنحه وسقوطه أرضاً.

سقط كلاهما على ظهريهما فوق البلاط البارد، لا يفصل بينهما سوى خمس وعشرين قدماً، والدماء تنزف منهما في الرواق المظلم. كانت أسلحتهما الرئيسية قد فرغت، فجلس كلاهما يحاول يائساً إعادة الحشو، يعيقهما جراحهما والدماء اللزجة التي غطت أسلحتهما ومخازن ذخيرة احتياطية.

صاح رمسيس وهو يتقلب على وركه الأيمن:

– "أيها الوغد (¡Cabrón!)"

أخرج المخزن الفارغ، واستخدم الذراع ذاتها لسحب مخزن ممتلئ من سترة القتال، وهو يصارع لإعادة الحشو.

أجابه جندي المارينز صارخاً:

– "أيها الفيدرالي اللعين (¡Chingado federale!)"

تردد صدى صوته في الرواق وعبر الفناء. لقد يئس من إعادة حشو بندقيته، فدفعها بعيداً، ومد يده اليسرى عبر جسده، ومع صرخة ألم، سحب مسدسه من الجراب المثبت على فخذه الأيمن. صارع قصوره الذاتي ليتقلب على يساره ويوجه طلقة نحو خصمه.

شد رمسيس على أسنانه مقاوماً الألم الحارق لجروحه، وصرخ بشتيمة أخرى في وجه القاتل، وأدرك أنه مهزوم لا محالة. صارع لسحب مقبض التعمير في البندقية بيده الواحدة السليمة؛ ورفع بصره ليرى المسدس الأسود يبرز في نهاية ذراع القاتل، ورأى القناص يزحف على البلاط وسط بركة دمائه المتسعة ليوجه سلاحه نحو طلقة الموت.

علم رمسيس أنه لن يتمكن من تجهيز سلاحه قبل أن يرفع عدوه سلاحه. لا يمكنه سحب مقبض التعمير بيد واحدة دون إسناد كعب البندقية على البلاط، ولا وقت لديه لذلك. لم يكن يحمل مسدساً، فقد أعطاه لشقيقة الرائد غامبوا، ودون بندقية محشوة، لا سبيل له للمواجهة. فترك البندقية تسقط على الأرض، وجلس هناك فوق البلاط البارد. مد ساقيه أمامه واسترخى، فكر في عائلته، وانتظر الموت.

أما جندي المارينز المستند على جنبه أمامه، فقد افتر ثغره عن ابتسامة رغم ألم جراحه وهو يرفع سلاحه. رأى بوضوح أنه سيسبق الضابط الفيدرالي بالطلقة القاتلة.

تنفس رمسيس ثينفويغوس بعمق وتنهد. وراقب قاتله وهو يستمتع بتلك اللحظة.

صرخ رمسيس:

– "كل القذارة (¡Come mierda!)"

وفجأة، وبصمت وسرعة تضاهي نسيم ما قبل الفجر الذي ينسل عبر الهاسيندا، اندفع الأمريكي من خلف الزاوية إلى الرواق المبلط خلف جندي المارينز. كان يحمل بندقية الرش القديمة ذات الفوهتين المزدوجتين، وعيناه مصوبتان نحو حجرة الانفجار المفتوحة في السلاح. كان يحاول إعادة حشوها وهو يركض، لكن عندما أدرك المشهد أمامه، اتسعت عينا (الغرينغو).

راقب رمسيس (الغرينغو) وهو يلقي بخرطوشتي البندقية الجديدتين خلف كتفه، ثم رأى الضابط المكسيكي الجريح الأمريكي وهو يقذف البندقية الضخمة في الهواء أمامه بينما يركض بأقصى سرعة.

لم يعلم القاتل المأجور شيئاً عن الخطر الذي يتربص به خلف ظهره. فقد أخذ وقته لتصويب مسدسه من طراز "سيغ ساور" نحو الرجل الجريح الجالس أمامه.

دارت بندقية الرش ذات المقبض الخشبي في الهواء، والتقطها (الغرينغو) بكلتا يديه من جهة الفوهة بينما اقترب من جندي المارينز الغافل. أمسك الأمريكي السلاح من فوهته، وتراجع بذراعيه للخلف وهو يركض، ثم أرجح البندقية بكل قوته – كما يطيح لاعب البيسبول بمضربه ليرسل الكرة خلف الأسوار، أو كما يفرغ لاعب غولف كل ذرة طاقة خلف رأس مضربه – فارتطم كعب البندقية المصنوع من خشب الجوز بمؤخرة رأس القاتل، في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها المكسيكي يضغط على زناد مسدسه.

كان وقع ارتطام الخشب الصلب باللحم والعظم مقززاً، كصوت تحطم ثمرة بطيخ على الطريق بعد سقوطها من شاحنة مسرعة. تردد

الصدى عبر الفناء، وتناثرت الدماء لتغطي البلاط وعمود الجص الموجود أمام القاتل مباشرة.

لم يكن القاتل ليموت أسرع من ذلك حتى لو قُطع رأسه. هوى للأمام خلف رذاذ تألق في ضوء القمر، وسقط على وجهه، واختفى مسدسه تحت جسده.

أطلق رمسيس زفيراً طويلاً من الراحة والنشوة بينما أسقط الأمريكي بندقيته وركض في الممر ليتفقده.

وفي تلك اللحظة، ظهر جنديان آخران من المارينز خلف (الغرينغو)؛ ارتكبا خطأً بالنظر يميناً أولاً بدلاً من اليسار، فرأى رمسيس الرجلين قبل أن يريا هدفيهما. لكنهما استدركا الأمر في ثانية وبدأا يلتفتان نحو اليسار، ورفعا بندقتيهما.

صرخ رمسيس في الأمريكي وهو يدفع بندقيته القصيرة بقوة فوق البلاط نحوه:

– "خلفك! (¡Atrás!)"

ثم صرخ: "عمّرها! (¡Cárgalo!)". فهم (الغرينغو) الملتحي الأمر على الفور، فارتمى بجسده ماداً ذراعيه، وانزلق على صدره ليصل إلى السلاح.

هز دوي الرصاص وانفجارات النيران الكثيفة الممر الضيق. تمزق الجص والحجر من الجدران فوق الرجلين مباشرة، مرسلاً شظايا حادة من مواد بناء عمرها مئتا عام في الهواء كدبابير مدفوعة بمحركات نفاثة. قبض جينتري على الرشاش الملطخ بالدماء على بُعد أقل من عشر أقدام من رمسيس، وانقلب على ظهره وهو يسحب مقبض التعمير في البندقية الصغيرة، وبدأ بإطلاق النار حتى قبل أن يحدد أهدافه تماماً.

وبينما كانت رصاصات القاتلين تنخفض لتضرب الجدران على جانبي كورت ورمسيس، كانت نيران جينتري تتقدم فوق البلاط،

مخلفة صدعاً يشبه شقوق الزلازل يطارد الرجلين على بُعد أربعين قدماً. انفجر القرميد مخلفاً شرارات ودخاناً يقترب أكثر فأكثر من الرجلين، حتى ترنح القاتلان للخلف، يدوران وينتفضان من أثر الرصاصات المتعددة حتى سقطا ميتين.

صاح كورت: "اللعنة!" لكنه لم يسمع صوته؛ فقد كانت أذناه تطنان. أبقى عينيه ومنظار بندقية "الكولت" التي كادت تفرغ موجهة نحو الجثتين في ضوء القمر المشوب بالدخان. وخلفه، سمع رمسيس يزحف للأمام.

سأل كورت دون أن يبعد عينيه عن السلاح:

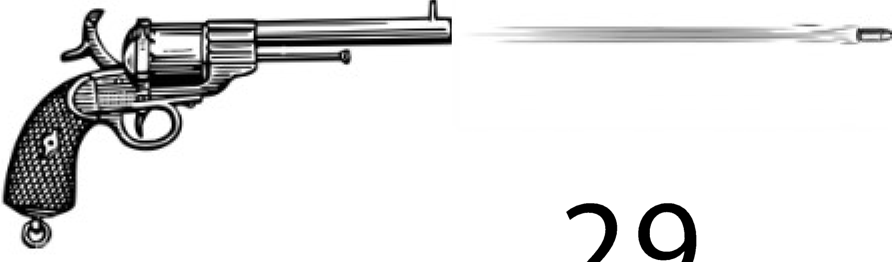
– "هل أنت بخير يا صديقي؟"

زحف رمسيس حتى استلقى بجانب كورت على الجانب الأيسر. بصق رمسيس حفنة من الجص والتراب والعرق، وأجاب بالإنجليزية بلهجة ساخرة ومتعبة:

– "أجل يا صاحبي.. كان ذلك رائعاً."

اكتفى كورت بالضحك. كان يعلم أن الأدرينالين الذي يسري في عروقه سيبقيه متوتراً طالما ظل هذا الطنين في أذنيه. وبعد ذلك، سينهار جسده من شدة الإنهاك.





29

تلملم شمل معظم المدافعين الناجين في غرفة المعيشة بعد ربع ساعة. أنبأهم صياح ديك بأن الفجر قريب، لكن السماء في الخارج ظلت حالكة السواد كالفحم. وقف جينتري واضعًا يديه على خصرتيه، وبقع الدماء تجف على سترة الدينيم من صدره حتى أعلى بنطاله. كانت لحيته تلمع بقطرات العرق. عاد لتوه من الممر الخارجي، حيث عثر على جثة شقيق إيدي ملقاة عبر المقاعد الأمامية لشاحنة المزرعة القديمة.

بإنهاك، أعلن للحاضرين:

– "مات إغناسيو."

قالت لوز:

– "مات وهو يحاول إنقاذنا."

أجاب كورت:

– "لا ريب في ذلك."

رغم أن الشك كان يملأ كل ذرة في كيانه. وأكدت نظرة سريعة إلى إرنستو ظنون جينتري بأن والد إغناسيو نفسه لم يصدق أن ابنه قد قضى نحبه كبطل هو الآخر.

لكن لم ينبس أي منهما ببنت شفة.

تحلق أفراد عائلة غامبوا الخمسة المتبقون معًا على الأريكة، وقد انخرطوا في البكاء والنحيب. كان إرنستو يبدو شارد الذهن تمامًا في

هذه اللحظة؛ ترقرقت الدموع في عينيه، لكنه لم يكن متفاعلًا في حزنه كالبقية. كانت زوجته تضمّد كتف زوجها باجتهاد، بينما أبقى إرنستو ذقنه مرفوعًا متجاهلاً الألم، ومحدقًا في الزوايا المظلمة للغرفة.

واصل كورت سرد الأخبار السيئة، وتولت إيلينا الترجمة لمن لا يفهم:

– "أصيب رمسيس، تلقى رصاصتين، لكنه وغد صغير صلب. سيقاتل إذا هوجمنا مرة أخرى."

كان رمسيس في المطبخ الآن، يسكب تكيلا صافية من زجاجة على ذراعه وكتفه. كان الألم مبرحًا، لكن التكيلا عملت كمخدر لا بأس به. والضمادات التي صنعتها إيلينا بتمزيق ملاءات الأسرة ستساعد في وقف تدفق الدم.

نظر كورت بعد ذلك إلى لورا:

– "ماتت إينيز أيضًا. عثرنا عليها في الكنيسة الصغيرة."

توقف قليلاً. حاول التفكير في شيء «مناسب» لقوله.

– "رحلت بسرعة. دون ألم."

أومأت لورا برأسها بذهول. كان التعب والصدمة قد خففا من وقع الضربة. لاحظ كورت أنها لم تبكِ حتى.

تابع كورت:

– "أخشى أن هناك المزيد. الشاحنة لن تبرح مكانها. إنها غربال من الثقوب ومحطمة. و..."

سأل دييغو:

– "و؟"

كان يمسك ببندقية «إم 1» في يده وكأنها بطانية أمان. لقد أطلق النار منها عشرين مرة على الرجل الذي كان هنا في هذه الغرفة قبل عشرين دقيقة، ورغم عدم وجود جثة أو أثر دم يغادر الغرفة، شعر دييغو بأنه حمى عائلته بصد المهاجم.

– "وعندما كنت في الخارج، سمعت شاحنات في المسافة البعيدة، خلف أسوار المزرعة."

– "شاحنات؟"

– "نعم. بدت أصواتها كشاحنات مصفحة كبيرة."

حدقت لورا بعينيها المحتقنتين بالدم. لقد فهمت. أومأت برأسها:

– "فيدراليون."

أومأ كورت موافقًا:

– "سأفترض أنهم ليسوا أصدقاء. نصف دزينة من الشاحنات ربما. أخمّن أن هناك خمسين رجلاً بالخارج خلف السور."

كان كورت مصدومًا كالبقية. بدت الغرفة وكأن الحياة قد امتُصت منها تمامًا. وكأن رجال دي لا روشا، رغم أنهم لم ينجزوا مهمتهم بعد، قد قتلوا بالفعل جزءًا كبيرًا من إرادة المدافعين في البقاء على قيد الحياة.

بحث كورت في عقله عن بصيص أمل، مهما كان ضئيلاً.

تبًا، تمنى لو كان قائدًا، ضابطًا، محفزًا. اللعنة، تمامًا كما قيل له مرات عديدة من قبل، شعر في هذه اللحظة أنه مجرد «رَكّال أبواب». مجرد «تابع للاقتحام». «قرد يحمل سلاحًا».

أخيرًا، حاول التخفيف قليلاً:

– "أما بالنسبة للأخبار الجيدة... فهناك القليل منها. الفجر يكاد يبزغ، ولا أعتقد أنهم سيهاجموننا أثناء النهار. إنهم يعرفون أن لدينا مجموعة من الأسلحة الجديدة تحت تصرفنا، ولا يمكنهم قتالنا من داخل شاحناتهم المصفحة، لذا لدينا مهلة حتى حلول الظلام لنجد مخرجًا من هذه الورطة. سنبتكر شيئًا ما."

أدرك كورت أن هذا لم يكن بالضبط الخطاب الذي كان سيلقيه الجنرال باتون في وقت كهذا.

هزت لورا رأسها:

– "جو، أنت لم تنم... لا يمكنك العمل هكذا..."

– "سأكون بخير."

صرفها بحركة من يده. لم يكن لديه وقت للحديث عن حاجته للقيلولة.

– "لقد فتشت قتلى مشاة البحرية، وبالإضافة إلى الرشاشات، عثرت على أجهزة راديو، ومنظار، وهاتف محمول. يبدو أنهم غيروا رموز الراديو الخاصة بهم بالفعل. ولا بد أن الهاتف مراقب أو يجري تتبعه، والبرج في هذه المنطقة معطل، لكن يمكننا الاحتفاظ به. قد يكون مفيدًا في وقت ما."

ناقشوا جميعًا فكرة الذهاب إلى الولايات المتحدة لبضع دقائق، ثم عاد الجميع إلى مواقعهم الدفاعية. تولى كورت نوبة الحراسة على الميرادور الخلفي، الذي لا يزال الطريق الأكثر احتمالاً لأي هجوم. طلب من مارتن ودييغو ورمسيس ولورا التجول في المنزل، ومراقبة جميع النوافذ قدر المستطاع، وأُمر إرنستو الجريح والمسن بالاستلقاء مع لوز وإيلينا في القبو. أعطت لورا والدها مسدسًا ليمسكه، لمنحه شرف الاستمرار في لعب دور رمزي في حماية عائلته.

بعد عشرين دقيقة، تمدد كورت على شرفة الطابق الثاني، مواجهًا الشرق، وراقب ضوء الفجر الناعم يتدفق ببطء فوق الغابة. ظهر بياض الجدار الخلفي للعقار ببطء، وكأنه يُرسم أمام عينيه على قماش أسود.

ورغم أن كورت لم يتوقع هجومًا في وضح النهار، إلا أنه أدرك خطرًا جديدًا. فمع ضوء النهار تظهر احتمالية وجود قناصة في التلال البعيدة؛ وسيتعين على أي شخص يخرج إلى هذه الشرفات أن يزحف على يديه وركبتيه ليبقى تحت مستوى السور.

استمر الديك في الصياح.

الديك اللعين.

امتلأت عروق كورت بالأدرينالين ثم استنزفت مرات عديدة في الساعات الأربع والعشرين الماضية، وكان بحاجة ماسة للنوم الآن، الآن وقد حان وقت بدء يوم جديد.

سمع ضجيجًا من بعيد، على الجانب الآخر من الجدار مباشرة، واتضحت رؤيته مع تدفق جديد للأدرينالين. صراخ رجل. ركز كورت انتباهه على جزء الجدار الذي جاء منه الصوت؛ استطاع بالكاد رؤية الشريط الأبيض على بعد ستين ياردة من موقعه. صرخة أخرى، وفي تلك اللحظة طار شيء داكن عبر الهواء، فوق الجدار، وفوق كروم الجاكاراندا، وارتطم بالعشب الطويل، وارتد عاليًا وبشكل أخرق مثل كرة بيضاوية. تدحرج واستقر في الأعشاب القصيرة، على بعد خمس وعشرين ياردة من الحافة البعيدة للمسبح العكر.

ظهر رمسيس ومارتن على الشرفة بجوار جينتري. كانا يجوبان المنزل في دورية، ورأيا ذلك أيضًا.

سأل مارتن:

- "ما هذا؟"

أخذ كورت المنظار الذي سحبه من أحد الجنود القتلى ونظر من خلاله؛ لم يكن الضوء كافيًا للعدسات الصغيرة، لكنه استطاع رؤية الشكل المستدير الملقى هناك في العشب.

- "نو سي (لا أعرف)."

سأل مارتن:

- "قنبلة؟"

قال كورت:

- "إذا كانت قنبلة، فنحن بخير."

كانت لا تزال بعيدة بما يكفي عن المنزل.

سأل رمسيس وهو يعبث بالضمادة الدامية على ذراعه:

- "رأس؟"

كان الجميع يعلمون أن تجار المخدرات يعشقون قطع الرؤوس.
ضحك مارتن بخفوت:
– "هل رأيته يرتد؟ هذا ليس رأسًا."
ضحك رمسيس أيضًا، رغم أنه جفل من ألم جروحه وهو يفعل ذلك.
– "نعم. ليس رأسًا."
انخرط كورت في هذه الكوميديا السوداء بينما كان يمسح طول الجدار بنظره.
– "بالإضافة إلى ذلك، كنا سنعرف لو كان ينقصنا أي رأس. نحن بكامل رؤوسنا، أليس كذلك؟ هل يجب أن نجري عدًا للرؤوس؟"
ضحك رمسيس وترجم لمارتن، الذي ضحك هو الآخر. كان كورت يعلم أنهم جميعًا يقتربون من الهذيان بسبب التوتر والإرهاق.
وضع كورت المنظار وفرك عينيه. رشف آخر بقايا القهوة التي أحضرتها لوز في وقت سابق.
بعد بضع دقائق تحسن الضوء مع شروق الشمس وتوهج الصباح فوق قمم «سييرا مادري» إلى الشرق. تناول كورت المنظار مرة أخرى، وضيق عينيه، وأمال رأسه، متمنيًا أن يزداد ضوء النهار ويريه ما هو موجود هناك.
لم يكن هناك شك في أن القتلة أرادوا منه رؤيته. لقد نادوا ليضمنوا أن أحدهم ينظر إلى هناك تمامًا عندما ألقي الجسم فوق الجدار.
فجأة، اختفت دعاباته الناجمة عن الهذيان؛ انتابه شعور عميق بالشؤم تجاه هذا... الشيء، هناك في العشب.
أيًا كان، فقد عرف شيئًا واحدًا فقط: لا يمكن أن يكون خيرًا.
مهلاً... سطع ضوء أكثر قليلاً على الجانب الأيسر من الجسم. اتضح ببطء.

– "إنها... إنها كرة قدم."

أطلق زفرة ارتياح بطيئة. وحبس بعض النفس. هل يعقل أن تكون مجرد كرة قدم رُكلت فوق الجدار في السادسة صباحًا؟

سأل مارتن:

– "هل عليها رسالة؟"

واصل كورت النظر؛ كان يحتاج فقط إلى قليل من الضوء الإضافي على الجانب الأيمن.

ظهرت لورا على الشرفة الخلفية. لم يكن لدى كورت أدنى فكرة عما إذا كانت تدرك خطر القناصة البعيدين، لكنها قلدت الرجال الثلاثة، ونزلت على يديها وركبتيها وهي تزحف من غرفة النوم. لم تصدر يداها وركبتاها أي صوت على البلاط الحجري وهي تحاذي الأمريكي وتتمدد مسطحة.

– "إلى ماذا تنظرون؟"

شرح مارتن أن شخصًا ما ركل كرة فوق الجدار الخلفي. راح هو ورمسيس ولورا يخمنون بشأن ذلك، لكن كورت لم يشارك في المحادثة. كانت عيناه مثبتتين في المنظار.

ما هذا بحق الجحيم؟

تسلل المزيد من الضوء إلى الوادي. أجبر عينيه على الاتساع لامتصاص المزيد من الضوء. نعم، هذا ساعد.

لقد كان...

لا... ليس ذلك.

يا إلهي.

أغمض جينتري عينيه بقوة.

الآن عرف. همس لنفسه بالإنجليزية:

– "أي نوع من المرضى أنتم بحق الجحيم؟"

سألت لورا:

– "كي (ماذا)؟"

أنزل كورت منظاره ونظر نحو شقيقة إيدي.

– "لورا. أريدك أن تجدي لي كيسًا بلاستيكيًا كبيرًا، ومنشفة، وزجاجة ماء، وأحتاج هاتفك الخلوي."

– "الهاتف لا يعمل."

– "هل به كاميرا؟"

– "سي (نعم)."

– "أحضريه لي."

– "بور كي (لماذا)؟"

صرخ فيها بحدة:

– "فقط افعلي ذلك!"

كان متوترًا وغاضبًا، لكنه استدرك نفسه:

– "أرجوكِ."

استدارت وزحفت خارجة من الشرفة.

سأل رمسيس:

– "ما الأمر؟ ماذا رأيت؟"

– "أنا... لست متأكدًا."

قال مارتن:

– "إنها مجرد كرة قدم، صحيح؟"

نهض كورت على ركبتيه، وأمسك بالبندقية مزدوجة الفوهة في يده، وبدأ يزحف عائدًا عبر الباب إلى الطابق الثاني من المنزل.

– "أتمنى ذلك."

بعد خمس دقائق كان في الفناء، رابضًا بانخفاض خلف حوض زراعة مليء بزهور الأزاليا. استغل التشجير الكثيف وبقي ملتصقًا بالأرض قدر الإمكان بشريًا وهو يشق طريقه عائدًا إلى المسبح، متوقفًا كل بضعة أقدام للتنصت بحثًا عن أصوات بشرية وللتأكد من غياب

أصوات الحيوانات. سمع تغريد الطيور وحتى نقيق الضفادع عند المسبح، وهذا أرخى أعصابه قليلاً. كان واثقًا إلى حد معقول بأنه الشخص الوحيد في الحديقة الخلفية للمزرعة، واستخدم هذه الثقة ليدفع نفسه قدمًا. إذا قفز القتلة فوق الجدار، الذي لا يزال يبعد عنه أربعين ياردة، فهو يدرك تمامًا أنه سيكون في ورطة كبرى. سيتمكنون من رؤيته مستلقيًا هناك في العشب. ولم يكن معه سوى سلاح يطلق طلقتين دون إعادة تلقيم، وإعادة التلقيم من جيب مليء بخراطيش الصيد لن تكون عملية فعالة للغاية.

حمل البندقية كملاذ أخير، لكنه كان يعلم أن آخر شيء يريد الانخراط فيه الآن هو معركة بالأسلحة النارية.

كان رمسيس ومارتن في الأعلى على الميرادور، يغطيانه برشاشات «MP5» المأخوذة من الجنود القتلى، لكن بخلاف ذلك، كان وحيدًا.

مر بعدة جثث من موجتي القتل الأوليين لدي لا روشا. كان كورت ومارتن ورمسيس قد جردوا الجثث بالفعل من أي معدات أو معلومات مفيدة، لذا استخدمها الآن فقط للتخفي وهو يزحف عبر الفناء، بمحاذاة المسبح العفن المليء بالبعوض والضفادع، المسبح الذي سبح فيه قبل خمس ساعات.

سمع أصواتًا مرة أخرى على الجانب الآخر من الجدار. صرخة عالية، قهقهة، كضحكة شخص مجنون، فتوقف عن زحفه المنخفض. لم يستغرق الأمر أكثر من بضع ثوانٍ ليدرك أنهم لن يهاجموا – من ذا الذي يكشف موقعه ليأتي بعدها فوق الجدار، مكشوفًا للمدافعين الذين نبههم للتو؟ لا، أدرك كورت أنهم يحاولون جذب انتباه المدافعين عن المزرعة ليلاحظوا الشيء الذي قذفوه فوق الجدار قبل خمس عشرة دقيقة.

أقلق هذا جينتري بقدر ما يقلقه الهجوم المباشر تقريبًا.

بدأ يتحرك مرة أخرى، مغطيًا البلاط البارد بسرعة أكبر الآن، رغم أنه لم يرغب فعليًا في الوصول إلى وجهته. لقد رأى ما يكفي عبر عدسات المنظار ليدرك ما سيجده. لقد أحضر الكيس البارز من حزام بنطاله وزجاجة الماء التي تتدحرج داخله والكاميرا في جيبه الخلفي لسبب وجيه.

أحضر المنظار معه أيضًا. ليس لأنه سيحتاجه هنا، وهو يزحف على الفناء ببطنه كثعبان عشب. لا... أخذه لأنه لم يرد لمن هم في المنزل أن يروا كرة القدم. أن يروا ما سيفعله. سيفعل هذا وحده، ويتعامل مع الوضع المريع بأفضل طريقة ممكنة، ثم يشرح هذا الوضع المريع لمن في المنزل بأفضل ما يستطيع.

كانت المعنويات حاسمة لمجموعة تحت الحصار، وقد أصبحت المعنويات مريعة في بيت الموت هذا، والآن، كان جينتري متأكدًا تمامًا أن المعنويات على وشك الانهيار والسقوط في الهاوية اللعينة.

دخل العشب الطويل، وتجاوز المزيد من جثث الشرطة الفاسدين والقتلة المدنيين المرتزقة، وواصل التقدم نحو الجسم الملقى في العشب أمامه.

بفضل مئات التجارب الحرفية في حياته والأشياء التي رآها خلال تلك التجارب، كان كورت جينتري رجلاً يستحيل تقريبًا إثارة اشمئزازه.

لكن وجهه تقلص حين وصل إلى الكرة في العشب، وارتد جسده قليلاً حين لاحظ الدم الملطخ على الأرض بجوارها، ولم ترغب يده في الامتداد ودحرجتها نحوه. لكنه فعل؛ مد ذراعه ووضع أطراف أصابعه على الكرة وسحبها إليه. شعرت يده بشيء بارد وطري وهو يفعل ذلك، وكاد يتقيأ هناك في العشب. تمالك نفسه وهو يسحب الكرة قريبة منه وينظر إليها.

كان وجه إنسان مرتخٍ ومترهل، وجه شاب، قد خيط بخيوط جلدية سوداء سميكة على الكرة التي تلطخت بالدم وبقع العشب. كانت كتلة من العشب عالقة في أحد محجري العينين الفارغين. لم تكن لديه فكرة عن صاحب الوجه، لكنه كان متيقنًا أن شخصًا ما في المنزل سيعرفه.

لم يكن هذا مجرد مواطن محلي عشوائي تم تقطيعه وتحويله إلى لعبة مروعة.

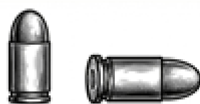
لا، هذا حبيب لشخص ما.

فرد من عائلة أحدهم.

هذه رسالة. استسلموا، اخرجوا، أو سيموت كل من تحبون.

وضع كورت الكرة في الكيس، ونهض على ركبتيه، وركض منخفضًا عائدًا نحو سقيفة حديقة حجرية متهالكة. كان الداخل عفنًا ومظلمًا؛ ترك الباب مفتوحًا ليمنحه ضوءًا كافيًا للعمل، وأخذ الكرة ذات الوجه المخيط عليها، وغسلها بالماء من الزجاجة البلاستيكية. ثم أخذ المنشفة وجفف الوجه ونظفه قدر الإمكان. كاد هذا الفعل يصيبه بالغثيان، لكنه لم يرَ بديلاً آخر لخطته. عندما أصبح الوجه نظيفاً قدر استطاعته، لم يكن بالإمكان تسميته «مقبولاً»؛ فحصه لفترة طويلة. كان بالكاد يمكن التعرف عليه كجزء من إنسان؛ الخياطة تمزقت عند الجبهة وتدلت قطعة من الجلد؛ ضغطها كورت عائدة إلى مكانها. كانت الذقن مشدودة للأسفل بشدة، مما سحب الوجه خارج أبعاده الطبيعية كعكس لعملية شد وجه فاشلة.

أنّ جينتري، وقاوم موجة ثالثة من الغثيان، وأخرج الهاتف المزود بكاميرا.



بعد عشر دقائق كان جينتري قد عاد إلى غرفة الجلوس الضخمة في المنزل. وضع مارتن على الميرادور الخلفي ورمسيس عند الباب

الأمامي؛ كل رجل الآن مسؤول عن مائة وثمانين درجة من الأرض، وهو وضع بعيد عن المثالية، لكن كورت أدرك حاجته لجمع عائلة غامبوا معًا. جلس كورت على كرسي أمام إيلينا، ولورا، وإرنستو، ولوز، ودييغو.

خطر له أن يحتفظ بهذه المعلومة لنفسه، لكي لا يقضي تمامًا على معنويات من في المنزل بإعطائهم أخبارًا مريعة. لكن المعلومات كانت مهمة. كانت شحيحة جدًا في الوقت الراهن، وكان بحاجة لمعرفة من اكتشفه القتلة وقتلوه. هل كان مخبرًا؟ شخصًا قد يسلط موته ضوءًا من نوع ما على الأعداء والأصدقاء في هذا الصراع؟

لا، قرر كورت، هذا سر أخطر من أن يُكتم.

أدرك كورت أنه لا توجد فرصة لعينة لأن يقول الأشياء الصحيحة الآن، أو أن ينقل الخبر لأي أحد بأي طريقة يمكن تفسيرها على أنها مريحة أو لطيفة. أخبر نفسه أنه غير مدرب على تقديم المواساة وأنه لا طائل من إضاعة الوقت في المجاملات عندما تكون هناك مسائل حياة أو موت يجب الاهتمام بها.

لكن لم يغب عن ذهن القاتل الأمريكي أن هذا مجرد عذر يستخدمه لتجنب حتى محاولة التواصل مع بشر آخرين بطريقة طبيعية ورحيمة.

قرر الآن، ولأجل مصلحة هذه العملية، أنه سيبذل جهدًا على الأقل لنقل هذا الخبر بأفضل طريقة ممكنة.

– "لقد تلقينا رسالة."

سألت إيلينا:

– "أي نوع من الرسائل؟"

قلق كورت من أن تكون هي من يعرف الرجل الميت على كرة القدم وأن الصدمة قد تؤثر بطريقة ما على حملها.

لا حيلة لي في ذلك، أخبر نفسه الآن. شعر بجسده يتوتر، متخليًا عن خطة الإلقاء اللطيف.

- "اسمعوا. أنا آسف، لكنني سأقولها وحسب. قُتل رجل ما على يد القتلة؛ تم قطع وجهه وخياطته على كرة قدم. رُكلت الكرة فوق الجدار الخلفي، وهي الآن في كيس بسقيفة الحديقة؛ إنها في مكان مرتفع وآمنة من الحيوانات. التقطت صورة للوجه تحسبًا لأن يتمكن أحدكم من التعرف عليه."

تردد.

- "أعني... تحديد هويته."

ظلت العائلة جالسة هناك. تحدق فيه بذهول.

- "سيكون شخصًا يعني الكثير لأحدكم. ربما لكم جميعًا. أنا آسف."

فهم جمهوره المغزى الآن، وتحولت الوجوه التي اعتصرها التوتر بالفعل بسبب القلق الجديد إلى أقنعة من الرعب والألم. لكن إرنستو أومأ برأسه، وقال بصوت خافت:

- "أرني إياها. إذا لم أعرف من هو، سأمررها. لا داعي لأن ينظر الجميع إن لم يضطروا لذلك."

أومأ كورت، وفتح الصورة على الهاتف، وسلمها لوالد إيدي.

ازدادت تجاعيد العجوز عمقًا، لكنه لم يبدِ أي عاطفة أخرى. أدار الهاتف يمينًا ثم يسارًا بيده اليسرى؛ كانت يده اليمنى بلا فائدة الآن بسبب الجرح في كتفه. استغرق وقتًا طويلاً محاولاً تمييز وجه في شريط اللحم الممدد المثبت على الكرة. بعد لحظة طويلة، لحظة رأى فيها جينتري أن الرجل يريد تجنيب بقية عائلته ألم النظر، هز كتفيه وحسب.

قال:

- "لو سيينتو (أنا آسف). لا أعرف هذا الشاب."

مد دييغو يده وأخذ الهاتف من جده. وضع يده على فمه من الصدمة لكنه أبعدها، باذلاً قصارى جهده للتماسك؛ رجولته الشابة جُرحت بما اعتبره بوضوح عرضًا للضعف.

بعد عشر ثوان قال:

– "لا أعرف."

أخذت لوز غامبوا الكاميرا، نظرت، ومررتها بسرعة. بدت الأكياس البنية تحت عينيها، حصيلة أيام من الحزن والتوتر وقلة النوم، وكأنها تتقلص قليلاً، لكنها هزت رأسها. ثم جاء دور لورا، لم تبكِ، لكن وجهها احمرّ. رسمت علامة الصليب وتمتمت بصلاة صامتة للرجل الميت. لكنها لم تعرف من هو.

كانت إيلينا الأخيرة. أراد الجميع حمايتها، لكنها أخذت الكاميرا ونظرت إلى الصورة. نشجت بصوت خافت لكنها هزت رأسها.

تبًا، فكر كورت. لا بد أنه شخص ما؛ لماذا يتكبدون كل هذا العناء إن لم نكن نعرف المسكين؟ طلب من الجميع التأكد، النظر مرة أخرى؛ وجد نفسه غاضبًا لأنهم لم يتمكنوا من معرفة من قُتل لمجرد الوصول إليهم.

لكن لا، لم يعرف أحد في الغرفة الوجه.

تساءل إن كان من الممكن أن يكون شخصًا ذا صلة بآل كوراليس. لا يمكن لـ «البدلات السوداء» أن يعرفوا بالتأكيد من قُتل في المنزل، ربما هم فقط...

لا. ليس هذا.

اتضح له الأمر ببطء؛ تمنى لو فكر فيه قبل إجبار هؤلاء المساكين أمامه على النظر مرة أخرى. لكنه فكر فيه الآن، لذا أرسل لورا إلى موقع رمسيس ودييغو إلى موقع مارتن. طلب من إيلينا ولوز وإرنستو الذهاب إلى القبو ومحاولة الحصول على بعض الراحة.

بعد دقيقة جلس ضابطا «GOPES» أمامه. شرح كورت الوضع، وفهم كلا الرجلين.

أخذ رمسيس الكاميرا بفظاظة من الأمريكي، وأمسكها بذراعه السليمة، ونظر إليها بينما حدق مارتن من فوق كتفه. راقب كورت وجوههم فقط؛ ضبط نفسه وهو يرغب في رؤية ومضة تعرف من أحد العسكريين المتمرسين.

ونال مراده. احتقن وجه مارتن أوروزكو وارتجفت عيناه، وانخفضتا بينما غادر عقله الحاضر وعاد بذاكرته إلى الوراء. استطاع جينتري رؤية كل ذلك في وجهه. إنه شخص يعرفه، شخص مقرب، شخص يعرفه منذ زمن طويل.

عزيز عليه.

فقط من التعابير على وجه مارتن، قال جينتري بصوت خافت:

– "إنه أخوك."

نشج مارتن الاسم:

– "بابليتو."

انهمرت الدموع بحرية من عينيه وهو يتمتم بالإسبانية:

– "يا إلهي، أبناء العاهرات قتلوا أخي الصغير."

تراوح وجه الفيدرالي بين الغضب والرعب واليأس المطلق.

– "إنه مجرد... كان مجرد تاجر في كويرنافاكا. لم يكن جنديًا... لم يكن يمثل شيئًا لهم."

عانق رمسيس سينفويغوس رفيقه بذراعه غير المصابة، وهز رأسه حزنًا واشمئزازًا.

قال كورت:

– "لكنك أنت تمثل شيئًا لهم. أنت هنا."

أومأ مارتن، ووجهه شارد.

– "إنهم يعرفون أنك حي."

التفت إلى رمسيس.

– "مما يعني أنهم على الأرجح..."

قال رمسيس بجدية:

– "يعرفون أنني حي أيضًا."

لم يستطع كورت سوى تخيل ما يدور في رأسه. بالتأكيد، كان يفكر في زوجة، إخوة، أخوات، آباء، أطفال.

في أوقات كهذه، كان كورت جينتري يقدر كونه وحيدًا.

قال مارتن وهو لا يزال ينظر إلى صورة وجه أخيه الصغير الممزق:

– "سيدفع هؤلاء الـ بينديخوس (الأوغاد) الثمن."

فكر جينتري في الموقف للحظة وهو يستعيد الهاتف المحمول. اتخذ قرارًا سريعًا ووضع يده برفق على كتف مارتن.

– "اسمع جيدًا يا صديقي. أريدك أن ترحل. أريدك أن تذهب لحماية بقية عائلتك."

هز المكسيكي رأسه بقوة.

– "لا. أنا هنا لحماية عائلة الرائد غامبوا..."

– "أنت تعلم أنك مكشوف. إذا تمكنوا من الوصول إلى فرد واحد من عائلتك، فيمكنهم الوصول إليهم جميعًا. لا يمكنني إبقاؤك هنا، تفكر فيما يحدث في الخارج. لا يمكنني القلق من أنهم سيفعلون شيئًا يجعلك تنقلب علينا..."

– "أنا لن..."

– "أنا أصدقك. أصدق أنك تؤمن بذلك. لكنني لن أسمح لك بالبقاء في هذه العملية. أفضل طريقة لمساعدتنا هي بالابتعاد، وسحب ورقة الضغط من يد العدو. أنت تعرف ذلك يا صديقي."

فهم مارتن. أومأ ببطء.

قال كورت:

– "عليك محاولة الهروب فورًا."

أومأ مارتن. ظلت عيناه شاردتين.

– "شكرًا لك."

نظر كورت إلى رمسيس الآن.

– "وأنت أيضًا يا صديقي. إذا عرفوا أن مارتن نجا من انفجار اليخت، فهم على الأرجح يعرفون أنك نجوت أيضًا. لا يمكنهم حراسة المحيط بأكمله طوال الوقت؛ إذا تمكنتما من الوصول إلى الجدار دون أن يتم رصدكما، وإذا ذهبتما في اتجاهين متعاكسين من المزرعة، يمكنكما انتظار اللحظة المناسبة للتسلق والركض عبر حقول الأغاف."

هز رمسيس رأسه.

– "جو، أنت وآل غامبوا لن تصمدوا ساعة واحدة بعد حلول الظلام. لا أحد آخر لديه أي تدريب أو قدرة على..."

– "لا يهم. انظر. سيلاحقون عائلتك إن لم يفعلوا ذلك بالفعل. سيقتلونهم، يعذبونهم؛ أنت تعرف كيف يعمل هؤلاء الأوغاد."

– "لن أتركك لتموت."

– "أحتاج منك أن تهرب."

– "ماذا ستفعل؟"

قال جينتري:

– "لدي خطة، لكن لا يمكنني إخبارك بها تحسبًا للقبض عليك من قبل «البدلات السوداء»."

فكر رمسيس في الأمر، وأومأ ببطء. أخرج هاتفًا من جيب سترته التكتيكية. جفل مع الحركة، فجروح الرصاص في ذراعه كانت مؤلمة بوضوح. سلم هاتفه لجينتري.

– "أريدك أن تبقي هذا معك. إذا خرجت من هنا، سأصل إلى هاتف. سأتصل بالرجل في السفارة الأمريكية الذي يمكنه تأمين

تأشيرات لآل غامبوا إلى الولايات المتحدة. إذا تمكنت من الوصول إلى مكسيكو سيتي، سأرتب لقاءً."

– "ممتاز."

– "لكن سيتعين عليك إخراجهم من المزرعة، بعيداً عن كل هؤلاء القتلة في الخارج، بمفردك. كيف بحق الجحيم ستقوم بـ..."

– "سأنجز الأمر."

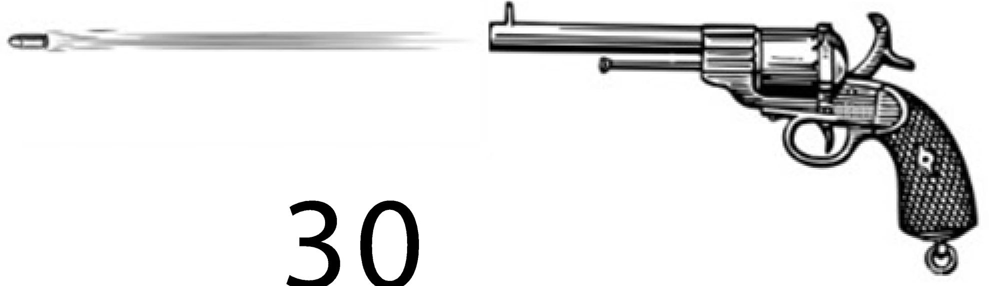
لم يكن مارتن جزءًا من هذه المحادثة. كان يحدق بذهول في البلاط أمامه. نظرته تائهة؛ افترض كورت أن أفكاره كانت مع شقيقه الصغير بابلو.

أعاد كورت مارتن إلى النقاش عبر استعراض أفكار لتسلهما خارج المزرعة في وضح النهار. رأى كورت أنه من المستبعد أن ينجو كلاهما، لكنهم اتفقوا جميعًا، إذا ذهبا في اتجاهين متعاكسين في نفس الوقت، فإن أحدهما سيحظى بفرصة معقولة.

بالطبع، استخدام دراجتيهما الناريتين سيكون انتحارًا. كان هناك أكثر من مائتي ياردة من الممر الممتد من المنزل الكبير إلى البوابة الأمامية، وسيعرف العدو بمحاولة الهروب قبل وقت كافٍ للتجمع هناك وقتل سائق الدراجة قبل أن يتمكن من الفرار.

لذا سيتعين عليهما محاولة الهروب سيرًا على الأقدام، وسيتعين عليهما القيام بذلك في وقت واحد، وقرر الثلاثة أن مارتن ورمسيس يجب أن يذهبا الآن.





30

تعانق ضابطا القوات الخاصة عند مدخل الممر الأمامي؛ فبعد أن ودّعا (الغرينغو) ومن نجا من آل غامبوا وتمنيا لهم حظاً طيباً، بدآ في حزم زجاجات الماء ولفائف الخبز في جيوبهما، واستوليا على أسلحة كاملة الذخيرة من جثث المارينز المتناثرة حول المنزل. زامنا ساعتيهما، وناقشا توقيت تسلق الأسوار؛ على أن يتجه مارتن شرقاً ورمسيس غرباً.

سار الرجلان متجاوزين دراجتيهما الناريتين السريعتين، وانطلقا في اتجاهين متفارقين، بينما عاد كورت إلى الداخل.

كانت الساعة التاسعة صباحاً فحسب، وكان كورت قد بلغ منه الإنهاك مبلغه. كان يحمل في رأسه خطة للخلاص، أو شيئاً من هذا القبيل، لكنها كانت خطة واهية كخيط العنكبوت وهو يدرك ذلك تماماً. ولفرط وهنها، قرر إرجاء إخبار آل غامبوا بها لأطول فترة ممكنة، يقيناً منه بأنها ستصيبهم بالذعر، لكنه علم أيضاً أنها السبيل الوحيد المتاح لنجاتهم.

توقف كورت في المطبخ ليتجرع بعض القهوة الطازجة، ثم حملها معه إلى المرصد الخلفي، حيث جلس فوق البلاط يرتشفها ببطء.

نظر إلى ساعته. بعد عشر دقائق من الآن، يفترض أن يكون رمسيس ومارتن قد بلغا السور في جهتين متقابلتين من الهاسيندا. لم

يكن بمقدوره رؤية أي منهما من مكانه، فاكتفى بالجلوس والانتظار، مصلياً ألا يسمع دوي أي إطلاق نار.

مضت خمس دقائق. صعدت لورا لتطمئن عليه، وسألته إن كان بإمكانها أخذ قسط من الراحة في القبو. أخبرها أن تغتنم بضع ساعات للنوم لأنها ستحتاجها لاحقاً، فلبثت بجانبه دقيقة أخرى، وشكرته على كل ما قدمه. أجابها بأنه لا داعي للشكر؛ حدق كل منهما في عيني الآخر المتعبتين لبضع ثوانٍ، ثم انسلت عائدة نحو الأسفل.

تتبعتها عيناه المنهكتان. يا لجمالها! فكر في صلابتها وحزمها اللذين يمتزجان بلين وعطف نادرين. تساءل كيف سيكون شعور لمسها، أو أن تلمسه هي، وأن يكونا معاً في مكان هادئ وآمن.

اللعنة، لقد بدأتُ أهذي.

هز كورت رأسه محاولاً طرد تلك الأفكار. ومع ذلك، أدرك الآن أن صديقه إيدي كان محقاً بشأن شقيقته منذ سنوات طويلة؛ إنها حقاً امرأة استثنائية.

نظر كورت إلى ساعته. لقد حان الوقت. في هذه اللحظة تحديداً، يُفترض أن يكون كلا الرجلين فوق السور – أحدهما في الشرق والآخر في الغرب – يترقبان ثغرة في دوريات الفيدراليين الفاسدين، آملين في قهر المستحيل والفرار نحو الحرية.

لا طلقات نارية. هذا مؤشر جيد. حتى الآن لم يحدث أي—

فجأة، دوى زئير محرك دراجة نارية في الممر الأمامي على الجانب الآخر من "البيت الكبير". ما هذا الهراء؟ من ذا الذي—

وثب كورت واقفاً، وركض من الشرفة إلى غرفة النوم ثم إلى الممر، واجتاز الدرج قفزاً ليبلغ غرفة الجلوس، ثم اندفع ماراً بالمطبخ. كان دييغو هناك، فلحق بـ كورت وهما يقتحمان ممر المدخل ويفتحان الباب الأمامي.

انطلق مارتن أوروزكو فرنانديز كالسهم على دراجته من طراز "سوزوكي"، مثيراً سحابة من الغبار والحصى خلفه. مر بالشاحنة المحطمة حيث تقبع جثة إغناسيو، واندفع في الممر بسرعة جنونية، ممسكاً بمدفع HK MP5 بيده اليمنى ومصوباً إياه للأمام. ترنحت الدراجة فوق الحجارة، لكنه أحكم سيطرته عليها بيد واحدة وهو يسبق الريح نحو الغابة متوارياً عن الأنظار، متجهاً مباشرة نحو البوابة الأمامية.

نحو قبضة العدو مباشرة، الذي سيهرع بالتأكيد نحو مصدر الضجيج، ويحكم الحصار هناك استعداداً لسحق الدراج وصاحبه.

كان هذا الفداء سيمنح رمسيس، الرابض عند الجدار الغربي، الوقت والفرصة للفرار.

اندلع إطلاق نار كثيف في المدى البعيد عند البوابة الأمامية، طغى صوته على عويل المحرك. وقف كورت على الشرفة الأمامية، بندقيته في يده، وهز رأسه بأسى. لقد قدم مارتن حياته ثمناً ليشتري لصاحبه بضع ثوانٍ غالية لتبلغ قدماه طريق الحرية. في مكان ما إلى يسار جينتري، على بُعد مئات اليردات، سيسمع رمسيس صوت الدراجة، ودوي الرصاص عند البوابة، وسيدرك ما يفعله صديقه من أجله الآن.

تخيل كورت كيف سيتدحرج رمسيس ثينفويغوس – بجرحيه النازفين – من فوق السور ويركض عبر الطريق الترابي، مندفعاً نحو حقول "الأغاف" والدموع تملأ عينيه.

استمر الرصاص في البعيد.

توقف محرك الدراجة.

ثم خفتت حدة إطلاق النار، حتى تلاشت تماماً.

تمنى كورت من أعماقه أن يكون مارتن قد نال ثأره، وقتل بعضاً من هؤلاء الأوغاد، واسترد حق شقيقه البريء بابلو الذي عُذب وقُتل ظلماً.

عاد جينتري ودييغو إلى داخل المنزل دون أن ينبسا ببنت شفة.

بعد عشر دقائق، ومع سكون الجبهة التي فر منها رمسيس، علم كورت أن مارتن قد نجح في مهمته الأخيرة.

لقد نجا رمسيس.

بحلول الظهيرة، لم يبقَ في المنزل مستيقظاً سوى كورت ولورا. كانت لوز وإيلينا تنامان في عتمة القبو، بينما انهار دييغو من التعب على أريكة غرفة الجلوس، وجلس إرنستو يغفو على كرسيه في المرصد فوق الباب الأمامي، وفي حجره مدفع MP5. بدأ جرح كتفه يلسعه ويحترق، لكن زوجته أعطته ما يكفي من الأسبرين والتيكيلا لتسكين الألم قليلاً، وأصر العجوز على المشاركة في الدفاع عن العقار.

لقد رفض تماماً الاختباء في القبو مع النساء بعد الآن.

بقي كورت في المرصد الخلفي؛ جالساً فوق البلاط البارد في الظل. غلبه النعاس مراراً، لكنه لم ينعم بأكثر من ستين ثانية من الراحة. حاول ابتكار مخرج للجميع، لكن الحل الوحيد الذي لاح له بدا وكأنه طلقة في عتمة دامسة.

لفت انتباهه ضجيج في الساحة بالأسفل؛ فانحنى للأمام، جاثياً بين الأعمدة الحجرية التي نال منها الرصاص في المواجهة الأولى، حين استخدم رمسيس هذا المرتفع لإطلاق النار على الرجال في الساحة الغارقة في ضوء شاحنة "فورد". كانت شاحنة إيدي العزيزة ترتطم الآن بين الشجيرات كجثة حيوان نافق، منهارة على جانب واحد بلا حراك، بعد أن تلقت ما لا يقل عن مئة رصاصة وخرطوش.

هناك، في الساحة بالأسفل، رأى لورا. كانت تجثو فوق جثة رجل يرتدي زي شرطة بلدية تيكويلا. تساءل كورت في البداية إن كانت تبحث في الجثة عن سلاح أو مال أو أي شيء ينفعهم.

همّ كورت بمقاطعتها من الأعلى ليؤكد لها أنه استخلص كل ما هو ذو قيمة من تلك الجثة المثقوبة بالرصاص، ولكن قبل أن ينطق بكلمة،

رأى شقيقة إيدي الصغرى ترسم علامة الصليب ومسبحتها في يدها، وبدأت تصلي.

كانت تصلي من أجل أرواح الرجال الذين قتلوا شقيقها للتو، وحاولوا إبادة كل من في هذا البيت!

هز جينتري رأسه؛ لم يستوعب هذا القدر من التسامح أو الغفران.

لم يكن هذا عالمه على الإطلاق.

لم يكن عالمه، ومع ذلك قرر أن يخاطر من أجله.

وجد إيلينا في المطبخ تصب لنفسها الماء من جرة كبيرة، فطلب منها المجيء إلى غرفة الجلوس. بقي إرنستو في نوبة حراسته، وظلت لوز في القبو، لكن جينتري أراد التحدث إلى إيلينا ولورا ودييغو.

– "اسمعوا، حتى لو وصل رمسيس إلى بلدة ما، أو عثر على هاتف أو سيارة، فلا يمكننا الرهان على وصوله قبل حلول الليل. الفيدراليون سيضربون المكان بمجرد أن يجن الظلام؛ هذه حقيقة لا ريب فيها."

سألت إيلينا:

– "وماذا سنفعل إذن؟"

– "عليّ أن أحاول اختراق الحصار، لجلب المساعدة أو العثور على سيارة–"

قاطعته لورا بنبرة من توقع الأمر:

– "اذهب يا خوسيه. لقد فعلت كل ما بوسعك. لم نكن لنصل إلى هنا لولاك. شكراً جزيلاً لك على كل شيء."

شعر كورت برغبة في الدفاع عن نفسه.

قالت إيلينا وكأنها تقر حقيقة واقعة:

– "أنت ترحل عنا إذن."

رأى كورت في عينيها أنها لا تملك أي أوهام بشأن نجاتها أو نجاة طفلها بدونه.

– "أنا لا أهرب منكم؛ كل ما في الأمر أننا لا نستطيع–"

– "لا بأس."

قالتها وهي لا تصدقه؛ كان ذلك جلياً.

التفت إلى لورا:

– "إذا تمكنتُ من الوصول إلى البلدة، فسأحصل على شاحنة أو ما شابه. سأعود إلى هنا قبل أن تدركوا غيابي."

– "وكيف ستتجاوز القتلة المأجورين؟"

لم يكن جينتري مستعداً لمناقشة تفاصيل خطته، إذ لم تكن لديه خطة حقيقية لما سيفعله بمجرد عبور السور، لكنه كان يثق، إلى حد ما، في قدرته على تدبر أمره إذا خرج ورأى تضاريس المنطقة من منظور آخر.

– "لقد فعلها رمسيس. سأتوجه إلى ذلك الجانب من العقار."

بدأت إيلينا تفقد هدوءها، وعلم كورت أنها لا تفكر إلا في جنينها:

– "رمسيس كان لديه مارتن الذي ضحى بحياته ليخلق له تشتيتاً. هل تريد من أحدنا أن—"

– "بالطبع لا. يمكنني التسلل وحدي." تردد قليلاً وهو ينظر في تلك العيون المتعبة والمنهارة: "أنا أمارس هذا العمل منذ زمن طويل."

سألت إيلينا بغضب:

– "التسلل والهرب؟"

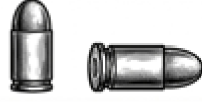
أقر كورت:

– "نعم.. لكني سأعود."

كان من الواضح أن إيلينا ودييغو لم يصدقاه. نظر إلى عيني لورا البنيتين الواسعتين، فرأى فيهما عطفاً وتفهماً، لكنه لم يدرِ يقيناً ما الذي يدور في خلدها.

انتزع كورت قميصاً مموهاً من جثة أحد المارينز عند الباب الخلفي. كان الرجل قد أُصيب في رأسه، لذا جفت الدماء حول ياقة

القميص، لكن جينتري تجاهل الأمر، وخلع سترته الجينز وارتدى قميص القتيل.



كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً حين بدأ كورت يشق طريقه عبر المنزل نحو الجناح الغربي. كانت الشمس في كبد السماء فوق الجبال، يتخلل ضوءها غيوم متفرقة. عادت إيلينا إلى القبو دون وداع، لكن لورا ودييغو تبعاه إلى الممر.

– "ابقيا هنا. واصلا الحراسة، ولكن إذا هاجم القتلة، فلا تحاولا الدفاع عن المنزل. اذهبا إلى القبو وقاتلاهم من هناك. يمكنكما إلحاق ضرر كبير بأي قوة مهاجمة تحاول اقتحام ذلك الممر الضيق."

لم يذكر كورت الوجه الآخر لهذه الحقيقة: أن القوة المهاجمة يمكنها أيضاً إلحاق ضرر هائل بقوة مدافعين محصورة في حفرة صغيرة بلا مخرج.

سأل دييغو بعد أن لاحظ أن خوسيه لا يحمل سلاحاً:

– "ألن تأخذ معك بندقية؟"

– "لا."

– "ولماذا؟"

– "أنتم بحاجة لكل قطعة سلاح وكل رصاصة. كما أنها لن تنفعني؛ فإذا بدأتُ إطلاق النار هناك خلف السور، فسيكون فوق رأسي خمسون رجلاً في رمشة عين."

هز دييغو رأسه محبطاً:

– "لا، ليس هذا هو السبب. أعتقد أنك تفعل ذلك لأنك تشعر بالذنب. أنت تهرب، وتريد إراحة ضميرك بقولك: (لقد تركتُ لهم كل الأسلحة، فماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟)."

أراد كورت أن يخبر الفتى أن عليه تعلم الثقة بالناس، لكنه كبح جماح نفسه. لا، في الواقع، لم يكن دييغو بحاجة لتعلم الثقة هنا؛ فهذه

نصيحة لا تجدي نفعاً في هذا المكان. فـ كورت نفسه لم يكن يثق بأحد، لأسباب لا تقل وجاهة عن أسباب دييغو.

كلا المكسيكيين اللذين يقفان أمامه تعرضا للغدر والكذب والخيانة من قبل. فكيف له أن يخبرهما أنه مختلف؟

لا يمكنه إخبارهما؛ بل عليه أن يثبت لهما ذلك بالأفعال.

استدار وتركهما هناك في الممر.

استغرق زحف كورت معظم وقت الظهيرة. وبينما كان يسحب جسده عبر الأعشاب، كان يصغي لطلقات الرصاص المتقطعة التي تنطلق من "البيت الكبير" كل عشر دقائق تقريباً. كان يتوقع أن ينتظر رجال "دي لا روشا" حتى حلول الليل قبل الهجوم، لكنه علم أنه لا يمكن استبعاد قيامهم بإرسال كشافين أو مخربين خلال النهار لاستطلاع ما يواجهونه. والسبيل الوحيد الذي رآه لمنع ذلك، أو على الأقل إبطاء تحركاتهم، هو توجيه لورا ودييغو لإطلاق النار كل بضع دقائق في اتجاهات مختلفة. فإذا فعلوا ذلك بأنماط عشوائية ومتقطعة، فقد يظن المتسللون الفيدراليون أنه تم اكتشاف أمرهم، فيلزمون أماكنهم أو يتراجعون خلف سور الهاسيندا.

تمنى كورت لو كان بمقدوره التحرك بسرعة أكبر، فهو يعلم أن الوقت لا يرحم، لكن مع التلال والجبال المتموجة في الأفق، لم يكن بمقدوره الركض مكشوفاً عبر العقار؛ إذ سيقتنصه القناصة في الحال.

كان الزحف البطيء مقايضة ضرورية لتجنب هذه النهاية.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة والنصف حين وصل إلى السور. انسل تحت أشجار الصفصاف الباكية، وأخرج زجاجة ماء صغيرة وتجرعها. كان مجهداً وقد لفحته الشمس؛ ركبتاه وساعداه ويداه كانت مخدوشة وملطخة بالدماء، وكتفاه وأسفل ظهره يئنون من التعب. شعر بأن أنسجة الندبة في لوح كتفه الأيسر – حيث نفذ سهم قبل سبعة أشهر – مشدودة ومؤلمة؛ فمد يده ودلك المنطقة وهو

يستريح. بعد دقائق معدودة في الظل، نهض وسار بمحاذاة الضفة الضيقة، وتعثر في الطين مرة أو مرتين وهو يتوغل تحت أغصان الأشجار الكثيفة. رأى أفعى ماء تطفو نحوه في البركة العكرة، فتجاهلها وواصل المسير قليلاً، ثم تسلق شجرة تصل أغصانها إلى ما فوق السور.

من علياء مكانه، استطاع أخيراً رؤية الطريق الترابي الذي يمتد خلف سور الهاسيندا مباشرة. من موقعه هذا، يمكنه التأرجح والهبوط فوقه، ثم الركض للجانب الآخر، والارتماء بين نباتات "الأغاف" الزرقاء الطويلة التي تنمو وسط الأعشاب الكثيفة.

همّ بفعل ذلك لولا مرور شاحنة حمراء من جهة اليمين. كانت محملة برجال يحملون بنادق، ثمانية في المجمل، مروا تحت موقعه مباشرة، وهم يهتزون مع وعورة الطريق، حتى اختفوا خلف السور إلى يساره على بُعد مئة ياردة.

كان الرجال من فلاحي المنطقة، يرتدون سراويل الجينز وقبعات القش، لكنهم لم يكونوا يفلحون حقولهم؛ بل استأجرهم أحدهم للقيام بدورية حول المحيط.

بعد ثوانٍ، ظهر فيدرالي على دراجة نارية قادماً من الاتجاه المعاكس.

وبحلول الوقت الذي اختفى فيه الدراج خلف الزاوية الجنوبية للسور الخارجي، كان كورت يسمع دوي محرك شاحنة أخرى. ظهرت الشاحنة؛ كانت سوداء وتحمل شعار الشرطة الفيدرالية (PF). وقف ضابطان في حوضها ممسكين بقضيب الحماية بيد، بينما يسندون بنادق M4 فوق سقفها باليد الأخرى.

بالتأكيد لم يشهد هذا الطريق الزراعي القديم مثل هذا الازدحام منذ أن كانت الهاسيندا مزرعة قائمة ومعملاً لإنتاج التيكيلا.

انزوى كورت في أعماق الشجرة، متخذاً وضعاً مريحاً نوعاً ما، واستعد للانتظار هناك حتى الغسق. كان يأمل في حدوث ثغرة ما بينما يستعد المهاجمون لاقتحام "البيت الكبير"، ليغتنم تلك اللحظة.

لكن الانتظار حتى وقت الهجوم يعني أنه لن يملك أي فرصة للوصول إلى الطريق الرئيسي للاستيلاء على مركبة أو إيجاد أي وسيلة لمساعدة من في "البيت الكبير" قبل بدء الهجوم الشامل.

لا، فالانتظار للحظة الأخيرة للفرار سيجبره على الإسراع لإنقاذهم.

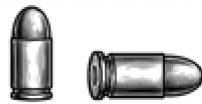
كان لا يزال بمقدوره، دون أدنى شك، أن ينجو بنفسه. كان بإمكانه انتظار بدء الغارة على المنزل خلفه، ثم الهبوط من السور إلى الظلام في الخارج، والمضي قدماً في حقول "الأغاف" والغابات، وسيعيش. كان بإمكانه التخلي عن هذه القضية الخاسرة؛ ليعيش ويقاتل في يوم آخر؛ ليعود إلى أوروبا ويستهدف غريغور سيدورينكو، رجل العصابات الروسي الذي طارده حتى غابات الأمازون. كان بإمكانه قتل "سيد" واستعادة نتف من حياته الضائعة. كان بإمكانه العثور على عمل، ونسيان دانيال دي لا روشا وهذه الحرب الأهلية المروعة في المكسيك، وألا يلتفت خلفه أبداً.

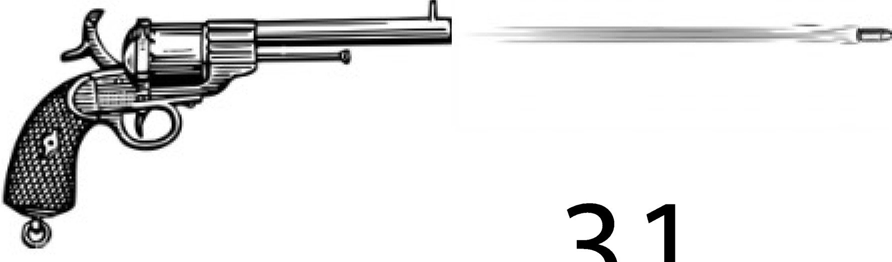
كل هذا كان يتوق لفعله.

لكنه لم يستطع التخلي عن الخمسة الذين ينتظرونه خلف السور.

لقد كانوا يعولون عليه، فقط لأنه لا يوجد غيره، لكن ذلك لم يكن يهم. سيساعدهم إن استطاع، وإن لم يستطع، فسيموت وهو يحاول.

لن يتركهم خلفه.. لا يمكنه فعل ذلك.





31

عند الغسق، تراجعت وتيرة الدوريات بشكل ملحوظ؛ تخيل جينتري اجتماعًا يُعقد عند البوابة الرئيسية، وتصور قائد العملية وهو يشرح خطة الهجوم لمجموعة كبيرة من الرجال الجاثين على التراب وأسلحتهم تتدلى من أعناقهم.

أدرك كورت أن عليه التحرك بسرعة. فأي هجوم سيتضمن حتمًا قوة حصار تحيط بالأسوار من جميع الجهات، متأهبة لمنع أي شخص من الهرب.

في السادسة مساءً، وجد الجانب الشرقي بالكامل من جدار المزرعة خاليًا، فتزحلق من الشجرة، وتدلى بذراعيه، ثم قفز المسافة المتبقية إلى الطريق الترابي ذي المسار الواحد، متدحرجًا على الأرض لامتصاص الصدمة القوية ـ في كاحليه وركبتيه وعموده الفقري.

وبسرعة البرق، انطلق عبر السطح الصلب ودفن نفسه ـ في الأعشاب الطويلة لحقل الأغاف الأزرق الكثيف. جثا هناك للحظة، منصتًا لأي صرخات أو طلقات نارية أو مركبات مقتربة. وحين لم يسمع ما يثير قلقه، نهض وبدأ يتحرك شمالاً عبر العشب بمحاذاة الطريق، مستعدًا للغطس ـ في أوراق الشجر لتفادي الدورية التالية.

كان الوادي قد اكتسى بسواد حالك بحلول الوقت الذي انعطف فيه عند الزاوية الشمالية الشرقية لجدار المزرعة. وبينما كان يشق طريقه عبر الأحراش، مرت نصف دزينة من شاحنات البيك أب ببطء

على الطريق إلى يمينه؛ كان يقودها مدنيون، وجلس المزيد من المدنيين في الخلف حاملين بنادق. كانوا عمال مزارع محليين، جرانجيروس. رجال ذوو بشرة لوحتها الشمس بشدة، بشوارب وقبعات رعاة البقر، كانوا عمالة يدوية من الحي، ربما عُرض عليهم أجر أسبوع مقابل عمل يوم واحد. هؤلاء العمال غير المهرة لن يشاركوا في الهجوم. لا، هؤلاء الرجال سيقومون فقط بدوريات حول المحيط، وربما يقيمون بضعة حواجز طرق، فقط للتأكد من أنه إذا تمكن أي شخص في المزرعة من الإفلات أثناء الهجوم على المبنى، فسيتم القضاء عليه قبل أن يغادر الوادي.

كان كورت يعلم أنهم ليسوا قتلة أشرارًا. ربما ظنوا أنهم يعملون لصالح الشرطة الفيدرالية وليس لصالح «البدلات السوداء»، رغم أنه لا سبيل للتأكد من ذلك. لم يكونوا مستفيدين من أرباح المخدرات في المكسيك بأي معنى يذكر؛ كانوا مجرد عمال صادفهم القليل من الحظ في العمل. كان لدى «البدلات السوداء» إمكانية الوصول إلى كل العمالة التي قد يريدونها أو يحتاجونها، وعلم كورت أنه يجب أن يتذكر ذلك إذا خرج من هذا الوادي اللعين.

كان كورت يعلم أن هؤلاء ليسوا بالضرورة رجالاً سيئين. لكنهم كانوا يقفون في طريقه، وسيقتلهم دون تردد.

أمامه في المسافة، عند البوابة الأمامية للمزرعة على بعد مائتي ياردة، رأى كورت المصابيح الأمامية لعدة مركبات على طول الطريق. سيارات مصفحة سوداء ضخمة على طراز قوات التدخل السريع (SWAT)، وشاحنات بيك أب، وسيارة سيدان متهالكة، وحتى مركبة قيادة متنقلة ضخمة تابعة للشرطة الفيدرالية بحجم حافلة. قرر الاقتراب أكثر، ربما للاستيلاء على سلاح أو رهينة أو سيارة يمكنه قيادتها مباشرة إلى المنزل الكبير وإنقاذ عائلة غامبوا. تحرك حول مرعى مفتوح، وتوغل في غابة صغيرة منخفضة من أشجار الصنوبر،

واقترب من هدفه. كان هناك عشرات وعشرات من الرجال المسلحين هنا لمنعه من تنفيذ هذه الخطة، لكنه واصل التحرك نحوهم في الليل. سمع نباح الكلاب لكنه أدرك أن رائحة كل الرجال الآخرين، وكل الكلاب الأخرى في هذا الشأن، ستجعلها عديمة الفائدة كأجهزة إنذار مبكر.

على بعد خمسين ياردة، انخفض أكثر. كان قريبًا بما يكفي لرؤية الفيدراليين في زي قوات التدخل السريع؛ وقد انقسموا بالفعل إلى فرق قتالية. أعاد عشرات الرجال فحص أسلحتهم وربطوا مخازن ذخيرة إضافية بأجسادهم. سمع كورت الفرق القتالية تجري فحوصات الاتصال الخاصة بها. عشرات أجهزة الراديو تصدر أصواتًا وتطن وتطقطق عبر المساء البارد.

ثم تفرقت الفرق تمامًا، عشرة أو اثنا عشر رجلاً لكل وحدة، وتكدس البعض في شاحنتين مصفحتين للشرطة الفيدرالية ميزهما جينتري كشاحنات «فورد بات» (BATT)، أو ناقلات تكتيكية مصفحة باليستيًا، ودبت الحياة في المركبات السوداء الضخمة. وصعدت مجموعة أخرى من اثني عشر رجلاً على متن شاحنتي بيك أب. حتى من هذه المسافة، استطاع جينتري أن يرى الشاحنات البيضاء تنخفض بفعل ثقل الرجال ومعداتهم.

انعطفت الشاحنتان يمينًا عند الطريق حول المزرعة واختفتا في المسافة. وانعطفت إحدى مركبات الـ «بات» الكبيرة يسارًا وتوجهت ببطء في اتجاه كورت.

بقيت مركبة الـ «بات» الأخرى عند البوابة الأمامية ومحركها يعمل. شاهد كورت الفيدراليين يصعدون إليها، وأُغلق الباب الجانبي وأُحكم إقفاله. ثم اصطفت وحدة أخرى خلفها في تشكيل. وجلست مركبة القيادة المتنقلة المصفحة التابعة للشرطة الفيدرالية خلف بقية المركبات؛ وكان رجال يأتون ويغادرون عبر باب جانبي.

مرت الشاحنة المتجهة شرقًا على بعد خمسين ياردة من كتفه الأيسر، وكان كل شيء خارج مصابيحها الأمامية الساطعة أسود بالنسبة للسائق، وعلم كورت أنه لن يُرى.

فهم خطة هجوم الفيدراليين الآن، تقريبًا. ثلاث وحدات، كل منها تضم عشرة رجال، ستهاجم المزرعة في وقت واحد من الجنوب والشرق والغرب. وستتجه قوة أكبر، ربما عشرون أو خمسة وعشرون رجلاً، مباشرة عبر الممر الرئيسي.

أما عمال المزرعة ذوو قبعات رعاة البقر وبنادق الخردق فكانوا خارج الأسوار على المحيط، يطوقون الحدث في مجموعات على جميع جوانب المزرعة كقوة حصار غير منظمة.

إذن هذا هو الوضع. ستون ضابط شرطة فيدرالية مكسيكية مدربين تدريبًا عاليًا ومدججين بالسلاح، بالإضافة إلى أربعة وعشرين محليًا مسلحًا يقفون في الخلف للدعم.

ضد امرأة حامل، وامرأة مسنة، ورجل عجوز مصاب، وفتى في السادسة عشرة من عمره، وفتاة تبكي وتتلو المسبحة على أرواح أوغاد خسروا حياتهم البائسة وهم يحاولون كسب قوت يومهم بقتلها.

اللعنة، فكر كورت. أظن أنه حان وقت الخروج في مشهد مجد ملحمي.

كان جينتري على بعد خمس وعشرين ياردة فقط من مؤخرة مركبة الـ «بات» عند البوابة الأمامية عندما تحركت للأمام، ودخلت المزرعة ببطء وثقل. هرول رجال الشرطة المشاة خلفها في رتلين. كان الممر المؤدي إلى المنزل الكبير متعرجًا ووعرًا ومليئًا بالمطبات بطول مائتي ياردة، وتحركت الشاحنة المصفحة الثقيلة ببطء صعودًا نحو التل، واختفت في الغابة؛ كانت مصابيحها الأمامية والخلفية تومض عبر الأشجار وتصنع رقصة مرعبة من الظلال المشوّمة طوال الطريق عائدة إلى البوابة.

اختفت الكلاب صاعدة الممر مع دورية المشاة.

نزل كورت على ركبتيه، وزحف عبر الأحراش والأعشاب وحول نباتات الأغاف البرية بحجم طاولات المطبخ. تحرك أبطأ وأكثر هدوءًا مع كل بوصة من التقدم؛ توقع وجود حراس هنا حول مركبة القيادة، ورغم أنه لم يرَ أحدًا بعد، كان يعلم أن أي صوت يصدره سينتقل عبر سكون الليل.

سرعان ما وجد نفسه عند الطريق بين شاحنتي بيك أب متوقفتين. كان على بعد أقل من خمسين قدمًا من البوابة؛ وكان بإمكانه سماع مجموعة من الرجال يتحدثون فوق طنين وحدة الطاقة المساعدة لمركبة القيادة المصفحة الكبيرة.

نظر أمامه، عبر الطريق، وفي خندق تصريف ضحل على الجانب الآخر، رأى جثة ميتة، عارية حتى الخصر. حتى في ضوء القمر، كان لا يزال بإمكانه رؤية الكدمة السوداء الكبيرة على فك الرجل.

لقد كان الرقيب مارتن أوروزكو؛ اخترقت عشرات رصاصات ساقيه وذراعيه وصدره. وكانت هناك رصاصة رحمة أخيرة في منتصف جبهته.

تمتم كورت:

– "آسف يا صديقي."

وواصل تقدمه على يديه وركبتيه.

ناظرًا حول الشاحنة التي على يساره، نحو البوابة، متجاوزًا مركبة القيادة، رأى خمسة أو ستة مزارعين مكسيكيين يحملون بنادق صيد، وتستند أخمص بنادقهم على أوراكهم.

كان معظم الرجال يقفون عند البوابة مباشرة، وكأنهم يحاولون التقاط لمحة من الحدث على بعد مائتي ياردة عبر الغابة. أظهرت وضعيات أجسادهم ونبرات أصواتهم حماسهم. كانوا متفرجين؛ لم

يعتقد أحد منهم لثانية واحدة أن أيًا منهم سيكون في خطر أو حتى سيُستدعى لإطلاق النار من بنادقهم القديمة.

أدرك كورت أنه يستطيع تشغيل إحدى شاحنات البيك أب هذه في أقل من دقيقة. وبها يمكنه الانطلاق عبر الممر، وتجاوز الشاحنة المصفحة والرجال، وحمل آل غامبوا فيها ثم القيادة عبر المزرعة، والاختراق عند إحدى البوابات الصغيرة على الجدار الغربي، مع الحرص على تجنب القتلة المأجورين الذين سيهاجمون من ذلك الجانب.

سيكون الأمر سهلاً.

باستثناء الألف رصاصة مغلفة بالنحاس التي ستنطلق نحوه ونحو من يحاول حمايتهم بسرعة ثلاثة آلاف قدم في الثانية، كل واحدة منها قادرة على تحويل رأس بشري إلى رذاذ وردي.

خطة شاحنة البيك أب فاشلة من البداية.

إذا كانت لا تزال هناك سيارة مصفحة هنا عند البوابة الأمامية، وإذا كانت تلك السيارة المصفحة مفتوحة والمفاتيح في مكان التشغيل، فحينها سيكون في وضع ممتاز.

لكن مركبات الـ «بات» قد رحلت، ومعها أي فرصة لـ...

خرج ضابط شرطة فيدرالية شاب من الباب الجانبي لمركبة القيادة التي بحجم مقطورة، وأُغلق الباب خلفه. التفت الضابط بعيدًا عن المزارعين، وسار عبر الطريق إلى الشجيرات على الجانب البعيد، وفك حزامه. ارتجف وهو يحاول إجبار نفسه على التبول بسرعة؛ وأمال رقبته ليبعد البندقية المعلقة أمامه عن مجرى البول الوشيك.

نظر جينتري إلى الباب المقفل لمركبة القيادة، وتساءل عما إذا كان الرجل الذي يأخذ استراحة الحمام يحمل مجموعة مفاتيح. تمنى لو لم تكن الشاحنة كبيرة جدًا إلى هذا الحد اللعين. ومع ذلك، كانت مصفحة. كان لديها التصفيح اللازم لإيقاف رصاصة بندقية تمامًا؛

وزجاجها الأمامي السميك سيتحمل عشرات الإصابات المباشرة قبل أن يتحطم.

ستكون قيادة المركبة شبه مستحيلة بالنسبة لكورت، لكنه كان يعلم أنه لا يملك رفاهية الاختيار في هذه اللحظة.

اللعنة.

عبر الطريق الضيق، رفع الضابط بنطاله وأغلق سحابه، ثم مد يده في جيب بنطاله. ميز جينتري بريق سلسلة مفاتيح.

قفز كورت إلى قدميه، وانقض كالكوبرا.

ركض منخفضًا وبسرعة عبر الطريق بينما بدأ الشرطي في الالتفاف عائدًا نحو مركبة القيادة. كانت مجموعة رعاة البقر وعمال المزرعة على بعد خمسة وعشرين قدمًا من كتف جينتري الأيسر ولا يزالون ينظرون أعلى الممر نحو المنزل الكبير.

تحرك جينتري كالظل عبر السطح الصلب، وسحب سكينته في اللحظة الأخيرة، وفي حركة متزامنة غرسها بين الضلوع العائمة للرجل الملتفت على جانبه الأيسر وغطى فم الفيدرالي بيده اليمنى. دفع السكين حتى المقبض وواصل دفع الرجل للأمام داخل الشجيرات؛ أدار كورت النصل كالمفتاح وهو يتبع الرجل إلى داخل الأحراش وسقط معه، وفوقه، على الأرض الصلبة.

استخدم كورت وزنه الميت فوق الرجل لكبح ركلاته وتخبطه. ربما كان هذا الرجل لاعب كرة قدم، فكر جينتري؛ كان لائقًا بدنيًا للغاية، وجسده لم يلتزم بالقواعد. توقع كورت أن يرتخي الرجل في خمس ثوانٍ؛ استغرق الأمر ما يقرب من عشرين ثانية قبل أن تفارق الحياة أطرافه. وجد كورت نفسه منهكًا، وكأنه كان يحاول البقاء فوق حصان جامح بينما يمنعه من إصدار أي صوت طوال المحنة. مد كورت يده للأمام، وسحب المفاتيح من بين الشجيرات. تحسسها للحظة، واستقر

على خيارين محتملين لباب المركبة. أمسك بهما بين أصابعه والتقط البندقية بيده الأخرى.

ثم نهض. وتوجه نحو مركبة القيادة المصفحة.

بعد ثوانٍ كان في الداخل. أغلق الباب خلفه، وانعطف يميناً، بعيدًا عن مقدمة المركبة ونحو المقصورة الخلفية. نادى رجل من الكابينة، موجهًا سؤالاً لشريكه الذي بات الآن ميتًا في الأحراش. سحب كورت سكينه، وبدأ يستدير للتعامل مع السائق الآخر، لكنه توقف حين لاحظ رفًا معدنيًا يمتد بارتفاع الرأس على طول جانب واحد من الكابينة.

كانت هناك جميع أنواع الأسلحة والذخيرة تستقر في الرف أو تتدلى من خطافات فوقه.

اتسعت عينا جينتري، وارتسمت على وجهه ابتسامة قاسية.

– "أوه، يا للجحيم نعم."

استدار، وتوجه إلى الأمام لقتل السائق.



قاد الـ «كوماندانت» (القائد) رجاله صعودًا في الممر نحو واجهة المنزل. كانت المركبة المصفحة التي تتقدمهم تحميهم من أي تهديد بإطلاق النار من النوافذ أو شرفات المنزل الكبير، لكن رجاله انتشروا عرضيًا مع اقترابهم من المبنى وتحركوا الآن ببطء وحذر في الليل. أبطأت الشاحنة وتوقفت وسلطت أضواءها الساطعة على الباب الأمامي.

في الظروف العادية، لم يكن القائد ليقبل بشن هجوم أمامي مباشر نحو مبنى حجري محصن. لكن بعد إرسال مراقبين صباحًا ورؤية العقار من الداخل، أدرك مدى حجب الرؤية عن الممر من المنزل نفسه. فبفضل النمو الكثيف للشجيرات والأشجار على كلا الجانبين، والأقواس عند الباب الأمامي، وحتى الأعشاب الطويلة بين الحجارة

المرصوفة، فإن تقدم خمسة وعشرين رجلاً في رتلين مباشرة عبر الممر عند الظهيرة سيكون أكثر سرية مما لو قفزوا فوق الجدار الخلفي في منتصف الليل.

ومع ذلك، انتظر حتى حلول الظلام ثم ساعة أخرى لأن المدافعين ربما كانوا يتوقعون هجومًا بمجرد أن يغطي الظلام المكان. والآن، في التاسعة مساءً، لم يعد بإمكانه الانتظار أكثر. لقد حان الوقت لضرب هؤلاء الـ «كابرونيس» (الأوغاد) عديمي القيمة في المنزل، وقتل كل كائن يتحرك – كل رجل وامرأة وطفل، ثم الكلاب والقطط والدجاج والماعز.

أراد التحقق مع الفرق الأخرى التي من المفترض أن تكون تقترب الآن من الاتجاهات الأخرى، لكن يبدو أن أحد ضباطه اللعينين قد ضغط زر الإرسال في جهاز اللاسلكي الخاص به، مما منع القائد من إرسال الأوامر أو السماع من أي من رجاله الآخرين. انتظر ثلاثين ثانية ليدرك هذا الأحمق خطأه ويصلح جهازه، لكنه ظل غير قادر على التواصل.

في غضون عشرين ثانية أخرى سيكون مستعدًا للدعوة للهجوم، وإذا لم يصلح هذا الـ «إخو دي بوتا» (ابن العاهرة) جهازه اللعين، فإن القائد سيعلق الـ «بينديخو» (الأحمق) من...

خلفه، لاحت أضواء عبر الغابة. تتحرك صاعدة الممر نحو المنزل.

نظر إلى الرجال من حوله وهو يغوص بسرعة خلف جدار حجري منخفض يحيط بدائرة وقوف السيارات أمام المنزل الكبير. كان عليه الخروج من الممر قبل أن تكشفه المصابيح الأمامية المقتربة.

استدار عائدًا، وحدق في الأضواء، ولم يصدق ما رآه.

كانت مركبة القيادة المتنقلة تقفز بجموح صاعدة الحجارة المرصوفة نحو موقعه.

لقد ترك السائقين في المركبة عند البوابة الأمامية، لكن لم يكن لديهم أي سبب على الإطلاق حتى لتشغيل المحرك، ناهيك عن المشاركة في الهجوم.

رغم أن جهازه اللاسلكي لم يكن يعمل، إلا أنه ضغط الزر وصرخ فيه:

– "كابرونيس! ما الذي تفعلانه بحق الجحيم؟"

على بعد خمسين ياردة، أضاءت مصابيح الفرامل الحمراء للمركبة في الغابة.

توقفت المركبة في الغابة، وبدأت في الالتفاف داخل الحدود الضيقة للممر.

التفت القائد مرة أخرى نحو المنزل. أيًا كان ما يفعله سائقوه، فقد أضاعوا أي فرصة للمفاجأة. نهض وفتح النار على واجهة المنزل ببندقية «M16» الخاصة به؛ كانت هذه الطريقة الوحيدة لبدء الهجوم دون استخدام جهازه اللاسلكي عديم الفائدة.

حذا الرجال على جانبيه حذوه؛ تطاير الشرر من واجهة الحجر عند اصطدام رصاصاتهم واخترقت الباب الخشبي.

سمع القائد صوتًا وسط إطلاق النار، فالتفت نحو الضجيج. وفي ذهول تام، وقف من خلف الجدار المنخفض وأنزل بندقيته إلى خصره.

كانت مركبة القيادة المصفحة الضخمة تتحرك صاعدة الممر الصخري بالخلف (بوضعية الرجوع)، وسرعتها تزداد كل ثانية. قفزت الشاحنة الزرقاء الضخمة واهتزت، وهيكلها يئن تحت وطأة أطنان من الفولاذ الباليستي.

لقد قاد القائد سيارات مصفحة بما يكفي ليعرف أن الرؤية من مرآة الرؤية الخلفية سيئة؛ كان هذا السائق الـ «بينشي» (اللعين) يسرع بشكل أعمى صاعدًا نحو المنزل الكبير بسرعة لا يستطيع السيطرة عليها.

– "ألتو! توقف!" صرخ القائد في جهازه؛ وبدا أن مشكلة الميكروفون قد حُلت، رغم أن كل جانب آخر من هذا الهجوم كان يتحول إلى ميردا (قذارة) أمام عينيه. اندفعت المركبة للخلف نحو الشاحنة المصفحة الأخرى، الـ «بات» التي كانت متوقفة في دائرة وقوف السيارات وتسلط مصابيحها على المنزل الكبير المظلم.

المركبة المصفحة التي كانت تفعل ما يفترض بها فعله بحق الجحيم!

بدت مركبة القيادة وكأنها ستنقلب وهي ترتطم بالأرض بسرعة أربعين ميلاً في الساعة؛ وكادت تصطدم بالمركبة الأخرى بفارق لا يزيد عن قدم، مطيحة بالمرايا الجانبية للسائق في كلتا الشاحنتين.

فجأة، أدرك القائد الواقف عند الجدار ثلاثة أشياء بتتابع سريع: أولاً، إذا كان سائقه يجد صعوبة في رؤية ما وراءه من قبل، فالآن بعد أن تحطمت مرآته وتطايرت في الممر خلفه فلن يتمكن من رؤية أي شيء. ثانيًا، أن سائقه ليس سائقه! وثالثًا – أن مركبة القيادة الفيدرالية المنطلقة بسرعة أربعين ميلاً في الساعة كانت ستتحطم صاعدة الدرج الأمامي للمنزل.

أفلت كورت زر الإرسال وألقى الراديو على أرضية الشاحنة ثم داس بقوة على البنزين. تسارعت المركبة الثقيلة ببطء صاعدة الممر بالخلف، تقفز وترتطم صاعدة التل. كان قد ربط حزام الأمان، وهذا فقط ما سمح له بإبقاء قدمه مثبتة بقوة على الدواسة. الاهتزاز العنيف داخل المركبة الثقيلة من الأعلى جعله يشعر وكأنه دمية خرقة يهزها عملاق. ومع ذلك، لم يرفع قدمه عن البنزين للحظة.

كان يصوب، إن جاز التعبير، تقريبًا نحو الباب الأمامي للمنزل الكبير، لكن عندما فقد مرآته، تخلى عن أي ادعاء بالدقة في تصويبه. بدلاً من ذلك داس الوقود حتى النهاية، وتمسك بعجلة القيادة من أجل

حياته، وضغط رأسه بقوة إلى مسند الرأس، غير متأكد متى سيأتي الاصطدام أو حتى ما إذا كان سينجو منه.

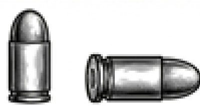
شعر باصطدام عنيف هزه بقوة، وألصقه بمقعده، وتسبب في انزلاق قدمه عن دواسة البنزين، لكنه علم أنه لم يصطدم بالمنزل بعد. وبينما كان قاع المركبة يكشط الحجر، حدد أنها نافورة الملاك في وسط الممر. أخبره هذا أنه يتجه بعيدًا جدًا إلى اليسار ليضرب الأبواب الأمامية بشكل مباشر.

أدار عجلة القيادة قليلاً إلى اليمين، وضغط بقدمه لأسفل على الدواسة مرة أخرى بينما مسحت نيران الأسلحة الآلية اللوح الزجاجي السميك للنافذة الأمامية. مر بسرعة البرق بجوار شاحنة المزرعة المعطلة وجثة إغناسيو غامبوا في المقعد الأمامي.

تحطمت حافلة كورت المصفحة مباشرة صاعدة درجات المنزل الكبير؛ اصطدمت بعنف وحشي بالجانب الغربي من القنطرة وحولت أبواب البلوط التي يبلغ عمرها مائتي عام إلى حطام وشظايا.

توقفت المركبة بعنف. ضرب كورت ناقل الحركة لوضعه في التوقف، وفك حزامه، واستدار إلى الخلف. خلفه، تحول إطلاق النار المتقطع والمتردد الذي طارد الشاحنة صعودًا في الممر الآن إلى وابل كثيف مع إدراك الشرطة الفيدرالية السريع أن هذه لم كانت مركبة طائشة تابعة لهم، بل محاولة هروب للعائلة المحاصرة.

في الخلف سقط جينتري مرتين، متعثرًا من صداع رأسه الدوار وضائعًا للحظة في الظلام، متعثرًا فوق الأسلحة التي سقطت من رفوفها. بعد ثوانٍ استعاد توازنه، ووجد العنصرين اللذين كان يبحث عنهما، وفتح الأبواب الخلفية.



ركع دييغو في غرفة الجلوس خلف الأريكة وأطلق النار على حركة في الفناء الخلفي. كان جده قد صعد إلى الطابق العلوي لإطلاق النار

من الميرادور، لكنه لم يسمع جده يطلق النار من بندقية «M1» منذ أكثر من دقيقة.

مزق وابل من النيران الآلية واجهة المنزل. ركع دييغو خلف الأريكة وكأنها ستمنحه نوعًا من الغطاء؛ رفع رأسه فقط عندما سمع هدير محرك. تحطمت مؤخرة شاحنة زرقاء ضخمة في مدخل المنزل الكبير واستمرت عدة أقدام داخل المبنى. في ذعر وقف دييغو وأطلق النار بمسدسه، ولم تصنع الرصاصات سوى شرارات على الباب الخلفي. طقطق سلاحه مفتوحًا وفارغًا.

تعثر الصبي البالغ من العمر ستة عشر عامًا في إعادة التلقيم، وأسقط مخزنًا على أرضية البلاط، وطارده إلى حافة كرسي مجنح قبل استعادته وتثبيته في مقبض مسدسه. قبل وقت طويل من عودة سلاحه إلى القتال، طارت الأبواب السوداء للمركبة مفتوحة، ورأى دييغو رجلاً جاثمًا هناك في الشاحنة ومعه سلاحان ضخمان في يديه.

– "دييغو! إنه أنا! إنه..."

في خضم الإثارة نسي كورت اسمه المستعار.

– "إنه الـ غرينغو! اجلب الجميع إلى هنا وفي الشاحنة! أنديلي (بسرعة)!"

استغرق الصبي خمس ثوانٍ كاملة ليستوعب، لكن عندما فعل، أومأ برأسه، واستدار على حذائه الرياضي، وركض نحو المطبخ. صرخ وهو يركض:

– "مي أبويلو (جدي) في الطابق العلوي!"

أومأ كورت، لكنه لم يصعد إلى الطابق العلوي؛ بدلاً من ذلك استدار نحو المدخل الأمامي المحطم. كانت هناك مساحة ضيقة بين الشاحنة الضخمة والحجر والجص المحطم، لكن جينتري وجد وضعية إطلاق نار، ورفع يده اليمنى. كان يمسك بها قاذفة قنابل يدوية محمولة من طراز «Hawk MM-1»، محملة باثنتي عشرة قذيفة شديدة

الانفجار. كان السلاح ثقيلاً وضخمًا وعادة ما يستخدم كورت كلتا يديه لإطلاقه، لكن السلاح لم يتطلب كلتا اليدين. ضغط الزناد الثقيل، ومع صوت يشبه انبثاق سدادة ضخمة من زجاجة شامبانيا مهتزة، غادرت القنبلة الأولى الماسورة.

بووم!

على بعد أربعين ياردة، انفجرت نار ودخان وتراب متطاير وفيدراليون في الهواء. أطلق ثلاث مرات أخرى على الجدار المصطف بالمهاجمين قبل خفض السلاح، ورفع جهازًا مطابقًا كان يمسكه بيده اليسرى، وأطلق ثلاثة صواريخ محملة بعامل «CS»، وهو غاز مسيل للدموع قوي لتفريق الحشود. وبينما كانت العبوة الأخيرة لا تزال في الهواء، استدار في الاتجاه الآخر، وأطلق طلقات من كلا السلاحين واحدة تلو الأخرى؛ تقوست القذائف عبر المنزل، وعبر الأبواب الزجاجية المنزلقة المحطمة إلى الفناء، وفوق المسبح، وانفجرت في الحديقة خلف المنزل الكبير.

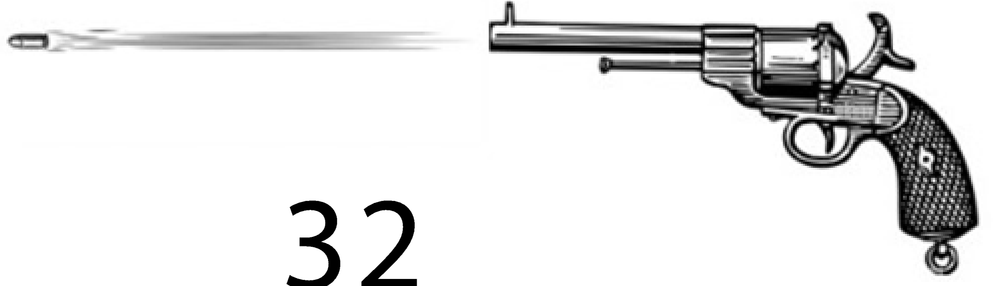
عاش كورت على الحظ، لكنه لم يتوقع حقًا إصابة قاتل واحد يهاجم الجزء الخلفي من المنزل. لا، أراد فقط أن يظهر لهم أن القواعد قد تغيرت؛ هجومهم الجبان على نساء وطفل ورجل عجوز سيعرضهم الآن لقذائف شديدة الانفجار تُحشر في حلوقهم اللعينة.

أطلق قذيفة غاز واحدة في الردهة الممتدة من الغرفة الرئيسية إلى الغرب، آملين بشدة أن يخرج الجميع من هنا قبل أن يتدفق الغاز عائدًا إلى الداخل ويجعل غرفة المعيشة هذه لا تطاق.

أسقط قاذفة الغاز وهو يركض صاعدًا الدرج؛ كانت أثقل من أن يحملها مع قاذفة المتفجرات. انعطف يمينًا، وصرخ مناديًا إرنستو، متمنيًا بشدة لو أنه أمسك ببندقية أو مسدس أو أي شيء آخر غير سلاح لا يمكنه استخدامه في المدى القصير للردهة.

انعطف نحو الميرادور الخلفي، ورأى الرجل العجوز هناك، ممددًا على ظهره في بركة من الدماء.





32

ارتعش جفنا إرنستو، واستلّ نفساً ضحلاً متهدجاً، ثم رفع بصره نحو الأمريكي الواقف فوقه في تلك الشرفة المظلمة.

انحنى جينتري فوق حافة المرصد وأطلق قذيفتين شديدتي الانفجار نحو حركة رصدها تحت ضوء القمر بجوار الحظيرة البعيدة؛ فتطايرت شظايا الخشب والحجارة وألسنة اللهب بارتفاع عشرين قدماً في الهواء.

جثا كورت ثانية بجانب إرنستو وسأله:

– "هل تستطيع المـ..."

لكنه رأى الحقيقة الآن؛ كانت ساق العجوز اليسرى مضرجة بالدماء، ملتوية إلى الجانب بشكل فظيع، لا يمسكها سوى نتف من اللحم ونسيج جينزه الممزق. غطت الدماء بلاط المرصد في العتمة؛ فقد أصيب والد إيدي إصابة مباشرة في عظمة الفخذ برصاصة من بندقية عالية القوة.

نظر كورت إلى وجه الرجل، فكانت عيناه قد شخصتا إلى الأعلى، وخرج الزفير الأخير من رئتيه.

بسرعة، انحنى جينتري فوقه وهمس في أذنه:

– "سأعتني بهم. سآخذهم إلى مكان آمن. جميعهم."

ثم انتصب واقفاً واندفع عائداً إلى داخل المنزل، بينما كانت جدران الجص تتحول إلى غبار من حوله تحت وطأة الرصاص.

سعل أفراد العائلة واختنقوا من غاز "CS" (الغاز المسيل للدموع) بينما كان جينتري يسوقهم نحو مؤخرة الشاحنة. استعاد قاذف "هوك" الذي يحوي قنابل الغاز، وأفرغ ما تبقى من قذائف في الممر والأشجار المحيطة، وهو يصلي من أعماقه أن يكون تصويبه في الاتجاه العام للأعداء. وعندما نقر الزناد على أسطوانة فارغة، ترك السلاح يسقط على بلاط المدخل، وتسلّق إلى داخل مركبة القيادة المتنقلة خلف العائلة. كانت لوز أمامه مباشرة، وكانت تنظر متجاوزة كتفه نحو المنزل المظلم الذي غطاه الدخان.

– "إرنستو؟ إرنستو؟"

لم يكن في صوتها أي ذعر، رغم كل ما كان يحدث حولها. اكتفى كورت بدفعها إلى داخل الحافلة، وألقى قاذف القنابل شديدة الانفجار على المقعد المبطن بجوار إيلينا، ثم أغلق الباب خلفه وأوصده.

– "أنا آسف، عليّ أن..."

لفظ كورت كلمة "أقود" في اللحظة التي قُذف فيها جسده بقوة نحو الباب. سقطت لوز بين ذراعيه حين أدرك أن المركبة بدأت تنطلق للأمام، وإطاراتها الخلفية تقفز فوق درجات "البيت الكبير"، وأن من يجلس خلف المقود يضغط على دواسة البنزين بكل ما أوتي من قوة.

زحف للأمام عبر الممر الوسطي، بينما كان اهتزاز الشاحنة وارتطام هيكلها يتقاذفانه يمنة ويسرة؛ ورشق الرصاص جدران التصفيح من الجانبين، محدثاً طنيناً متواصلاً كوقع وابل من المطر في قعر الجحيم.

في المقصورة الأمامية، وجد لورا خلف عجلة القيادة؛ كانت تنحني برأسها للأسفل، تحاول يائسة استيضاح الطريق عبر زجاج أمامي – رغم تماسكه – قد غدا أبيض بالكامل من أثر رصاصات كسته بالشقوق من طرف إلى آخر.

صرخت:

- "لا أرى شيئاً!"

مد كورت يده فوق جسدها وأحكم ربط حزام الأمان حولها، وهو يصرخ في أذنها:

- "لا تقلقي! قودي فحسب! أي مكان أفضل من هنا!"

اصطدموا بجانب إحدى السيارات المدرعة، ثم انحرفوا تماماً عن الممر ليخوضوا في مرعى، وعندها أدارت لورا المقود بقوة لتصحيح خطئها لدرجة أن الشاحنة ارتفعت على عجلتين للحظة قبل أن ترتطم بالأرض وتعود لتقفز فوق الممر الصخري.

في مؤخرة الشاحنة الطويلة، كانت معدات الشرطة تتطاير وتصطدم ببعضها البعض، مرتطمة بـ إيلينا ولوز ودييغو.

اصطدمت لورا بشجرة صغيرة، مما دفع المركبة بقوة نحو اليسار وقذف بـ جينتري نحو لوحة القيادة.

صرخ كورت وهو يزحف نحو مقعد الراكب الأمامي:

- "قيادتكِ أسوأ من قيادتي!"

فتح الباب المصفح الثقيل وانحنى بجسده للخارج؛ إذ كان عليهم معرفة اتجاههم بأي ثمن، حتى لو اضطر لتعريض نفسه لنيران العدو.

صرخ بالإنجليزية:

- "يميناً! إلى اليمين!"

فأدارت لورا المقود نحو اليسار.

صرخ ثانية:

- "إلى اليمين! جهة اليمين (Derecha)!"

صححت خطأها، ولم تبالغ في الانحراف هذه المرة.

- "آسفة! أنا آسفة!"

أخذ كورت يوجهها وهو يسمع أزيز الرصاص يمر بجانبه. ارتطم الرصاص بالباب الخلفي واللوح الجانبي؛ فسحب جينتري جسده

للداخل للحظة ثم أخرج رأسه بسرعة خاطفة ليساعد لورا في شق طريقها عبر الغابة في ذاك الممر الطويل والمتعرج.

دخلوا وسط الأشجار بعد عشرين ثانية، فأصبحوا في مأمن من قتلة "البيت الكبير"، لكن كورت كان يعلم يقيناً أنهم لم يخرجوا من "عنق الزجاجة" بعد. فالرجال في الأعلى يملكون أجهزة لاسلكي، وهذا يعني أن الشاحنات والمركبة المدرعة المتوقفة قرب البوابة الأمامية ستبدأ الآن في التحرك لسد المخرج.

أدخل كورت رأسه ثانية إلى المركبة. كانت لورا قد عثرت على زاوية صغيرة في الزجاج الأمامي لم تتحول إلى بياض الدخان من أثر الرصاص؛ فانحنت نحوها، مشدودة بحزام الأمان، تحاول يائسة الرؤية من ذلك الثقب الصغير.

صرخ كورت نحو الخلف:

– "دييغو، أعطني قاذف القنابل!"

نادى دييغو من خلفية المركبة المظلمة:

– "ماذا؟"

صرخت لورا بالترجمة، وفي غضون ثوانٍ ظهر الشاب دييغو حاملاً الجهاز الأسطواني الرمادي الضخم. اختطفه كورت منه وتمركز بجسده كله خارج المركبة الآن، قدماه على عتبة صغيرة أسفل باب الراكب، يده اليمنى تمسك بالباب المفتوح، ويسراه تقبض على قاذف "MM-1" وتسنده فوق الباب الأمامي. ومع اهتزاز الشاحنة وترنحها فوق الممر الوعر، وجد جينتري أن التصويب يكاد يكون مستحيلاً.

اقتربوا من البوابة الأمامية الآن؛ ركزت لورا بصرها عليها، لكن كورت صرخ بها من خارجه:

– "سأصنع لنا مخرجاً آخر."

– "ماذا؟"

كان كورت يعلم أن قصف السيارات بقنابل شديدة الانفجار سيعطلها بلا شك، لكن الواقع ليس كأفلام هوليوود؛ فالمركبات لن تنفجر لتطير في عنان السماء ثم تهبط بعيداً عن طريقه بكل بساطة.

لا، سأحاول فتح ثغرة في ذلك الجدار القديم تكون واسعة بما يكفي لمرورنا.

كان للقاذف "MM-1" مدى تصويب فعال يصل إلى مئة وخمسين متراً في الظروف المثالية. أما الظروف التي وجد جينتري نفسه فيها، فكانت أبعد ما تكون عن المثالية، لكن لم يكن أمامه خيار سوى المحاولة.

وكما توقع، اعترضت مدرعة الشرطة الفيدرالية "بات" البوابة المفتوحة، وكانت مصابيحها الأمامية تحدق فيه وكأنها عيون مستهزئة، تتحداه أن يستمر في التقدم.

صوّب جينتري قاذفه على بُعد عشر ياردات إلى الشرق من البوابة.

دوى صوت الإطلاق، ثم...

انفجار!

أخطأت طلقة كورت الأولى وانفجرت على بُعد ياردات قليلة قبل جدار الجص.

صرخت لورا:

- "لقد أخطأت الهدف!"

وتساءل كورت كيف استطاعت فجأة رؤية كل هذا عبر الزجاج.

أطلق النار ثانية، وأصاب جدار الهاسيندا بدقة متناهية. تطايرت النيران والحجارة والغبار الأبيض في العتمة. أطلق جينتري قذيفة أخرى، وأصاب الهدف مجدداً، لكنها كانت بعيدة عن أثر الانفجار السابق. رأى الآن فجوات سوداء في الجدار، بينها "عمود" حجري

بعرض خمسة أقدام. صوّب بأقصى ما يمكنه من دقة نحو تلك القطعة المتبقية، وضغط على الزناد.

لكن سلاحه كان قد فرغ.

اللعنة. تسلق كورت عائداً للداخل، وألقى القاذف على الأرض في الخلف بين آل غامبوا، وأحكم ربط حزامه بسرعة.

صرخ:

– "اقتحميه!"

صرخت لورا بسؤالها، والذهول يغلف صوتها:

– "أقتحمه؟"

– "في المنتصف تماماً! وبأقصى سرعة!" ثم التفت نحو الخلف وصرخ في بقية العشيرة الصغيرة: "تمسكوا بأي شيء!"

بدأ إطلاق النار أولاً؛ فقد تقدم بعض المزارعين عند البوابة الأمامية أمام السيارات المدرعة، وداعب رصاص بنادقهم جدران ونوافذ الشاحنة الضخمة التي كانت تقترب منهم كالمارد.

اقتحمت لورا ماريا غامبوا كوراليس الجدار الذي يعود عمره لمئتي عام بتلك المركبة ذات الستة أطنان، فسحقته محولة إياه إلى حجارة وغبار وكروم "مونيدا" متطايرة. كان الارتطام داخل الشاحنة زلزالياً؛ إذ انهار الزجاج الأمامي المتضرر تماماً، وتحطم وتناثر بعيداً، وانزلق فوق غطاء المحرك القصير. ذُهل الركاب من شدة الصدمة، لكن رؤية لورا التي اتسعت الآن للطريق أمامها ساعدتها كثيراً في القيادة؛ فأدارت المقود لليسار، واصطدمت ببعض الشجيرات المنخفضة، وصدمت اللوحة الخلفية اليسرى لشاحنة "داتسون" قديمة.

أدى الارتطام إلى دوران الشاحنة الصغيرة وسط الطريق كأنها لعبة، مما أجبر المسلحين على الارتماء طلباً للنجاة، وتطايرت قبعات القش في الهواء كأوراق شجر تعبث بها الرياح.

فك كورت جينتري حزام أمانه، وجثا على ركبتيه، وزحف نحو مؤخرة الحافلة. التقط قاذف "MM-1" وهرع نحو صندوق قنابل مثبت على الجدار بجانب الباب الخلفي. انهمك في العمل هناك للحظة؛ بينما اكتفى دييغو ولوز وإيلينا بمراقبته تحت الضوء الأحمر الخافت.

بعد عشر ثوانٍ أخرى، صرخ كورت:

– "لورا، أوقفي الشاحنة!"

– "هل جننت!"

– "افعلي ما أقول!"

أبطأت الشاحنة سرعتها، وفتح كورت الباب الخلفي. كاد يسقط للخارج؛ فقد كانت ساقاه واهنتين من أثر ارتطام التصادم. وفي العتمة، على بُعد مئة وثلاثين ياردة في الخلف، كان العشرات من قتلة الشرطة الفيدرالية الذين تُركوا في "البيت الكبير" يشقون طريقهم الآن في الممر نحو السيارات المتوقفة هناك. حمل جينتري قاذف القنابل، وصوّب عبر منظاره الحديدي، وأطلق خمس قنابل مسيلة للدموع نحو السيارات والشاحنات.

وعندما انتهى، وقبل أن ترتطم آخر قنبلة عند البوابة، ألقى القاذف في الطريق وتسلّق عائداً إلى الشاحنة. صاح نحو لورا في المقدمة:

– "لننطلق! (¡Vamanos!)"

عشّقت لورا ناقل الحركة في تلك الدبابة الضخمة. اهتزت الشاحنة وكأنها تئن تحت وطأة ما عانته؛ فقد أخضعوا مركبة القيادة لقدر من الإهلاك يفوق بكثير ما يمكن أن تتحمله أي مركبة، لكنها أبقتهم على قيد الحياة.

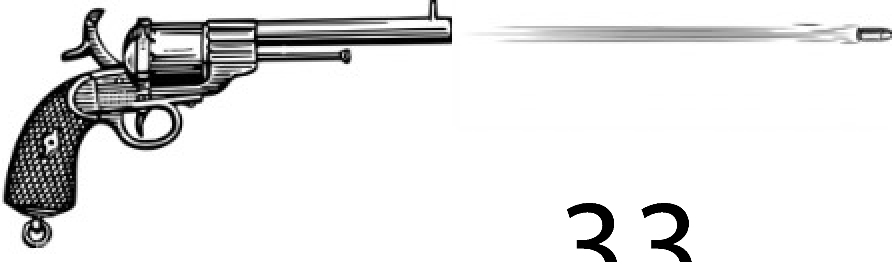
عندما وصل جينتري إلى المقعد الأمامي، سألته لورا:

– "إلى أين نحن ذاهبون؟"

ارتمى في مقعد الراكب وأحكم ربط حزام الأمان حول خصره، وأجابها بصراحة:

– "لا أدري، اللعنة!"





33

إذا كان كورت قد كره ترك شاحنة إيدي المذهلة خلفه، فإن التخلص من الشاحنة المصفحة، رغم تضررها، كاد يقضي عليه. كانت متهالكة ويتصاعد منها الدخان، وإطارات «ران فلات» (التي يمكن السير عليها وهي مثقوبة) تتمزق مع كل ميل إضافي، والزجاج الأمامي قد طار بالكامل، لكن مركبة القيادة المتنقلة الضخمة ما زالت تبدو متينة وآمنة. ومع ذلك، لم يكن هناك سبيل لقيادتها لفترة طويلة دون لفت الأنظار، وكانت إعادة تزويدها بالوقود مستحيلة دون جذب حشد من الزبائن لإلقاء نظرة عن كثب على مركبة القيادة الفيدرالية المليئة بآثار الرصاص.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف عندما توقفوا خلف ساحة لقطع غيار السيارات في بلدة «لا فينتا ديل أستيليرو»، وهي ضاحية تقع غرب غوادالاخارا مباشرة. ابتعدوا عن الطرق الرئيسية قدر الإمكان، وتجنبوا عمليًا كل زحام المرور المتأخر لليلة الثلاثاء. وبلا زجاج أمامي، كان الهواء البارد في الشاحنة لا يُحتمل تقريبًا، خاصة بالنسبة لـ لورا خلف عجلة القيادة. كانت ذراعاها الضئيلتان مكسوتين بجلد الوزة (قشعريرة) الذي بدا واضحًا حتى في الضوء الخافت، وبحلول الوقت الذي وجدوا فيه الساحة، كانت ترتعد.

ترتعد وتبكي. كان موت والدها مجرد عقاب شنيع آخر لقلبها.

شعر كورت بالأسى الشديد لأجلها، وأراد أن يمد يده ويلمسها، أن يمسك يدها وهي تقود، ليخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام.

لكنه لم يفعل.

لم يفعل لأنه لم يعرف كيف يواسي الفتاة الحزينة الجميلة.

ولم يفعل لأنه لم يؤمن حقًا بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

وقف أفراد العائلة الأربعة على جانب الطريق وانتظروا بينما تسلق جينتري سياجًا وهبط داخل ساحة الخردة. دلكت لوز غامبوا ذراعي ابنتها لتدفئتها، وانتقلت إيلينا من قدم متورمة إلى أخرى، ممسكة ببطنها المنتفخ لتخفيف الضغط عن ظهرها. وقف دييغو يراقب ويداه على خصره. بدأت الكلاب تنبح خلف السياج بينما كانت العائلة تصلي معًا.

بعد عشر دقائق دار محرك، وانزلق باب من الصفيح المعدني مفتوحًا مع دفعات وأصوات تأوه. ظهرت حافلة «فولكس فاجن» قديمة بلون حساء البازلاء الأخضر، ومصابيحها مطفأة؛ انسحبت إلى الشارع، ثم قفز كورت للخارج، وأغلق دييغو البوابة خلفها.

هرول كورت عائدًا إلى السيارة المصفحة للحظة، وعاد ومعه زوج من مسدسات عيار 9 ملم ومخزن إضافي لكل منهما. مرر سلاحًا واحدًا إلى لورا ودس الآخر في حزام بنطاله.

نظر إلى دييغو:

– "قد لا تبدو بحال جيدة، لكن المحرك دار فورًا. وضعت عليها بعض اللوحات، لذا لا ينبغي أن تواجه أي مشاكل مع شرطة الطريق السريع. اتجه شمالاً، واصل السير طوال الطريق حتى الحدود. ناموا بالتناوب. واحد ينام، واثنان مستيقظان. عندما تصلون إلى تيخوانا، اذهبوا إلى فندق وانتظرونا. بعد يومين من اليوم، اذهبوا إلى المعبر الحدودي في الساعة العاشرة صباحًا. انتظروا ثلاثين دقيقة. إذا لم نكن

هناك، غادروا وعودوا في الساعة الثالثة مساءً. إذا لم نكن هناك، كرروا الأمر في اليوم التالي. لن نتمكن من التواصل. لا هواتف، لا اتصال. إذا قُبض علينا، أريد أن يبدو الأمر وكأننا لا نعرف مكانكم أو كيفية الاتصال بكم."

أومأ الصبي الصغير برأسه. استطاع كورت أن يرى أن دييغو قد أدرك أنه الآن رجل العائلة، وقد تحمل المسؤولية بطريقة قدرها جينتري. الصدمة والحزن سيأتيان لاحقًا، كما علم كورت، ولكن هذا فقط إذا نجوا حتى ذلك الوقت.

– "سنتصل أنا ولورا بـ رمسيس. على افتراض أنه لا يزال حيًا وأنه تواصل مع الأمريكي في السفارة، سنذهب إلى مكسيكو سيتي لاستلام المال والأوراق."

سألت إيلينا:

– "وإذا لم تظهروا في تيخوانا خلال يومين أو ثلاثة؟"

– "سيتعين عليكم محاولة عبور الحدود بمفردكم."

نظر الجميع إليه بصمت. هز كتفيه:

– "هذا كل ما لدي. لم أقل إنها خطة جيدة."

مسحت إيلينا الدموع من عينيها، وتقدمت، وعانقته بقوة؛ شعر بالطفل، طفل صديقه القديم، يركل ضده. اتسعت عيناه.

همست إيلينا في أذنه:

– "لقد فعلت الكثير من أجلنا يا خوسيه. كان إدواردو ليفخر بمعرفة أن لديه صديقًا مثلك."

عانقته لوز أيضًا، وتمتمت بصلاة ما. لم يستطع فهمها، وبينما كانت تتحدث إليه، لم يستطع النظر في عينيها. المأساة التي حلت بهذه المرأة العجوز في الأسبوعين الماضيين كانت تفوق الخيال، حتى لرجل له تاريخ مثل كورت جينتري.

عانق الجميع لورا؛ وبالطبع كانت هناك دموع، وغني عن القول، كانت هناك صلاة أخرى. ثم اقتربت العائلة من بعضها البعض. راقبهم كورت من مسافة عشرة أقدام.

تمتم تحت أنفاسه وهم يتعانقون ويواسون بعضهم:

– "رائع. عناق جماعي لعين آخر."

في النهاية، انطلقت حافلة الفولكس فاجن بقرقعة. تمنى كورت بشدة أن تكمل الرحلة، لكن في هذه المرحلة، كان الوقت قد حان ليبدأ القلق بشأن عمليته الخاصة.

بحلول الواحدة والنصف صباحًا كانوا على الطريق إلى مكسيكو سيتي. كان كورت قد سرق دراجة نارية من سقيفة في منطقة سكنية على بعد بضع بنايات من ساحة الخردة. أرادت لورا ترك رسالة مجهولة تعرب فيها عن أسفها الشديد وتعد بإرسال المال إلى هذا العنوان بمجرد أن تتمكن من ذلك، لكن كورت لم يسمح بذلك. بدلاً من ذلك، حفظت صورة المنزل الصغير في ذهنها وأخبرت جينتري أنها ستجد طريقة لتعويض سكانه.

كانوا على بعد 325 ميلاً من مكسيكو سيتي. سيستغرق الأمر ست ساعات على الأقل من القيادة الشاقة، لكن مع قليل من الحظ قد يصلون بحلول موعد فتح بنكها في العاشرة. بمجرد ابتعادهم بضعة أميال عن ضواحي غوادالاخارا، توقف كورت في الظلام واتصل برمسيس باستخدام الهاتف الذي تركه لهم. كانت لورا قد لفت نفسها ببطانية قذرة عثرت عليها لوز في مؤخرة الفولكس فاجن، وغطت في النوم على العشب بينما أجرى كورت المكالمة.

أجاب رمسيس سينفويغوس من الرنة الأولى. شعر جينتري بالارتياح لسماع أن ضابط «GOPES» قد تمكن من الهرب من المزرعة، لكن رمسيس سأل فورًا عن مارتن ومحرك الدراجة النارية

الذي سمعه وهو يقفز فوق الجدار. أكد كورت بأسف أن أوروزكو ضحى بحياته ليتمكن صديقه من الهرب.

تقبل رمسيس الخبر بجلد، ثم قال إنه اتصل برجل السفارة الأمريكية، وأخبره عن شخص يحتاج إلى عدة مجموعات من الوثائق على وجه السرعة. وافق المسؤول القنصلي الأمريكي على لقاء في الساعة الثانية مساءً في مكسيكو سيتي، وأعطى رمسيس الموقع لجينتري.

قاد كورت ولورا لمدة ساعتين أخريين ثم توقفا للتزود بالوقود. عندما خرج كورت من دورة المياه، بدأ يترنح قليلاً في طريقه عائدًا إلى الدراجة. لاحظت لورا ذلك وعرضت القيادة لبعض الوقت. لم تسمح رجولة كورت له بالركوب خلف امرأة طولها خمسة أقدام على دراجة نارية، خاصة وهي تقود. أدرك مدى سخافة هذا، لكنه أدرك أيضًا أن لورا ربما لم تنم كثيرًا مثله في اليومين الماضيين، لذا ركبا لبضعة أميال على الطريق السريع ثم خرجا، ووجدا غابة كثيفة من الشجيرات بمحاذاة طريق ترابي عبر مرعى متموج، وأخفى كورت الدراجة.

قال كورت وهو يضبط ساعته:

– "تسعون دقيقة نوم. لا أكثر."

استلقيا بجانب بعضهما في العشب البارد. وفورًا، غطت شقيقة إيدي الصغيرة جينتري بجزء من بطانيتها، وضمته إليها طلبًا للدفء.

قالت وهي تضع رأسها في تجويف كتفه وتريح ذراعها العارية النحيلة عبر صدره:

– "أنا آسفة. أشعر ببرد شديد."

لم يقل كورت شيئًا.

سألت لورا:

– "هل أنت بخير؟"

– "نعم."

حدق كورت في السماء المرصعة بالنجوم وحاول السيطرة على دقات قلبه المتسارعة.

رغم إنهاكه الشديد، استغرق الأمر خمسًا وأربعين دقيقة ليغفو.

تعتبر المنطقة الفيدرالية لمكسيكو سيتي، المعروفة ببساطة لدى المكسيكيين باسم «دي إف» (el de-efe)، واحدة من أكبر المدن في العالم. تشير التقديرات إلى أن ما بين خمسة عشر وعشرين مليون نسمة يعيشون ضمن حدودها العامة، والكثير منهم يعيشون في فقر مدقع بضواحي أشبه بالعشوائيات.

وصلت لورا وكورت إلى ضواحي مكسيكو سيتي في العاشرة صباحًا، لكن مع الامتداد المترامي للمدينة الكبرى، كان أمامهما ساعة أو أكثر من القيادة للوصول إلى وجهتهما الأولى. كان الوقت قد تجاوز الحادية عشرة بقليل عندما دخلا وسط المدينة. نظفا نفسيهما في حمام مطعم وجبات سريعة، ثم أنزل كورت لورا أمام بنكها في شارع باسيو دي لا ريفورما المحفوف بالأشجار. كره تركها تغيب عن ناظريه، لكنهما اتفقا على أن دخول كورت معها قد يثير الشكوك. افترض أن صوره غير الواضحة على التلفاز كانت حديثة بما يكفي لجذب الانتباه إلى لورا غامبوا، شقيقة قائد الفريق الذي أُبيد أثناء محاولته قتل أحد أكبر وأشرس زعماء الكارتل في البلاد. لذا ستدخل وحدها، وتنتظر أموالها وحدها، ثم تجلس في الحديقة بالخارج بانتظار عودة كورت من مهامه الخاصة.

أعطاها هاتف رمسيس لحالات الطوارئ، لكنهما لم يملكا ما يكفي من المال ليشتري كورت هاتفًا لنفسه. لم يكن لديه أدنى فكرة بمن ستتصل إذا واجهت مشكلة، لكنه بدا التصرف الصحيح. كان لديها مسدس «بيريتا» في حقيبتها، وكانت تعرف كيف تستخدمه، وهذا ما طمأنه. راقبها كورت وهي تختفي خلف الأبواب الزجاجية العاكسة؛ نظر إلى ساعته ثم استدار مبتعدًا على مضض.

كان لدى جينتري قائمة مهام طويلة لينجزها بينما تسحب لورا أموالها. احتاج لاستكشاف موقع لقاء الظهيرة مع رجل السفارة، واستخدام آخر ما تبقى معه من مال لتزويد الدراجة بالوقود مرة أخرى، ثم العثور على مكان لائق لحجز غرفة فندقية. سيحتاج لورا وأموالها لحجز الغرفة، لكن كورت أراد التجول في الشوارع للحصول على انطباع عن مكان آمن.

أجرى استطلاعه ومسحه الأمني، وزود الدراجة بالوقود، وعاد إلى البنك بعد تسعين دقيقة من مغادرته. كانت لورا في الحديقة على طول الممشى، جالسة على مقعد حديقة وتشرب القهوة. كانت قد اشترت كوبًا لكورت، فاقترب منها وجلس ومد يده ليأخذه.

سحبت الكوب بسرعة، ونظرت إليه وكأنه رجل مجنون، ثم استرخت عيناها.

– "كيف تظهر فجأة من العدم هكذا؟ أنت مثل الشبح."

تجاهل كورت التعليق، ولم يكن ليخبرها أن عقودًا من التدريب والخبرة الميدانية جعلت من القدوم والذهاب بتكتم تصرفًا لا شعوريًا.

– "هل واجهتِ أي مشاكل في البنك؟"

– "لا شيء على الإطلاق. كانوا مندهشين قليلاً لأنني سحبت كل المال، لكنهم لم يطرحوا أي أسئلة. كانوا لطفاء جدًا."

– "أين المال؟"

أخرجت لورا حقيبة ظهر قماشية صغيرة من كيس تسوق وسلمتها له.

– "ها هو. إنه معك الآن. أنا أثق بك."

علق كورت الحقيبة على كتفه، وابتسم وهو يقودها عبر الشارع إلى الموقف حيث ركن الدراجة النارية.

– "لو كانت نيتي سرقتك، لكانت الأيام الثلاثة الماضية طريقة بائسة للقيام بذلك."

ضحكت قليلاً دون أن تبتسم حقاً.

كانت السفارة الأمريكية على بعد خمس دقائق فقط سيرًا على الأقدام في شارع باسيو دي لا ريفورما. في الأمام، أقيمت حواجز حديدية ضخمة وحواجز أسمنتية في الممشى الممتد بطول الشارع. وفي كل مكان عُلقت لافتات كتب عليها «ممنوع التصوير» بالإنجليزية والإسبانية على السياج. جلس رجال شرطة المنطقة في دورياتهم أو ساروا جيئة وذهابًا على الرصيف؛ وكانت رشاشات «عوزي» (Uzi) عيار 9 ملم القديمة والقوية ذات الأخمص المطوي تتدلى من أحزمة جلدية على أكتافهم.

لم يبدُ أن دولة المكسيك ترحب كثيرًا بالسفارة الأمريكية، ولا بدا المبنى مكانًا جذابًا لزيارة المواطن المكسيكي.

لكن هكذا هو حال العالم.

اشترى كورت ولورا هاتفين محمولين جديدين وتناولا الغداء في مطعم مظلم قبل لقائهم؛ جلسا في الجزء الخلفي من غرفة الطعام الصغيرة وظهورهما للجدار. كان كلاهما متعبًا جدًا لدرجة تمنعهما من الحديث كثيرًا؛ شربا قهوة مع الكثير من السكر ونقرا في طبق لحم الخنزير المشوي والأرز والفاصوليا، بانتظار الساعة الثانية بعد الظهر.





34

كان اللقاء في مركز تجاري لا يبعد سوى دقائق قليلة سيراً على الأقدام من السفارة. ترك كورت مرافقته لورا في ردهة الطعام بالطابق الثاني، ثم نزل إلى دورات المياه المجاورة لمقهى "ستاربكس". كان يعرف الطريق جيداً، فقد استطلع المكان قبل ساعتين فحسب.

دخل كورت دورة المياه متأخراً خمس دقائق، ليجد جهة الاتصال في انتظاره؛ كان رمسيس قد أخبره أن اسمه جيري فليجر. كان فليجر ينحني فوق المغسلة ويحدق في المرآة، وتولد لدى جينتري انطباع بأن الرجل كان مشغولاً بالعبث ببثرة في أنفه.

بدا شاباً في أوائل الثلاثينيات، طويلاً ونحيفاً، بشعر بني فاتح قصير ومجعد، ووجه ضيق يوحي بأنه نادراً ما يرى ضوء الشمس الطبيعي. كان يرتدي سروالاً قماشياً أسود بلا حزام، وقميصاً أبيض قصير الأكمام بياقة رسمية، وربطة عنق رفيعة تبدو مصنوعة من البوليستر أكثر من القطن.

سأل الشاب:

– "روميو؟"

تنهد جينتري مجيباً:

– "جولييت."

كانت كلمة السر من فكرة فليجر، ورآها كورت فكرة حمقاء. مد موظف السفارة يده، فصافحه كورت؛ وشعر وكأنه يصافح قطعة باردة من شرائح السمك النيء.

قال الشاب الأمريكي وعيناه جاحظتان:

– "حسناً، فلنبدأ بالأهم. يجب أن أخبرك أن هذا الأمر غريب."

– "ما الغريب في الأمر؟"

– "أعني.. أنا أقوم بهذا الهراء طوال الوقت، أرتب الأوراق لمن لا يريدون الانتظار في الطوابير، لا مشكلة في ذلك. لكن (صاحبنا) الذي اتصل بي أخبرني أنني سأقابل (غرينغو).. وهذا هو الغريب."

– "أحتاج إلى أوراق لعائلة يجب أن تصل إلى الولايات المتحدة فوراً."

– "وكيف أعرف أن هذا ليس فخاً أو شيئاً من هذا القبيل؟"

– "هل أبدو لك كمن يعمل في السفارة؟"

كان شعر كورت الطويل متسخاً ومتلبداً، ولحيته لم تُهذب منذ خمسة أشهر.

هز فليجر رأسه قائلاً:

– "هذا كل ما لديك؟ لا شيء آخر يطمئنني؟ هيا يا صاحبي."

– "انظر يا جيري، أنا أعرف الرجل الذي اتصل بك لترتيب هذا اللقاء، وأعرف العائلة التي تريد الأوراق. أنا مجرد حلقة وصل هنا، فلا تتوتر. إذا استطعت توفير ما نحتاجه بسرعة، فستكون هذه أسهل صفقة تجريها في حياتك."

أومأ فليجر ببطء، ثم كرر الإيماءة بسرعة أكبر. لاحظ كورت في حركات الشاب النزقة والمضطربة أثراً لنوع من المواد المخدرة.

من الواضح أن جيري يتعاطى شيئاً ما.

تأوه كورت في سره. يا للروعة، هذا الوغد يتعاطى الكوكايين.

تابع فليجر حديثه بلسان سريع وحركات يدوية مضطربة:

– "أعني.. في العادة، أتعامل مباشرة مع المكسيكيين الراغبين في الهجرة." هز جيري كتفيه وأردف: "لا أقوم بذلك عادة تحت أنظار مواطن أمريكي مثلي." رفع أصابعه في الهواء ملوحاً بعلامة النصر بكلتا يديه، مقلداً ريتشارد نكسون بأسلوب ركيك: "مواطني الأمريكي العزيز.. ها ها، (ديك المحتال)، أليس كذلك؟"

– "بالضبط.." تبأ له. "إذن.. بالأوراق التي ستوفرها، هل يمكنهم عبور الحدود مباشرة؟"

أومأ برأسه:

– "كل ما يحتاجونه للعبور من (تخوانا) أو (مكسيكالي) وتجنب (طرق الفقراء)."

– "وما هي طرق الفقراء؟"

أجاب بحركة جافلة من ذراعه:

– "أنت تعرف.. الصحراء، نهر (ريو غراندي)، تسلق السياج بالزانة، أو الزحف كجرذان الأنفاق في المجاري. لدي زملاء في (خوارين) و(تخوانا) و(ماتاموروس) يفعلون ما أفعل، يوصلون مواطني المكسيك الكادحين عبر الحدود لإنعاش الاقتصاد الأمريكي، لكنني الوحيد الذي يمكنه ترتيب عبورك وأنت مرفوع الرأس. بل سأمنحكم تأشيرات عمل وبطاقات خضراء (غرين كارد). سيبدو كل شيء قانونياً تماماً لأنه سيكون قانونياً بالفعل."

– "بكم؟"

ابتسم جيري:

– "للصفقة كاملة؟ لدي عرض خاص اليوم. كل شيء بسعر مخفض، خمسة عشر ألفاً فقط لكل (رأس)."

ارتفعت حواجب كورت من السعر ومن اللفظ العنصري الذي استخدمه.

– "العائلة مكونة من أربعة أفراد."

– "ستون ألفاً إذن."

– "ما رأيك في خصم للكمية؟"

ضحك جيري وصفق بيديه مرة واحدة، ثم أمال رأسه جانباً. وبعد ثوانٍ قليلة أومأ بتفكير. كان كورت قد صوّب نحوه نظرة تهديد، ولم يدرِ إن كانت ستجدي نفعاً أم لا.

– "ليكن.. خمسون ألفاً."

عشرة آلاف دولار ثمن نظرة واحدة.. ليس سيئاً. تساءل كورت لو أنه استل مسدسه، فهل كان سيشطب خمسة آلاف أخرى؟

– "يمكننا تدبير المبلغ. كيف ستسير الأمور؟"

– "أحتاج إلى بطاقات الهوية الشخصية للجميع. سآخذ المعلومات وأستخرج لك كل ما تحتاجه."

مد كورت يده في حقيبة الظهر وأخرج مجموعة بطاقات الهوية لعائلة غامبوا. تذكر أن رخصة قيادة إرنستو لا تزال بينها، فبحث عنها واستلها، ثم وضعها في جيبه مع غصة ألم خفيفة. سلم البطاقات لـ فليجر وسأله:

– "كم سيستغرق الأمر؟"

تفحصها فليجر، بينما كان كورت يراقبه بحذر. كان يعلم احتمال أن يدرك هذا الأمريكي أنه يتعامل مع أفراد عائلة كانت مستهدفة في تجمع "بورتو فالارتا"، لكن لو تعرف على كنية غامبوا، فلم يظهر عليه أي أثر لذلك.

– "حتى الغد. يمكنني تسليمها لك وقت الغداء.. الغداء المكسيكي أعني، أي في الثانية ظهراً. في الوقت نفسه والمكان نفسه."

– "هذا مناسب."

– "هل تملك هاتفاً؟ قد أحتاج للاتصال بك لمزيد من المعلومات."

تردد جينتري:

– "أي معلومات؟"

– "يا صاحبي، صدقني، هناك دائماً بيانات ناقصة في البطاقات ولا أريد مجرد تخمينها. هؤلاء الأشخاص سيعيشون بهذه الهويات في الولايات المتحدة، ويجب أن تكون كل التفاصيل دقيقة تماماً."

أخرج كورت هاتفه الجديد، وأملى الرقم على جيري فليجر.

قال جيري:

– "حسناً، أحتاج إلى دفعة مقدمة.. خمسون بالمئة."

أخرج كورت حزمة المال من حقيبته وسحب منها خمسة وعشرين ألف دولار، وسلمها للشاب الأمريكي الذي عدّها بنفسه، ثم حشرها في جيبه.

دخل صبيان إلى دورة المياه، وتوجها مباشرة نحو المراحيض دون الالتفات للأمريكيين.

افترق الرجلان بإيماءة رأس. خرج كورت أولاً، بينما عاد جيري إلى المرآة ليواصل عبثه بتلك البثرة.

كاد كورت يصاب بالذعر حين لم يجد لورا في ردهة الطعام عند عودته. أخذ يلتفت يمنة ويسرة، ماسحاً حشود وقت الغداء بعينيه، وبدأ يشق طريقه عائداً نحو السلم الكهربائي.

أمسك بهاتفه ليحدثها، لكنه لمح فتاة صغيرة بشعر أسود قصير مقصوص بعناية تقف في طابور عند صندوق الدفع في متجر للملابس الرجالية. لوحت له وابتسمت قليلاً.

حين خرجت، قالت:

– "لقد اشتريت لنا بعض الملابس الجديدة، آمل أن تعجبك."

أراد أن يوبخها، لكنه أدرك في اللحظة ذاتها أنها استغلت وقتها بحكمة؛ فكلاهما يحتاج لملابس جديدة. لقد أحسنت الصغيرة لورا صنعاً، وأخبرها بذلك.

ابتسمت له، ثم سارا معاً بخطوات يثقلها النعاس نحو مخرج المركز التجاري.

اختار جينتري فندقاً في شارع "دونسيليس"، على بُعد مربع سكني واحد شمال الكاتدرائية الوطنية في الحي التاريخي "ثينترو هيستوريكو". كان المبنى صغيراً ومنزوياً عن الشارع الرئيسي خلف بوابة يحرسها أمن؛ وكان يضم موقفاً صغيراً مخفياً لركن دراجته النارية المسروقة. قبض موظف الاستقبال ثمن الغرفة نقداً وسلمهما مفاتيح غرفة في الطابق الثالث بها سريران منفردان؛ كان كورت قد طلب غرفة تطل على الشارع، وشعر بالرضا حين عاين زاوية الرؤية من النافذة.

رغم الإنهاك الذي حل بـ لورا، إلا أنها ابتهجت بموقع الفندق، إذ يقع مباشرة مقابل كنيسة "سنيورا ديل بيلار"، وهي كنيسة باروكية ضيقة لكنها مزخرفة بإتقان، عمرها مئتان وخمسون عاماً، وكانت في السابق مدرسة للفتيات. بمجرد دخولهما الغرفة، أخبرت كورت برغبتها في الذهاب إلى الكنيسة لتصلي. فالتفت عيناه بملل وهمّ بمرافقتها، لكنها اقترحت عليه البقاء في الغرفة ليرتاح. قبض على المسدس الذي استله لتوه من سرواله، وأعاده مكانه في حزامه مغطياً إياه بقميصه، وتبعها خارج الباب.

– "سنبقى معاً يا لورا."

– "جميل. هل ستصلي معي؟"

هز جينتري كتفيه وهما يبلغان الدرج:

– "صلي أنتِ من أجلنا نحن الاثنين، وسأكتفي أنا بالحراسة."

عبرا الشارع المزدحم ودخلا الكنيسة؛ جلس كورت على أحد المقاعد الخشبية بينما جثت لورا بجانبه وحنت رأسها. أبقى كورت عينيه المتعبتين مفتوحتين، تترصدان كل الاتجاهات، رغم أنه لم يكن في المصلى سوى بضعة أشخاص يبدو أنهم مهتمون بخلاص أرواحهم أكثر من اهتمامهم بتصفية كورت أو الفتاة التي معه.

كان المذبح عالياً ومذهباً، والجدران على جانبي المصلى مزينة بالذهب والتماثيل. انبعثت موسيقى هادئة من مكبرات الصوت، وكان الهواء البارد يعبق بالسكينة في ضوء خافت يتسلل عبر الزجاج المعشّق وينعكس على الجدران الذهبية والزخارف.

بدأ كورت يغرق في النوم، ولم تتفتح عيناه ثانية إلا حين عادت لورا لتجلس بجانبه على المقعد.

جلست ويداها مطويتان في حجرها، وعيناها معلقتان بالصليب فوق المذبح. قالت بصوت خفيض:

– "أنت لست مؤمناً، أليس كذلك؟"

– "أنا.. لم أتربَّ في الكنيسة، ولا أعرف كيف تسير كل هذه الأمور."

نظرت إليه وابتسمت؛ كانا يجلسان وكتفاهما متلامسان.

– "دعني أُريك."

– "شكراً، ليس اليوم. أنا متعب حقاً."

– "الإيمان سيمنحك الطاقة التي تحتاجها."

– "النوم هو ما سيمنحني الطاقة التي أحتاجها."

بدا عليها الخيبة، فسألت:

– "ربما في وقت آخر؟"

– "بالتأكيد."

ثم تقدمت لورا نحو حامل حديدي لشموع النذور ووضعت نقوداً في صندوق التبرعات. بدأت تشعل الشموع واحدة تلو الأخرى، وتهمس بصلاة لكل شمعة. بعد الشمعة الثالثة، أدرك كورت أنها تشعلها من أجل الراحلين من عائلتها.

وقف بجانبها، وظهره للجدار، يراقب الباب الأمامي وشرفة الجوقة والمصلين الآخرين. كان لديها الكثير من الشموع لتشعلها.

في طريق العودة إلى الفندق، لمحت لورا متجراً صغيراً، فاتفقت مع كورت على شراء بعض المؤن حتى لا يضطرا للمخاطرة بالخروج ثانية قبل موعد لقاء الغد. اشتريا خبزاً وعصيراً وماءً ولفائف "تورتا"، وعادا إلى الغرفة قبيل الخامسة.

ارتمت لورا فوراً ووجهها لأسفل على أحد السريرين وأغمضت عينيها.

أمسك كورت بحقيبة الملابس التي اشترتها من المتجر ودخل الحمام. غسل حمام طويل عرق وأوساخ أيام مضت. توقف لبرهة متأملاً دوامات بلون الدم في قعر حوض الاستحمام؛ وتساءل عن أي من ضحاياه الكثر قد وصل رذاذ دمها إلى جلده، وكيف ظل هذا الدم عليه طوال هذا الوقت. غسل شعره الطويل بالشامبو، فانسال منه مزيد من الدم، ومعه نتف من العشب والحصى الصغير وشظايا الزجاج وبقايا البارود. تجمعت تلك الحطام في الماء حول قدميه، وراح يراقبها وهي تدور أو تستقر، حسب نوعها.

كانت تلك البقايا بالنسبة له مذكرة توثق الأيام القليلة الماضية؛ تجمع "بورتو فالارتا"، الهاسيندا، الشاحنة المدرعة، ورحلة الدراجة النارية.

مجرد النظر إلى كل ذلك جعله يشعر بإنهاك يفوق أي وقت مضى.

أغلق الماء، وخرج من الحمام، وجفف جسده بالمنشفة، ثم نظر في الحقيبة.

سروال "كاكي" مكوي، قميص من الكتان بلون القشدة، حزام أسود بإبزيم فضي مربع، جوارب سوداء وحذاء رياضي أسود، كان أكبر من مقاسه بنصف درجة لكنه مناسب بما يكفي. ارتدى ملابسه بسرعة، وشعر بملمس الثياب الجديدة رائعاً على جسده النظيف.

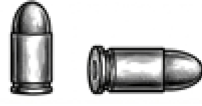
ورغم علمه بأنه قادر على النوم ليوم كامل، إلا أنه شعر وكأنه رجل جديد.

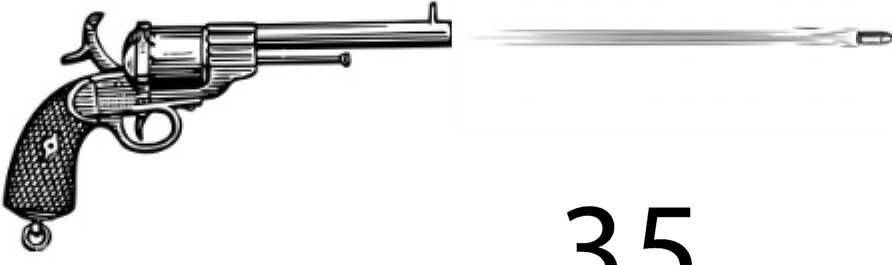
عاد إلى غرفة النوم، واستلقى على سريره، ووضع مسدس "بيريتا" فوق صدره، ونظر نحو لورا.

كانت قد انقلبت على ظهرها؛ عيناها مغمضتان، ويداها ترتاحان فوق بطنها، وصدرها الصغير يعلو ويهبط مع أنفاسها.

كانت أجمل امرأة رآها في حياته على الإطلاق.

أجبر نفسه على إشاحة نظره عنها، وانقلب على جنبه، وفي غضون دقائق، غط في نوم عميق.





35

توقفت سيارتنا دفع رباعي من طراز «Yukon XL Denali» بيضاوان أمام المطعم الفاخر في حي «زابوبان» بمدينة غوادالاخارا قبيل الساعة الثامنة مساءً. بقي السائقون خلف عجلات القيادة في المركبات المصفحة، بينما ترجل أربعة رجال إلى الطريق، وراحوا يتفحصون السيارات في الشارع والمارة العابرين. ارتدى الرجال بدلات سوداء إيطالية التصميم، وكانت أيديهم فارغة، وتحركاتهم سريعة وفعالة، لكنها لم تخلُ من التهذيب وهم يشقون طريقهم وسط المارة نحو الباب الأمامي للمطعم. هناك وقفوا، وظهورهم إلى الحائط، وقاموا جميعًا بفك أزرار معاطفهم، بينما مسحت عيونهم الشارع في كل الاتجاهات.

كانت ثلاث سيارات شرطة تابعة لغوادالاخارا تقف في الصف الثاني بالشارع. انعكست أضواؤها الوامضة على الزجاج لمسافة مبنى كامل في كل اتجاه. ترجل شرطيان من كل مركبة وبدأوا في توجيه حركة المرور لمواصلة السير في الشارع، مانعين أي شخص من التوقف بالقرب من واجهة المطعم.

ترجل أربعة رجال آخرين من سيارات الدفع الرباعي البيضاء اللامعة وتحركوا مباشرة عبر الأبواب البرونزية المزدوجة للمطعم. كان هؤلاء يرتدون بدلات سوداء أيضًا، ويحملون أجهزة راديو يدوية وحقائب نايلون سوداء فارغة. استقبل المدير ومسؤول القاعة الرجال

في الردهة أمام البار، وتحدثوا للحظة، ثم انقسم الرجال الستة إلى فريقين.

اقترب مسؤول القاعة واثنان من «البدلات السوداء» من كل طاولة مضاءة بالشموع وتحدثوا بصوت خافت إلى الزبائن. صودرت الهواتف المحمولة؛ وطُلب من الرجال الوقوف وفتح معاطفهم، وتم تفتيشهم بتهذيب قدر ما تسمح به تلك العملية الخشنة. فهم بعض الزبائن ما يجري، بينما جهل الأغلبية السبب. وسرعان ما استقرت هواتف جميع الرواد في حقائب النايلون السوداء. ألقى مسؤول القاعة إعلاناً على مسامع رواد صالة الطعام: «تناولوا طعامكم، واشربوا، واستمتعوا بوقتكم، فجميع وجباتكم ستكون مدفوعة الثمن من قبل زبون سيدخل بعد قليل». علت شهقات الدهشة، وسمع قليل من التصفيق، واختُلست نظرات إلى ساعات اليد.

ستكون ليلة طويلة.

في غضون ذلك، قام ثلاثة رجال بتفقد قاعة الولائم المعدة، ونظروا تحت الطاولة، حريصين على عدم بعثرة المفارش أو أدوات المائدة أثناء ذلك. مسحوا المكان بحثاً عن أجهزة تنصت وناقشوا الترتيبات مع الندل. ثم دخلوا المطبخ؛ قادهم المدير بينما اصطف الموظفون وخضعوا لتفتيش سريع، حتى النساء في الخلف خضعن للتفتيش الذاتي. ثم فُتشت خزانة المؤن، والمبرد الكبير، ومناطق التخزين الجاف، وحتى المجمد (الفريزر).

كان الجميع في المطبخ معتادين على هذا الروتين.

وصلت ست بدلات سوداء أخرى في سيارة « Yukon XL Denali» بيضاء ثالثة؛ توجه رجلان مباشرة عبر صالة الطعام، وتساءل الزبائن عما إذا كان أحدهم هو فاعل الخير لهذه الأمسية. لكنهما توجها إلى المطبخ وخرجا من الباب الخلفي. فتحا معطفيهما واتخذا مواقع الحراسة في الزقاق. أما الأربعة الباقون فقد دخلوا صالة

الطعام قادمين من المساء البارد، وتحركوا بدقة عسكرية نحو الزوايا الأربع للغرفة. مرة أخرى، فُتحت المعاطف ومسحت العيون كل شيء أمامهم دون أن تثبت على شيء واحد.

تحدث أحد أول الواصلين عند الباب في جهاز الراديو الخاص به.

بعد خمس دقائق توقفت ثلاث سيارات دفع رباعي بيضاء أخرى أمام المطعم. دخلت مجموعة كثيفة من الرجال ببدلات سوداء متطابقة؛ لم يكن بوسع أحد إحصاء عددهم بسبب سرعة وتلاصق الكتلة البشرية، لكنهم كانوا بالتأكيد اثني عشر فردًا. ملابسهم وتسريحات شعرهم، وحتى لحاهم وشواربهم المشذبة، كان كل شيء متطابقًا تقريبًا. مروا عبر صالة الطعام؛ واشرأبت أعناق الزبائن على طاولاتهم وهم يحدقون بذهول؛ أمالت امرأة كأس نبيذها وهي ترجع للخلف محاولة تمييز المشهور بينهم.

هل هو مصارع ثيران شهير؟ هل هو المغني الذي يحيي حفلاً في «أوديتوريو تيلميكس» الليلة؟

لم يعرف أحد من هو، لأنه لم يستطع أحد التمييز بين رجل وآخر. في ثوانٍ تحركت الكتلة البشرية إلى قاعة ولائم خلفية، وأُغلق الباب، ووقف اثنان من أصحاب البدلات عند الباب مواجهين للمطعم.

سرت همهمات وتكهنات في صالة الطعام الرئيسية. قال العديد: «لوس تراجيس نيغروس» (البدلات السوداء)، لكن لم يومئ أي من الرجال الواقفين ببدلاتهم السوداء أو يردوا.

سرعان ما بدأت الطاولات بطلب المزيد من النبيذ، وسكب الندل الكؤوس بسخاء. فُرقعت سدادات الشمبانيا، وتحولت غرفة الطعام الرصينة إلى ساحة احتفال.

جلس دانيال دي لا روشا (DLR) على رأس طاولة الولائم الطويلة، يرتشف الويسكي الاسكتلندي، ويحدق في شمعة صغيرة على مفرش الطاولة الأبيض المنشى. انتزع اللب الطري من شريحة خبز

فرنسي مقرمش وكوره كرة صغيرة قبل أن يقذفها في فمه. كانت الطاولة معدة لاثني عشر شخصًا، لكن الآن يجلس معه خمسة فقط. كان الرجال الآخرون يجوبون الغرفة وهم يتحدثون في الهواتف المحمولة أو أجهزة الراديو؛ وانزوى اثنان في الزاوية حول حاسوب محمول وضعوه على طاولة تقديم.

وقف إميليو لوبيز لوبيز، الحارس الشخصي لـ دي لا روشا وقائد قوات حمايته، مستندًا إلى الجدار على بعد أقل من خمسة أقدام خلف رئيسه.

عرض نادل يرتدي الأبيض قائمة الطعام على الزعيم، لكنه لوح بيده رافضًا، وطلب من النادل أن يخبر الطاهي بإعداد شيء خفيف له. اختفى النادل، وعاد انتباه دي لا روشا إلى الشمعة.

لم يكن يومًا جيدًا. نجت إيلينا غامبوا من الهجوم على المزرعة في الجبال بالقرب من تيكويلا وهربت. قُتل تسعة عشر من مشاة البحرية، والفيدراليين، وشرطة ولاية خاليسكو، وشرطة بلدية تيكويلا، وجميعهم تحت سيطرة «سبايدر» (العنكبوت) سيبيدا، بالإضافة إلى اثنين من الفلاحين، وجُرح عدد أكبر بكثير.

كان كالفو قد استخدم سحره، وذكرت الأخبار أن الرجال ماتوا ميتة الأبطال وهم يقاتلون فلول قتلة كارتل مادريغال الذين هاجموا التجمع في بويرتو فالارتا، لكن فوضى كهذه لا تختفي ببساطة أو بسرعة أو بتكلفة زهيدة. سيكون هناك رد فعل عنيف من كونستانتينو مادريغال، ومن الحكومة في مكسيكو سيتي، ومن صحافة أجنبية متطفلة لا يستطيع كالفو التأثير عليها بسهولة.

جلس المزيد من الرجال الآن، وانفرجت أسارير دي لا روشا قليلاً. كان مع إخوته؛ كانوا معًا، وسيجتازون هذه الفوضى اللعينة . سيتم العثور على آل غامبوا، وسيموتون، ولن تكون الموجة التالية من «الأبطال» العاملين لصالح «GOPES» سريعة في ملاحقته.

تحدثوا عن الأيام الخوالي، وعن أيامهم معًا في الجيش. كان دانيال واحدًا من الرفاق الآن، وكان يستمتع بلحظات كهذه. كان يحب الابتعاد عن ممتلكاته، والخروج إلى مكان مختلف، حتى لو تطلب الأمر عشرين حارسًا شخصيًا وساعات من التنسيق مع الشرطة المحلية.

نهض دي لا روشا من كرسيه. وقف الآخرون الجالسون معه، لكنه أشار لهم بالجلوس. خطا نحو محراب في الزاوية، وجثا أمام تمثال لـ «سانتا مويرتي» (القديسة الموت) وُضع هناك خصيصًا له، وصلى وحيدًا.

عندما انتهى، سكب كأسًا مزدوجًا من الويسكي لـ «العذراء» وتركه هناك في المحراب بجانبها، ثم عاد إلى طاولته.

كان نيستور كالفو يجوب المكان وهو يتحدث في هاتفه، لكنه غادر غرفة الطعام للحظة، وعاد بعد دقائق، ثم جلس في مقعده على يمين دانيال. مال نحو أذن سيده.

– "تحدثت طوال الظهيرة مع رجل من السفارة الأمريكية. نحن نستخدمه من حين لآخر، لهذا وذاك."

وصل طبق دانيال. فيليه سمك موسى، زبدة غير كثيرة. صلصة مانجو. وهليون. أومأ برأسه، ورفع شوكته، فابتعد النادل وتنفس الصعداء. لم يرفع دانيال نظره وهو يرد على نيستور:

– "هذا وذاك؟ من حين لآخر؟ حسنًا. أنت لا تخبرني بالكثير. ماذا عن هذا الـ «غرينغو»؟"

– "إنه يساعد «سبايدر» في الحصول على أوراق لرجاله لدخول الولايات المتحدة إذا كان هناك شخص نحتاج لملاحقته هناك."

أومأ دانيال برأسه، وقضم قطعة من السمك الساخن. لم يظهر وجهه أي تعبير.

تابع كالفو:

– "إنه... أنا أتحدث عن الأمريكي الشمالي (norteamericano)، اتصل بأحد رجالي بعد ظهر اليوم، يقول إن لديه معلومات قيمة، لكنه لن يعطيها إلا لك مباشرة. اتصلت به وأخبرته أن يذهب إلى الجحيم. لقد طار مباشرة من العاصمة الآن ليتحدث إلينا. اتصل بي من المطار. أقنعته أخيرًا بإخباري بما يعرفه، وأرسلت رجلاً لاصطحابه وإحضاره إلى هنا."

– "إذن لم يذهب إلى الجحيم؛ بل جاء إليّ."

هز نيستور كتفيه:

– "سترغب في سماع هذا."

– "هل تم تفتيشه؟"

– "في المطار ومرة أخرى، الآن فقط، في الحمام. من الرأس إلى القدمين."

الآن هز دي لا روشا كتفيه وأومأ برأسه، ولم يرفع نظره عن طبقه وهو يأكل.

– "أدخله."

أومأ نيستور عبر قاعة الولائم لرجل متمركز عند الباب. خرج الرجل، وعاد بعد ثوانٍ برفقة جيري فليجر.

كان الأمريكي أشعث الهيئة، ولا شك أن ذلك بسبب التفتيش الخشن الذي خضع له لتوه في الحمام. بقميصه الأبيض قصير الأكمام المجعد وربطة عنقه السوداء الرفيعة، بدا رثًا تمامًا في غرفة الطعام الجميلة وسط الرجال المصففين بعناية ببدلاتهم باهظة الثمن. قاده الحارس إلى الطرف الأقصى من الطاولة على يسار دي لا روشا. وقف دانيال وصافح جيري.

قال جيري بابتسامة عريضة:

– "سعيد بلقائك يا صاحب السعادة."

تنهد دانيال. يالهؤلاء الغرينغوس.

– "لا تناديني بهذا. تفضل بالجلوس."

جلس الرجلان مرة أخرى. نظر دي لا روشا إلى النادل الواقف بمحاذاة الجدار خلفه.

– "أنجيلو، أحضر لصديقي الأمريكي الأبيض بعض النبيذ الأبيض."

سُكب كأس من النبيذ الأبيض وتجرع جيري جرعة كبيرة. عاد دانيال إلى سمكه. وبين اللقيمات سأل:

– "ماذا يمكنني أن أفعل لك؟"

– "أنا سعيد حقًا لأنك لم تُصب بأذى في ذلك اليوم."

– "وأنا كذلك."

– "في الأخبار... الرجل الذي حاول قتلك على يختك. زوجته كانت في التجمع في بويرتو فالارتا."

توقف دي لا روشا عن الأكل. ونظر إلى جيري.

تابع فليجر:

– "قال السيد كالفو إنك قد تكون مهتمًا بمعرفة مكانهم؟"

– "قد أكون مهتمًا، نعم."

– "جاءني أمريكي اليوم في مكسيكو سيتي. يريد مني تأمين تأشيرات أمريكية مزورة لثلاث نساء وصبي."

نظر دي لا روشا إلى الغرينغو:

– "ومن هؤلاء الـ «موخادوس»[7] (mojados)؟"

– "لوز روزاريو غامبوا فوينتس، وإيلينا ماريا غامبوا غونزاليس، ولورا ماريا غامبوا كوراليس، ودييغو غامبوا فوينتس."

صرخ دي لا روشا:

– "سبايدر!"

---

[7] «موخادوس» تعني حرفياً «المبللون»، وهو وصف محلي لمن يعبرون نهر ريو غراندي سباحة لدخول الولايات المتحدة.

مما أذهل فليجر وجعله ينتفض في كرسيه. كان خافيير «سبايدر» سيبيدا عند الكمبيوتر في الزاوية، لكنه استدار وهرع نحو سيده . جعل دانيال جيري يكرر ما قاله لزعيم القتلة المأجورين.

سأل سيبيدا بأمل:

– "هل هم في مكسيكو سيتي؟"

– "لا أعرف. أعرف فقط أن الـ غرينغو هناك."

– "متى ستقابله مرة أخرى؟"

– "الثانية ظهر الغد."

هز دي لا روشا رأسه:

– "سبع عشرة ساعة. هل من طريقة للوصول إليه أسرع من ذلك؟"

– "نعم يا سيدي. حصلت على رقم هاتفه المحمول. ظننت أنه ربما لديك طريقة لتتبع..."

قاطعه صوت منادياً عبر الغرفة:

– "إستيبان."

كان سيبيدا هو من قاطع فليجر هذه المرة. إستيبان كالديرون كان الخبير التقني لـ «البدلات السوداء»؛ عمل كمشغل لاسلكي في فريق القوات الخاصة الخاص بهم، وكان يحمل شهادات في الاتصالات والهندسة الكهربائية. هرع إلى المكان، وناقش المكسيكيون العقبات التقنية التي ينطوي عليها العثور على شخص عبر إشارة هاتفه المحمول في مدينة مزدحمة مثل العاصمة الفيدرالية.

أخيرًا، عندما استقر الرأي على أنه مع توفر ما يكفي من المعدات والرجال والقليل من الوقت يمكن تحديد موقع الهاتف المحمول بدقة، عاد دي لا روشا إلى فليجر. كان الأمريكي قد نُسي تمامًا في الدقائق الخمس الماضية، من قبل الجميع باستثناء إميليو والحراس

المصطفين على الجدار بالطبع. كان جيري قد تجرع كأسًا كاملاً من نبيذ «شاردونيه» ونصف كأس آخر أثناء انتظاره.

قال دي لا روشا:

– "ماذا تريد يا أميجو؟"

– "امتنانك الأبدي."

حدق دانيال فيه فقط. استطاع دي لا روشا أن يرى من تصرفات الرجل أنه يتعاطى بعضًا من «المنتج» الذي تتاجر فيه «البدلات السوداء».

عندما رأى جيري كيف فشلت دعابته فشلاً ذريعًا، أصبح جديًا:

– "بصراحة، لا شيء يذكر. أريد الأمريكي فقط."

– "الأمريكي؟ تريد منا أن نأخذ العائلة، وتريد أنت أن تأخذ الـ غرينغو معك."

– "نعم."

– "وما هي مصلحتك فيه؟"

– "على ما يبدو، هو مطلوب من قبل الحكومة الأمريكية. كانت السفارة تضج بعد ظهر اليوم بحديث عن رجل طليق هنا. إذا كان هو الرجل الذي يلاحقونه، وأعتقد أنه كذلك، فهناك مكافأة. كنت أفكر في أن أزودكم بالمعلومات، ثم توفرون أنتم... مجموعة من الرجال للقبض عليهم. تأخذون أنتم آل غامبوا، وتسلمونني الأمريكي لأسلمه للسفارة. ثم تعطونني أموال المكافأة مقابل معلوماتي."

أخذ دي لا روشا رشفة طويلة من نبيذه:

– "لماذا يريد الأمريكيون الشماليون هذا الـ غرينغو؟"

– "لا أعرف. شيء سري للغاية. هناك رجل ظهر بعد ظهر اليوم يتسكع حول السفارة، بالتأكيد جاسوس من وكالة الاستخبارات المركزية (CIA). على ما يبدو، هذا الجاسوس والغرينغو المطلوب كانا

يعملان معًا سابقًا، وهو يتسكع في الانتظار للتعرف عليه إذا قبضت عليه الشرطة الفيدرالية."

أومأ دانيال برأسه مفكرًا، والتقطت عيناه نظرة كالفو. نهض الرجلان وابتعدا عن الطاولة، ليجدا زاوية هادئة في قاعة الولائم.

قال نيستور:

– "إذا كانت الـ CIA تريد هذا الغرينغو بشدة، فقد يكونون مستعدين لعقد صفقة مقابله."

– "كنت أفكر في الشيء نفسه. ما الذي يملكونه ونريده نحن؟"

– "إنها وكالة الاستخبارات المركزية. أي معلومات استخباراتية قوية لديهم عن مادريغال قد تكون مفيدة."

مسد دي لا روشا لحيته الصغيرة:

– "سيعرفون من هم جهات اتصاله الحكومية في بيرو، وفي الإكوادور، وفي كولومبيا."

– "من المؤكد أنهم قد يعرفون كل ذلك."

– "هل سيقايضون تلك المعلومات مقابل هذا القاتل الغرينغو؟"

– "سأبدأ فورًا في معرفة ذلك. سأقوم بإعداد سلسلة من الوسطاء للتواصل مع السفارة، لربطنا بـ الـ CIA. سنقيم مدى شغفهم بهذا الرجل."

– "في كلتا الحالتين، نحتاج لأن يقودنا جيري إلى إيلينا."

تحمس نيستور لاحتمال مقايضة الغرينغو بمعلومات من الـ CIA. ستكون ضربة استخباراتية هائلة ضد المنافس اللدود لمنظمتهم.

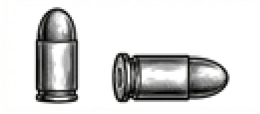
لكنه كان أقل حماسًا عندما عاد رئيسه إلى المهمة الأصلية، وهي قتل زوجة ضابط الشرطة الحامل.

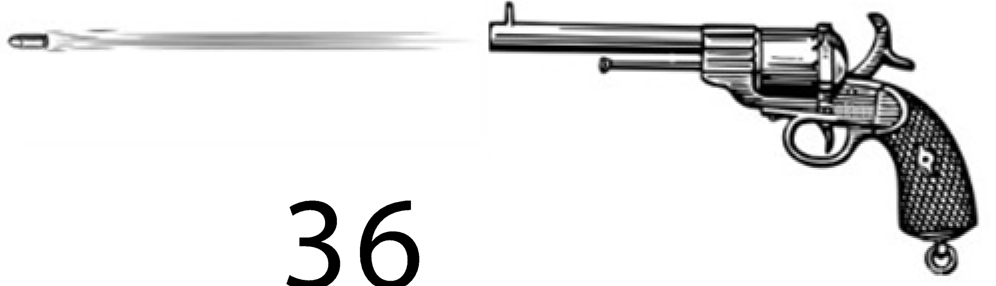
ومع ذلك، وافق كالفو، وخرج هاتفه من جيبه في ثوانٍ. قبل التعامل مع الاستخبارات الأمريكية سيحتاج إلى إنشاء سلسلة من القنوات الخلفية، وهذا سيستغرق وقتًا.

خاطب دانيال قاعة الولائم المكتظة برجاله:

– "يا رجال، سنغادر فورًا إلى العاصمة!"

نهض جيري فليجر، ورفع كأس نبيذه عالياً في نخب. تجاهله المكسيكيون في قاعة الولائم؛ وبدلاً من ذلك تجمعوا بسرعة حول دي لا روشا، ليخرجوا ككتلة واحدة ويحدوا من فرصة أي محاولة اغتيال ضد سيدهم .





36

في تمام العاشرة، كان كل من كورت ولورا قد استيقظا؛ جلسا متقابلين فوق السريرين المنفردين، يتناولان ما تبقى من عشائهما الفاتر، ويصغيان إلى صوت مطر خفيف يقرع نافذة غرفة الفندق. كانت لورا قد استحمّت، فتدلت غرتها المبللة فوق عينيها، وارتدت ثيابها الجديدة: قميصاً أسود من طراز "بولو" وسروال جينز أزرق.

كانت مسبحتها تتدلى من عنقها.

فكر كورت في أن هندامها يبدو عملياً للغاية، وبدت فيه فاتنة إلى أبعد الحدود.

لقد استعدا للبقاء في الغرفة طوال الليل؛ إذ فصل جينتري جهاز التلفاز عن الكهرباء، ودفعه مع قاعدته الخشبية ليسد به الباب، وأضاف إليه خزانة أدراج من خشب البلوط. فأي شخص سيحاول اقتحام الغرفة، لن يحتاج إلى مفتاح فحسب، بل سيتطلب الأمر كتفاً قوية وعدة دفعات عنيفة.

ساد صمت مطبق حتى فرغا من طعامهما، ولكن بمجرد أن استقرت البقايا في سلة المهملات، بدأت لورا تسرد قصصاً عن عائلتها وصباهما في سان بلاس. وإن كانت تتوقع من كورت أن يبادلها الحديث عن طفولته، فقد خاب مسعاها.

عندما نضبت قصصها ولم تبدأ قصصه، سألته مباشرة:

– "شقيقي.. هل كان مثلك؟"

– "بأي معنى؟"

– "بأي معنى كان.. أقصد الطريقة التي تقاتل بها، وكيف قمت بحمايتنا. هل كان إدواردو مثلك تماماً؟"

– "كان إيدي رجلاً طيباً، وصنديداً. لكن حين عرفته؟ لا.. لم يكن مثلي؛ لم يكن قاتلاً."

قالت بصوت واثق:

– "لا أعتقد أنك قاتل."

– "إذن لم تكوني منتبهة لما حدث."

– "بلا، أنا أفهم أنك قتلتَ أناساً، بالطبع فعلت. لكنك فعلت ذلك فقط لتنقذنا وتنقذ نفسك. لقد فعلتَ الصواب وما يمليه عليك الواجب. الرجال هنا الذين يُسمّون (قتلة) لا يفعلون ذلك لأسباب نبيلة، بل لأسباب دنيئة فقط."

لم يرد كورت، واكتفى بارتشاف الماء من زجاجته.

تابعت لورا:

– "إن الرب يعمل من خلالك. يجب أن تعرف ذلك."

خرج من فم كورت صوت امتزجت فيه الضحكة بالشهقة، وسالت قطرات ماء على ذقنه.

– "لستُ واثقاً من ذلك."

– "أنا واثقة؛ لقد أرسلك لترعانا."

– "أنتِ تجعلين الأمر يبدو بسيطاً للغاية."

تأملت تعليقه ملياً، محدقة في عينيه بتركيز شديد أجبره على إشاحة نظره عنها.

– "لا.. ربما ليس بهذه البساطة. لكني أؤمن.. أؤمن أنك أُرسلت إلينا في اللحظة التي احتجناك فيها."

– "كان هناك نحو اثني عشر شخصاً يحتاجون إليّ، والآن لم يتبقَ سوى أربعة. ماذا عن الآخرين؟"

بدأت لورا في البكاء.

رفع جينتري بصره نحو السقف. يا للّعنة، لِمَ قُلْتُ ذلك؟

هدأ نحيبها، فنهضت واقتربت من سريره وجلست بجانبه، متربعة في مواجهته.

– "هل تؤمن بالخير والشر؟"

شعر جينتري بنبضات قلبه تتسارع مع اقترابها. حدق في أرجاء الغرفة وقال:

– "أنا أؤمن بما رأته عيناي."

– "وماذا يعني ذلك؟"

– "أؤمن بالشر."

– "ألم ترَ أي خير في هذا العالم؟"

نظر إليها كورت ثانية؛ فشعر بالدماء تتدفق في جسده وتدفئ وجهه ويديه.

– "رأيت خيراً، بالتأكيد. لكنه ليس كافياً."

– "حسناً، أنا أؤمن بما أراه بعيني؛ وأنا أرى الكثير من الخير فيك يا خوسيه. أنت رجل طيب."

– "أعتقد أن علينا محاولة النوم. سنكون على الطريق طوال نهار الغد–"

اقتربت لورا أكثر، مقاطعة حديثه:

– "هل لديك أحد؟"

– "ماذا؟"

– "زوجة.. حبيبة؟"

– "لا."

– "لا يمكن للمرء أن يبقى وحيداً إلى الأبد."

ابتسم وأشاح بنظره:

– "لن أعيش إلى الأبد."

– "أقصد.. فوق هذه الأرض. الرب لا يريد للإنسان أن يعيش وحيداً."

لم يحر كورت جواباً.

– "لقد عشتُ وحيدة لخمس سنوات، منذ وفاة غييرمو. أعرف معنى الوحدة، ومدى صعوبة كبت كل شيء بداخلك لعدم وجود من تشاركه حياتك. لكني أملك إيماني، ولولاه.. يا خوسيه، لا أعرف كيف لقلبك أن يصمد."

– "قلبي بخير."

كان كورت يعرف ذلك لأنه كان يسمع خفقاته تدق في صدره.

– "ليس في العالم ظلام فحسب يا خوسيه، ثمة الكثير من النور."

– "دوائري الاجتماعية تختلف تماماً عن تلك الأمور السعيدة."

لم تفهم قصده تماماً، لكنها أجابت وكأنها فهمت:

– "أنت تقوم بعمل الرب."

– "أنا مجرد رجل عادي يا لورا، لستُ شيئاً مميزاً."

– "لا، بل أنت مميز. الشيطان يقاتل من أجل هذه الأرض، ويفعل ذلك بالشر. وأنت تقاتل ضد الشر هنا." هزت كتفيها وتابعت منطقها: "أنت تقاتل الشيطان، إذن أنت تقوم بعمل الرب."

قال: "شكراً."

أحياناً كان يتساءل عما يفعله بحق الجحيم؛ فرأي هذه الفتاة لم يكن لـ كورت سوى مجرد رأي، لكن سماعه كان جميلاً رغم كل شيء.

كرر قوله: "يجب أن ننام." لكنها لم تبرح سريره.

– "هل يمكنني البقاء معك؟ كما فعلنا ليلة أمس؟ هل يمكنني البقاء بالقرب منك؟"

– "بالتأكيد."

قالها بتظاهر باللامبالاة، وكان متأكداً أنها أدركت زيفها.

مد يده وأطفأ الأنوار، واستلقى بملابسه وحذائه، ومسدسه على الطاولة بجانبه.

انكمشت بجانبه، وأسندت يدها على صدره ووضعت رأسها المبلل على كتفه. ورغم قصر قامتها، إلا أن جسديهما شغلا السرير المنفرد بالكامل. وسرعان ما تحركت ساقها لتستقر فوق ساقيه.

كانت الأنوار مطفأة، لكن عيني كورت ظلتا مفتوحتين؛ حدق في السقف الذي لا يراه، محاولاً جعل أنفاسه هادئة وضحلة.

سألته: "هل أنت خائف؟" وظن أنها تشير إلى خفقات قلبه المتسارعة.

أجاب بسرعة: "لا، ليس على الإطلاق."

– "تقصد أن كل هؤلاء الناس الذين يحاولون قتلنا لا يثيرون رعبك؟ أنا ميتة من الخوف."

– "آه، ذلك الأمر. نعم.. أنا فقط.. أعتقد أنني مدرب على استخدام طاقة الخوف لصالحي. أشعر بالخوف حين أكون في خضم العمل.. لكنني تدربت على توجيهه وألا أتجمّد مكاني."

– "يبدو الأمر وكأنه علم من العلوم."

– "إنه كذلك بالفعل."

راق له الحديث في هذا الموضوع؛ فقد صرف ذهنه عن ساقها التي كانت تنثني عند الركبة وترتاح فوق فخذيه الآن.

– "أنا محظوظة لأنك تحميني."

– "لقد رأيتُ قتالكِ، أنتِ أيضاً تلقيتِ بعض التدريب."

– "نعم، حين كان إدواردو حياً، كان يأخذني كثيراً للتدرب على الرماية. كان من المهم بالنسبة له أن أكون مستعدة لأي شيء رغم أنني كنت مجرد شرطية سياحة. كما تدربتُ على (الكيك بوكسينغ) أيضاً."

– "لاحظتُ أنكِ في حالة بدنية جيدة."

قالت بصوت ضاحك: "حقاً؟" وشعر جينتري بحرارة الخجل تسري في وجهه. بدأت يدها على صدره تتحرك جيئة وذهاباً ببطء.

– "أقصد.. كان واضحاً أنكِ تمارسين الرياضة. هذا جيد؛ قد تحتاجين لتلك المهارات ثانية قبل أن ينتهي كل هذا. إذا واجهنا (البدلات السوداء) على الطريق، فلا يمكننا أن نتوقع منهم–"

– "خوسيه؟"

– "نعم."

– "هل يمكنني تقبيلك؟"

نعم، فكر في نفسه، لكنه قال:

– "لا أعتقد أنها فكرة صائبة."

– "ولماذا؟"

لم يعرف كورت لماذا. بدأ يتلعثم بكلام عن إيدي، وعن حاجتهم للنوم، وعن أنها لا تعرف حقيقته أو ما هو عليه.

– "هذا جنون يا خوسيه. كان إدواردو يريدني أن أجد شخصاً آخر، أن أجد رجلاً طيباً."

– "لورا.. أنا لستُ رجلاً طيباً. أنا مجرد رجل، مجرد شخص يحاول المساعدة."

– "إذن ساعدني."

– "أساعدكِ في ما–"

– "ساعدني أنا."

ارتمت فوقه، وحنت وجهها نحو وجهه، وقبلته برقة على شفتيه. اتسعت عيناه، ولم يبادرها، لكنه لم يبتعد. قبلته ثانية، فتصلب وجهه وجسده كالحجر، حتى القبلة الثالثة حين أغمض عينيه ببطء.

فتحهما وقال: "انتظري."

أجابته: "لا." وضغطت بثقلها عليه، ولفّت ذراعيها خلف عنقه، وقبلته بعمق أكبر هذه المرة.

كان بإمكانه رؤيتها؛ فحين فتح عينيه، كانت قد اعتادت على ظلام الغرفة، ورأى عينيها مغمضتين بإحكام، وغرتها المبللة تتمايل مع حركات رأسها وهي تقبله: شفتيه، وجنتيه، عينيه، وعنقه.

فجأة، توقفت وجلست؛ وضغط ثقلها فوق خصره. لاحظ أن يديه قد استقرتا فوق وركيها، فأمسك بهما هناك.

نظرت إليه من الأعلى، وكان يراها بوضوح الآن في الضوء المتسلل من النافذة.

– "اسمك ليس خوسيه."

اكتفى جينتري بهز رأسه.

– "أخبرني باسمك الحقيقي. لا أريد أن أناديك (خوسيه) بينما نمارس الحب."

ارمش كورت بعينيه. نمارس الحب؟ هز رأسه ثانية.

قالت: "أخبرني بما يناديك به أصدقاؤك، بما كان يناديك به الناس حين كنت صغيراً، شيئاً له معنى بالنسبة لك."

كاد كورت أن يقول "فايوليتر"، وهو اسمه الرمزي؛ فهو متقارب في الإنجليزية والإسبانية، لكنه لم يردها أن تناديه بذلك. فكر للحظة وهمس:

– "يمكنكِ مناداتي بـ (ستة)."

سألت بحيرة امتزجت بالرغبة في عينيها:

– "ستة؟"

– "نعم."

– "حسناً.. ستة."

اقتنعت بالإجابة، فخلعت قميصها، وفكّت حمالة صدرها وتركتها تسقط على الأرض بين السريرين. بدأت في فك أزرار قميص كورت؛ وضع يديه فوق يديها للحظة، محاولاً إبعادهما عن الأزرار، لكنه في الحقيقة لم يردها أن تتوقف. فكر في إيدي وإرنستو، الرجال الذين قد

يفعلون أي شيء لحماية هذه المرأة، ثم فكر في الرجال الذين يريدون إيذاءها. لقد كان يحميها، لكنه الآن لم يعرف إن كان يؤذيها باستسلامه لمبادرتها. انحنت للأمام وقبلته، فأغمض عينيه وفتح فمه، غير واثق بتاتاً من أنه يحسن التصرف.

رنّ هاتفه المحمول.

تجاهله.

تجاهلته هي أيضاً.

استمر في الرنين، ثم توقف، ثم بدأ ثانية.

أتمزحون معي؟

ظلت تتجاهله.

بصعوبة أخرج الكلمات: "لا بد أنه موظف السفارة." ومد يده نحو الهاتف، لكنها أمسكت برأسه بقوة وأبقت شفتيها ملتصقتين بشفتيه.

اضطر لمقاومتها قليلاً ليبتعد: "آلو؟"

– "أهلاً بك يا ابن وطني. عذراً على الاتصال المتأخر، فأنا أعمل ساعات إضافية هنا في مكتبي ولدي بضعة أسئلة."

– "نعم.. لا مشكلة."

سأل جيري كورت بضعة أسئلة متفرقة عن المهن السابقة لأفراد آل غامبوا الأربعة. قال إن من الضروري تحديد نوع من الوظائف لتأشيرات عملهم، ورغم أنه يمكنهم اختراع أي شيء، إلا أن المعلومات الأدق في الوثائق ستجعلها تصمد بشكل أفضل أمام التدقيق على الجانب الآخر من الحدود.

تشاور كورت مع لورا وأجاب على أسئلة فليجر. كان نصفه يأمل أن يخمد هذا الانقطاع لهيب الشغف بينه وبين لورا؛ فقد شعر بالذنب تجاه أفعاله ونواياه مع الشقيقة الصغرى لصديقه القديم. لكن نصفه الآخر كان يتمنى أن يعودا إلى حيث توقفا قبل رنين الهاتف.

بعد خمس دقائق، عاد جينتري ولوريتا إلى حيث توقفا. بقيت فوقه، تقبل وجهه وكأنه كنز ثمين، بينما كانت ذراعاه القويتان تطوقان جسدها بإحكام.

عندما جذبته للأعلى لتخلع قميصه، انتابه التوتر؛ فقد كان يدرك كم مضى من الوقت منذ آخر مرة جمعته فيها غرفة بامرأة. قال بصوت خفيض، وكأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب لورا:

– "أنا لستُ.. مدرباً على هذا."

– "مدرباً؟ ماذا تقصد؟"

– "لا تشغلي بالكِ."

اصمت يا جينتري، كفَّ عن هذه الثرثرة اللعينة.

– "هل تعتقد أن معظم الناس يتلقون تدريباً على هذا الأمر؟"

– "لا.. أنا فقط–"

– "هل تظن أنني خبيرة من نوع ما؟"

– "لم أقصد–"

– "أنت غريب يا ستة. تعجبني حقاً، لكنك غريب الأطوار."

– "أجل."

ظل كورت شاعراً بالارتباك لبرهة أخرى، بل وتشتت انتباهه حين سمع وقع أقدام في الممر، لكن الوقع تلاشى، وتبعه تلاشي كل ما كان يكبله من حياء.

شعر بأطراف أصابعها الصغيرة تلامس حزامه، ثم أحس به يُنزع عن خصره. فكت أزرار سرواله الكاكي، ولم يمنعها – بل اكتفى بالمراقبة. وبينما كان يتحرر من ثيابه، عاد جسدها يلتصق به. وضعت يدها اليمنى على فخذه الأيسر، فجفل متأوهاً بصوت مسموع.

– "أنا آسفة."

قالتها وهي تتفحص ساقه، ثم مررت أطراف أصابعها برقة فوق جرح غائر– كان قد مضى عليه قرابة ثلاثة أسابيع.

– "ما الذي حدث؟"

– "تمساح."

قالها جينتري وعقله شارد عن ذاك الرافد من روافد الأمازون بآلاف الأميال.

ضحكت لورا:

– "تمساح؟ (Crocodilo)؟"

نطقتها بالإسبانية وضحكت ثانية:

– "لا أصدقك. أنت تخفي الكثير من الأسرار."

وضعت يدها على صدره، فوق قلبه تماماً، ثم أبعدتها وبدأت تقبله هناك.

– "احتفظ بأسرارك يا ستة ، احفظها في قلبك، لكن أرجوك، اترك لي فيه متسعاً صغيراً. حسناً؟"

– "حسناً."

وعندها، لم يعد بمقدوره المقاومة أكثر. اعتدل في جلسته ببطء، وقبل شفتيها، ثم قلبها برفق لتستلقي على ظهرها. أحس بجسدها دافئاً صلباً، غير أن عضلاتها المشدودة القوية كانت تتوارى خلف بشرة ناعمة مطواعة. شعر بتسارع نبضات قلبها، فبث في نفسه الطمأنينة؛ أدرك أنهما في هذا الأمر معاً، وأنها لم تكن تراقبه ببرود كمدربة تقيّم أفعاله. حين كانت حركته تهدأ، كانت تجذبه نحوها، وحين كان يزفر بعمق، كانت تطوق فمه بفمها. كلما أمال رأسه نحو الباب أو النافذة، أمسكت برأسه بين يديها وأعادته إليها. وعندما كان يتألم من جرح فخذه، كانت تجذبه فوقها وتقبله حتى يتبدد الألم.

حتى تلاشت الأبواب والنوافذ تماماً، ولم يعد هناك خطر ولا ألم؛ لم يبقَ في هذا الوجود إلا هما، فوق سرير صغير، آمنين من كل سوء.

لقد مارسا الحب لساعات.



استيقظ جينتري من نوم هو الأعمق منذ سنوات. شعر بدفء الشمس يغمر السرير من حوله.

كانت هناك، ملتفة حول جسده بإحكام، وجهها الصغير يستند إلى ثنية ذراعه، ويدها اليسرى ترتاح فوق صدره. أنفاسها، ودفء جسدها، وعبير بشرتها؛ كان كل شيء مذهلاً.

لم يكن كورت يدرك من قبل أن للبشرة عبقاً.

لم تتحرك؛ فنظر إلى وجهها، ولم يلمح سوى شفتيها الممتلئتين وطرف أنفها. كان شعرها الأسود القصير مبعثراً، بينما يمسك شريط مطاطي صغير بخصلاته الطويلة خلف أذنيها.

تذكر إيدي، فاجتاحت جسده موجة من الذعر.

هل هذا خطأ؟

هاجمته مشاعر الذنب العاطفي من حيث لا يحتسب؛ فلم يسبق له أن شعر بمثل هذا في حياته. فكر في وقوفه أمام قبر صديقه ليودعه، ليجد نفسه بعد ثلاثة أيام يمارس الحب مع شقيقته الصغرى – ذاك الكيان الذي نذر الصديق الراحل حياته لحمايته.

فتحت عينيها ونظرت إليه.

سألها بحذر:

– "هل أنتِ بخير؟"

قبلته، فنسي ذعره ذاك.

– "كم الساعة؟"

– "لقد تأخر الوقت. علينا أن نتحرك."

– "إلى أين نحن ذاهبون؟"

– "نحتاج سيارة، محشوة بالوقود وجاهزة للانطلاق. بمجرد لقاء فليجر واستلام الوثائق، سنتجه شمالاً نحو الحدود. سنتناوب على

النوم، وسنواصل السير طوال الليل. ينبغي أن نصل بحلول الثالثة من عصر غدٍ لنلتقي بعائلتكِ."

تنهدت قائلة:

– "سنسرق سيارة؟ يبدو أنه سيتعين عليك مساعدتي في العثور على عمل في الولايات المتحدة لأرد ثمن كل هذه المركبات لأصحابها."

أدرك كورت أنها تفترض عبوره الحدود مع عائلتها. كان قد أخبرهم بأنه لا يملك أوراقاً، لكنها ربما ظنت أنه رتب الأمر مع جيري.

اللعنة. لم يرد تضليلها، لكنه لم يستطع إخبارها بأنه سيكون في خطر داخل الولايات المتحدة لا يقل عن خطره هنا في المكسيك. شعور جديد بالذنب داهمه من زاوية أخرى:

هل مارست الحب معه لمجرد ظنها أنهما سيبقيان معاً حين ينتهي كل هذا؟ وهل ثمة سبيل أصلاً لبقائهما معاً؟

ضمته إليها بإحكام وهي تتمطى متثائبة.

سألته بابتسامة تلوح في صوتها:

– "أحقاً يجب أن ننهض الآن؟"

سمع كورت وقع أقدام في الممر، فتجاهله ليجيبها:

– "نعم، لابد من ذلك؛ فسرقة سيارة في مدينة لا نعرفها تتطلب بعض الوقت."

– "هل يمكننا الذهاب إلى كنيسة (السيدة العذراء)؟ لبضع دقائق فقط؟"

تنهد كورت؛ كان ينبغي له توقع ذلك، فبطريقة ما أنسته تلك الليلة ولعها بالكنائس.

– "لخمس عشرة دقيقة لا أكثر، وإلا فلن نتمكن من–"

صمت كورت فجأة.

– "ماذا؟ (¿Qué?)"

حول انتباهه بصمت نحو الباب في الطرف الآخر من الغرفة.

– "ماذا؟"

اعتدل في جلسته بسرعة، والتقط مسدس الـ بيريتا من الطاولة الجانبية وصوبه نحو الباب الذي كان يتوارى خلف التلفاز وخزانة الأدراج. أمال رأسه قليلاً دون أن ينطق ببنت شفة.

ساد الصمت لثوانٍ. لم تنطق لورا بكلمة أخرى، بل توقفت أنفاسها وهي تراقب الظهر العضلي للأمريكي الجالس على السرير. لاحظت ندبة بشعة فوق لوح كتفه الأيسر، لكن قلبها كان قد بلغ حنجرتها. هل سمع شيئاً؟

لم يتحرك كورت؛ ظل سلاحه مصوباً نحو الباب، ورأسه مائلاً يتنصت لأي صوت. نهض ببطء – لم يكن يرتدي سوى سرواله الداخلي – وأمال رأسه يميناً ليلقي نظرة من النافذة على الشارع في الأسفل، بينما بقي مسدسه موجهاً نحو الباب.

نظر إلى شارع دونسيليس؛ بضع سيارات مركونة، لا حركة مرورية، ولا مارّة. كان كل شيء هادئاً.. أهدأ مما ينبغي لصباح عادي.

فجأة، لاح حذاء أسود أمام وجهه، يتدلى من الأعلى متأرجحاً نحو النافذة. همَّ برفع مسدسه لمواجهة التهديد، لكنه سمع دوي انفجار الباب خلفه. تأرجحت فوهة سلاحه، عالقة بين خطرين.

تحطم زجاج النافذة؛ وعلى بُعد ثلاث أقدام من صدره العاري ووجهه، تناثرت الشظايا البلورية، وارتطم الحذاء الأسود به مباشرة.

طار جينتري إلى الخلف، وأفلت المسدس من يده اليمنى وهو ينقلب في الهواء. في لمحة خاطفة، لمح الضابط الفيدرالي الذي هبط من النافذة؛ سقط الرجل بقوة على ظهره لكنه استعاد توازنه بسرعة، واعتدل في جلسته ورفع مدفع MP5 نحو الرجل الملقى على الأرض في الطرف الآخر من الغرفة.

وإلى يساره، سمع كورت انفجاراً ثانياً؛ فتطاير التلفاز وخزانة الأدراج عبر الغرفة ليرتطما بالجدار. ومن خلف الركام، رأى رجالاً

يقتحمون المكان: اثنان، ثم أربعة، فستة. ضباط فيدراليون بأقنعة ونظارات واقية، مدججون بالبنادق الرشاشة والدروع الواقية. بدوا أكثر هيبة وترهيباً وسط هالة الدخان المنبعثة من الشحنات المتفجرة التي حطمت الباب والعوائق.

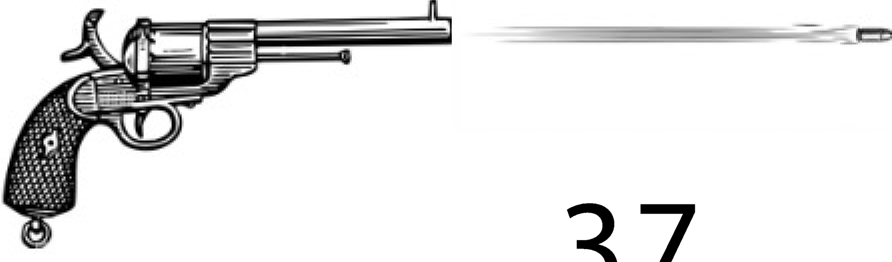
تناهى إلى مسمعه صوت تحطم الزجاج بينما كان الهابط من النافذة يحاول الوقوف على قدميه.

كان لورا تصرخ.

رفع كورت يديه وتحدث إليها قائلاً:

– "لا تتحركي! افعلي ما يأمرون به! لقد وقعنا في قبضتهم."





37

كانت الحرارة شديدة على أرضية السيارة السيدان الخلفية. ثلاثة أزواج من الأحذية السوداء تدوس على ظهر كورت ومؤخرته وساقيه لتبقيه منكبًا على وجهه؛ ولم يزد الشريط اللاصق على فمه، والأصفاد التي تقيد يديه خلف ظهره، والقناع الأسود فوق رأسه الوضع إلا اختناقًا. في بعض المرات كان العرق في عينيه يحرقه بشدة لدرجة أنه صرخ، مكتومًا بالشريط. وفي كل مرة يصدر فيها هذا الصوت، كان كعب حذاء في مؤخرة رأسه يسكته. شعر بالجروح على صدره من زجاج النافذة، وشعر بالرطوبة الدافئة لدمه وعرقه على الحصائر المطاطية تحته. حاول تحويل ثقله للأمام إلى كتفيه لتخفيف الألم، لكن هذا ضغط وجهه بقوة أكبر داخل القناع وجعل التنفس شبه مستحيل.

شعر بطرف كاتم صوت رشاش «MP5» يضغط في أسفل ظهره؛ كان يوخز فقراته القطنية مع كل مطب في الطريق.

كان راديو السيارة يعزف موسيقى «باندا» (banda) بأعلى صوت؛ إذا كان هناك حديث بين الرجال فوقه، لم يستطع سماعه وسط الأكورديونات الصاخبة والصنوج المدوية.

افترض كورت أن لورا قد ألقيت في مركبة أخرى؛ كان قد التقط لمحة عبر النافذة لعدة سيارات سيدان عادية بأربعة أبواب تتوقف أمام الفندق بينما كان يتم تقييده وتكميمه في غرفة الفندق. كما اختلس نظرة إلى شقيقة إيدي قبل وضع القناع وإطفاء الأنوار. كانت عينا لورا

الكبيرتان متسعتين ذعرًا؛ قلبها الرجال على وجهها فوق السرير وقيدوها هناك.

كانت عارية.

لم يكن لدى جينتري أدنى فكرة عما إذا كان هؤلاء شرطة حقيقيين، أو حتى لو كانوا حقيقيين، إن كانوا أخيارًا أم أشرارًا. لم يعرف إلى أين يأخذونه؛ حتى المواطن (ciudadano) الذي ولد ونشأ في مكسيكو سيتي لم يكن ليتمكن من تحديد موقعه بعد عشرات الانعطافات وهو مقنع ومنكب على وجهه.

أخيرًا، توقفت السيارة، وسُحب من كتفيه؛ جعل العرق الذي يغطي جسده قفازات الرجال تنزلق وهم يصارعون للإمساك به. اقتيد كورت قسرًا إلى الأمام، وشعر بضوء الشمس يغادره وسمع أصداء غرفة كبيرة. واصل السير، ودخل ما بدا وكأنه مصعد بضائع بصوته وحركته، ونزل ما لا يقل عن ثلاثة طوابق.

بمجرد الخروج من المصعد، دُفع للأمام بضع ياردات ثم أُدير، وفُكت قيود يديه، ثم ضُغط جسده مقابل قضبان معدنية باردة. سياج، ربما؟ مُدت ذراعاه في وقت واحد وقُيدتا بعيدًا عن جسده، رجلان لكل طرف. رُكلت بواطن ساقيه حتى باعد بينهما، وقُيدت كاحلاه بأصفاد، وساقاه متباعدتان تمامًا. ظهره وذراعاه وساقاه ومؤخرته تضغط على المعدن البارد.

دخل مقص طويل وبارد في سرواله الداخلي. حاول الارتداد بعيدًا عن المعدن الحاد، لكنه لم يستطع الهرب. قُصت ملابسه الداخلية عن جسده، وأصبح عاريًا تمامًا، مقيّدًا وممدود الأطراف على معدنٍ بارد. بدأ يرتجف من شدّة البرد.

عندها فقط، نُزع القناع عن رأسه. حجب البخار رؤيته للحظة وهو يتصاعد من شعره ولحيته؛ تقاطرت حبات العرق الغليظة من رموشه

على خديه، مسببة دغدغة وهي تسيل عبر شعر وجهه وصولاً إلى ذقنه.

كانت الغرفة عبارة عن قبو حجري مربع، عشرين قدمًا في عشرين، بسقف منخفض وأرضية أسمنتية. أضاء مصباح عارٍ معلق في المركز وسط الغرفة ومعظم الجدران، لكنه ترك الزوايا غارقة في ظلام دامس. فاحت رائحة العفن في الغرفة، لكنها لم تكن الرائحة الوحيدة.

شم أيضًا رائحة الموت التي لا تخطئها الأنف. كان هذا «مسلخًا» بشريًا، غرفة تعذيب. كانت هناك دماء جافة على الجدران، وتلطخت الأرضية الأسمنتية بجداول سوداء من الدم تقود نحو المصرف في وسط الغرفة.

قبالة كورت كان الباب الخشبي لمصعد البضائع. وبجانبه درج ضيق بلا باب.

وقف أربعة رجال في الجوار – اثنان يرتديان زي الشرطة الفيدرالية. كانا قد خلعا الأقنعة والنظارات الواقية والخوذات، لكن رشاشاتهما كانت تتدلى من أحزمة الصدر.

أما الرجلان الآخران فكانا يرتديان مآزر جلدية. كانا مكسيكيين؛ لم يكونا شرطيين؛ وبدا عليهما التجهم والشر. أحدهما كان قصيرًا وبدينًا؛ رأسه أصلع ومغطى بالعرق الذي لمع تحت الضوء. كان يعمل بجد على نوع من الطاولات المتحركة على بعد لا يزيد عن ستة أقدام أمام جينتري وإلى يساره. الآخر كان شابًا، ربما في العشرين من عمره، يرتدي مثل الأكبر سنًا.

أيقن جينتري أن هؤلاء سيكونون جلاديه.

لم يكن هناك أي من عناصر «البدلات السوداء» في الغرفة، وهو ما اعتبره كورت في البداية علامة جيدة، لكن كان عليه البحث بجهد ليرى ذلك الجانب الإيجابي. على بعد بضعة أقدام أمام السياج

الحديدي أو الشبكة التي صُفد جسده العاري إليها الآن، كانت هناك بطارية سيارة موضوعة على عربة جر، وتلتف أسلاك صعودًا إلى أداة معدنية غريبة على الطاولة المتحركة. وامتدت المزيد من الأسلاك الملتفة من هذا الجهاز لتنتهي بمشابك كبيرة مثبتة على السياج الذي قُيد إليه جينتري.

كان كورت خبيرًا بهذه الأمور. فهو يعرف جهاز التعذيب بالصدمات الكهربائية حين يراه. وحالياً، كان عاريًا تمامًا وموصولاً بواحد.

قال الرجل البدين بالإسبانية:

– "مرحبًا بك في الجحيم. سأكون مرشدك السياحي ونحن نزور النهاية المروعة، والمؤلمة، والبطيئة لحياتك."

لم ينبس جينتري بكلمة.

قال الرجل القصير البدين الأصلع وهو لا يزال منشغلاً بعمله:

– "ينادونني بـ «إل كارنيسيريتو» (الجزّار الصغير)."

كان يرتب الأدوات على الطاولة المتحركة بينما يتحدث. مناشير، ومثاقب يدوية، ومطرقة من الفولاذ المقاوم للصدأ تلمع في ضوء المصباح العاري. سكاكين، وملاقط، ومقرضات جراحية، وأدوات طبية أخرى غطت الأسطح الأفقية للطاولة. ودون أن يرفع نظره عن معداته، تابع قائلاً:

– "أنا أعمل لصالح الدون دانيال. أنا أنتج الألم، وأنتزع المعلومات ممن يترددون في تقديمها. أنا بارع للغاية فيما أفعله."

حاول كورت التصنع بعبارة رجولية، رغم أنه لم يشعر بها حقًا:

– "لا بد أن والدتك فخورة بك."

شد وركل ضد قيوده، وأدرك أنه لن يستطيع تخليص نفسه من هذه الأداة الجهنمية.

باختصار، لقد انتهى أمره تمامًا.

اكتفى إل كارنيسيريتو بالابتسام.

- "هذا هو تلميذي."

لوّح بيده السمينة نحو الشاب ذي المئزر. ثم عاد لعمله على الطاولة. أدار قرصًا على الجهاز قليلاً، فشعر كورت بالكهرباء تدغدغ عموده الفقري. نظر الرجل البدين إلى مؤشر على وجه الجهاز الأسود. يبدو أنه كان مجرد اختبار، لأنه لم يسبب ألمًا. أدار القرص مرة أخرى لخفض الطاقة ونظر إلى ضحيته.

- "الكهرباء هي مجرد وسيلة واحدة تحت تصرفي. خلال الساعات القليلة القادمة ستتحمل معاناة لا توصف."

تقدم إل كارنيسيريتو للأمام، مقتربًا من جسد كورت، ومد يده مرتديًا قفازًا مطاطيًا، وبدأ بنزع شظايا الزجاج من الجروح في صدر الأمريكي التي تسبب بها الفيدرالي عندما اقتحم النافذة. جفل كورت من الألم لكنه حاول إبقاء وجهه جامدًا قدر الإمكان؛ لم يرد تشجيع هذا السادي بإظهار مدى ألمه.

ابتسم الرجل؛ رأى كورت بوضوح أن فكرة قد خطرت ببال الجزار. استدار بسرعة وخطا نحو تلميذه، وأصدر أمرًا بصوت خافت. أومأ تابعه برأسه وغادر الغرفة مسرعًا عبر الدرج.

بينما كان يركض صاعدًا الدرج وبدأت أصداء وقع أقدامه تتلاشى، سُمعت خطوات جديدة تنقر قادمة من الأعلى. رجلان، ميز جينتري ذلك، أحدهما يرتدي حذاءً ثقيلاً والآخر حذاءً ناعمًا.

في غضون ثوانٍ وصل الرجلان الجديدان إلى الزنزانة. أحدهما ببدلة سوداء. شاب ومهندم، بشعر قصير ولحية صغيرة وشارب، وهو المظهر الشائع لقيادات المنظمة الإجرامية. كان يحمل مدفعًا رشاشًا من طراز «HK UMP» يتدلى من حمالة على كتفه الأيمن.

تناقضت بدلة الرجل الفاخرة ووجهه النظيف مع المناظر والروائح المريضة في قبو الجحيم هذا.

والرجل الذي بجانبه تناقض مع الزنزانة أيضًا. كان أمريكيًا. أبيض البشرة، نحيلاً، بشعر بني مجعد. ارتدى قميصًا رسميًا قصير الأكمام ومجعدًا وبنطالاً كاكيًا.

قلب كورت عينيه.

جيري فليجر.

عبس كورت في وجهه حين دخل إلى الضوء. قال كورت بجفاف:

– "يا زميلي الأمريكي."

نظر موظف السفارة الأمريكية الشاب حول الغرفة، وقد أذهله بوضوح المكان الذي وجد نفسه فيه. كان مصدومًا، وفي موقف يفوق قدرته على التحمل، وخائفًا. حاول إخفاء ذلك، لكن كورت رأى الرعب على وجهه.

سأل جيري الرجال بالإسبانية وهو يدخل الغرفة:

– "لماذا لا يزال حيًا؟"

ظل فليجر ينظر حول الغرفة؛ بوضوح، كان يستطيع شم رائحة الموت، ورؤية البقع على الجدران والأرضية. كان يعرف ماهية هذا المكان. وما يحدث فيه. نفض الفكرة عن رأسه ونظر إلى كورت.

– "أنا رجل أعمال يا صاح. هذه هي الطريقة الأمريكية. أصررت على المجيء إلى هنا... لحماية مصالحي في هذه الصفقة."

قال كورت:

– "سيقتلون الفتاة؛ يريدون قتل زوجة أخيها وطفلها الذي لم يولد بعد."

أومأ جيري برأسه. من الواضح أنه كان يشك في هذا على الأقل إن لم يكن يعرفه بالتأكيد.

– "حظهم سيئ إذن."

– "فعلت هذا من أجل المال؟"

أومأ جيري ثم هز كتفيه.

– "إنه أكثر من مجرد مال، في الواقع. أنا أسجل موقفاً."

– "أي موقف؟"

– "الموقف هو، يا صاح، أنني أكره هذا المكان."

– "تكره المكسيك؟"

– "بالطبع. ألا تكرهها أنت؟"

لم يرد جينتري.

– "نعم، حسناً، أنت تضاجع فتاة مكسيكية (beaner) مثيرة، لذا لا بد أنك تحب المكان، أليس كذلك؟"

– "أنت دبلوماسي مدرب؟ يا للمسيح."

– "هل سبق لك أن زرت الدنمارك؟"

كذب كورت:

– "لا."

– "الدنمارك هي الروعة بحد ذاتها. ذهبت للجامعة في الدنمارك؛ أتحدث الدنماركية، وأعرف شوارع كوبنهاغن الخلفية مثل ظهر يدي. عُينت في الخارجية، وإلى أين يرسلني أولئك البلهاء في «فوغي بوتوم» (مقر الخارجية) بحق الجحيم؟ الدنمارك؟ فنلندا؟ النرويج؟ كلا واللعنة! المكسيك! هل تمزحون معي؟ أربع سنوات أختم تأشيرات لآكلي الفاصوليا[8]. تباً لذلك! طالما أنا عالق هنا، سأجني بعض المال على الطريق."

– "وتجني المال بتسليم لورا إلى دي لا روشا؟"

ابتسم جيري.

– "أوه... أنت لا تفهم، أليس كذلك."

– "أفهم ماذا؟"

[8] مصطلح *"Beaners"* أو آكلي الفاصوليا: يعود إلى الثقافة الشعبية الأمريكية، حيث ارتبطت الفاصوليا (*beans*) كأحد الأطعمة الأساسية بالمطبخ المكسيكي. استخدم اللفظ لاحقًا بشكل عنصري مهين للإشارة إلى المكسيكيين.

– "أنا أسلم الفتاة لـ دي لا روشا، نعم. لكن تلك خدمة مجانية. أنا أجني مالي من تسليمك لـ وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)."

هز جينتري رأسه. وقال ببطء:

– "جيري، جيري، جيري. فكر في الأمر لثانية. ماذا ستفعل «لانغلي» (مقر الـ CIA) عندما يكتشفون أن موظف شؤون قنصلية يعمل مع «البدلات السوداء»؟ لن تحصل أبدًا على ذلك التعيين في كوبنهاغن."

ابتسم جيري مرة أخرى، وكأنه أذكى ألف مرة من الرجل العاري المقيد بالسلاسل.

– "«لوس تراجيس نيغروس» (البدلات السوداء) يقومون بالتسليم لـ الـ CIA، ثم يعطونني المكافأة. أحصل على المكافأة، وأغادر من هنا. خارج المكسيك، وخارج وزارة الخارجية."

– "لقد خططت لكل شيء، أليس كذلك؟"

– "لدي اتفاق مع الرجل الكبير نفسه. دي لا روشا."

– "الصفقات مع الشيطان عادة لا تؤتي ثمارها على المدى الطويل يا فتى."

– "إنه رجل أعمال. وأنا رجل أعمال. الأمور طيبة."

ثم نظر إلى الجزار الصغير، الذي كان يقف بصبر بينما يتحدث الرجلان الإنجليزية. قال جيري بالإسبانية:

– "هل هذه نوع من آلات الصدمات الكهربائية؟"

أومأ إل كارنيسيريتو برأسه.

– "إذن اصعق هذا الـ بينديخو (الأحمق) مرة واحدة من أجلي يا زعيم."

ابتسم الجزار الصغير والتقط محفظة جلدية قديمة من الطاولة.

– "افتح فمك، من فضلك. لا يمكننا أن ندعك تقضم لسانك ونحن لا نزال بحاجة إليك للتحدث."

فعل كورت ما أُمر به؛ كان يعرف ما هو قادم، وكان يعلم أن الجلد في فمه سيساعد. أبعد لسانه عن أسنانه، وعض بقوة، وأدار الجزار الصغير القرص.

سرت الكهرباء في جسد كورت، من أصابع قدميه إلى شرجه إلى عنقه. تقوس ظهره، وجحظت عيناه، وانبعثت صرخة مرتعشة من أعماق حلقه خلف المحفظة.

بعد بضع ثوانٍ أُعيد القرص إلى الأسفل. لمع عرق جديد على وجه السجين وصدره.

توقف المعذب للحظة. سحب المحفظة من فم سجينه.

– "أين إيلينا غامبوا؟"

– "كيف تقول «تبًا لك» بالإسبانية؟"

أُعيدت المحفظة إلى فم جينتري، وعض عليها. نبضت الكهرباء عبر جسده مرة أخرى. ارتد رأسه للخلف بشكل لا يمكن السيطرة عليه، ليرتطم جمجمته بالشبكة الحديدية خلفه.

توقف التعذيب. أزيلت المحفظة. وتكرر السؤال.

– "أين إيلينا غامبوا؟"

– "سحقا لك..."

أُعيدت المحفظة إلى مكانها. ازدادت الصدمات قوة، والألم حدة؛ ومزقت التشنجات العضلية جسده في كل الاتجاهات.

راقب صاحب البدلة السوداء والفيدراليان ما يحدث.

أشاح جيري فليجر بنظره بعيدًا.

بعد دقائق، سمح خلل فني في الآلات لكورت بفترة راحة من العذاب. عمل الجزار الصغير على جهاز الصدمات الكهربائية، وعاد تلميذه نازلاً الدرج ومعه كيس بقالة.

تابعت رؤية جينتري المشوشة حركات الشاب وهو يخطو إلى الطاولة ويخرج الأغراض من الكيس.

إبريق بلاستيكي فارغ، وكيس كبير من الملح، وزجاجة تكيلا رخيصة ورديئة، وكيس كبير من الليمون الأخضر.

أنّ كورت وترك المحفظة الجلدية الممزقة الآن تسقط من فمه إلى الأرض. وندم فورًا على إظهار رعبه. فهذا لن يؤدي إلا إلى تشجيع الرجل البدين. حول الجزار الصغير انتباهه عن الآلة، وبدأ في تقطيع الليمون إلى أنصاف. قطع التلميذ الليمون أيضًا؛ وبدوا معًا كثنائي من السقاة في حانة شاطئية. بمساعدة مساعده، عصر الرجلان العصير في الإبريق ثم ألقيا القشور بعد العصير.

سكب المساعد الكحول فوقه، وفتح إل كارنيسيريتو كيس الملح.

حتى أن كورت تمكن من إلقاء دعابة ساخرة:

– "سأتناول كأسي بلا ملح."

راقب المكسيكيون الثلاثة الآخرون في الغرفة بفضول. ضحكوا ونكتوا فيما بينهم، لكن كورت لم يكن في مزاج للتركيز على ترجمة مرحهم ليفهمه.

عندما امتلأ الإبريق بالتكيلا والملح وعصير الليمون، رفعه المعذب وسار نحو السجين العاري. رفعه أمام وجه كورت، وصفعه بضع مرات ليتأكد من انتباهه، ثم عبث الجزار بقطعة صغيرة من الزجاج المكسور العالقة أسفل الحلمة اليمنى للأمريكي مباشرة.

– "هل يمكنك تخيل كيف سيكون شعور هذا داخل جروحك المفتوحة والمتورمة؟"

ابتسم الرجل وهو يتحدث.

لم يقل جينتري شيئًا.

– "سأسألك أين تختبئ السيدة غامبوا. ولكن من فضلك... من فضلك، أتوسل إليك، لا تخبرني. أريد أن أفعل هذا بك!"

ضحك تجار المخدرات في الخلف عند المصعد. ونظر جيري بعيدًا.

أومأ كورت برأسه، وأخذ نفسًا طويلاً، ثم بصق في وجه المكسيكي الصغير القاسي. ركض مساعد الجزار الصغير ولكم كورت في أنفه.

لم يمسح الرجل البدين البصاق. بل ابتسم وقال:

– "أنت فقط تجعل وظيفتي أكثر متعة. في غضون ساعتين عندما أنشر رأسك عن جسدك الحي الذي يتنفس ويتلوي، سأشعر بالشفقة. شفقة لأن اليوم قد انتهى."

وبهذا رفع الإبريق، وسكب الخليط اللاذع ببطء على جسد الأمريكي العاري والمكشوط، وفرك السائل بيديه داخل الجروح المفتوحة، ومرغه فيها، وقهقه بصوت عالٍ كاد يطغى على صرخات السجين.

بعد دقيقة استُدعي المصعد إلى السطح. وضع المسلحان الفيدراليان في الغرفة أيديهم على سماعات الأذن، ونظر صاحب البدلة السوداء إلى هاتفه ورأى أنه فاتته مكالمة، غير قادر على سماع الرنين وسط صرخات العذاب في الغرفة الصغيرة.

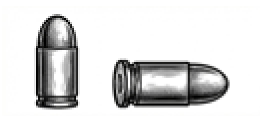
قبل أن يتمكن من تحديد هوية المتصل، تصلب أحد الشرطيين قليلاً، ونظر إلى إل كارنيسيريتو، وقال:

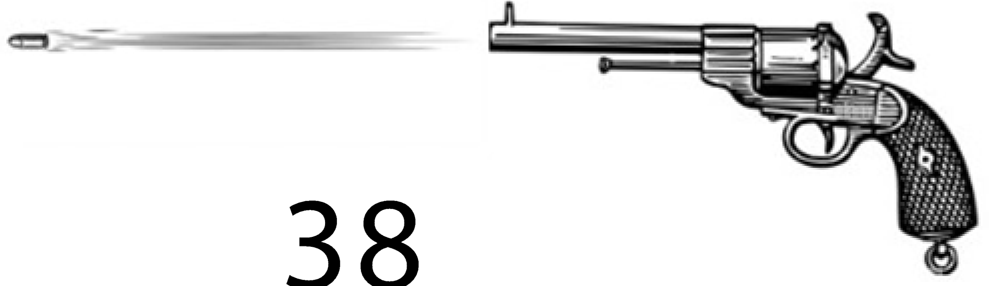
– "دي لا روشا هنا."

استمر كورت في الأنين من العذاب.

بعد ثوانٍ بدأ المصعد في النزول مرة أخرى؛ استغرق الأمر ثلاثين ثانية لتصل المقصورة بصوت ارتطام مكتوم. ارتفع الباب الخشبي. خرج ثلاثة رجال ببدلات سوداء، بدوا باهتين في الضوء.

تلوى كورت من الألم، منسيًا من قبل الآخرين في الغرفة. مرت عدة ثوانٍ قبل أن يتمكن من التعافي من الارتعاش المتبقي في عضلاته بما يكفي للتعرف على دانيال دي لا روشا في وسط القادمين الثلاثة الجدد.





38

أخذ دانيال دي لا روشا يتفحص (الغرينغو) من أخمص قدميه إلى مشاش رأسه. وقف في زاوية تلك الغرفة الباردة المظلمة كل من جيري فليجر، وإل كارنيسيريتو (الجزار الصغير) – ذاك الفتى اليافع الذي يتخذه دانيال ربيباً له – وكارلوس، الرجل الثاني في سطوة سبايدر، إضافة إلى الشرطيين اللذين أنزلا كورت من السيارة. تقدم كل من دانيال وإميليو وسبايدر خطوات نحو السجين.

توقف دانيال على بُعد ثلاث أقدام من أنف الأمريكي، وتمتم بذهول:

– "أهذا أنت؟ أنت حقاً؟"

اكتفى الأمريكي بالتحديق فيه.

وبالإسبانية، قال الرجل الذي يرتدي ثياباً لا تشوبها شائبة:

– "كنت أتوقع... لا أدري، ربما رامبو؟"

انفجرت الغرفة بضحكات صاخبة، ثم استطرد بالإنجليزية:

– "لقد سببت لي بعض المتاعب يا صديقي. والفضول يقتلني... لماذا؟"

لم يحرك (الرجل الرمادي) ساكناً، ولم يدرِ إن كان قادراً على النطق أصلاً، فقد كان يشعر باصطكاك أسنانه من شدة البرد والألم.

هز دي لا روشا كتفيه، وألقى نظرة على العربة المتنقلة التي تحمل الآلة والأدوات الجراحية، ثم عاود النظر إلى السجين وسأل:

– "أي نوع من التسلية كنت تمارسها مع صديقنا هنا يا (غوردو)؟"

أجاب الجزار:

– "حتى الآن، مجرد بعض الصعقات الكهربائية. كما استغللتُ الجروح التي غطت جسده من أثر الزجاج المحطم."

رفع الإبريق الذي فرغ الآن، فاستنشق دي لا روشا رائحته، وقطب حاجبيه لبرهة قبل أن يفتر ثغره عن ابتسامة.

– "مارغريتا الغرينغو."

– "نعم يا دون دانيال."

– "ممتاز. ألم تستخدم مهماز الحمير بعد؟"

– "ليس بعد. هل ترغب في المشاهدة؟"

أمال دانيال رأسه ونظر إلى رجاله متهكماً:

– "هل أرغب في المشاهدة؟" ثم التفت إلى جينتري: "وحدك أيها المخنث من قد يرغب في رؤية ذلك. أنا أدفع له المال حتى لا أضطر لمشاهدة مهماز ماشية يُحشر في خصيتيك ثم يُصعق بالكهرباء."

عضّ كورت على شفته السفلى ليمنعها من الارتجاف.

التفت دي لا روشا إلى جلاده وسأله:

– "أي أخبار عن امرأة آل غامبوا؟"

– "لا شيء. لقد تحدث مع الأمريكي الآخر بالإنجليزية، ولم أفهم ما قاله، لكنه لم يقل لي أي شيء ذي قيمة. هذا الرجل صلب للغاية."

رمق دانيال فليجر بنظرة خاطفة، ثم التفت إلى كارلوس الذي كان يتقن الإنجليزية وكان حاضراً وقت المحادثة التي دارت بين الأمريكيين.

– "لا شيء يا زعيم."

عاد دي لا روشا ليتفحص الرجل المصفد إلى السياج.

- "تلك ندبة جميلة فوق وركك. وأرى جرح رصاصة قديماً في فخذك أيضاً." تقدم خطوة ليتفحصه عن قرب: "عمره عام واحد على الأكثر." ثم أدار رأس كورت نحو اليسار بأطراف أصابعه: "حرق في عنقك... أقدم بكثير. خمس سنوات؟"

لا إجابة.

- "وهذه الجروح الصغيرة على وجهك وذراعيك؟ والكدمات على صدرك؟" هز دانيال كتفيه بلامبالاة: "أرى أنك لست غريباً عن الألم. ربما تقاوم محاولاتنا لانتزاع المعلومات منك."

استطرد قائلاً:

- "لا يهم. فشقيقة زوج إيدي في قبضتنا. سمعتُ أنكما نمتما معاً ليلة أمس. هل استمتعت بمذاق ثقافتنا يا صديقي؟ النساء اللاتينيات مشتعلات، مفعمات بالعاطفة، أليس كذلك؟ إذا لم تتحدث، فسنبدأ العمل عليها. والتقنيات المتاحة لدينا ستنتزع تلك العاطفة منها في دقائق، وسنحولها إلى جثة هامدة في غضون ساعة." ابتسم دي لا روشا لـ جينتري ثم سأله بحدة: "أين إيلينا غامبوا في هذه اللحظة؟"

هز كورت كتفيه بأقصى ما سمحت به ذراعاه المشدودتان.

- "من الواضح أننا نعلم أنك كنت تحاول تدبير وسيلة لإدخالها إلى الولايات المتحدة."

لم يصدر عن الرجل المعذب أمامه أي رد فعل.

- "لن تغادر المكسيك." ثم أردف الرجل الوسيم الذي يرتدي البدلة السوداء: "لماذا تهتم؟ هي ليست من عائلتك. هل لديك عائلة أصلاً؟" صمت كورت، فتابع دي لا روشا: "أؤمن أن العائلة هي أهم شيء في الوجود. ألا تؤمن بذلك أنت أيضاً؟"

استغرق جينتري لحظة ليتمالك نفسه، وحاول جاهداً أن يبدو صوته قوياً:

- "أعتقد أن عائلتك ستفتقدك كثيراً حين تموت."

– "ها ها، تهديد؟ أخيراً ينطق ليهددني؟ يا كارنيسيريتو؟"

– "أمرك يا زعيم."

– "الجو بارد هنا بالأسفل. ارفع درجة الحرارة."

– "أمرك يا زعيم."

أدار الرجل السمين القرص دون أن يضع بقايا المحفظة في فم ضحيته، ففقد جينتري صوابه؛ خرج جسده عن سيطرته، وتطهر عقله من كل فكرة إلا الرغبة المحمومة في الهرب من الألم والبحث عن الخلاص. كان قلبه يدق في صدره كما حدث حين كان تحت الماء والتمساح فوقه، عاجزاً عن العثور على بندقيته بينما تقترب تلك الأنياب القارضة أكثر فأكثر...

خفف "الجزار الصغير" من قوة التيار.

هوى رأس جينتري للأمام من شدة الإنهاك. ونظر للأسفل، فرأى أنه يبول على الأرض دون إرادة منه. كان العرق يتصبب من جسده العاري ممتزجاً ببوله وقطرات دمائه. وشعر بالامتنان لأنه تمكن من تجنب قضم لسانه.

حين رفع رأسه أخيراً، رأى لورا تُدفع داخل الغرفة من جهة الدرج، يداها مصفدتان أمامهما، ورجل من "البدلات السوداء" يدفعها من الخلف. سلمها الرجل لـ سبايدر، ثم استدار واختفى عائداً نحو الأعلى.

رغم كل العذاب، شعر كورت بالخزي والمذلة لأن مثانته قد خانته أمام عينيها.

كانت ترتدي سروالاً قطنياً أزرق وقميصاً أبيض بلا أكمام. كانت عينها اليمنى متورمة بلون أحمر مسود، وشفتاها غليظتين من أثر الضرب. وحتى في ذلك الضوء الخافت، رأى كورت أن قبضتي يديها كانتا مخدوشتين وملطختين بالدماء.

لقد كانت تقاوم.

فتاة شجاعة.

اقترب دانيال منه:

– "كدت تبول على بدلتي. كان ذلك سيغضبني كثيراً."

التفت دي لا روشا إلى الرجل الذي يمسك لورا من كتفيها:

– "سبايدر، أحضرها إلى الضوء، اجعلها تجثو على ركبتيها أمام الـ(غرينغو) الخاص بها. سنرى مدى عمق حبهما."

دفع الرجل المرأة الضئيلة لتسقط فوق الإسمنت، على بُعد أقدام قليلة من جينتري. سحب قائد منفذي دي لا روشا مسدساً فضياً من طراز .45 أوتوماتيك وسلمه لزعيمه. أمسك دانيال دي لا روشا السلاح وضغطه فوق رأس لورا وشعرها الأسود القصير.

– "إذا لم تخبرني الآن، في هذه اللحظة، بمكان إيلينا غامبوا، فسأفجر هذا الرأس الجميل. لن أعدّ إلى ثلاثة، ولن أكتفي بتهديدك بجرحها؛ سأقتلها ببساطة، هنا والآن، إلا إذا كانت الكلمات التالية التي تخرج من فمك هي مكان اختباء أرملة الرائد غامبوا."

صرخت لورا في الغرفة الضيقة:

– "لا تقـ..."

هوى دي لا روشا بمقبض المسدس .45 على رأسها، فسقطت لورا فوق الإسمنت القذر. ترنحت وهي تحاول جاهدة العودة لوضعية الجثو.

رفع كورت رأسه ونظر إلى دانيال دي لا روشا. وببطء شديد، أومأ برأسه، وتحدث بصوت خفيض:

– "حسناً. حسناً. استمع إليّ بعناية فائقة."

سحب دي لا روشا مطرقة المسدس، وضغطه بقوة أكبر على رأسها:

– "أنا أصغي إليك يا صديقي."

أومأ كورت ثانية، ثم هز كتفيه بلامبالاة:

– "أطلق النار على تلك العاهرة. لا يهمني أمرها."

اكتفى دي لا روشا بالتحديق فيه وفمه مفتوح قليلاً من الدهشة. التفت إلى "صاحب البدلة السوداء" خلفه:

– "إنه وغد متحجر القلب، أليس كذلك يا سبايدر؟ يذكرني بك." ثم عاود النظر لـ جينتري: "هذه خدعة. خدعة جيدة جداً، لكنك تخادع. أنت تهتم بما سيحدث لها." صمت مفكراً لبرهة طويلة؛ فمن الواضح أنه لم يتوقع رد الفعل هذا من الأمريكي.

قال جينتري:

– "لم أتطوع لهذا الهراء. ذاك الأمريكي العجوز، كولين، دفع لي خمسة آلاف دولار لأرعى عائلة صديقه الراحل لبضعة أيام. ألفان مقدماً، وثلاثة آلاف أخرى بعد عودتنا من بورتو فالارتا. لم يقل شيئاً عن استهداف كارتل لعين لهم."

قطب دي لا روشا حاجبيه الداكنين، واستوعب الكلمات الإنجليزية بدقة، ووزنها بعناية.

– "أنت موظف أمن خاص؟ حارس شخصي؟"

– "كنت كذلك. لقد تقاعدتُ للتو."

تشاور دي لا روشا مع سبايدر لبرهة بصوت خفيض لم يفهمه كورت. ثم عاد والتفت إليه وهو يهز رأسه:

– "لا. لا يا سيد. لا أصدقك. محاولة جيدة، لكن رجال شريكي أخبروه أنك هربتَ من الهاسيندا، ثم عدتَ إليها، معرضاً نفسك لخطر جسيم، لإنقاذ عائلة غامبوا. هذه ليست تصرفات أي مسلح مأجور سمعتُ عنه من قبل."

همَّ كورت بالكلام، لكن دانيال واصل حديثه؛ فلم يكن رجلاً اعتاد أن يقاطعه أحد.

– "أتعلم؟ ربما لن أقتلها الآن. ربما سأترك أكثر قتلتي المأجورين سادية ووضاعة يغتصبونها حتى الموت. سيستغرق الأمر وقتاً أطول،

نعم، لكنه سيكون أكثر إرضاءً لرجالي. ربما سأجعل (إل كارنيسيريتو) يفعل ذلك الآن أمام عينيك."

نظر كورت إلى الرجل السمين الأصلع الذي يرتدي المئزر الجلدي. وكان الجلاد يلعق شفتيه بترقب.

رنّ هاتف محمول. أخرجه إميليو من الجيب الأمامي لسرواله وبحث في الشاشة، ثم قدمه لزعيمه. أخذه دي لا روشا، ونظر إلى الاسم، وبزفرة حارة، فتحه.

– "نيستور، ألا يمكن للأمر أن ينتظر؟" صمت قصير ثم قال: "حسناً."

أبعد المسدس عن رأس لورا واستبدله بقدمه، وضغط بحذائه الإيطالي بقوة على مؤخرة جمجمتها، دافعاً الفتاة الضئيلة نحو الأرض الإسمنتية. وحين صارت ملقاة فوق الإسمنت المبلل بالبول، استدار ومشى نحو الدرج.

تحدث "الجزار الصغير" مع سبايدر. حاول كورت أن يتواصل بصرياً مع لورا، لكنها ظلت جاثية على ركبتيها، يداها المصفدتان ممدودتان فوق الإسمنت أمامها، ورأسها منكس. أراد أن يتحدث، أن يخبرها أن فرصتها الوحيدة للنجاة هي أن يتصرف وكأنه لا يبالي إن عاشت أو ماتت. كانت مقامرة يائسة، لكنه لم يرَ بديلاً آخر.

كان عليه أن يكون بارداً كالثلج، وأن يوهمهم أن حياتها لا تشكل أي ورقة ضغط عليه.

ثم رفعت بصرها إليه من الأرض، وكانت عيناها تفيضان بالحيرة.. وبالانكسار. تولد لدى كورت انطباع بأنها لم تفهم أن مناورته كانت لمصلحتها؛ لقد صدقت هراءه بأنه لا يبالي بأمرها.

أشاح كورت بوجهه عن عينيها الحزينتين ونظر إلى زعيم المخدرات في الطرف الآخر من الغرفة. استطاع سماع مقتطفات من جانب دي لا روشا في المكالمة الهاتفية، لكن معظمها كان إما سريعاً

جداً أو مشحوناً بالعامية المكسيكية لدرجة يصعب على جينتري فهمها. ومع ذلك، التقط بعض ما دار في الحوار.

– "لا اتفاق. أحتاج وقتاً لانتزاع المعلومات. أربع وعشرون ساعة... حسناً، يمكنهم إرسال رجل واحد للمعاينة، لكن لا يمكنهم اللمس... قتله؟ لا بأس بذلك... حسناً، لكنهم لن يحصلوا على الجثة إلا حين ننتهي منه. اجعل هذا واضحاً."

أنهى دي لا روشا المكالمة وعاد إلى القبو، وتشاور بصوت خفيض مع سبايدر لبرهة. دار بينهما جدال قصير، لكنه سرعان ما هدأ. ثم وجه حديثه لسجنائه:

– "تغيير في الخطط. ثمة من سيأتي للتعرف على قطعة القذارة هذه."

سأل جيري من الزاوية:

– "من؟"

– "شخص (غرينغو) من وكالة الاستخبارات المركزية CIA."

خرج تعليق جيري التالي في نبرة توسلية باكية:

– "الاستخبارات المركزية ستأتي إلى هنا؟ الآن؟"

أومأ دي لا روشا برأسه:

– "يصرون على التأكد من أن هذا هو الوغد الذي يبحثون عنه. إذا كان هو الشخص المنشود، فسينصرف رجل الاستخبارات، وعندها يمكننا العمل على هذا الأمريكي اللعين هنا لانتزاع المعلومات التي نحتاجها." نظر إلى جينتري وتابع: "بعد ذلك، يريدون منا قتله وإلقاء رأسه قرب السفارة."

اندفع فليجر من الزاوية المظلمة نحو دي لا روشا:

– "انتظر! لا! إذا كان (الجاسوس) في الطريق، فعليّ الخروج من هنا! لا يمكنني السماح لهم برؤيتي! سأدخل السجن بتهمة العمل معكم!"

هز دي لا روشا كتفيه؛ فمن الواضح أنه لم يكن يبالي بمصير جيري فليجر. ومع ذلك قال:

– "ستبقى هنا مع جائزتك؛ أليس هذا ما طلبته؟ ليعطِ أحدكم جيري قناعاً." سحب أحد الفيدراليين قناع وجه (بالاكلافا) من جيب سرواله الجانبي، وألقاه للأمريكي الذي سحبه فوق رأسه، وهو يصارع لتعديل ثقوب العينين. وحين استقر القناع، نظر إلى جينتري. كان من الجلي أن السجين يمكنه كشف هويته رغم القناع. لم تكن هذه الخطة منطقية أبداً. قال من خلف القناع النايلوني:

– "سيد دي لا روشا، ماذا لو–"

– "يكفي ثرثرة!" وجه دانيال المسدس .45 نحو جيري، فصمت الأخير على الفور وتراجع ملتصقاً بالجدار ويداه مرفوعتان استسلاماً.

التفت دي لا روشا إلى كورت:

– "أنت لا تملك الكثير من الأصدقاء، أليس كذلك؟ الاستخبارات المركزية تتوق لأن أقتلك."

سأل جينتري:

– "وماذا ستحصل أنت في المقابل؟"

– "ستزودنا الاستخبارات المركزية بمعلومات من إدارة مكافحة المخدرات DEA[9] حول صلات كارتل مادريغال بحكومات في أمريكا الجنوبية."

تقدم جيري خطوة نحو الضوء ثانية:

– "والمال، أليس كذلك؟ ما زلت سأحصل على–"

وجه دي لا روشا المسدس نحو فليجر مرة أخرى:

– "المال أم الرصاص؟ (Plata o plomo؟)"

– "المال يا زعيم. المال بكل تأكيد." تراجع فليجر ثانية.

---

[9] إدارة مكافحة المخدرات *DEA* : اختصار *Drug Enforcement Administration*، وهي وكالة فدرالية أمريكية مختصة بمكافحة المخدرات، تأسست عام 1973، وتتولى ملاحقة شبكات تهريب المخدرات داخل الولايات المتحدة وخارجها، وغالباً ما تعمل في أمريكا اللاتينية ضد الكارتلات بالتعاون مع الجيوش والحكومات المحلية.

تابع دي لا روشا:

– "لذا سأتركك الآن؛ فشركائي يصرون على ألا أكون هنا حين يصل رجال الاستخبارات المركزية. لكني سآخذ عاهرتك الصغيرة معي. سيُحضر الجاسوس هنا للتعرف عليك ثم يُصرف. وسيكون أمام (الجزار الصغير) الساعات الأربع والعشرون القادمة ليكتشف ما تعرفه عن إيلينا غامبوا، وسيكون أمامي بقية حياتي لأكتشف ما تعرفه الصغيرة لوريتا عن إيلينا غامبوا."

ساد الصمت الغرفة.

– "السؤال الوحيد هو، من منا سيستمتع أكثر بعمله؟"

أمسك سبايدر الفتاة من شعرها وجذبها لتقف على قدميها، فصرخت من شدة الحركة. نظر دي لا روشا إلى جينتري نظرة أخيرة وهو يتجه نحو الباب:

– "لقد كلفتني الكثير، والآن ستدفع الثمن."

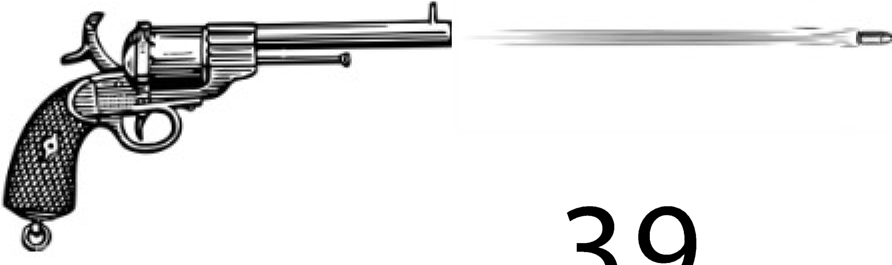
وبينما كان يدخل ممر الدرج، نادى عائداً نحو الغرفة:

– "يا كارنيسيريتو، ساعد صديقنا الأمريكي جيري هنا، وعذب هذا السجين عذاباً يجعله عاجزاً عن النطق حين يأتي الجاسوس للتعرف عليه."

أجاب الرجل السمين:

– "أمرك يا زعيم." وأدار القرص فوق الطاولة إلى أقصى جهد كهربائي ممكن.





39

اصطحب رجال «البدلات السوداء» رجل وكالة الاستخبارات المركزية من حديقة «تشابولتيبيك»؛ وكما هو مرتب مسبقًا، كان يرتدي ربطة عنق حمراء ويقف على درجات «المتحف الوطني للأنثروبولوجيا». كان رجلاً ضخمًا، بشعر أشقر يلامس ياقته، وعنق مكتنز تكاد ذقنه تختفي فيه. وكان يزداد سمنة بمرور الدقائق أيضًا. كان قد انتهى لتوه من التهام مخروط آيس كريم بنكهة «دولسي دي ليتشي» (مربى الحليب)، اشتراه من كشك مقابل الدرجات، وكان يمسح يديه السميكتين من البقايا اللزجة حين وصلت سيارة «البدلات السوداء».

كان هذا الرجل يومًا ما في قمة لياقته البدنية، لكنه أهمل نفسه. فوظيفته الحالية لا تتطلب الحفاظ على لياقته.

توقفت شاحنة رمادية أمامه في شارع «لاس غروتاس»، وانزلق الباب الجانبي، وصعد الرجل الضخم من الـ CIA إلى الداخل.

امتدت أربعة أزواج من الأيدي المتمرسة لتفتيشه فور انطلاق الشاحنة جنوبًا نحو شارع «باسيو دي لا ريفورما». أُخذت حقيبته وفُتشت، ووضع غطاء على رأسه وخضع لتفتيش دقيق، وسُحبت محفظته من بنطاله البوبلين، ورُفع قميصه الأبيض ذو الأزرار للتحقق من وجود أجهزة تنصت.

كان يعلم أن الأيدي التي تتحسسه الآن هي ذات الأيدي التي ستقتله إذا تلقت أوامر بذلك من أسيادها.

انعطفت الشاحنة يسارًا، وهو ما لاحظه رجل الـ CIA من تحت عصبة عينيه، لكنه لم يتوقع حقاً أن يتمكن من تمييز الوجهة التي يُقتاد إليها.

لقد زار مكسيكو سيتي من قبل، نعم، لكن هذه لم تكن منطقته.

جلس بهدوء بين مرافقيه وهم يقودون عبر الزحام؛ لقد ركب شاحنات وهو معصوب العينين، محاطًا بمسلحين محليين، مرات أكثر مما يود تذكره. في بيروت، في كوسوفو، في تايلاند، في الصومال، وفي أماكن أخرى قذرة حول هذا الكوكب البائس.

عادة ما كان يُحشر ككومة غسيل في سيارة أو شاحنة ليُنقل إلى موقع سري لمقابلة جهة اتصال. لكن هذا كان مختلفاً. كان هنا، في المكسيك، وليس أي موظف بائس آخر من الوكالة، لسبب واحد ووحيد.

كان يمتلك قدرة يفتقر إليها الكثيرون.

كانت لديه القدرة على التعرف بشكل قاطع على كورتلاند جينتري، الاسم الكودي «فايوليتور»، رمز النداء «سييرا ستة»، والملقب بـ «الرجل الرمادي»، في ثانية واحدة.

ولِمَ لا؟ لقد عملا معًا لخمس سنوات.

قضى رجل الـ CIA الضخم اليومين الماضيين في بويرتو فالارتا، بانتظار إشارة من ضباط الحالة المحليين بالعثور على الهدف. اشتبه في أن فريق تصفية من «قسم الأنشطة الخاصة» (SAD) قد انتقل إلى مسرح العمليات أيضًا، لكن لن يكون هناك أي تواصل بينه وبينهم.

صباح الأمس، طار إلى مكسيكو سيتي للانتظار في السفارة ترقبًا لظهور الرجل الذي تشتبه «لانغلي» في كونه الموظف السابق رقم واحد غير المرغوب فيه. كانت السفارة مغطاة بصور الرجل الذي

ينزلق على خطوط الهاتف فوق الاشتباك في بويرتو فالارتا. من الصورة وحدها، لم يكن لدى رجل الـ CIA الضخم في الشاحنة أي فكرة عما إذا كان هذا زميله السابق أم لا، لكن الحيلة بدت بالتأكيد كشيء قد يحاوله «فايوليتور»، وكشيء يمكنه تنفيذه بنجاح.

والأهم من ذلك، كان رجل الـ CIA يعلم جيدًا أن الرهان ضد كورتلاند جينتري خاسر دائمًا. عندما يتعلق الأمر بالقتال عن قرب، باقتحام الأبواب والقضاء على الأشرار في الغرفة، بإرسال وحدة سرية صغيرة ضد عدو أكبر واحتمالات أضعف، كان «سييرا ستة» هو الأفضل.

لذا، اشتبه رجل الـ CIA في أنه كورت؛ كان هنا، وكان يتبادل إطلاق النار مع تجار المخدرات.

فليرحم الرب تجار المخدرات.

تم الربط أيضًا بين جينتري وقائد فريق «GOPES» الذي فُجر قاربه. كان إدواردو غامبوا قد عمل في إدارة مكافحة المخدرات (DEA) لسنوات، وتشارك هو و«فايوليتور» زنزانة سجن في لاوس لبضعة أسابيع قبل أكثر من عقد.

رابط واهٍ. واهٍ في أحسن الأحوال، لكنه لم يكن واهيًا بما يكفي ليمنع «لانغلي» من الاتصال برجل الـ CIA الضخم، وإيقاظه من سريره وحشره في طائرة «لير» تابعة للشركة، ونقله بسرعة إلى المكسيك ليجلس على مؤخرته السمينة بانتظار فرصة للتعرف الإيجابي على الهدف.

والآن يتأرجح ذهابًا وإيابًا، كتفًا بكتف مع شاحنة محملة ببلطجية من منظمة دانيال دي لا روشا، «البدلات السوداء»، وهم مجموعة من الأوغاد الأشرار حقًا يزعمون أنهم يحتجزون «فايوليتور»، أو شخصًا يشبهه كثيرًا، في مكان ما بمكسيكو سيتي. هؤلاء الحمقى لم يكونوا بحاجة للمال، لذا لم تكن المكافأة هي ما يسعون خلفه. كانت مقايضة

(quid pro quo) تم ترتيبها في مستويات أعلى بكثير من راتب رجل الـ CIA. أزعجه أن «لانغلي» قد تتعاون مع هؤلاء الرجال، لكن ديني كارمايكل، الرئيس الحالي للخدمة الوطنية السرية، كان مهووسًا بالنيل من «فايوليتور»، لذا الله وحده يعلم كيف سيرد ديني كارمايكل المعروف لـ دي لا روشا إذا سلمه كورت.

فكر رجل الـ CIA في كل ذلك.

كورت. فايوليتور. سييرا ستة. الرجل الرمادي.

الوغد الذي دمر حياتي.

توقفت الشاحنة للحظة. ظن الأمريكي أن هذه نهاية الطريق، لكن لا. تحركوا للأمام مرة أخرى وانعطفوا يمينًا؛ تمايل مع الرجال الذين يحاصرونه.

إذا كان تقييم الوكالة صحيحًا، وإذا كان هذا بالفعل «فايوليتور»، ففي غضون دقائق ستتاح للأمريكي الفرصة ليُعلم جينتري بحجم المتاعب التي تسبب بها.

وكانت لدى رجل الـ CIA أوامره. لقد أُمر بالتعرف على «فايوليتور»، نعم، لكن لم يكن هذا كل شيء.

أُمر أيضًا، إذا سمحت له «البدلات السوداء»، بالبقاء ومشاهدة كورت جينتري يموت.



أدرك كورت لبعض الوقت أنه يفتقد الصدمات الكهربائية لكامل الجسم التي كانت توفرها بطارية السيارة. مرتين خلال جلسة صعق استمرت عشر دقائق على يد «إل كارنيسيريتو» (الجزار الصغير) وجهازه البائس، تسبب كورت في حرق مفتاح القاطع على اللوحة. استخدم الجهاز القديم صمامات احترقت، وتم استبدالها، لكن

الأمريكي كان قادرًا على تحمل عقاب أكثر من أي شخص تم توصيله بالسياج من قبل. لذا وُضع الجهاز جانبًا لاستخدام طريقة جديدة عليه.

عصا صعق الحمير.

في البداية، لمس إل كارنيسيريتو صدر جينتري الدامي بالطرفين الحادين فقط. كانت الصدمة أكثر حدة من الكهرباء الشاملة التي كان يتلقاها من آلة الصدمات. خلقت العصا لسعة وحرقًا، وكان الأمر مريعًا لكن ليس بسوء بؤس تمزيق العضلات الذي تسببه عصارة بطارية السيارة المرسلة عبر السياج. ثم استخدم الجزار الصغير عصا صعق الحمير في أماكن أكثر وأكثر إيلامًا على جسد جينتري، مركزًا انتباهه حتمًا على أعضاء سجينه التناسلية. صعقه هناك مرتين. في المرة الأولى لم يثبت الطرفين بشكل صحيح، واكتفى الجهاز بالطنين. لكن في المرة الثانية غرز الكماشة بقوة في خصيتي الأمريكي، وضغط الزر، وتقيأ كورت لمسافة ستة أقدام تقريبًا داخل الغرفة.

انفجر المكسيكيون الخمسة ضاحكين.

سرعان ما أغمي على الـ «غرينغو»، لكن أملاح الشم أعادته إلى جلسة تعذيبه، لئلا يفوته أي من الأجزاء الممتعة.

وقف جيري فليجر مستندًا إلى الجدار الجانبي؛ كان قد أشاح بوجهه عن القسوة منذ فترة طويلة، واكتفى بالتحديق في الطوب المتعفن أمامه. ارتجف جسده؛ أخبر نفسه أن السبب هو الهواء البارد الشبيه بالمشارح في قبو الزنزانة، لكن لم يكن ذلك السبب على الإطلاق.

كان خائفًا.

تساءل عما إذا كان كل هذا يستحق مليون دولار.

نظر جيري خلف كتفه عندما تهادى المعذب نحو دلو مطاطي على الأرض بمحاذاة الجدار واستخرج منه قضيبًا حديديًا مغمورًا جيدًا.

جفل جيري مرة أخرى وأدار رأسه عائدًا إلى الزاوية. استمع بينما تحدث سيد الزنزانة إلى سجينه بصوت خافت وهو يجهز الأداة:

– "لقد عانيت الكثير بالفعل يا صديقي، والطريقة الوحيدة لمنع المزيد من المعاناة هي إخباري أين يمكننا أن نجد السيدة غامبوا."

كان الجهاز الطويل يقطر زيتًا أسود، ورفعه الجزار الصغير وكأنه نوع من الجوائز.

كان رأس كورت متدليًا، لكنه نظر إليه رغم ذلك. راقب فليجر عضلات جسد الرجل تتقلص اشمئزازًا.

كان يعرف أين سيذهب ذلك الشيء.

عادت الحياة للمصعد مرة أخرى، وبدأت المقصورة بالهبوط ببطء.

عاد القضيب إلى الدلو، لكن المعذب قال:

– "سنعود لمتعتنا بعد لحظة يا صديقي. لديك الآن بعض الوقت للتفكير في الأمور."

فتح باب البضائع، واقتيد رجل ضخم مقنع يرتدي بدلة بوبلين ساحلية استوائية إلى الداخل بواسطة الرجلين بزي الشرطة الفيدرالية. لم تكن ذراعا الرجل الضخم مقيدتين. وُضع مباشرة تحت الضوء في وسط الغرفة، ثم نُزع عنه الغطاء. ارتد للخلف من وهج المصباح العاري ثم ركز على المشهد أمامه.

السجين العاري، الدامي والمبلل، المقيد بالسياج المعدني المثبت في الجدار والمثبت بأعمدة حديدية في الأرضية الأسمنتية. الأسلاك الممتدة إلى العربة المتحركة، ثم إلى البطارية على الرافعة.

استغرق الرجل الأشقر بضع لحظات أخرى للنظر حوله، لتقييم الرجال الستة الآخرين في الغرفة معه، ولشم الهواء. استنشق رائحة اللحم البشري المتعفن. نظر حوله بلامبالاة لبضع ثوانٍ أخرى، وبدا

غير مكترث بكل ما يراه، وكأن غرف التعذيب ليست شيئًا يستحق المشاهدة.

ثم تكلم، وكلماته هادئة وواثقة وكأنه رجل مرتاح في هذه الأجواء. قال بالإسبانية:

– "يبدو أنكم بدأتم الحفلة بدوني يا رفاق."

عرف كورت أن زميلاً سابقًا من الوكالة قادم للتعرف عليه. توقع تمامًا أن يحدق وجهًا لوجه مع زاك هايتاور، قائد فريقه السابق في «فرقة البلطجية» (Goon Squad).

لكنه لم يكن زاك هايتاور.

كان هانلي. ماثيو هانلي.

لم يرَ جينتري مات منذ أكثر من خمس سنوات، وحتى في ذلك الوقت لم يقضيا الكثير من الوقت معًا. كان هانلي مسؤولاً تنفيذيًا في قسم الأنشطة الخاصة (SAD)؛ وقد أدار وحدة جينتري القديمة، «قوة المهام غولف سييرا»، من لانغلي، وكان يمرر التعليمات بشكل أساسي عبر قائد الفريق هايتاور، الذي كان ينقل الأوامر لبقية الرجال.

كانت آخر مرة رأى فيها كورت زاك في الربيع الماضي، وأخبره زاك أن هانلي قد خرج من قسم الأنشطة الخاصة وأصبح يمتطي مكتبًا في مكان ما بالعالم الثالث، وكان سقوطه من النعمة خطأ جينتري نفسه.

والآن ها هو هنا، في غرفة تعذيب سرية يديرها كارتل مخدرات وحشي في مكان ما داخل أو بالقرب من مكسيكو سيتي.

لم تُنطق أي كلمات بين الاثنين في البداية. بدلاً من ذلك، خاطب هانلي الرجل البدين خلف الطاولة:

– "هل أنت المسؤول هنا؟"

جاء الرد الفخور:

– "يمكنك القول إن هذا هو مكتبي."

أومأ هانلي برأسه فقط. ثم خطا أقرب إلى جينتري.

قال صاحب البدلة السوداء من الخلف:

– "يجب أن أطلب منك عدم لمس السجين."

تقدم الشرطيان الفيدراليان في الغرفة خطوة للأمام لكنهما توقفا عندما أومأ هانلي برأسه مرة أخرى.

أبقى الأمريكي الضخم يديه بجانبه، لكنه تحرك أقرب إلى السجين. لم يوقف تقدمه البطيء إلا عندما أصبحت وجها الرجلين متباعدتين بضع بوصات.

بدا كورت جريحًا جدًا لدرجة تمنعه من الكلام؛ كانت عيناه متورمتين والقيء يغطي شفتيه الداميتين. وحسب ما استطاع هانلي تمييزه، كان الشاب غائبًا عن الوعي. لكن جينتري تكلم، وكانت كلماته خافتة لكنها قوية بما يكفي، ومسموعة بما يكفي، ليفهمها أي شخص في الغرفة يتحدث الإنجليزية:

– "افعل ما يجب عليك فعله بي يا مات، لكن الرجل في الزاوية دبلوماسي من الخارجية يعمل لصالح «البدلات السوداء»."

استدار مات هانلي، ولمح الرجل في الزاوية. كان قناع «بالاكلافا» الأسود الذي يرتديه فليجر مع البنطال الكاكي والقميص الأبيض قصير الأكمام مزيجًا غريبًا في غرفة يرتدي فيها الرجال الثلاثة المقنعون الآخرون معدات التدخل السريع الكاملة والأسلحة. لم يتكلم فليجر، ولم يتحرك. فقط حدق في المقابل. هز هانلي كتفيه:

– "ليست مشكلتي."

تحدث كورت مرة أخرى، رغم أن الكلمات خرجت عبر تشنجات وتقلصات عضلية:

– "إنه... يدير شبكة إجرامية... يبيع التأشيرات للمهاجرين غير الشرعيين."

حدق هانلي في السجين المقيد:

– "حقًا؟"

ثم التفت إلى فليجر مرة أخرى.

– "كيف هو العمل؟"

– "أنا... أنا لست حقًا. أنا مجرد..."

دوى صوت هانلي، بلكنة غرب فرجينيا العميقة، في الزنزانة الخرسانية:

– "انظر إلي يا ولد!"

– "نعم سيدي؟"

– "انزع ذلك الجورب الغبي عن وجهك."

نظر فليجر إلى كارلوس، صاحب البدلة السوداء في الغرفة، طلبًا للمساعدة، ثم إلى الفيدراليين. ثم إلى الجزار الصغير، ثم إلى الشاب ذي المئزر الجلدي. وقف المكسيكيون جميعًا هناك، ولم يفعلوا شيئًا على الإطلاق. ببطء، خلع جيري القناع. ودسه في جيبه.

سأل هانلي، وصوته يدوي مرة أخرى كالمدفعية:

– "هل أبدو كأحد رجال مكتب المفتش العام؟"

هز جيري رأسه قليلاً جدًا.

– "لا يا سيدي."

– "حسنًا إذن. استرخ. أنا لست مع الخارجية، وبالتأكيد لست هنا من أجلك."

التفت هانلي عائدًا إلى جينتري.

– "أنا هنا من أجل السمكة الكبيرة."

تنفس جيري الصعداء بصوت مسموع. وقال:

– "إذن هذا هو الرجل الذي تبحثون عنه؟"

أومأ هانلي مؤكدًا:

– "إنه هو."

– "رائع. وهناك مكافأة، صحيح؟"

– "نعم."

كرر فليجر:

– "رائع. ماذا فعل؟"

نظر هانلي عن كثب في وجه السجين مرة أخرى. يدرسه.

– "ماذا فعل؟ ماذا فعلت يا فايوليتور؟"

– "فعلت ما أُمرت بفعله. وأنت من أصدرت الأوامر."

– "ليس عندما خرجت عن النص."

لأول مرة رفع كورت رأسه، وكأن غضبه منحه قوة.

– "لم أخرج أبدًا عن النص. اتبعت أوامر عمليات زاك بحذافيرها. دائمًا! ثم أمرت الفريق بقتلي!"

– "هذا ماضي قديم."

– "إذن لماذا أنت هنا؟"

ابتسم هانلي. تراجع خطوة عن جينتري ونظر حول الغرفة.

فحص هانلي معدات المعذب على العربة المتحركة. وتحدث بالإسبانية:

– "جميل. بدائي، لكنه جميل."

– "بدائي (Primitivo)؟ ماذا تعني؟ هذا هو الأفضل..."

– "كلا يا دبدوب، كنا نستخدم قذارة كهذه في أواخر الثمانينيات."

قال ذلك بالإسبانية، لكنه التفت إلى كورت وتحول إلى لغته الأم.

– "لقد صعقت مجموعة من بلطجية نورييغا بواحدة من هذه الألعاب السيئة في قاعدة هوارد الجوية أثناء عملية «القضية العادلة[10]»."

مد هانلي يده إلى القرص. وعاد للإسبانية:

– "هل تسمح لي؟"

---

[10] عملية القضية العادلة (*Just Cause*) : عملية عسكرية نفذتها الولايات المتحدة في ديسمبر 1989 لغزو بنما، بهدف الإطاحة بالديكتاتور البنمي مانويل نورييغا المتهم بالاتجار بالمخدرات وتهديد المصالح الأمريكية. انتهت العملية باعتقال نورييغا ومحاكمته في الولايات المتحدة، وشكّلت واحدة من أبرز التدخلات العسكرية الأمريكية في أمريكا اللاتينية أواخر القرن العشرين.

ابتسم الجزار الصغير قليلاً.

– "بالطبع، لكنه صلب. لقد حرقت صمامين على هذا الـ غرينغو... هذا الأمريكي الشمالي، أعني."

نظر هانلي إلى كورت، وأدار القرص. أرسل صدمة كهربائية قوية إلى الجهاز العصبي المركزي لتابعه السابق. تشنج جسد جينتري وانتفض؛ توترت كل عضلة؛ بدت الأوتار في فكه كأوتار غيتار مشدودة تحت جلده.

بعد أن خفض القرص، ضحك هانلي بخفوت.

– "هذا لا يصبح قديمًا أبدًا."

نظر إلى الرجل البدين.

– "إنه ضعيف قليلاً، أليس كذلك؟"

– "البطارية مستنفدة. لقد امتص هذا الرجل معظم طاقتها."

– "إنه صلب."

تقدم كارلوس، الرجل الثاني بعد سبايدر، وتحدث بالإنجليزية:

– "الآن وقد عرفت أننا نملك الرجل الذي تبحث عنه، سنعيدك إلى حديقة تشابولتيبيك. بمجرد أن ننتهي من السجين، سنلقي رفاته بالقرب من السفارة كما اتفقنا."

أومأ هانلي برأسه.

– "لديه بعض المعلومات تحاولون استخراجها، أم أن كل هذا مجرد تسلية وضحك؟"

نظر كارلوس إلى الأمريكي الأشقر. لم يفهم عبارة (تسلية وضحك shits and grins).

– "تسلية... و... ضحك؟"

– "السجين. تحتاجونه ليخبركم بشيء ما؟"

أومأ كارلوس برأسه فقط.

نظر هانلي إلى الدلو على الأرض. والقضيب المعدني يبرز منه.

– "أوه... فهمت. الأمر سيصبح حميميًا هنا."

استمر في النظر حوله. إلى الأدوات الجراحية على الطاولة، وإلى رف مليء بالأوعية، والقيود، والشريط الكهربائي، وغيرها من الأشياء المتفرقة. نظر مرة أخرى إلى الرجال في الغرفة من حوله.

لم يتكلم أحد.

تابع هانلي:

– "أود البقاء للاستجواب."

هز كارلوس رأسه.

– "لن يكون ذلك ممكنًا. لا نعرف كم من الوقت سيستغرق الأمر."

– "مؤسف."

قال هانلي، ثم التفت مرة أخرى إلى جينتري.

– "هاي، أيها الوغد. استيقظ. هل لديك أي فكرة عن مقدار الألم الذي سببته لي؟"

تدلى رأس كورت مرة أخرى، لكنه تمكن من الابتسام.

– "لست أول من يخبرني بذلك."

– "كنت سأصل لمراتب عليا. كنت في طريقي للصعود."

– "ثم ماذا حدث؟"

– "ثم في يوم ما أتلقى خبرًا بأن أحد مقتحمي الأبواب لدي أفسد الأمر. كانت سقطة كان يمكن أن تكون مدمرة سياسيًا للغاية للولايات المتحدة. عُقدت صفقة، صفقة بيننا وبين دولة أخرى، وتم الاتفاق. إذا قمنا بتنظيف فوضانا بأنفسنا، إذا تخلصنا من الطرف المسيء، فإن هذه الدولة الأجنبية ستتغاضى عن الأمر."

– "لذا قيل لي إن جينتري يجب أن يموت. ماذا بحق الجحيم كان علي أن أفعل يا كورت؟ أرسلت زاك والرجال إلى مكانك. شعرت بالقرف حيال ذلك، لكن كانت لدي أوامري. والشيء التالي الذي أعرفه هو أنك ذبحت فريقك بالكامل."

– "أنا ملم بالقصة."

– "كل تلك القذارة انهالت على رأسي. والآن، ها أنا ذا: واحد وخمسون عامًا ومساعد رئيس محطة في هايتي اللعينة. هناك تقاعد، وهناك النفي إلى الجانب المظلم من القمر. أكره الحرارة؛ أكره المرض، والحشرات، والعواصف، والمخدرات؛ أكره كل جزء لعين من حياتي الآن. وكل ذلك لأنك لم تستطع أن تكون ولدًا مطيعًا وتموت كجندي لعين!"

بصوت أعلى وأعلى، تطاير البصق من شفتيه المنتفختين.

– "أنت، يا قطعة القذارة عديمة القيمة، دمرت حياتي اللعينة!"

تقدم كارلوس، البدلة السوداء الوحيدة في الغرفة.

– "كفى! الشاحنة جاهزة لإعادتك إلى الحديقة."

نظر هانلي إلى المكسيكي للحظة وكأنه نسي وجود آخرين في الغرفة معه. رفع يديه معتذرًا.

– "حسنًا. لو سيينتو (آسف)، أميجو."

التفت مرة أخرى إلى جينتري.

– "أتمنى لو كان بإمكاني البقاء ومشاهدتك تموت، يا ابن العاهرة، لكن علي الذهاب."

استدار مبتعدًا، واستدار المكسيكيون من حوله أيضًا. ثم التفت مرة أخرى إلى السجين لآخر مرة.

– "وداع قصير، مقولة صغيرة تعلمتها من أسلافي في الوطن القديم."

نظر إلى جينتري وتحدث ببطء:

– "توغو زاكروي روت إي ديرجي إيه زا شيو."

عقد كورت حاجبيه المبللين بالعرق.

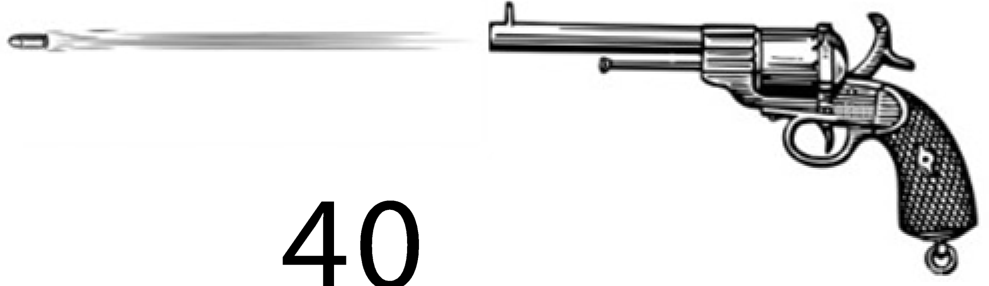
كانت روسية.

غريب.

عائلة مات هانلي كانت اسكتلندية.

استدار هانلي نحو المصعد، وخطا خطوتين متجاوزًا رجال الشرطة، وفور وصوله بمحاذاة طاولة الجزار الصغير المليئة بأدوات التعذيب، أطلق ذراعه اليسرى وأمسك بمشرط طويل ورفيع.





40

استدار كارلوس نحو مصعد البضائع؛ فرفع رجال الشرطة الفيدرالية أيديهم عن أسلحتهم ليعيدوا الغطاء فوق وجه هانلي.

تألقت النصال الجراحية تحت ضوء المصباح العاري حين اخترق الخنجر الهواء. غرس هانلي النصل في عنق "صاحب البدلة السوداء" الذي يقف أمامه، فخرق شريانه السباتي مما أدى إلى اندفاع نافورة من الدماء عرضياً عبر الغرفة. وبينما كان رجل العصابة يمسك موضع ألمه، دار هانلي مئة وثمانين درجة نحو رجال الشرطة، وقبض على الرجلين الأقصر قامة من سترات الذخيرة، ثم أدارهما ودفعهما بكل ما أوتي من ضخامة وقوة نحو كورت والسياج الحديدي. أُخذ الشرطيان على حين غرة، فترنحا وسقطا ليرتطما بالشبكة المعدنية على جانبي جينتري. استخدم كورت يديه الممدودتين والمقيدتين عند المعصمين ليمسك بكل منهما؛ أحدهما من ياقة بزته، والآخر من حمالة بندقيته.

أطاح هانلي بـ "الجزار الصغير" بعيداً عن الطاولة؛ ثم أدار قرص آلة الصعق الكهربائي إلى الحد الأقصى. وبالكاد تمكن جينتري من مد يده وتطويق مؤخرة عنق أحد الفيدراليين، حتى انتفض الرجلان فوراً تحت تأثير تيار بطارية السيارة. حاول الشرطي الآخر الاندفاع بعيداً عن السياج، لكن قبضة جينتري على حمالة بندقيته كانت له بالمرصاد؛ فترنح الفيدرالي عائداً على عقبيه، واصطدم بالمعدن ليتصل بالجهد

الكهربائي. بدأ هو الآخر يتلوى تحت وطأة التيار العنيف الذي اخترق جهازه العصبي المركزي.

تلقى مساعد الجلاد عدة رشقات من دماء الشريان المنبعثة من "صاحب البدلة السوداء" على وجهه، مما جعله يستدير بعيداً عن الموقف ليمسح عينيه. وأخيراً، التفت وسحب سلاحاً من تحت مئزره. رأى هانلي التهديد فدفع الشاب بذراعه بقوة مثبتة، وحشره ضد الجدار الملطخ بالدماء، وانتزع المسدس الأوتوماتيكي الصغير من طراز 380. أرجنتيني الصنع من يد المساعد المرتجفة. أدار مات المسدس، وضغطه على جبهة المساعد، وأرداه قتيلاً دون تردد.

ثم أطلق مات رصاصتين في أحشاء "إل كارنيسيريتو" الضخمة، ليسقطه فوق أرضية القبو الباردة وهو يمسك بطنه. خفض هانلي قرص الكهرباء، واستدار نحو السياج الحديدي والرجال الثلاثة هناك: أحدهم عارٍ ومصفد، والاثنان الآخران بملابس القوات الخاصة (SWAT) يسقطان الآن على الأرض مذهولين ومنهكين.

وقف ماثيو هانلي فوق الفيدراليين العاجزين وأطلق رصاصة في رأس كل منهما، لينهي حياتهما.

كان جيري فليجر قد ارتمى على الأرض في الزاوية. كان ظهره إلى الجدار الإسمنتي بجوار المساعد القتيل، وتلطخ قميصه الأبيض ذو الأكمام القصيرة برذاذ الدماء وكأنه تصميم قماشي ملون. صار وجهه شاحباً كبياض قميصه قبل عشر ثوانٍ، وكانت عيناه مفتوحتين وترمشان بسرعة. حدق في الأمريكي الأشقر الواقف في منتصف الغرفة.

كان المكسيكيون منبطحين على الأرض في وضعيات ملتوية غير طبيعية. انقلب مئزر "الجزار الصغير" ليغطي وجهه؛ كان لا يزال حياً وينزف بغزارة من معدته.

أطفأ ماثيو هانلي الضوء العلوي، لتغرق الغرفة في ظلام شبه تام، ولم يبقَ سوى بصيص ضوء خافت ينبعث من الدرج. ثم انتزع مدفعاً رشاشاً من عنق أحد الفيدراليين القتلى، جاثياً على الأرض أسفل جينتري ليفعل ذلك. استدار في وضعية القرفصاء، وسحب مقبض التعمير في السلاح، وصوبه نحو الدرج.

سأل بلهجة عملية جادة، وبتركيز شديد استعداداً للتهديد القادم:

– "كم عددهم؟"

كان جينتري في شبه غيبوبة؛ فتلك الصعقة الأخيرة التي وجهها هانلي بنفسه كادت تودي بحياته. ومع ذلك، تمتم بتخمين:

– "لا أدري. ربما شرطيان فيدراليان، أو أكثر."

– "حسناً."

سُمع وقع أقدام عدة على الدرج، تركض للأسفل.

انتظر هانلي.

بقي كورت معلقاً بقيوده، مجرد مشاهد يشعر بأنه مكشوف تماماً.

ظهر رجال الشرطة الفيدرالية بملابسهم السوداء في عتمة الدرج؛ فأطلق مات هانلي رشقات على سيقانهم ليسقطهم، ثم أتبعها برشقات أخرى في وجوههم وأعناقهم، مصيباً إياهم فوق دروعهم الواقية. سقط رجلان، ثم ثالث. وتلقى رابع رصاصة في حنجرته فترنح عابراً الباب قبل أن يهوي في منتصف الغرفة؛ طارت بندقيته من يديه وارتطمت بالإسمنت.

تدحرجت البندقية لتستقر في حجر جيري فليجر. وحين أدرك موظف السفارة ماهيتها، اتسعت عيناه أكثر، ودفع السلاح عنه وكأنه أفعى مجلجلة حية. استقر السلاح عند قدميه، فأخذ يرفسه بعيداً بهستيريا ويداه مرفوعتان للأعلى.

لم يرد أن يكون له أي صلة بتلك البندقية؛ وأوضح ذلك بجلاء تام. لم يكن ينوي المقاومة، ولم يرد إعطاء هانلي أي سبب لإطلاق النار عليه.

التقط هانلي السلاح الجديد وتقدم نحو الدرج، لكنه لم يسمع أو يرَ أحداً غيرهم.

حين عاد إلى غرفة التعذيب، أشعل الضوء العلوي ثانية، فأصدر "الجزار الصغير" أنيناً. كان يمسك معدته الملطخة بالدماء بقبضته، وينظر إلى الأمريكي المسلح بعينين يملؤهما الخوف والحيرة.

أشار هانلي بسبابة مدفع MP5 نحو الجلاد السمين وسأل جينتري:

– "هل تحتاجه في شيء؟"

هز جينتري رأسه:

– "كلا."

دون تردد، أطلق هانلي ثلاث رصاصات أخرى في صدر الرجل، فتوقف أنينه للأبد.

بعد ثوانٍ من السكون، قال كورت:

– "شكراً يا مات."

أعاد هانلي حشو السلاح بمخزن جديد استله من صدر أحد الفيدراليين القتلى. وبينما كان يعبث بمزرار تحرير المخزن لتلقيم السلاح، قال:

– "لتذهب إلى الجحيم يا فيوليتر. أنا لا أحبك أكثر من هؤلاء الأوغاد."

– "حسناً."

بدأ هانلي في فك القيود عن معصمي جينتري:

– "يسرني أنك لم تقضم لسانك. كنتُ قلقاً من أنك قد نسيت لغتك الروسية."

– "لقد طلبتَ مني إغلاق فمي بإحكام والإمساك بالرجال من حناجرهم."

– "من رقابهم في الواقع، لكن التشبيه قريب."

أزال هانلي قيدي الذراعين ثم فك قيود الكاحلين. ترنح كورت للأمام، وسقط على ركبة واحدة، ثم جلس على الأرض الإسمنتية الباردة. كانت عضلاته تؤلمه وتختلج بشكل لا إرادي. كانت ساقه اليمنى ترتجف بعنف لدرجة أنه ضغط عليها بيديه نحو الأرض ليخمد حركتها.

كان مات قد بدأ بالفعل في نزع الحذاء والسروال من جثة أحد رجال الشرطة القتلى. توقف عما يفعله ليمد يده نحو مسدس "بيرسا" عيار .380 الذي أخذه من ربيب الجلاد، ودحرجه عبر الأرض نحو كورت.

أومأ هانلي برأسه نحو جيري فليجر، الذي لا يزال جالساً في الزاوية يرتجف خوفاً.

– "لقد تركتُ ذاك الأبله لك. يمكنك قتله إن أردت، لا يهمني أمره حقاً."

– "كلا، أنا أحتاجه."

أومأ فليجر برأسه بقوة؛ وعيناه تلمعان بأمل جديد.

– "هذا صحيح! هذا صحيح يا صاحبي! أنت تحتاجني!"

– "لستُ بحاجة إليك لترقص."

– "لأرقص؟ ماذا تقـ..."

التقط كورت المسدس الذي قدمه له رئيسه السابق، وأطلق النار على ظهر قدم جيري فليجر اليسرى؛ فظهر ثقب مستدير بحافة ممزقة من الجورب والجلد فوق حذائه البني.

حدق الشاب في حذائه الملطخ بالدماء لعدة ثوانٍ قبل أن يشرع في الصراخ.

جفل هانلي من أثر الصياح والعويل، وألقى سروالاً تكتيكياً أسود نحو جينتري.

– "هل كان عليك فعل ذلك؟"

واصل كورت لَهثه؛ واستلقى منبطحاً على الأرض الباردة للحظة ليستريح من أثر التعذيب، وقال بلهجة فاترة:

– "لا أريده أن يهرب. لستُ في حالة تسمح لي بمطاردته الآن."

صرخ جيري وبصق، وانبعثت منه شتائم بذيئة كالمياه المنطلقة من خرطوم إطفاء:

– "سأقتلك أيها اللعين، يا ابن العاهرة المريض..."

زحف جينتري على يديه وركبتيه نحو الرجل الجريح في الزاوية؛ فكان المسدس "الستانلس" يطقطق فوق الإسمنت أثناء حركته. جلس ثانية، وضغط فوهة السلاح فوق ظهر يد فليجر اليمنى، مثبتاً إياها فوق الإسمنت:

– "لا أظنني بحاجة إليك لتطبع على الآلة الكاتبة أيضاً."

– "لا!"

تردد كورت قليلاً:

– "هل ستحاول تأديب لسانك؟"

– "لا! أعني نعم! نعم!"

– "حسناً، أوقف النزيف. ستكون بخير."

نهض جينتري ببطء على ساقين مرتجفتين، وعبر الغرفة نحو رف، وتناول منشفة ولفافة شريط لاصق كهربائي، وألقاهما نحو الرجل الذي أخطأ في التقاطهما وهو يتلوى على الأرض، فاضطر للزحف على مرفقيه للحصول عليهما، وهو يصرخ ويبكي ويسب طوال الوقت.

ارتدى كورت السروال التكتيكي فوق جسده العاري ببطء، ولا يزال مذهولاً وبطيء الحركة من أثر الصدمات الكهربائية. نزع هانلي قميصاً داخلياً من حارس آخر وسلمه له.

وبعد دقيقة أخرى، كانا يتجهان نحو الدرج.

وصلا إلى مقدمة المستودع؛ كانت الساعة الثامنة مساءً، ولم يصادفا أحداً في العقار سوى بعض الكلاب المحبوسة في حظيرة طويلة. كان دي لا روشا قد غادر منذ زمن بعيد، كما علم كورت، ومعه لورا غامبوا. وبنظرة خاطفة حول المكان، رأى براميل من الحمض مصفوفة بجانب الجدار، يطفو فوق سائلها شعر بشري؛ وهي البقايا الوحيدة للضيوف السابقين في بيت الموت هذا.

ترنح هو وفليجر خارجين من الباب بينما كان هانلي يشغل سيارة في الشارع بالأسلاك. وفي غضون دقائق، انطلقوا خارج الحي في سيارة "فورد ستيشن" مسروقة. تولى هانلي القيادة؛ إذ منعت التشنجات العضلية المتواصلة كورت من القيادة. أما فليجر فكان في الصندوق الخلفي؛ فقد استخدم كورت بقية الشريط اللاصق لتقييد يديه خلف ظهره. وحين اقتربوا من تقاطع مزدحم، مسح مات لافتات الشوارع وقال:

– "حسناً، أعرف أين نحن. حي تيبيتو. منطقة سيئة، لكنها ليست بعيدة عن الحضارة."

– "إلى أين نحن ذاهبون؟"

– "سنجد مكاناً للتحدث بعد قليل. ثم يمكنك أخذ السيارة، وسأستقل أنا سيارة أجرة نحو السفارة. سيعلم رجال دي لا روشا بما حدث إن لم يكونوا قد علموا بالفعل. لا يُنصح بالبقاء في العاصمة طويلاً."

قادوا السيارة في صمت مطبق معظم الوقت؛ وكانت أنات جيري وشتائمه المنبعثة من الصندوق مسموعة رغم أنها مكتومة. انهمك

جينتري في محاولة السيطرة على عضلاته؛ كان يشعر بوهن في ذراعيه وساقيه كأنهما من مطاط، وعضلات بطنه تؤلمه، بينما كان ظهره وعنقه ينبضان بالوجع. كانت هناك حروق كهربائية على ظهره، وردفه، ومعصميه، وكاحليه. وكان يرتدي سروالاً قصيراً جداً وقميصاً أبيض ضيقاً، عليه أثر دم خفيف عند الياقة.

كان كورت حافي القدمين.

كان يحمل مسدس "بيرسا ثاندر .380" نصف أوتوماتيكي مع مخزن جديد استله من جيب سروال مساعد الجلاد القتيل. لم يكن سلاحاً قوياً، لكنه كان صغيراً وسهل الإخفاء. وبينما كان عقل كورت يصارع للسيطرة على جسده، خصص جزءاً من تفكيره لرسم خطة، وتلك الخطة المتنامية والمتطورة تتطلب تواري الأنظار. فمدافع MP5 وحتى مسدسات "بيريتا" الضخمة التي يحملها الفيدراليون لن تجدي نفعاً.

كان مسدس "بيرسا" ضعيفاً، لكن إخفاءه كان في غاية السهولة.

أما هانلي فقد استولى على "بيريتا" لنفسه تحسباً لمواجهة رجال العصابات أو قطاع الطرق أثناء هربهم.

فوجئ كورت حين توقف هانلي عند متجر صغير (بوديغا) في شارع "جمهورية الإكوادور" وقفز من السيارة دون كلمة. عاد في أقل من دقيقة وفي يده زجاجة "تيكيلا". اندمج ثانية في حركة المرور وحشر الزجاجة بين ساقيه، وفتح غطاءها، وتجرع منها جرعة كبيرة.

عرضها على جينتري.

– "لا، شكراً."

– "ستساعدك في تخفيف التشنجات العضلية. خذها."

قبل كورت الزجاجة، وتجرع منها جرعة حذرة، فجفل، ثم أتبعها بجرعة أطول. صارع لابتلاعها، ثم أعاد الزجاجة لـ هانلي.

- "لو كنتَ قد أحضرتَ ست علب من بيرة (تيكاتي)، لكان بإمكاننا إقامة حفلة."

تجرع مات، وضحك، ثم تجرع ثانية:

- "كلا، الخمر المركز أكثر كفاءة. لا وقت للبيرة يا فيوليتر."

وأخيراً، انعطف هانلي بالسيارة بعيداً عن الطريق، ودخل زقاقاً نحو الجهة الخلفية لموقع بناء. وجد منحدراً يؤدي إلى موقف سيارات مغطى أسفل فندق لم يكتمل بناؤه بعد. قفز لتحريك برميلين برتقاليين من الطريق، ثم واصل المسير نحو الموقف المظلم.

ركنوا السيارة، وفتح جينتري الصندوق الخلفي ليتمكن جيري من استنشاق بعض الهواء. تركوا باب السيارة مفتوحاً للحصول على الضوء ومشوا نحو الخلف. كان فليجر مستلقياً على ظهره وساقه مرفوعة؛ ونظر بذعر إلى الجاسوسين الأمريكيين اللذين يحدقان فيه تحت الضوء الخافت.

- "أرجوكم لا تقتلوني. أقسم أنني سأفعل كل ما تـ..."

تجرع هانلي جرعة طويلة أخرى من الزجاجة:

- "اخرس وإلا أغلقتُ الصندوق."

صمت جيري.

أمسك هانلي بكتف كورت، واقتاده إلى زاوية المرآب، حيث لا يزال ضوء مقصورة الفورد الباهت يصل إليهما. وقفا معاً؛ أخذ كورت الزجاجة وشرب مزيداً من التيكيلا، آملاً من أعماقه أن تخمد الرجفة في عضلاته.

أعادها لـ مات، فتجرع الأمريكي الأشقر الضخم جرعة طويلة قبل أن يسأل:

- "إذن، ما الذي تفعله هنا في المكسيك بحق الجحيم، تصارع رجال العصابات؟"

- "لقد تعثرتُ في هذا الأمر فحسب."

– "لم يكن ذلك تصرفاً ذكياً. حرب المخدرات هذه مجنونة، وأسوأ من كولومبيا. هل رأيتَ يوماً شيئاً بهذا السوء؟"

– "نعم.. رأيت."

نظر هانلي إلى جينتري ثم أومأ برأسه ببطء:

– "لا بد أنك قمت ببعض العمل في البوسنة."

أجابه كورت موافقاً جزئياً: "ربما." ترك هانلي الأمر؛ فهو لا يعرف الكثير عن عمل جينتري قبل انضمامه لفرقة (Goon Squad) في الـ CIA، ولم يكن بحاجة للمعرفة.

– "قالت لي (لانغلي) إنك كنت تعرف قائد قوات الـ (GOPES)، هذا الرائد غامبوا."

– "نعم، منذ زمن طويل."

– "والآن يلاحق دي لا روشا عائلته."

أومأ كورت: "هذا ما كنتُ أتعامل معه."

– "تمنيتُ لو كان بإمكاني تقديم الدعم لك، لكن من الناحية الرسمية، جهة عملي لا تهتم لـ غامبوا، وبينما يهتمون بك، فإن اهتمامهم يقتصر على التأكد من موتك."

– "لماذا ساعدتني؟"

هز مات كتفيه: "لقد دمرتَ حياتي بالفعل، ولكن بما أنها تدمرت، فليس هناك الكثير مما يمكنهم فعله بي بعد الآن."

لم يفهم كورت، فتابع هانلي موضحاً:

– "انظر، كنتَ ستفعل الشيء نفسه من أجلي. في فرقة الـ (Goon Squad)، قمتَ بعملك وأتقنته. وبالطبع دافعتَ عن نفسك حين انقلبنا عليك؛ لا يمكنني لومك على ذلك. ولن أجلس ببساطة لأشاهد كارتل دانيال دي لا روشا اللعين يعذبك حتى الموت. قد تكون (شخصاً غير مرغوب فيه) لدى كبار القادة في (لانغلي)، لكني لم أدخل هذا المجال لأشاهد زعماء المخدرات المكسيكيين يقتلون الوطنيين الأمريكيين."

أومأ كورت جينتري برأسه، واتكأ بظهره على الخرسانة الباردة.

قال مات هانلي:

– "ليست هذه المرة الأولى التي يرسلني فيها ديني للتحقق من هويتك."

– "حقاً؟"

– "قبل بضع سنوات، كنتُ في باراغواي آنذاك." ضحك بسخرية مكملاً: "لم أكن أدرك كم كانت حياتي رغيدة في باراغواي. هايتي اللعينة يا فتى، ليس لديك أدنى فكرة عما يدور هناك."

– "ليس لدينا الكثير من الوقت."

– "على أي حال، وقعت تلك الحادثة في كييف. شحنني ديني كارمايكل على متن طائرة خاصة تابعة للوكالة من أسونسيون إلى كييف بسرعة جعلت رأسي يدور. كانوا يحاولون التأكد مما إذا كنتَ أنت المنفذ هناك، وكأن رجلاً واحداً يمكنه القيام بكل ذلك، لكننا كلانا يعلم أنك لم تكن الفاعل."

أومأ جينتري برأسه. حدق فيه هانلي بحدة، وأدرك كورت أن الرجل يبذل قصارى جهده لقراءة تعابير وجهه بحثاً عن أي رد فعل، لكن وجه كورت كان لا يزال يختلج إثر التيار الكهربائي الذي مزق جهازه العصبي؛ فلم تكن أي من إشارات نظامه الحوفي صالحة لتعمل كجهاز كشف كذب في حالته الراهنة.

استسلم هانلي قائلاً:

– "على الأقل، نلتُ رحلة مجانية إلى أوروبا بسبب ذلك الأمر."

لم يصدر أي رد من جينتري.

ابتسم مات ثانية:

– "لطالما كنت الكتوم الصامت، ذاك الذي ينجز معظم العمل دون تذمر. أما زاك هايتاور فقد كان ثرثار المجموعة."

– "كيف حال زاك؟"

– "كيف حاله؟ أهذا سؤال جدي؟ إنه ميت. لقد ماتوا جميعاً."

– "من هم الذين ماتوا؟"

– "كل رجال (فرقة البلطجية). لقد قتلتهم جميعاً يا صاحبي.

أفرغت رصاصات مسدس (ديرينجر) عيار .44 في صدر زاك هايتاور، وقذفت به من النافذة. لقد فارق الحياة في موقع الحادث."

يا للهول، فكر كورت.

يبدو أن مات هانلي مغيب تماماً عما يحدث.

لقد نجا زاك من تبادل إطلاق النار ذاك، بل إن كورت نفذ معه عملية في شمال أفريقيا قبل سبعة أشهر. أصيب زاك بجروح بليغة في السودان، ولم يكن كورت متأكداً يقيناً مما إذا كان قد نجا منها، لكن من الواضح أنه يعرف عن كواليس "دائرة الأنشطة الخاصة" أكثر بكثير مما يعرفه مات هانلي.

لقد أصدرت وكالة الاستخبارات المركزية أمراً بتصفية "الرجل الرمادي" بمجرد رؤيته، ومع ذلك، لم يكن هو الغريب عن الدائرة بقدر ما كان ماثيو هانلي.

– "من الذي أصدر أمر قتلي بمجرد الرؤية؟"

نظر هانلي إلى زجاجة التيكيلا، وكأنه يقيس مقدار ما احتساه:

– "ديني كارمايكل هو من اتصل بي، وأخبرني بضرورة التخلص منك."

– "ولماذا؟"

– "لا أعرف. صدقاً لا أعرف."

– "هذا هراء."

– "كارمايكل يعرف، وآخرون في القيادة العليا يعرفون أيضاً. قيل لي إنك العدو، وعليّ تنفيذ أمر القتل بمجرد الرؤية. عُرضت عليّ وثيقة (إقرار رئاسي) بهذا المعنى؛ ذكرت شيئاً عن تورط دولة أجنبية،

وسألتُ ديني عن ماهية الأمر، فأخبرني أن هناك صفقة أُبرمت بين

أشخاص بمستويات أعلى بكثير من رتبتي، وأن عليّ أن أغلق فمي اللعين وأنفذ الأمر. أخبرتُ ديني أن الطريقة الوحيدة لضمان سحقك هي إلقاء قنبلة (JDAM) على رأسك، لكنه أمرني باستخدام الفريق لتصفيتك. أخبرتُ زاك، وهو بدوره أخبر البقية، والآن.. جميعهم موتى."

تجرع هانلي جرعة كبيرة وطويلة من السائل الشفاف، ورآه كورت يترنح قليلاً من أثرها.

ضحك للحظة:

– "اعتبر أنك لم تسمع أي شيء من هذا القبيل مني." ثم استغرق في الضحك مجدداً: "سأُطرد من عملي لا محالة."

نظر كورت إلى رئيسه السابق بذهول:

– "مات.. بسبب ما فعلته هناك في القبو، لن يكتفوا بطردك فحسب."

– "سجن فيدرالي؟ فرقة اغتيال عند بابي؟ كلا، سأقنعهم بأنك هربت بطريقة ما. لقد كسبتُ عيشي لسنوات من خلال خداع أصدقائي وزملائي." ابتسم، لكن جينتري رأى التوتر في عينيه. ثم أضاف: "كان الأمر يستحق العناء لإبادة أولئك الأوغاد."

– "مات.. ستقتلك (لانغلي) لأنك أنقذتني."

هز هانلي كتفيه:

– "سيتعين عليّ حبك القصة. سأقول إنك شققت طريقك خارجاً من القبو بالرصاص، واتخذتني رهينة، وأوسعتني ضرباً، ثم ألقيت بي على جانب الطريق بينما كنت تفر مع ذاك الأحمق من السفارة." توقف قليلاً ثم تابع: "يجب أن تبدو الحبكة متقنة. أفكر في كدمات حول العينين، وربما ضلع مكسور."

هز كورت رأسه ببطء.

– "هل لديك فكرة أخرى؟"

– "أنت من قلتها؛ يجب أن تبدو الحبكة متقنة."

أطلق هانلي زفيراً طويلاً، وأومأ برأسه وكأنه كان يتوقع هذا.

تجرع ثلاث جرعات أخرى من التيكيلا بتتابع سريع، ثم استند بظهره إلى جدار مرآب السيارات. قذف الزجاجة بعيداً نحو الظلام لتتحطم، ثم أشار إلى نقطة في أعلى كتفه:

– "هنا تماماً. افعلها يا فيوليتر!"

سحب كورت مسدس (بيرسا ثاندر 380.) من جيب سرواله.

تراجع بضع خطوات للخلف ورفع السلاح. راقبه هانلي بعينين منقبضتين تحسباً للألم والعذاب القادم.

– "أرجوك لا تخطئ الهدف يا فتى."

أشاح كورت بصره عن منظار سلاحه ونظر في عيني الرجل المشدودتين.

– "أنا آسف."

– "آسف على ماذا؟"

انخفضت فوهة المسدس.

– "لا!"

أطلق كورت النار على ماثيو هانلي في معدته. وضع هانلي يديه على الألم الحارق في جانبه الأيمن، بينما انساب الدم الدافئ بين أصابعه الغليظة. تلهث بصوت خافت:

– "بحق الرب يا كورت."

هوى ضابط الحالة ضخم الجثة على ركبتيه، ثم سقط على الإسمنت البارد، وانقلب على بطنه يتلوى من الألم.

أطلق كورت النار ثانية، أصاب هانلي في الجزء الخلفي من كتفه الأيمن.

صرخ جيري فليجر:

– "يا إلهي!"

كان قد اعتدل في جلسته داخل صندوق السيارة ورأى ما حدث عند الجدار. التفت إليه كورت، واندفع نحو السيارة وسلاحه مرفوع، فانكمش جيري داخل الصندوق. أغلق جينتري غطاء الصندوق بقوة، ثم عاد إلى الرجل الذي يتمرغ على الخرسانة.

كان هانلي مستلقياً على ظهره الآن؛ حاول الابتعاد عن "الرجل الرمادي" زحفاً لكنه لم يستطع.

قال كورت وهو يقف فوق الرجل الضخم:

– "لن يصدق أحد قصة رصاصة في الكتف تبدو وكأنها مأخوذة من كتاب تدريب، خاصة حين تأتي من رجل مثلي."

– "كان بإمكاني إقناعهم أيها السافل! كان بإمكاني جعلهم يصدقون!"

– "هيا، كف عن العويل. رصاصة الكتف اخترقت الجسد وخرجت، ورصاصة المعدة استقرت في كومة الشحم الكبيرة لديك. هل أنت الرجل الوحيد في هايتي الذي يزداد وزنه هذه الأيام؟"

– "سأنزف حتى الموت!"

– "كلا، لن تموت. اسمع، لن يشك أحد في (لانغلي) في أنك كنت تساعدني حين يكتشفون أنني أطلقت عليك النار ثلاث مرات."

كان هانلي يصارع الصدمة، لكن عينيه اتسعتا:

– "ثلاث مرات؟"

وقف كورت، وصوب المسدس بسرعة مرة أخرى، وأطلق النار على فخذ رئيسه السابق الأيسر.

صرخ الرجل الضخم:

– "يا ابن العاهرة!" ثم انقلب على جنبه وأمسك بساقه.

– "اسمع يا مات، أنا أسدي إليك معروفاً. كارمايكل يعرف أنني لا أكتفي بلكم من يحاول قتلي. لم أصب أي أعضاء حيوية أو شرايين؛ ستكون بخير. بل ستكون في وضع أفضل مما لو ظن ديني أننا

متواطئان. اضغط على معدتك، ولا تقلق بشأن ساقك أو كتفك، لم أصب أي مقتل."

– "يسهل عليك قول ذلك! سحقاً لك يا فيوليتر! لقد أنقذتُ حياتك!"

– "وأنا أنقذ حياتك الآن! حسناً يا مات، عليّ الرحيل."

– "ستتركني؟ أنا أنزف حتى الموت أيها اللعين!"

– "كلا، لن تموت. ستصبح بطلاً أسطورياً في أروقة (لانغلي)؛ الرجل الذي نجا من مواجهة مسلحة مع (الرجل الرمادي). أليس هذا أمراً رائعاً؟"

– "ليس رائعاً على الإطلاق، يا ابن الـ..."

جثا كورت على ركبتيه، وربت على رأسه:

– "ستشكرني، أقسم لك." ربت عليه ثانية بسرعة: "يجب أن أذهب. شكراً لك مرة أخرى."

نهض كورت وسحب هاتف جيري من جيبه، وتفقد الإشارة.

– "هناك شريطا إشارة. اتصل بالسفارة."

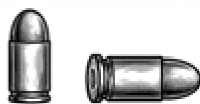
ألقى الهاتف فوق بطن هانلي الضخمة، وصعد خلف عجلة قيادة السيارة الـ "فورد"، وانطلق خارجاً من مرآب السيارات.

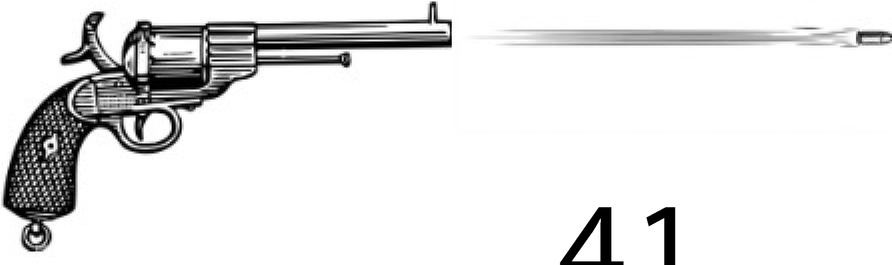
بقي هانلي ملقى في الظلام، ممسكاً بمعدته وكتفه. صرخ بأعلى صوته:

– "فيوليتر اللعين!"

تردد صدى صرخته في أرجاء المرآب الخالي.

ثم أبعد يده عن كتفه ليتصل بالهاتف بأصابعه الملطخة بالدماء.





41

في تمام الساعة التاسعة مساءً، كان دانيال دي لا روشا يجلس مسترخيًا على الأريكة في غرفة المعيشة بمنزله الكائن في إحدى ضواحي كويرنافاكا، التي تبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة عن مكسيكو سيتي. كان أطفاله يتحلقون حوله؛ بعضهم في حضنه، والبعض الآخر يتوزعون على طول الأريكة، بينما افترشت زوجته الأرض عند قدميه. كانت الأسرة تتابع عبر شاشة البلازما الضخمة مباراة في الدوري بين فريقي شيفاس دي غوادالاخارا وكروز آزول، وهما من صفوة فرق كرة القدم في المكسيك.

انطلقت رنة هاتف دي لا روشا من الجيب الأمامي لسرواله الرياضي الأسود، مما أثار حنقه الشديد؛ فقد أصدر تعليمات صارمة لرجاله بألا يزعجه أحد الليلة تحت أي ظرف.

لفت رنين الهاتف انتباه زوجته أيضًا، فرمقت زوجها بنظرة غاضبة قائلة:

– "لقد وعدتَ ألا يزعجنا..."

نظر إلى الهاتف وقاطعها معتذرًا:

– "آسف يا حبيبتي. إنه نيستور؛ لابد أنه أمر جلل."

ردت بضيق:

– "لقد طلبتُ ليلة واحدة من الهدوء مع عائلتي."

أسكتتهم ابنته الكبرى غابرييلا، ذات التسع سنوات، وهي تحاول التركيز في المباراة.

جاء صوت نيستور عبر الهاتف:

– "دانيال... لقد هرب الأمريكي. قتل كارلوس، وإل كارنيسيريتو، وأطاح بنحو ستة أو سبعة من الفيدراليين؛ أطلق النار على رجل الاستخبارات المركزية وهرب مع فليجر. يبدو أن أحدهما مصاب؛ فقد وجدنا أثر دماء يمتد من المبنى وصولًا إلى..."

قاطعه دانيال هاتفًا:

– "مهلًا! نيستور..."

نهض دانيال فجأة، وكاد طفله الرضيع ذو التسعة أشهر يسقط من حضنه لولا أن تلقته الأريكة. اندفع دي لا روشا خارج غرفة المعيشة، وركض بجواربه نحو مكتبه ثم أغلق الباب خلفه.

صاح في الهاتف:

– "أتقول لي إن ذلك الوغد الأمريكي اللعين الذي رأيته في مسلخ تيبيتو، مقيدًا كقطعة لحم إلى الجدار، وشبه ميت، ومحاطًا بعشرات المسلحين، قد تمكن بطريقة ما من الفرار؟"

أجابه نيستور:

– "نعم يا زعيم. أنا أتتبع خيطًا الآن. سيارة فليجر مفقودة؛ وأفترض أنهما استوليا عليها. لقد نشرت رجالي في كل أنحاء المدينة لتمشيط..."

قاطعه دانيال بحدة:

– "ما الذي يحدث بحق الجحيم؟ لم يفعل ذلك وحده. لا بد أن شخصًا ما ساعده."

– "ربما."

– "لا توجد ربما. إنه مادريغال! لا بد أنهم لوس فاكيروس!"

– "سأتحقق من الأمر يا زعيم."

– "أريدك أن تتصل بالاستخبارات المركزية فورًا وتخبرهم أن لوس فاكيروس هم من أطلقوا النار على رجلهم!"

– "نحن لا نعرف ذلك بعد يا دانيال."

صرخ دانيال:

– "أنا أعرف ذلك! أعلم أن كونستانتينو مادريغال يقف وراء هذا!"

تنهد كالفو (نيستور) عبر الهاتف وقال:

– "سأبحث في كل الاحتمالات، وخاصة أي معلومات تشير لتورط شبكة مادريغال."

– "حسنًا، نحن نعرف وجهتهم إذًا، أليس كذلك؟ تيخوانا!"

– "جيري فليجر لم يزور التأشيرات."

– "إذا كان يعمل معهم، فربما فعل ولم يخبرك."

أجابه كالفو بصوت منهك:

– "هذا وارد يا دون دانيال. سأوجه الجميع للتركيز على الحدود والطرق المؤدية إليها."

– "جيد. ابقَ عينك على مادريغال يا نيستور. هل تفهمني؟"

– "أمرك يا زعيم."

أنهى دي لا روشا المكالمة ثم ضغط زرًا على مكتبه قائلًا:

– "إميليو. جهز السيارات. سنغادر فورًا."

عاد إلى غرفة المعيشة، فوجد زوجته تقف عند المدخل.

سألته:

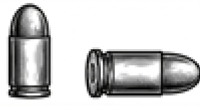
– "ما الأمر؟"

– "العمل. إنه العمل دائمًا يا حبيبتي."

– "أسترحل مرة أخرى؟"

أومأ دانيال برأسه وقال:

– "نعم. أنا آسف، ولكن يجب أن أذهب."



كان كورت يجلس في كنيسة «سيدة العمود»، في المقعد ذاته الذي جلس عليه في اليوم السابق. لكن لورا غامبوا كوراليس لم تكن بجانبه هذه المرة. حدق في المذبح، وفي الصليب، وفي شموع النذور المشتعلة. ملأت رائحة البخور والشمع أنفه.

وفكر فيها.

كان جيري فليجر الآن محشورًا في الصندوق الخلفي لسيارته الخاصة. قضيا ساعتين في التخلص من سيارة الفورد، واستقلا سيارة أجرة للعودة إلى شقة فليجر في لا زونا روزا، حيث جمعا بعض الملابس، ومبلغ خمسة وعشرين ألف دولار بالبيزو كان كورت قد أعطاها لـ جيري كدفعة أولى، وهاتفًا محمولًا، وبعض الأغراض المتفرقة. كدسا كل ذلك في سيارة جيري. ربط كورت كيسًا من الثلج على قدم جيري للسيطرة على التورم، لكن عرج جيري كان شديدًا لدرجة اضطرت كورت لمساعدة الأمريكي الهزيل في كل خطوة.

وفي الطريق إلى الطريق السريع 85 للتوجه شمالًا، قرر جينتري الانعطاف نحو الكنيسة. من الناحية العملية، كانت خطوة غير ضرورية، وربما خطيرة نوعًا ما، رغم شكه في أن عملاء «البدلات السوداء» لا يزالون يحومون حول شارع دونسيلس.

لم يستطع تحديد سبب وجوده هنا أو ما يفعله بالضبط. لكنه أراد المجيء، والجلوس، والتفكير، ولو لبضع دقائق.

فكر في لوريتا، وتساءل عما تتعرض له الآن، وماذا تظن به في هذه اللحظة.

كانت عضلاته لا تزال تؤلمه، لكن الارتجاف توقف. كاحلاه ومعصماه كانت محروقة ومتقرحة، لكنه سينجو. الجروح على صدره كانت تلسعه، وهي بحاجة لبعض العلاج، لكنها لم تكن عميقة لدرجة

القلق من فقدان الدم، وسيكون ألمها حافزًا ليبقى مستيقظًا ومركزًا للساعات القليلة القادمة. وبعد ذلك... بعد ذلك سيفكر في الطبابة.

كان لديه خطة، نوعًا ما. كانت خطة واهية، لكنها فعل، وفي أوقات كهذه، كان جينتري يفضل الفعل على الجلوس وانتظار الأقدار.

فكر في لوريتا مرة أخرى، وتساءل إن كان يحبها.

ثم فكر في إيدي، وفي إيلينا والطفل، وفي الحياة التي تركها إيدي خلفه.

تساءل كورت إن كان يعرف أصلًا معنى الحب.

جال ببصره في أرجاء الكنيسة. لم يكن هناك سوى قلة من المصلين، لكنه تأملهم، وتساءل عن قدرتهم على الحب.

لا، قرر كورت. هو ليس مثلهم. لم يتدرب على الحب.

بل تمت برمجته على الكراهية.

والآن، هو مستعد للقتل.

نهض ببطء وغادر مقعده. لم يصلِّ. لم يرسم علامة الصليب، ولم يتقدم نحو المذبح ليركع أمامه.

لكنه خاطب المصلوب. من الممر الأوسط، وقبل أن يستدير نحو الباب، تحدث بصوت خافت. لم تكن صلاة، بل كان طلبًا. طلبٌ صيغ بنبرة تهديد من شخص، كما أخبر لورا بالأمس، لا يعرف كيف تسير هذه الأمور السماوية.

همس قائلًا:

– "إنها تثق بك. إنها من رعاياك. عليك مساعدتها. أن تعتني بها. لا يمكنني فعل ذلك وحدي."



بعد تلك الزيارة الخاطفة للكنيسة، تحول «الرجل الرمادي» إلى آلة عملية بحتة. قاد السيارة إلى مطار بينيتو خواريز الدولي؛ وقبل

الوصول بدقائق، جعل فليجر يستخدم الهاتف المحمول الجديد لاستئجار سيارة باسمه من مكتب «هيرتن» في المطار. ركنا سيارة جيري في مواقف الفترات الطويلة، وتسلموا السيارة المستأجرة، وقادوها إلى جزء آخر من المطار. ثم استقلا سيارة أجرة للعودة إلى المدينة، وتحديدًا إلى منطقة ريفورما، ومن هناك استقل كورت وجيري حافلة عامة إلى ساحة زوكالو. وعلى بعد مبنيين طويلين جنوب الساحة الرئيسية، وبينما كان جينتري يسند فليجر الأعرج، وجدا موقف سيارات فندق غير مراقب، وهناك قام القاتل الأمريكي بتشغيل سيارة فورد موستانغ وسرقتها.

في الثانية وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، ترك جينتري وفليجر مدينة مكسيكو سيتي خلفهما وتوجها شمالًا نحو باتشوكا، في رحلة استغرقت تسعين دقيقة. تخلصا من السيارة المسروقة في باتشوكا، وانتظرا على مقعد في حديقة مقابل محطة الحافلات الرئيسية حتى فتحت أبوابها في السادسة صباحًا، ثم استقلا أول حافلة متجهة شمالًا إلى خواريز. كانا سينزلان قبل خواريز ليستقلا حافلة إقليمية إلى تيخوانا.

أربع وعشرون ساعة على الطريق.

بينما كانا يجلسان معًا في مؤخرة الحافلة، نطق جيري بأول كلمات لا تتضمن شكوى أو شتائم منذ ساعات:

– "لماذا فعلنا كل ذلك؟"

– "كل ماذا؟"

– "لقد قضينا عشر ساعات نقفز من مركبة لأخرى. قدمي تقتلني يا رجل. أحتاج إلى طبيب."

أجابه كورت:

– "لقد أحرقنا أثرنا. لا توجد طريقة تمكّن «البدلات السوداء» من العثور علينا. سيبحثون عن سيارتك وسيجدونها في المطار. سيظنون

أننا أردنا إيهامهم بأننا ركبنا طائرة، لكنهم أذكى من ذلك وسيكتشفون أنك استأجرت سيارة. سيجدون السيارة المستأجرة هناك في المطار، وربما يعتقدون أننا سافرنا جوًا بالفعل، لكن إن كانوا محترفين، سيراجعون شركة التاكسي ويعرفون أننا حاولنا تضليلهم. ثم إذا كانوا بارعين ومحظوظين، قد يكتشفون أمر الموستانغ التي سُرقت على بعد أميال من حيث أنزلتنا سيارة الأجرة، لكنني أشك في ذلك بشدة."

فرك فليجر ساقه بملامح متألمة مع اشتعال الأعصاب بسبب التورم.

قال كورت:

- "وحتى لو تمكنوا من كشف كل ذلك، يجب أن يكونوا أكثر دقة من مكتب التحقيقات الفيدرالي ليعثروا على الموستانغ في باتشوكا، وحتى لو فعلوا، لم تكن هناك كاميرات مراقبة في المحطة، ولقد دفعنا نقدًا، لذا لا توجد فرصة أن يتعقبونا الآن."

- "ولكن ألن يخمنوا أننا ذاهبان إلى تيخوانا؟"

أومأ جينتري برأسه وقال وكأن الأمر بديهي:

- "أوه، بالطبع. سينتشرون في كل أنحاء تيخوانا عندما نصل، وسيمشطون الحدود، متأهبين لقتلنا جميعًا."

قال فليجر:

- "هذا رائع. وحتى لو لم يفعلوا، فأنت ستقتلني عندما ينتهي كل هذا."

- "ليس إذا فعلت ما أقول."

- "هراء. لقد رأيت ما فعلته برجل الاستخبارات المركزية، الرجل الذي أنقذ حياتك. لقد أطلقت النار عليه بدم بارد."

هز كورت كتفيه وابتسم بوهن:

- "كان لا بد من ذلك."

– "صحيح. ستقول الشيء نفسه عني بعد يومين."

– "فقط إذا حاولت التذاكي."

أخرج جينتري زوجًا من الأربطة البلاستيكية من جيبه، كان قد اشتراها من متجر بقالة في العاصمة. صنع منهما سلسلة من حلقتين، وضع يده اليسرى في إحداهما ويد جيري اليمنى في الأخرى، ثم شد الوثاق. وجد كورت بطانية نوم صغيرة توفرها الحافلة، فألقاها فوق حجره وحجر جيري. لأي شخص ينظر إليهما، كانا يبدوان رجلين يمسكان بأيدي بعضهما. لاحظت عجوز تجلس في الجهة المقابلة من الممر هذا المشهد الذي ظنته عاطفيًا، فأصدرت صوتًا يعبر عن استهجانها.

سأل جيري:

– "إذًا نحن ذاهبان إلى تيخوانا رغم علمنا أنهم سيكونون عند الحدود بانتظار عبور عائلة غامبوا؟"

– "دعني أشرح لك ما سيحدث يا جيري. سنذهب إلى الحدود. إلى تيخوانا. وعندما نصل، ستقوم إيلينا ولوز ودييغو بعبور الحدود. ومهمتك أنت هي الترتيب لعبورهم من هذا الجانب، وسنجلس أنا وأنت في غرفة فندق ما، نجلس وحسب وننظر إلى بعضنا البعض، حتى أتلقى اتصالًا هاتفيًا من إيلينا تخبرني فيه أنهم وصلوا بسلام إلى الولايات المتحدة. إذا لم أتلقَّ ذلك الاتصال، وإذا لم ينجحوا في العبور يا جيري، ستموت ميتة بطيئة جدًا وبشعة جدًا هناك في تلك الغرفة. لديك فرصة واحدة لترتيب عبور آمن ومضمون لهم، لذا من الأفضل أن تبدأ بالتفكير في حل سريع."

بدأ جيري يهز رأسه قبل أن ينهي كورت كلامه:

– "لا يمكنني أبدًا ضمان نجاح العبور! نعم، لو كانت لدينا الوثائق، لكان بوسعي أن أعدك تقريبًا. لكن مع عملية تهريب ليلية،

هناك متغيرات كثيرة جدًا. أنا دائمًا أقول للناس إنني سأعبر بهم خلال محاولتين أو ثلاث."

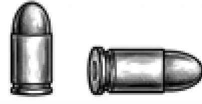
رد كورت بجمود:

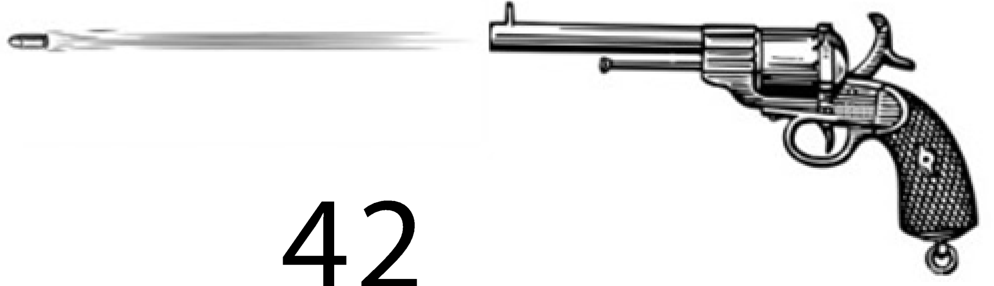
– "هؤلاء الناس لا يملكون محاولتين أو ثلاثًا. إذا قُبض عليهم ودخلوا النظام، فإن دي لا روشا سيخفيهم من الوجود. لديك طلقة واحدة لإصابة الهدف."

– "أقول لك، لا يمكنني أن أعد بشيء!"

هز كورت كتفيه، وأغمض عينيه، ثم أسند رأسه إلى الخلف وسحب البطانية لتغطي كتفيه قائلًا:

– "حسنًا، في هذه الحالة يا جيري، ستموت."





42

جلس دييغو غامبوا فوينتس على مقعد في الحديقة العامة، على بعد ثلاثمائة ياردة من المعبر الحدودي المؤدي إلى الولايات المتحدة. راحت عيناه تتفرسان في وجوه كل من حوله ممن تجاوزوا العاشرة. كان يتملكه رعب حقيقي من أن يلمحه "الأشخاص الخطأ"، وكان على يقين بأن هؤلاء الأشخاص يملأون المكان.

كان هذا يومه الثالث في هذا المكان، ومع مرور كل يوم، كان يقينه يزداد بأن خوسيه والعمة لورا لن يظهرا، وأن الرجال الذين يجوبون الحديقة يعملون لصالح «البدلات السوداء». ورغم أن حرارة الجو لم تكن مرتفعة، إلا أن العرق كان يتصبب من خلف نظارة دييغو الشمسية الداكنة الكبيرة، ومن فروة رأسه المحلوقة بالكامل تقريبًا.

لقد اتبع تعليمات جو (خوسيه) بتغيير مظهره، تمامًا كما فعلت العمة إيلينا وجدته. بقيتا في الفندق، على بعد بضعة أميال جنوبًا، مختبئتين، لعلمهما الأكيد أن «البدلات السوداء» قريبون للغاية.

لقد حالفهم بعض الحظ في اليوم السابق؛ إذ رصد أعضاء كارتل تيخوانا رجالًا جددًا في المنطقة، وظنوهم أفرادًا من عصابة منافسة تحاول التوغل في منطقة نفوذهم، فكان رد فعلهم هو الرد الوحيد الذي يعرفونه عند تهديد مصالحهم: فتحوا النار. وبأعجوبة، لم يُصب أو يُقتل أي مدني، لكن وتيرة إطلاق النار اليومي بالرشاشات في شوارع تيخوانا ارتفعت بشكل ملحوظ منذ ذلك الحين، حيث أُرسل المزيد من

مقاتلي الكارتل للبحث عن هؤلاء الزوار الجدد الذين يهددون هذا المعبر المربح، ولإخافتهم.

سمع دييغو وعائلته أصوات إطلاق النار، لكنهم لم يعرفوا سبب معركة الشوارع بين العصابات إلا من خلال أخبار المساء. تمنوا أن يعني هذا أن تجار مخدرات تيخوانا يوفرون لهم – دون قصد – مستوى من الحماية، مما يمنح «البدلات السوداء» شيئًا آخر يقلقون بشأنه أثناء وجودهم هنا في الشمال.

لم يرغب دييغو في الخروج اليوم، ولا الانتظار في الحديقة لموعد اللقاء المحدد في الثالثة عصرًا. لم يتوقع رؤية عمته أو "الغرينغو" الأمريكي، ولم يعجبه مغادرة الفندق. كان يعلم أنه سيكون الشخص الذي عليه في نهاية المطاف مغادرة مخبئه والتواصل مع المُهرِّب المحلي لمحاولة العثور على وسيلة نقل عبر الحدود، لكنه كان يفضل الانتظار بضعة أيام قبل المحاولة. لم يكن لديهم مال يذكر، ولا اتصالات، وكان الخوف من رجال «البدلات السوداء» يسيطر عليهم تمامًا.

إن عبور الحدود بمفردهم سيكون مهمة شاقة.

مر رجل بجوار المقعد؛ لم يلاحظ دييغو اقترابه حتى. كان شعره محلوقًا بشفرة قصيرة جدًا؛ استطاع دييغو تمييز ذلك رغم ارتداء الرجل قبعة بيسبول. كانت لحيته الصغيرة وشاربه كثيفين لكنهما مشذبان بعناية حول وجهه؛ وعيناه مخفيتان خلف عدسات عاكسة. كان يرتدي قميصًا قطنيًا طويل الأكمام وبنطال جينز فضفاضًا، وهو الزي المعتاد للعمال، وليس الملابس الأنيقة التي يرتديها رجال الكارتل. ولكن عندما أبطأ الرجل خطواته أمام دييغو، تسمر الشاب المكسيكي في مكانه خوفًا.

قال الرجل بهدوء بالإسبانية:

– "اتبعني."

عرف دييغو اللكنة. والصوت.

إنه خوسيه. الأمريكي.

لقد غير مظهره بالكامل لدرجة أن دييغو تردد، حتى عندما عبر الرجل الحديقة وجلس على دراجة نارية صغيرة (فيسبا) والتفت إليه. نهض الصبي عن المقعد بتردد؛ تساءل كيف وصل جو بالدراجة وعبر الحديقة دون أن يلاحظه. بدا وكأنه تجسد من العدم.

عندما وصل دييغو إلى الـ "فيسبا"، أدار جو المحرك، وأشار لـ دييغو بالركوب خلفه، ثم انطلقا في الشارع دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

أعاد كورت الدراجة إلى المتجر الذي استأجرها منه جيري بعد ظهر ذلك اليوم، ثم استقل سيارة أجرة مع دييغو عائدين إلى الفندق حيث تقيم لوز وإيلينا. ذُهلت المرأتان من التغيير الجذري في مظهر الأمريكي. واتفقتا على أنه، بالملابس المناسبة، يبدو وكأنه بالفعل أحد أفراد «البدلات السوداء».

ومثل دييغو، حاولت المرأتان تغيير مظهرهما. صبغت لوز شعرها باللون الأحمر؛ لم يبدُ طبيعيًا، لكنه لم يكن غريبًا أيضًا لامرأة في مثل سنها. أما إيلينا غامبوا غونزاليس فارتدت فستانًا زهريًا أبيض يبدو جديدًا، وقصت شعرها قصيرًا بتسريحة تشبه تسريحة أخت زوجها لورا. وضعت نظارة شمسية كبيرة وانتعلت حذاءً بكعب عالٍ. لكن إيلينا كانت لا تزال حاملًا. قدر كورت الجهد الذي بذلته للتنكر، لكنه لم يتخيل أن قتلة «البدلات السوداء» سيتجاهلون سيدة حاملًا لمجرد أن شعرها أقصر من شعر هدفهم.

جمع دييغو وكورت المرأتين واستقلوا سيارة أجرة جديدة أقلتهم إلى سوبر ماركت، وهناك ركبوا جميعًا سيارة أجرة أخرى اتجهت بهم جنوبًا إلى محطة حافلات نقل محلي. عندما غادرت السيارة، قاد جينتري العائلة مسافة مائة ياردة في الشارع، ثم انعطفوا يسارًا في زقاق ضيق ووصلوا إلى نُزل يعمل بنظام الساعة، يبدو مريعًا.

كانت عاهرات شاحبات يقفن في المقدمة، لكن جينتري قاد آل غامبوا متجاوزًا إياهن وصعد بهم طابقًا واحدًا عبر السلالم الخلفية. أدخل مفتاحه في قفل غرفة صغيرة بلا نوافذ.

كان الظلام دامسًا بالداخل. كان كورت قد منع الحديث طوال الرحلة عبر المدينة، لذا بمجرد أن أغلق الباب، سألت إيلينا:

– "لماذا نحن هنا؟"

كرد عملي، أضاء كورت نور الغرفة. سرير مفرد متدلٍ في وسطه، غطاء مهترئ، وحقيبة ظهر ملقاة فوقه. بعينيه، أشار جينتري للعائلة بالنظر إلى الحمام.

كان جيري مقيدًا بسلك هاتف وشريط لاصق إلى أنابيب السباكة في الحمام الضيق القذر؛ رأسه مسند على البورسلين الملطخ بالقاذورات، وقدمه المصابة مرفوعة على حافة حوض الاستحمام الكئيب.

سأل فليجر بينما يطل عليه جينتري من خلف المكسيكيين الثلاثة الواقفين في المدخل:

– "لماذا تأخرتم كل هذا الوقت؟"

وجه كورت حديثه لآل غامبوا قائلًا:

– "لقد انكشف أمرنا."

سألت إيلينا:

– "أين لورا؟"

تنهد وقال بالإسبانية ليفهم دييغو ولوز:

– "«البدلات السوداء» اعتقلوها."

صرخت لوز وجلست على السرير وبدأت في النحيب.

بكت إيلينا هي الأخرى وسألت:

– "كيف؟"

أشار كورت نحو الأمريكي المقيد إلى المرحاض وقال:

– "اشكري هذا الحقير هناك."

نظرت إيلينا إلى فليجر، فأشاح فليجر بوجهه عنها، وحدق في أمّ أربعة وأربعين تزحف عبر الأرضية المكسوة ببلاط مزيف قذر.

سأل دييغو:

– "ماذا... ماذا سنفعل الآن؟"

– "سأوصلكم جميعًا إلى الولايات المتحدة. وبعدها سأذهب لاستعادتها."

صاحت إيلينا:

– "لا! لا، لن أغادر بدون لورا."

– "بلى، ستغادرين. أحتاج لإبعادك أنتِ والعائلة عن الطريق."

سأل دييغو:

– "كيف سنستعيد عمتي؟"

جلس كورت على السرير بجوار لوز وقال:

– "سأجعل دي لا روشا يعيدها. سأجعل حياة دي لا روشا جحيمًا، ولن أتوقف عن تنغيص حياته حتى يطلق سراح لورا. وعندما يفعل ذلك... سآخذها وأرحل."

سأل دييغو:

– "هل ستتركه حيًا؟"

– "هدفي الوحيد هو إنقاذ لوريتا."

قالت إيلينا:

– "دي لا روشا قتل إدواردو."

– "أعرف ذلك، ووددت لو أجعله يدفع الثمن. لكنني لا أتوقع أن يكون ذلك ممكنًا، لذا سأركز على إنقاذ لورا."

حدقت إيلينا غامبوا طويلًا وبقوة في كورت. لم يفهم النظرة التي رمته بها في البداية، لكن ببطء بدأ الأمر يتضح له. لقد قال شيئًا، أو نقل شيئًا، أو أظهر نوعًا من العاطفة تجاه لورا أدركته إيلينا.

أشاح بوجهه، لكنها اقتربت منه، وأمسكت بكلتا يديه، وضغطت عليهما بقوة. أبقى عينيه مثبتتين على الجدار، ثم خفضهما نحو فليجر، الذي كان يتلوى على البلاط بجوار المرحاض.

سمع زوجة إيدي تكبت دموعها. لقد فهمت أن الأمر بات شخصيًا الآن؛ قرأت ما بين سطور كلمات كورت وأفعاله.

لابد أن إيلينا أدركت أنها تسبب له الحرج، فالتفتت دون أن تنبس بكلمة، وجلست مع حماتها واحتضنتها بقوة؛ والدموع تنهمر من وجهيهما. رفعت لوز رأسها نحو الرجل الذي تعرفه باسم خوسيه.

قالت:

– "شكرًا لك يا خوسيه. شكرًا جزيلًا لك."

رد عليها بالإسبانية:

– "أنا لم أبدأ بعد."



كان جيري قد أمضى حرفيًا رحلة الحافلة التي استغرقت أربع وعشرين ساعة بأكملها، وصباح اليوم التالي في تيخوانا، يعمل على خطته لتهريب آل غامبوا إلى الولايات المتحدة. لم يكن قد انتهى تمامًا من إحكام خطته قبل أن يأخذه القاتل الأمريكي لاستئجار الدراجة، ثم يعيده إلى النُزل، ويقيده إلى المرحاض، ويتركه وحيدًا لساعات.

وغد عديم الرحمة.

في الليلة السابقة، أثناء وجوده في الحافلة المتجهة شمالًا، رتب جيري مع جهة اتصال إجرامية في تيخوانا لتزكيته لدى مُهَرِّب مخضرم. أخبره المهرب أنه يجهز لمجموعة كبيرة من أربعين مهربًا للماريجوانا لعبور الحدود إلى الولايات المتحدة بالقرب من تيكاتي في وقت متأخر من مساء بعد غد. قيل لـ جيري إن مجموعته يمكنها مرافقتهم بشرط أن يحملوا حزم الماريجوانا الملفوفة بحبال القنب

أثناء الرحلة، ووافق جيري على الفور. ثم أُعطي الزمان والمكان الدقيقين للعبور.

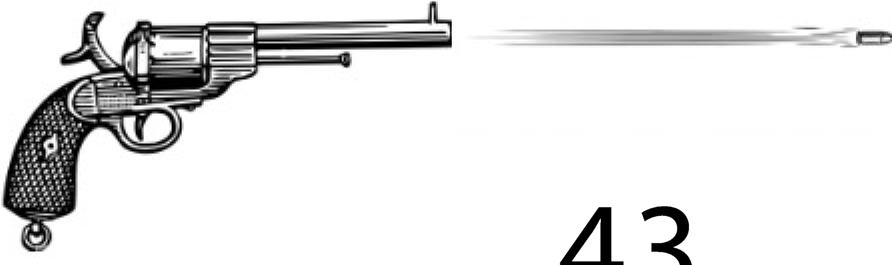
بعد ذلك، استعان بمعارفه في نوغاليس، وتحديدًا بشخص يدين له بخدمة. أوصله الرجل بشبكة مخدرات تعمل في تلك المنطقة. أُخبر عن نفق يمتد من نوغاليس عبر الحدود إلى أريزونا، وطوال الصباح في تيخوانا، عمل على هاتفه المحمول الجديد للتواصل مع الأشخاص المناسبين في الأماكن المناسبة. وأخيرًا، بعد أن تم جمع آل غامبوا وتحريره من قيد المرحاض بواسطة "الرجل الرمادي"، أكمل جيري فليجر الترتيبات بمزيد من المكالمات إلى نوغاليس وتوسون، وبوعود لكل شخص تحدث معه.

وعود كانت في معظمها أكاذيب.

الأكاذيب التي سردها جيري فليجر في الساعات الأربع والعشرين الماضية ستجعل الكثير من الناس يسعون لقتله، ولم يكن لدى موظف السفارة الأمريكية أدنى شك في ذلك. كانت خطته ستخدع بعض أكثر الرجال حقارة وانتقامًا وخطورة في شمال المكسيك، وهي منطقة تشتهر بالرجال الخطرين. كل هؤلاء الرجال يعرفون اسمه الحقيقي، وشركاءه في العمل، ومكان عمله. لن تكون هناك عودة للعمل كالمعتاد عندما تنتهي هذه المحنة.

لكن جيري فليجر كان أكثر رعبًا من "الرجل الرمادي". إذا نجا بطريقة ما من هذه المحنة، فسيتعامل مع كل ما سيأتي بعدها. أما الآن، فكان لديه مهمة ليقوم بها.





43

انطلق كورت وجيري وآل غامبوا بشاحنة «فورد لوبو» مسروقة نحو الشرق طوال الصباح، ووصلوا إلى نوغاليس قبل الظهيرة. وهناك نزلوا في فندق صغير لا يكاد يختلف في بؤسه عن ذلك الذي تركوه في تيخوانا.

قضوا فترة بعد الظهر جالسين، يأكلون ويتجاذبون أطراف الحديث. كانت عائلة غامبوا تصلي، بينما انشغل كورت وجيري بتفقد جروحهما الحمراء المتقرحة، في انتظار حلول الظلام.

كانت خطة جيري تتمحور بالكامل حول النجاة بجلده. كان يعتزم إبلاغ إدارة مكافحة المخدرات في اللحظة الأخيرة عن عملية تسلل لمهربي الماريجوانا بالقرب من تيكاتي، وسيدس معلومة تفيد بأن الهيروين يتم تهريبه مع الماريجوانا، كما سيبالغ في تقدير عدد "البغال" (الحمالين) من أربعين إلى مائة.

وكان يأمل بشدة أن يؤدي ذلك إلى سحب أي تشديد أمني من الجانب الأمريكي لنفق نوغاليس خلال الوقت الذي تحتاجه عائلة غامبوا لعبور الحدود.

كانت هذه هي الطريقة المثلى لزيادة فرص العائلة في النجاة؛ لأن مصير آل غامبوا كان بالنسبة لـ جيري فليجر مسألة حياة أو موت.

في الثامنة مساءً، قيد كورت زميله جيري إلى مرحاض الحمام، ثم غادر الفندق مع آل غامبوا. قادوا شاحنة الـ «لوبو» حتى وصلوا إلى

الحدود عند الشارع الدولي، ثم انعطفوا يميناً ونزلوا تلة صغيرة. كان السياج الحدودي على يسارهم، عبارة عن صفائح من الصفيح الصدأ وطبقات قليلة من الأسلاك الشائكة. وعلى يمينهم كانت تتناثر بعض المنازل البسيطة على التلة. انتهى الطريق الإسفلتي، فتابعوا سيرهم على الحصى والتراب لمسافة خمسين ياردة، ثم توقفوا أمام كوخ خشبي.

كان هناك رجل يقف بالخارج. وقبل حتى أن يترجل كورت من خلف المقود، أدرك أن الرجل يخفي مسدسًا تحت قميصه الصوفي الثقيل.

كان هذا هو المُهرّب. سيعبر مع العائلة، ويقابل وسيلة النقل الخاصة بهم إلى توسون، وسيصاحبهم طوال الطريق.

رمق المُهرّب الأمريكي بنظرة فاحصة، ولم ينبس ببنت شفة.

لم يرتح كورت لهذا الأمر ولو بمثقال ذرة. حياة هؤلاء الثلاثة، أو الأربعة إذا احتسبنا ابن إيدي الذي لم يولد بعد، كانت كلها تعتمد على أفعال هذا الحثالة تاجر المخدرات الذي يرمقه بنظرات عدائية.

لكن لم يكن لدى كورت ولا آل غامبوا أي خيارات أخرى. كان عليهم الوثوق بـ جيري. ليس لأمانته أو إخلاصه. لا، فهو لم يكن يفعل ذلك لتلك الأسباب، بل كان يفعل ذلك من أجل الحفاظ على حياته، ورأى كورت أن هذا الدافع كان كافيًا.

أشار المُهرّب لآل غامبوا بالتقدم نحو الكوخ، ووقف كورت معهم لحظة في الظلام على الطريق الترابي.

قالت له إيلينا وهي تنتحب:

– "لن أستطيع شكرك أبدًا."

رد عليها:

– "فقط اعبروا بسلام. ابحثي عن أصدقاء إيدي القدامى. رجال البحرية، ورجال مكافحة المخدرات. إنهم أناس طيبون، وسيساعدونكم. أنجبي ذلك الطفل."

ابتسمت وقالت:

– "سأفعل ذلك."

احتضنته والدموع تملأ عينيها، ثم أضافت:

– "أرجوك أنقذ لورا. أنت فرصتها الوحيدة. وأرجوك كن حذرًا."

استدارت واتجهت نحو الكوخ. صافح كورت الفتى دييغو وقال:

– "أنت المسؤول الآن؛ أنت تفهم ذلك، أليس كذلك؟"

– "نعم سيدي."

– "عمك إيدي ذهب إلى الولايات المتحدة وهو شاب، وصنع لنفسه نجاحًا. بغض النظر عن الكيفية التي انتهت بها حياته... لقد كانت له حياة."

أومأ دييغو برأسه، ونظر إلى السماء المرصعة بالنجوم قائلًا:

– "سأكون فخورًا بأن أعيش مثل عمي إدواردو."

استدار واختفى داخل الكوخ.

احتضنت لوز الشاب كورت لفترة طويلة. تمتمت بصلاة قصيرة ثم رسمت علامة الصليب، واستدارت ومضت مبتعدة.

وجد كورت نفسه يحاول فهم الكلمات التي قالتها. يحاول أن يجد فيها السلوان. أن يشعر بالقوة من دعائها المقدس.

لكنه لم يفهمها. ولم يشعر بأي تغيير.

عندما غادرت العائلة، التفت كورت حوله. كان بإمكانه الرؤية فوق السياج من موقعه، نوعًا ما. على الجانب الآخر كانت هناك بضعة مستودعات؛ أضواؤها مضاءة لكنها كانت ساكنة وصامتة الآن. كان هناك طريق يمتد صاعدًا تلة من الشجيرات؛ كان مرئيًا بفضل ضوء

القمر والنجوم، يبدو مثل شريط حلوى طويل يتموج نحو الشمال، في عمق الليل البعيد.

تلك كانت أمريكا. هناك تمامًا. قريبة جدًا لدرجة شعر أنه يستطيع مد يده ولمسها.

لم يرَ كورت بلده منذ خمس سنوات. لم تعد وطنه؛ بل كانت على الأرجح أخطر بلد في العالم بالنسبة له.

ربما باستثناء المكسيك.

ومع ذلك، تطلع نحو تلك الأرض المتموجة بشوق، كما لو أن التراب والرمال والشجيرات الجافة أمامه هي أرض اللبن والعسل.

كان المنظر جميلًا بشكل لعين.

شعر بالغيرة من المكسيكيين الثلاثة الذين أرسلهم لتوّه عبر الحدود.

كان يحب بلده، رغم أن قوى نافذة في بلده لم تبادله الحب. لقد نزف من أجل ذلك البلد. وقتل من أجل ذلك البلد.

وسيموت من أجل ذلك البلد، إن لم ينتهِ به الأمر ميتاً من أجل شيء آخر.

كان لديه حساب يجب تصفيته يومًا ما معديني كارمايكل وآخرين في المستويات العليا من وكالة الاستخبارات المركزية.

لكن هذا مؤجل لوقت لاحق. لاحق جداً.

تصلبت نظرات كورت الحزينة والمتأملة، وتبدد التعبير الحالم عن وجهه ليحل محله تعبير بارد ونظرة تصميم صارمة. صعد إلى الشاحنة وتوجه عائدًا إلى الفندق لانتظار مكالمة هاتفية.

جاء الاتصال في السابعة صباحًا. كانت إيلينا؛ لقد نجحوا. ترك آل غامبوا المُهرّب خلفهم وأصبحوا بمفردهم في توسون، ومعهم تذاكر حافلة إلى سان فرانسيسكو. أعطت كورت رقم الهاتف المحمول الذي اشترته لتوها من محطة الحافلات. كان جينتري قد اتفق معهم على

كلمة سر مسبقة. إذا كانوا في أمان، ستخبره أنهم ذاهبون للبحث عن فندق (Hotel). وإذا كانوا تحت ضغط أو إكراه، ستستخدم كلمة نُزل (Motel).

قالت "فندق"، فأطلق كورت تنهيدة ارتياح طويلة. ومع ذلك، جعلها تعطي الهاتف لـ دييغو. استمع جينتري بتركيز شديد لصوته بحثًا عن أي نبرة توحي بالإكراه، لكنه، مثل عمته، بدا صوته منهكًا وحسب.

أغلق الهاتف ونظر إلى جيري. كان فليجر يجلس على السرير الآخر في غرفة الفندق الصغيرة. لم يغمض له جفن. كان ألم قدمه ينبض بشدة، وخوفه من موته الوشيك أبقاه مستيقظًا.

نظر جيري إلى "الرجل الرمادي" وسأله:

– "ستقتلني على أي حال، أليس كذلك؟"

هز كورت رأسه نافيًا:

– "لا. لقد نفذت ما طلبته منك. لن أقتلك."

لم يصدقه جيري:

– "حقًا. سأنهض الآن وأستدير لأخرج من الباب، فتطلق النار عليّ؟"

هز جينتري رأسه مرة أخرى:

– "لا يا جيري... يمكنك البقاء هنا. لقد دفعت إيجار الغرفة حتى الغد. أنا سأغادر."

بدا فليجر مرتبكًا. أومأ ببطء وقال:

– "كما تشاء."

لم يكن يصدق كورت.

تابع كورت:

– "أريدك أن تستقيل من وظيفتك. لقد انتهى عملك لصالح الولايات المتحدة. هل فهمت ذلك؟"

أومأ جيري بسرعة، وقد بدت عليه ملامح المفاجأة والأمل الآن:

– "علم. لا يمكنني العودة إلى هناك على أي حال. ستتقاتل الكارتلات فيما بينها للحصول على فرصة قتلي الآن. ولكن... ماذا يجب أن أفعل؟"

هز جينتري كتفيه بلامبالاة:

– "أي شيء. اعرج طوال الطريق إلى كوبنهاغن، لا يهمني. كل ما أريده ألا أسمع عن عملك لصالح الولايات المتحدة بأي صفة كانت."

– "لك ذلك يا صاحبي. أنا خارج اللعبة."

– "وأحتاج منك خدمة أخرى."

– "حسنًا."

– "مادريغال."

– "ماذا عنه؟"

– "أحتاج للتحدث إليه. وجهًا لوجه."

أسند جيري فليجر رأسه إلى الجدار خلف السرير وقال بأسى:

– "يا رجل، لا أحد يتحدث إلى «إل فاكيرو» شخصيًا."

– "هراء. دبر الأمر."

– "اسمع. أنا أعرف الكثير من «رعاة البقر» (لوس فاكيروس). وبعضهم قادة كبار في الكارتل. لكنني لا أعرف أي شخص يمكنه أن يضعك أمام مادريغال نفسه. إنه شبح. طيف."

أصر كورت:

– "أحتاج للتحدث إليه. رجل لرجل."

هز جيري رأسه وكأن الأمر مستحيل. لكنه توقف ببطء. ونظر إلى الرجل الذي يحدق فيه بصرامة.

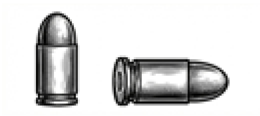
قال جيري:

– "دعني أحزر. هذا شيء آخر تحتاجني لفعله، وإلا ستطلق النار عليّ مجددًا."

– "لقد بدأت تفهم الأمر يا جيري."

تطلع فليجر في الفراغ، وعيناه تائهتان لفترة طويلة. وأخيرًا قال:

- "دعني أجري بعض الاتصالات."





44

جلس جينتري على حافة الرصيف، بينما كانت أشعة الشمس الساطعة والغبار المنبعث وعوادم الحافلات والسيارات المارة تتسلل إلى كل مسام جلده المكشوف.

مرَّ صبيٌّ يمتطي صهوة جواد، وألقى نظرةً فاحصةً على الرجل الجالس على الرصيف؛ كان مأخوذًا بالدهشة لرؤية غريب في بلدته.

ألقى كورت نظرة خاطفة على يديه، فوجدهما ترتجفان؛ بل كانتا تنتفضان انتفاضًا. لطالما كانت يداه ثابتتين كالصخر، مهما بلغت مستويات الأدرينالين التي تتدفق في عروقه. لقد تعلّم كيف يروّض خوفه، وكيف ينحّيه جانبًا في مؤخرة عقله، ليوجّه طاقته بالكامل نحو المعضلة التي تواجهه، مؤمنًا بنفسه وبقدرته على التغلب على أي خطر يحدق به.

لكنه وجد نفسه الآن يفتقد ذلك الإيمان.

شعر بغصة في حلقه.

مجرد توتر فحسب يا جينتري. مجرد توتر لعين. لا مشكلة.

تجرّع رشفة من مشروب الكولا وقضم قطعة من شطيرة "التورتا" الخاصة به. كان لحم الخنزير سميكًا ولاذع المذاق، غير أن شمس صحراء سونورا الحارقة، ممتزجةً بقلقه العميق، قد أجهزت على ما تبقى من شهيته.

أما الرجال المحيطون به، فقد أثاروا حنقه إلى أقصى حد. لم يمضِ على وجوده في البلدة أكثر من خمس دقائق منذ ترجّل من الحافلة القادمة من هيرموسيو، حتى بدأ أول المتحرشين به هجومه. اقترب منه شاب مفتول العضلات يرتدي قبعة من القش، وسار بمحاذاته بينما كان كورت يتجه نحو وسط المدينة.

سأله الشاب:

– "من أنت؟"

واصل كورت سيره دون اكتراث.

عاد الشاب يسأل:

– "ما اسمك؟"

لم يعره كورت حتى نظرة عابرة.

– "ماذا تفعل هنا؟"

مرة أخرى، لم يتلقَّ الشاب ردًا من الزائر الغريب. فكّر كورت: إذا كان قد أثار ريبة هؤلاء الأشقياء المحليين بمجرد ظهوره، فكيف سيكون رد فعلهم حين يسمعون لكنته الأمريكية؟

تعمد الشاب دهس قدم جينتري.

توقف كورت عن السير، واستدار ليواجه الرجل. وفي لمحة بصر، استعرض في ذهنه أربع طرق مختلفة لقتله في أقل من ثانيتين.

لكنه تراجع؛ فهو يرغب في الوصول إلى وجهته بأقل قدر ممكن من الضجيج، وقتل الناس لن يخدم هدفه في التخفي.

تابع كورت مسيره، وسرعان ما تبعته عصبة من الرجال المحليين، كان الكثير منهم يحمل أسلحة. انتزع أحدهم قبعة كورت وقذف بها مثل قرص طائر في الشارع القذر. وركض مراهق آخر خلف جينتري ليركله بقوة في مؤخرته بمقدمة حذائه الجلدي. تعثر كورت للأمام، لكنه استعاد توازنه واستمر في المشي.

الآن، ها هو يجلس على الرصيف أمام متجر "تيندا" في وسط هذه البلدة الصغيرة. أما الرجال الذين كانوا يطوقونه فقد اختفوا فجأة؛ لا شك أن أحدهم تلقى مكالمة أو رسالة نصية، وصدرت الأوامر للمحليين بإخلاء السبيل. لم يسمع كورت صوت أحد، لكنه تخيل أن نظرة أو إيماءة كانت كافية لجعل هؤلاء الأوغاد يبتعدون عن طريقه.

كانت يداه ترتجفان وهو يرفع المشروب إلى فمه. لم تكن الحروق التي خلفها التيار الكهربائي على معصميه بالغة السوء – مجرد حروق تشبه حروق الشمس – لكن التجربة برمتها تركت أعصابه مهتزة، حتى بعد مرور أربعة أيام. والآن، كان على وشك أن يضع نفسه مرة أخرى تحت رحمة رجال لا يعرفون الرحمة، مما زاد من رعشة يديه وتوتره.

اقتربت سيارة صالون ببطء. توقفت سيارة بنية اللون ذات أربعة أبواب في محطة الوقود عبر الشارع، ثم تجاوزت المضخات وتوقفت تمامًا. ترجّل منها رجلان يحملان بنادق "كيرنوس دي شيفو" – كلاشينكوف – في أيديهما. كانا يرتديان ملابس رعاة البقر؛ أحذية مدببة، وقمصان بيضاء مطرزة بخيوط حمراء. كان لهما شاربان كثيفان دون لحى، وأحذيتهما مصنوعة من جلد النعام الرمادي.

إنهما "الفاكيروس" أو الرعاة؛ المرتزقة التابعون لـ كونستانتينو مادريغال.

عبر المسلحان الشارع باتجاه "الغرينغو" الذي نهض ببطء، مبعدًا يديه عن جسده.

مرت سيارة شرطة بلدية، أبطأت سرعتها قليلًا، ثم تابعت طريقها دون تدخّل. هكذا هي الأمور في هذه البلدة؛ مسلحون ببنادق هجومية يعبرون شارعًا مزدحمًا ويوجهون أسلحتهم نحو رجل يرفع يديه، لكن هذا ليس شأنًا يثير اهتمام الشرطة هنا.

ففي نهاية المطاف، هذه هي مدينة ألتر في صحراء سونورا، معقل كارتل مادريغال.

صوّب "الفاكيروس" أسلحتهم من مستوى الخصر، وكانت الفوهات موجهة مباشرة إلى صدر كورت.

في غضون دقائق، فُتّش كورت ودُفع به داخل السيارة التي اتجهت جنوبًا خارج البلدة. توقفت السيارة في أخدود على جانب الطريق، وهناك أُمِر كورت بالترجل، ففعل. انطلقت السيارة مسرعة نحو الجنوب، مخلفةً إياه وسط سحابة من الغبار.

ولم يكد الغبار يتلاشى حتى توقفت سيارة "كاديلاك إسكاليد"؛ بدا جليًا أنها كانت تتبعهم من المدينة. انخفضت نافذة خلفية، وظن كورت للوهلة الأولى أن مادريغال بداخلها، لكنه كان مجرد "راعي بقر" آخر. كان هذا الرجل شابًا سمينًا، يرتدي نظارات "ري بان" الشمسية، ويضع قبعته القشية على حجره، بينما كان يلوح بمسدس ضخم من طراز "كولت بايثون" أمام وجهه ليراه جينتري بوضوح.

تحدث بالإنجليزية قائلًا:

– "أريد أن أرى أثر الشمس على جلدك أيها الغرينغو."

– "عفوًا؟"

– "اخلع ملابسك. كلها."

تهدلت أكتاف كورت استسلامًا وقال:

– "بالتأكيد."

خلع ملابسه حتى بقي بملابسه الداخلية، لكن الرجل السمين أشار بمسدسه نحوها، فاضطر لخلعها أيضًا. وقف عاريًا فوق التراب الساخن بجواربه، حتى أمره السمين بخلعها هي الأخرى. أخذ يقفز من قدم إلى أخرى؛ فالحروق التي في معصميه وكاحليه كانت تكفيه، ولم يكن يرغب في إضافة حروق أخرى في باطن قدميه.

ترجّل ثلاثة رجال من السيارة الرياضية، وشرعوا في تفتيش ملابسه بدقة وكأنهم يبحثون عن قمل. وبعد أن فحص الرجال الثلاثة كل قطعة بعناية فائقة، رشقوها نحو جينتري ليرتديها. لكنهم فتشوا

الملابس دون ترتيب؛ فكانت ملابسه الداخلية هي آخر ما أُعيد إليه، لذا ظل واقفاً يضم كومة الملابس المغبرة بين ذراعيه منتظرًا.

أخيرًا، ارتدى ملابسه، وكانت الشمس تلسع فروة رأسه عبر شعره القصير أثناء ذلك. صعد إلى المقعد الخلفي للسيارة بجانب الرجل السمين، الذي غرز فوهة الـ "كولت بايثون" في ضلوعه. لم ينبس جينتري ببنت شفة، بل ظل ينظر للأمام بينما انطلقت السيارة نحو الجنوب.

توقفوا عند مهبط طائرات صغير على أطراف قرية مجهولة الاسم. كانت الأرض منبسطة وجافة، والمزارع المحيطة بها مربعة الشكل ومنظمة بعناية، يعتني بها مزارعون كادحون يستعينون بالحمير. كان المهبط ترابيًا، والطائرة الرابضة في نهايته بدت وكأن عمرها أربعون عامًا؛ كانت من طراز سيسنا 210، وهي طائرة بمحرك مراوح صغير، مثالية لتهريب المخدرات عبر المكسيك. وبفضل هيكلها المتين وأجنحتها العالية، كان بإمكانها الهبوط في أكثر الممرات غير المسجلة وعورة، تلك التي يشقها رجال الكارتل في قلب الطبيعة.

صعد كورت والرجل السمين إلى الطائرة. وبالإضافة إلى الطيار الذي كان يرتدي قبعة بيسبول ويضع مسدسًا من عيار (0.45) في جراب جلدي بجانب مقعده، كان هناك رجلان آخران داخل المقصورة الضيقة ذات المقاعد الستة، يحمل كلاهما بندقية "كلاشينكوف" في حجره. تساءل كورت عما إذا كانا قد فكرا يومًا في مدى صعوبة إطلاق النار من هذه الأسلحة داخل هذه المساحة الضيقة أثناء الطيران.

هكذا كانت تعمل عقلية جينتري. لم يكن لديه سبب للاعتقاد بأنه في خطر وشيك، ولكن بينما كانوا يربطون أحزمتهم ويشغل الطيار المحرك، وضع كورت خطة لقتل أو شل حركة أو نزع سلاح كل من في الطائرة خلال – حسب تقديره – ثلاث ثوانٍ. سيترك الطيار حيًا وفي

وعيه، وسيجرده من سلاحه، آملًا أن يمتثل لأوامره بالهبوط. وإن لم يفعل، فسيطلق النار على رأسه ويهبط بالطائرة بنفسه.

لم يكن كورت طيارًا بارعًا؛ فقد سبق له أن هوى بطائرات عدة بطريقة جعلتها مجرد حطام معدني ملتوٍ وزيت مدخن، وفي إحدى المرات، لم يعد من الممكن التعرف عليها كطائرة أصلًا.

لذا، تمنى من كل قلبه أن يلتزم الجميع بحسن السلوك خلال هذه الرحلة المتجهة إلى جبال "رعاة البقر".

اهتزت الطائرة فوق المدرج، ثم تمايلت وهي تجاهد للتحليق في السماء. أدرك جينتري أنهم يتجهون جنوبًا، وبعد فترة ظهر المحيط الهادئ على يمينه. مرت الرحلة دون أحداث تذكر؛ وهبطوا في منتصف الظهر في مهبط سري آخر، عبارة عن فسحة صغيرة محاطة بأكواخ ذات أسقف معدنية في الجبال الخضراء لسلسلة سييرا مادري الغربية. لم يكن كورت متأكدًا مما إذا كانوا لا يزالون في سونورا أم أنهم وصلوا إلى سينالوا، أو ربما ناياريت، حيث بدأ كابوسه المكسيكي عند قبر إيدي غامبوا.

أينما كانوا، فقد كان واثقًا من أن جيش مادريغال من "الفاكيروس" سيكونون في كل مكان.

وكان حدسه في محله.

ترجّل من الطائرة وتبعه الرجل السمين، فاستقبلتهم شاحنة كبيرة محملة برجال يرتدون قبعات رعاة البقر ويحملون بنادق كلاشينكوف. صعد كورت إلى صندوق الشاحنة وجلس محاطًا بهم؛ ساروا به داخل قرية ثم صعدوا نحو غابة كثيفة. لاحظ جينتري أن الطريق، رغم كونه غير ممهد، كان في حالة جيدة بشكل استثنائي. أما الارتجاجات والاهتزازات التي عانى منها في خلفية الشاحنة، فلم تكن بسبب الحفر، بل تعود إلى "الماتشيزمو" – روح الاستعراض الذكوري – والعداء الواضح تجاه "الغرينغو" من قبل "الفاكيروس".

كان الطريق عالي الجودة لأنه بُني وصِين من قبل كارتل مادريغال. وبدا ذلك جليًا عندما مرت الشاحنة بمركز حصين مبني من جذوع الأشجار المقطوعة، يقف خلفه رجلان يديران مدفعًا رشاشاً من عيار (0.30) يغطي الطريق. وتحت الغطاء الكثيف لغابات سييرا مادري، ظهرت صفوف من المباني البسيطة، يتجول حولها رجال يعملون بنشاط؛ بعضهم عراة الصدور والبعض الآخر يرتدي قمصاناً وجينز، وجميعهم يحملون السلاح.

لم تكن هذه المنشأة لمعالجة المخدرات كما ظن كورت؛ بل بدت وكأنها قاعدة للمتمردين. كانت حصناً في قلب الغابة، ورغم خلوها من الأسوار أو أبراج الحراسة، إلا أن عزلة الموقع والعدد الهائل من الأسلحة والمسلحين يعني أن اقتحام هذا المكان يتطلب كتيبة كاملة من قوات "الرينجرز" الأمريكية.

توقفت الشاحنة فجأة؛ فاصطدم كتف كورت بكتف الرجل المجاور له، وتلقى بضع عبارات غاضبة غير مفهومة، ثم نزل من الصندوق.

أُخضع كورت لتفتيش ذاتي مهين مرة أخرى، هناك في العراء؛ حيث وقف الأطفال والنساء وكبار السن حول الأكواخ يراقبون مشهد "الغرينغو" العاري. كانت الكلاب والدجاج تحوم حوله بينما كان ينتظر إعادة ملابسه إليه.

راقبه الرجال ذوو قبعات رعاة البقر والبنادق بينما يعيد ارتداء ملابسه، ثم قادوه عبر ممر طويل وضيق، مرورًا بمواقع للمدافع ورجال مسلحين يمتطون الحمير والخيول. كانت العيون تراقبه من بين الأشجار ومجاري الأنهار الجافة التي تتلوى على طول الطريق. أضيفت درجات خشبية في بعض الأماكن، وكان هناك بوابات من الأسلاك الشائكة يحرسها ثلاثة رجال. نظر كورت إلى الصخور فوقه، فرأى خيالات البنادق وقبعات الرعاة ترتسم تحت ضوء الشمس الساقط من خلفهم.

بمجرد عبور كورت للبوابة، انفتح الممر على مجموعة من المباني الكبيرة تحت مظلة من أشجار الصنوبر والتنوب. كانت الهياكل عبارة عن غرف بسيطة مبنية من الطوب الإسمنتي ومسقوفة بالصفيح؛ يتوسطها طريق، ورجال مسلحون يحرسون كل باب. كانت الخيول وبعض الحمير تقف عند مرابطها وأحواض المياه. قادوه بمحاذاتها نحو مبنى كبير يشبه المستودع في منتصف الطريق.

عند الباب الأمامي، وضع الرجل الذي على يمين كورت طرف مسدسه على صدغه الأيمن، وفعل الرجل الذي على يساره الشيء نفسه مع صدغه الأيسر. تقدم رجل ثالث أمام كورت ووضع فوهة مسدسه على جبهته، بينما نغزه مسدس رابع في مؤخرة رأسه.

قال الرجل المسؤول بالإسبانية:

– "جيد. سندخل الغرفة ببطء. خطوة بخطوة."

بدأ يتراجع إلى الخلف، وتحرك الموكب كله ككتلة واحدة. شعر كورت وكأنه جسد عنكبوت، تتحرك الأرجل والأذرع من حوله بانسجام تام.

بينما كانوا يعبرون المدخل، والأسلحة تضغط وتصطدم بوجهه ورأسه، قال جينتري:

– "أنتم أكثر الحراس الشخصيين جبنًا ورعدة رأيتهم في حياتي."

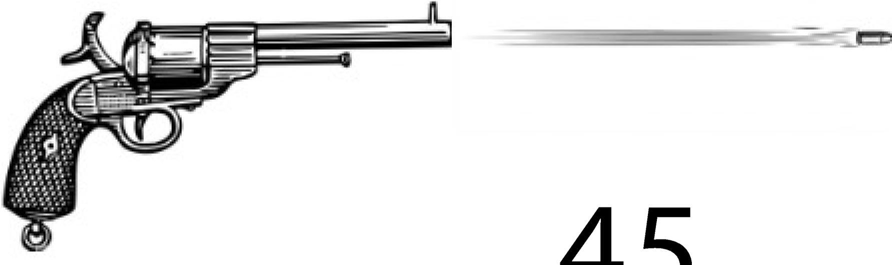
ابتسم الرجل الذي في المقدمة وقال:

– "لو كنا جبناء، لأطلقنا النار على مؤخرتك البيضاء منذ كنا في ألتر."

استمر الموكب في التحرك داخل الغرفة الكبيرة، وتابع الرجل وهو يمشي بظهره:

– "من فضلك، لا تضطرنا لنثر أشلاء رأسك فوق مائدة غداء السيد مادريغال."





45

جال بصر كورت من فوق كتف الرجل، فرأى أن الغرفة عبارة عن قاعة اجتماعات من نوع ما. صُفَّت بمحاذاة الجدار البعيد طاولات نزهة خشبية تكدست عليها أصناف الطعام والمشروبات الغازية. وتناثر في المكان اثنا عشر رجلًا مسلحًا يراقبون الموكب الذي يتقدم نحوهم عبر الأرضية الترابية. عند طرف الطاولات، وفي مواجهة كورت، جلس رجل وحيد أمامه طبق من الفاصوليا، يغمس فيه قطع خبز التورتيلا المصنوع من الذرة. أنهى قطعة التورتيلا ثم تجرع رشفة طويلة من جعة «تيكاتي» من العلبة مباشرة.

وقف خلفه ستة رجال؛ جميعهم يعتمرون قبعات قش بسيطة أو قبعات بيسبول.

لم يرفع الرجل نظره إلى الأمريكي المحاط برجاله المصوبين بنادقهم نحو رأسه إلا بعد أن أعاد علبة الجعة إلى الطاولة. تنحى الرجل الذي كان يقود كورت جانبًا، وخفض مسدسه قليلًا، لكنه أبقاه مصوبًا نحو صدر «الرجل الرمادي».

أخيرًا، تمكن كورت من رؤية الرجل الذي جاء لمقابلته بوضوح.

كان كونستانتينو مادريغال يبدو فلاحًا (Campesino) أكثر منه زعيم مخدرات. رجل في الخمسينيات من عمره، ضخم الجثة، يميل إلى الضخامة العضلية أكثر من السمنة، ذو شارب كث وشعر أشعث لا يزال السواد يغلب عليه، ولكن بالكاد. كان قميصه الجينز مفتوحًا،

وصدره المشعر يلمع من العرق على جانبي قلادة بسيطة تحمل صليبًا سلكيًا.

وكان يضع قبعة بيسبول على رأسه.

طوى قطعة تورتيلا أخرى، وغمسها في الفاصوليا السوداء، وقضم جزءًا من الخبز المشبع بالمرق. وبينما كان يمضغ، قال:

– "يسمونك «الرجل الرمادي»... El hombre de gris."

رفع مادريغال علبة الجعة واستخدمها كأداة إشارة، موجهًا إياها نحو جينتري بحدة:

– "لا أحد يحظى بلقاء معي. لا أحد. لكن الجميع يتحدثون عنك. الكل يسألني: (هل رأيت ذلك الغرينغو الأمريكي على التلفاز في بويرتو فالارتا؟). أنت أشبه بنجم سينمائي. كان لابد لي من لقائك."

غمس مادريغال إصبعه المبلل في كومة صغيرة من المسحوق الأبيض على الطاولة بجوار غدائه، ثم حشر إصبعه في فمه ليمتص الكوكايين.

تبع ذلك رشفة من جعة «تيكاتي».

قال كورت:

– "شكرًا لاستقبالي."

– "لقد قتلت الكثير من قتلة «البدلات السوداء». أكثر مما فعل رجالي."

جال ببصره حوله ناظرًا إلى المسلحين وهو يرشف المزيد من الجعة، وكأنه ينتظر تفسيرًا من طاقمه. لم ينبس أحد ببنت شفة.

نظر كورت عن يمينه ويساره، حيث كانت فوهات المسدسات الفولاذية تضغط على وجنتيه من الجانبين.

قال:

– "هل يمكنك أن تأمر رجالك بخفض أسلحتهم؟ أكره أن يعطس أحدهم بالخطأ. لقد جئت إلى هنا مبديًا الاحترام؛ وأطلب منك فقط أن تعاملني بالمثل."

ابتسم مادريغال وهو يطوي قطعة تورتيلا أخرى:

– "أنا أظهر لك الكثير من الاحترام أيها الغرينغو. ألا تظن أن هذا احترام؟ يجب أن ترى كيف أعامل الرجال الذين لا أحترمهم. أنا أعرف ما يمكنك فعله. ربما لا تزال لديك طريقة لقتلي؛ أنا لا أعلم."

– "لم أكن لأستطيع قتلك حتى لو أردت ذلك."

لم يترفع كورت عن القليل من التملق في تلك اللحظة.

– "إذًا، إن لم تكن تلك هي الخطة، فماذا يمكنني أن أفعل لك؟"

– "جئت لأعرض خدماتي، مجانًا."

– "خدماتك؟" (Tus servicios؟)

– "نعم. أرغب في مساعدتك، ومباركتك، لملاحقة «البدلات السوداء»."

لوح مادريغال لرجاله بالتراجع؛ فخفضوا أسلحتهم وتنحوا جانبًا. ومع ذلك، بقي اثنا عشر رجلًا مسلحًا على بعد خمس خطوات من القاتل الأمريكي. نقر زعيم المخدرات بأصابعه الغليظة على طاولة النزهة قائلًا:

– "ألم تكن تفعل ذلك طوال الأسبوع دون مساعدتي؟"

– "أنا أتحدث عن عملية واسعة النطاق."

هز زعيم المخدرات كتفيه، وأشار لـ جينتري بالجلوس.

أخذ كورت كرسيًا معدنيًا على الجانب المقابل من الطاولة. تحدث مادريغال بينما قام رجل يحمل بندقية كلاشينكوف (AK-47) بفتح علبة «تيكاتي» ووضعها أمام كورت.

قال الزعيم:

– "أنا لست في حرب مع دي لا روشا. ولا أريد حربًا معه. هناك ما يكفي من الحروب الدائرة الآن. دي لا روشا لديه منطقة نفوذه، وأنا لدي منطقتي، ولدي ما يكفي من المتاعب في قتال الجيش. أفضل أن أشاهدك وأنت تقتل رجاله دون أن أتورط."

ضحك وأضاف:

– "هذا أكثر متعة."

ضحك الرجال في الغرفة من خلف فوهات بنادقهم.

لم يفهم كورت كل ما قاله مادريغال؛ كانت لهجته لهجة سكان الجبال المكسيكية الثقيلة، مطعمة بعبارات عامية غامضة، بينما تعلم كورت معظم إسبانيته في إسبانيا وأمريكا الجنوبية. نودي على شاب من الجانب الآخر من الغرفة؛ فجاء وجلس بجوار مادريغال.

– "ابني سيترجم. نحن نسميه تشينغاريتو."

ترجم كورت لقب الصبي في صمت، ثم تساءل أي نوع من الرجال قد يسمي ابنه "المضاجع الصغير". لم يطرح كورت السؤال بصوت عالٍ.

كان الفتى بالكاد يبلغ السادسة عشرة؛ يرتدي قبعة بيسبول مطرزًا عليها شعار ذهبي لورقة ماريجوانا. بدا متحمسًا نوعًا ما لاستدعائه إلى الطاولة لتحمل هذه المسؤولية. ترجم تحفظ والده بشأن الحرب مع «البدلات السوداء».

تحول كورت إلى الإنجليزية قائلًا:

– "هل تعلم أن دي لا روشا حصل على معلومات استخباراتية حول جهات اتصالك في أمريكا الجنوبية من قبل وكالة الاستخبارات المركزية؟"

ترجم الصبي. فهز مادريغال رأسه نافيًا:

– "لا. كيف عرفت هذا؟"

– "رجل في الاستخبارات المركزية أخبرني، ودي لا روشا نفسه أخبرني. إنه يريد الوصول إلى جزء من إنتاجك."

– "لن يحصل عليه."

– "ربما لا. وربما سيفعل كل ما في وسعه للإضرار بإنتاجك. هذا سيجعله أقوى، أليس كذلك؟"

استدعى كونستانتينو مادريغال رجلًا آخر. تحدث في أذن الرجل للحظة. ثم عاد بنظره إلى جينتري.

– "والد دانيال دي لا روشا كان رجلًا حكيمًا. منافسًا بالطبع، لكنه كان رجل أعمال جيدًا. أما دانيال فمجنون (Loco). لقد حاول توريطي في محاولة اغتياله التي نفذتها القوات الخاصة (GOPES) على يخته، ثم حاول توريطي في اغتيال عائلات ضباط تلك القوات. لكن هذا أسلوبه، وليس أسلوبي. ضجيج عالٍ، وأعداد قتلى كبيرة. حرب نفسية. كل ذلك الوقت الذي قضاه في الجيش طبخ دماغه، وحوله إلى قاتل مجنون. رجل غير عقلاني. والآن يقولون إنه يعبد وثنًا من أوثان الشوارع في الأحياء الفقيرة."

هز كونستانتينو مادريغال رأسه باشمئزاز وتابع:

– "الجانب التجاري والاستخباراتي من مؤسسته يديره في الواقع مستشاره، رجل محترم يدعى كالفو. كالفو عدوي، لكنني أحترمه. إنه أذكى من عشرة من هؤلاء الحمقى (Pendejos) الأغبياء الذين يعملون لدي."

لوح بذراعه حول الغرفة، فضحك اثنان من رجاله.

نقل مادريغال الأصغر كل هذا إلى جينتري، ثم واصل الأب:

– "إذا اكتشف كالفو مع من أعمل في أمريكا الجنوبية لتصنيع المنتج وإيصاله للمكسيك، وإذا قرر دي لا روشا شن حرب عليّ، فسيكلفني ذلك الكثير من الوقت والمال. المال موجود، لكنني لا أريد إضاعة وقتي في هذا."

قال كورت قبل أن ينهي الابن الترجمة:

– "أستطيع منع ذلك."

– "بإطلاق النار على عدد قليل من رجاله؟"

– "لا. بمساعدتك يمكنني إزعاج عملياته أكثر من ذلك بكثير. يمكنني تحويل انتباهه نحوي، وبعيدًا عنك، ويمكنك اتخاذ خطوات من جانبك لحماية مصالحك في أمريكا الجنوبية. لن يعرف حتى أنك متورط."

عندما انتهت الترجمة، جلس مادريغال صامتًا للحظة. كان الرجل الذي تشاور معه مادريغال سابقًا لا يزال يقف خلفه؛ انحنى الرجل للأمام لكن زعيم المخدرات أوقفه بيده بينما كان يفكر.

لم ينطق ابنه بكلمة أخرى.

أخيرًا، نظر مادريغال إلى جينتري وقال:

– "أنت وحيد. ولا تعمل لصالح الحكومة الأمريكية. هذا ما أعرفه."

أومأ كورت.

– "إذًا لماذا تفعل هذا؟"

– "دي لا روشا لديه شيء أريده."

– "فتاة عائلة غامبوا؟"

سر جينتري لأن هؤلاء الرعاة ذوي المظهر الخشن هنا في مخبأ جبلي ناءٍ يعرفون بشأن لورا. كان هذا يعني أن «لوس فاكيروس» (رعاة البقر) لديهم ذراع استخباراتية قادرة على الوصول لمعلومات حول «البدلات السوداء».

أومأ برأسه:

– "لدي مهمة واحدة، وهي جعل دي لا روشا يطلق سراح لورا لأن الاحتفاظ بها سيكون مكلفًا وخطيرًا جدًا عليه."

– "دانيال الصغير يمكن أن يكون عنيدًا جدًا."

لم يرمش جينتري:

– "وأنا كذلك."

سأل كونستانتينو:

– "ماذا تريد مني؟"

– "معلومات استخباراتية ودعمًا ماديًا."

– "رجالًا؟"

– "لا. أنا أعمل بمفردي."

– "ماذا تعني بـ (دعم مادي)؟"

– "أسلحة وشاحنة بيك أب."

ابتسم مادريغال ابتسامة عريضة. التقط بإصبعه المزيد من الكوكايين المبلل، وأتبعه برشفة أخرى من الجعة المعلبة. ضحك وهو يقول:

– "تبدو كرجل من سينالوا."

ابتسم كورت بدوره:

– "إذًا، هل اتفقنا؟"

– "لقد ولدت في قرية في سينالوا تدعى (ماتالو)."

ترجم كورت اسم البلدة في سره. كانت القرية تسمى "اقتله" بالإسبانية.

تابع مادريغال:

– "«البدلات السوداء» هم ضباط جيش، وسكان مدن، وخريجو جامعات. رجال من مكسيكو سيتي في المقام الأول. إنهم قساة. نعم، قساة للغاية. لكن دي لا روشا ومنظمته ليسوا خارجين عن القانون بالمعنى الحقيقي. نحن، «لوس فاكيروس»؟ نحن الجبال. نحن الخارجون عن القانون. لقد قاتل شعبنا وقتل لمئات السنين. كنا سارقي ماشية؛ وكنا قطاع طرق؛ أغرنا على مخيمات الهنود من أجل

نسائهم، وعلى ثكنات الجيش من أجل بنادقهم؛ وسرقنا البنوك من أجل أموالهم."

رشف الرجل الضخم الجعة وابتسم. أدرك جينتري ذهنيًا أن الرجل كان في حالة من النشوة النفسية.

تابع الزعيم:

– "الآن أصبحت مخدرات إلى الولايات المتحدة، لذا فالمال المتضمن أكثر، لكنني لا أهتم. أنا أمير حرب. لا أهتم بالمال. القتال هو ما أعشقه."

– "سأقاتل دي لا روشا نيابة عنك حتى الجحيم يا سيد مادريغال."

توقف زعيم المخدرات مرة أخرى. مسد شاربه ورشف الجعة.

– "نحن... أعني قادة المؤسسات هنا في المكسيك، لا نمس عائلات بعضنا البعض."

– "لا أخطط لملاحقة عائلته. أطلب فقط معلومات حول عمليات المخدرات الخاصة به. سيصبح الأمر داميًا جدًا، جدًا. لكنه لن يصبح شخصيًا."

ترجم تشينغاريتو. رشف مادريغال جعة «تيكاتي» وفكر قليلًا. أخيرًا، أشار بيده فوق كتفه وقال:

– "هذا هيكتور سيرنا. رئيس استخباراتي. سأجعلكما تعملان معًا بشكل مباشر. لتقليل فرصة وجود الجرذان (Ratones)."

– "جرذان؟"

كانت لغة سيرنا الإنجليزية ممتازة. قال:

– "مخبرون. كل المنظمات لديها منهم. ونحن لا نختلف عنهم."

– "إذًا لديكم وصول لجرذان داخل «البدلات السوداء»؟ أشخاص يمكنهم إعطاؤكم معلومات عن أماكن تواجدهم؟"

– "نحن نراقب تحركات قيادة «البدلات السوداء»؛ بالطبع نفعل. وهم يفعلون الشيء نفسه معنا."

– "إذًا تعرفون أين هم في جميع الأوقات؟"

– "في جميع الأوقات؟ لا. ولكن إذا أبلغوا تحركاتهم لأي شخص قد يكون على جدول رواتبنا أيضًا، فنعم، نسمع بذلك. على سبيل المثال، نعلم أن «البدلات السوداء» سيكونون في بويرتو فالارتا غدًا؛ لقد اتصلوا بأشخاصهم في الشرطة المحلية وأخبروهم بذلك. إذا احتاجوا للذهاب إلى فندق لعقد اجتماع، أو احتاجوا لإغلاق شارع من أجل أمنهم، أو احتاجوا لإخلاء موقف سيارات ليتمكنوا من تناول الطعام في مطعم مجاور – فسنسمع بذلك من جهات اتصالنا في الشرطة المحلية."

قال جينتري:

– "مثير للاهتمام."

ثم نظر إلى مادريغال:

– "هل يمكنك ترتيب وصولي إلى بويرتو فالارتا؟"

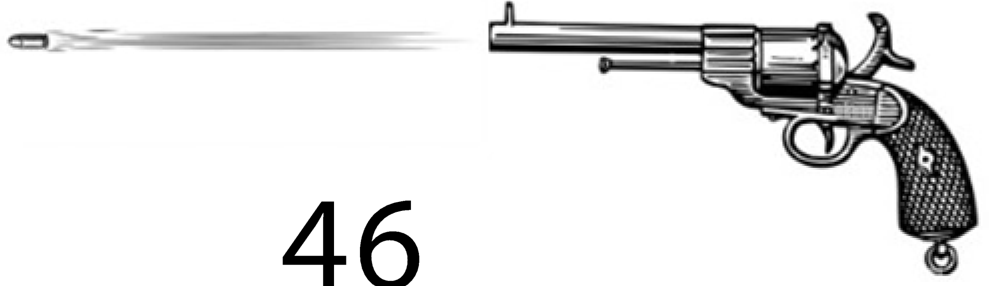
قال مادريغال وهو يقف ويمد يده:

– "بالطبع."

مد كورت يده. صافح يد قاتل الرجال والنساء والأطفال؛ معذب المئات؛ رجل يجسد كل ما يعتبره أي شخص عاقل تمثيلًا للشر.

– "شكرًا يا صديقي (Gracias, amigo)."





46

في تمام الثامنة من صباح اليوم التالي، كان كورت جينتري يجلس داخل شاحنة "مازدا" سوداء قديمة في موقف للسيارات عند مرسى "بورتو فالارتا". على بُعد عشرين ياردة من موقعه كانت يخوت وقوارب ترفيهية تُقدر قيمتها بعشرات الملايين من الدولارات تتمايل في وئام فوق سطح الماء. كانت شمس الصباح تمنح دفئها لزوج من زواحف الإيغوانا الرابضة على الصخور على طول المتنزه. ومن نافذة السائق، كان يلوح مبنى سكني فاخر بارتفاع خمسة طوابق، بينما اصطفت من ناحية نافذة الركاب سلسلة طويلة من المتاجر والشركات التي لم تفتح أبوابها بعد، غارقة في سكونها وعتمتها.

كان جينتري يتحدث عبر الهاتف مع رمسيس سيينفويغوس كورتيلو. لقد تواصل رمسيس مع رجال يثق بهم في مدينة مكسيكو، ورغم أنه كان لا يزال يتوارى عن الأنظار، إلا أن كورت اتصل برقم هاتفه القديم، فأرشدته رسالة مسجلة إلى رقم هاتف محمول جديد. اتصل كورت بهذا الرقم، ليعاود رمسيس الاتصال به بعد دقائق معدودة.

كان هدف كورت من الاتصال بهذا الضابط الفيدرالي هو تحذيره؛ فقد أراد أن يحيطه علمًا بأنه يتلقى معلومات ودعمًا من كارتل مادريغال، لكنه حرص في الوقت ذاته على أن يعرف صديقه في الشرطة الفيدرالية أنه لا يعمل لصالح "الفاكيروس".

فبالنسبة لـ كورت جينتري، لم يكن يعمل إلا من أجل لورا.

قال كورت:

– "اسمع يا رمسيس. الأمور ستؤول إلى سوء وقبح شديدين. لا أعرف ما الذي قلته لمن حولك عني، أو عن تعاونك معي."

أجابه رمسيس:

– "لم أقل شيئًا. لقد نقلتُ عائلتي إلى شقة صديق لي في ميامي، والذين أعمل معهم الآن لا يعرفون سوى أنني ومارتن نجونا من الهجوم على اليخت، وأن مارتن قُتل في تيكويلا. هؤلاء الرجال يدركون جيدًا أن كثرة الأسئلة ليست في مصلحتهم."

– "أتثق بهم؟"

أجاب رمسيس دون تردد:

– "أثق بهم تمامًا؛ فقد ذاقوا جميعًا الأمرين على يد منظمة "البدلات السوداء"."

– "حسنًا."

– "هؤلاء رجال شرفاء، ويمكننا مساعدتك في ملاحقة لورا."

صمت كورت قليلًا، وراقب عبر الزجاج الأمامي المتسخ رجلًا أصلع في منتصف العمر يخرج من المبنى السكني، يقود كلبه الصغير من فصيلة "بودل" في نزهة على طول شريط عشبي يحيط بمركز تسوق خارج المرسى مباشرة. ثم قال:

– "إذا كنت تعرف رجالًا شرفاء، فلنحافظ على شرفهم بعيدًا عما سيحدث. ما أنا بصدد القيام به... لا أريد إقحامهم فيه."

– "ما الذي تنوي فعله بالضبط يا جو؟"

– "سأحرق الأخضر واليابس. سأقتل، سأعذب، وسأنتهك كل المحرمات. سأصبّ جحيمي على الأوغاد الذين يحتجزون لورا غامبوا، وسأستعيدها حتى لو اضطررت لإبادة كل ما يقف في طريقي. لن ألتزم بأي قواعد."

– "لا توجد قواعد هنا يا صديقي."

– "أنا أتحدث عن نواميس الإنسانية، وأنا مستعد لانتهاكها واحدًا تلو الآخر."

تمتم رمسيس قائلًا:

– "يا إلهي.. لم أقابل قط شخصًا مثلك، شخصًا يقف في جانبنا ولكنه..."

قاطعه كورت:

– "أنا مختلف عن بقية الأخيار؛ لأنني لا أخشى النزول إلى مستوى أعدائي. إذا كان لديك رجال جيدون هنا، رجال يستطيعون النوم بسلام في الليل، فلا تقحمهم في هذا الأمر. أفضل أن أفعل ما سأفعله بالتعاون مع مادريغال على أن أفعله مع الأخيار، هل تفهم ما أعنيه؟"

– "أنت رجل طيب."

– "شكرًا يا رمسيس، لكنك لن تقول هذا حين أنتهي. ستعتقد أنني أقذر نغل قابلته في حياتك."

– "رقمي معك. سأساعدك بأي وسيلة ممكنة دون إشراك أي شخص آخر. إذا احتجت لأي شيء، أي شيء على الإطلاق، اتصل بي."

– "شكرًا."

أغلق كورت الهاتف، وراقب الرجل وكلبه للحظة، ثم فتح باب شاحنة المازدا.

بعد أربعين ثانية، كان الكلب الصغير وحيدًا ينبح بجنون، بينما التف مقوده حول سارية لافتة أمام متجر لم يفتح أبوابه بعد.

كانت غرفة التخزين الرطبة والمظلمة التي تبلغ مساحتها عشرة أقدام في عشرة أقدام تفوح برائحة العفن. كانت السحالي والعناكب تزحف على الجدران وتتدلى من السقف، مخلفة ظلالًا مرعبة كلما

تحركت أمام كشاف يدوي ضخم وضعه جينتري في الزاوية، موجهًا إضاءته نحو وسط الغرفة.

وهناك، في الوسط، جلس النقيب زافيير غارزا غيرو من شرطة "بورتو فالارتا". وبحسب رئيس استخبارات مادريغال، فإن غارزا لم يكن سوى مأجور يعمل لصالح "البدلات السوداء"، وكان يشرف على العمليات الأمنية للكارتل هنا على الساحل الغربي للمكسيك، من الحدود الغواتيمالية جنوبًا إلى الحواف الجنوبية لـ سينالوا شمالًا. لقد كان عنصرًا أساسيًا في دعم جهود دي لا روشا في المنطقة؛ يحمي شحنات المخدرات، ومنشآت الإنتاج، والبيوت الآمنة، وحتى مواكب دانيال التي كانت تعبر المدينة تحت حماية سيارات الشرطة وأضوائها الساطعة.

انتزع جينتري الشريط اللاصق عن فم الرجل الأصلع، فانتزع معه شعيرات شاربه من جذورها. كانت عين النقيب غارزا اليسرى متورمة ومنغلقة تمامًا، نتيجة ارتطام وجهه بالرصيف خارج غرفة التخزين. كانت يداه مقيدتين خلف ظهره، وملابسه قد مُزقت تمامًا بسكين حاد طويل.

خلال الساعة الأولى، حاول غارزا التفاهم مع كورت، وأعطاه مواقع مختبرات "الميثامفيتامين" التي يعرفها في الجبال جهة الشرق، ظنًا منه أن هذا قد يشتري له حريته. كان يعتقد أن هذا الرجل يعمل بالتأكيد لصالح كارتل آخر، وأنه إذا أقنعه بالتعاون، فإن من أرسله سيدرك أن ضابط شرطة واسع النفوذ ويمتلك أسرار أعمال دي لا روشا سيكون ذا قيمة وهو حي أكثر منه وهو ميت.

لكن حينها، تقدم "الغرينغو" ووقف أمام الضوء. كشف عن نفسه تمامًا؛ لم يبذل الخاطف أي محاولة لإخفاء وجهه عن ضحيته.

وأدرك الشرطي الفاسد فورًا ماذا يعني ذلك.

فهم النقيب غارزا أن أمله الوحيد الآن يكمن في التفاخر بعلاقته بمنظمة "البدلات السوداء". لعلّه يرهب خاطفه ويجبره على إطلاق سراحه.

صرخ قائلًا:

– "لو لمست مني شعرة أخرى، سيرسل دي لا روشا سبايدر خلفك!"

مد الأمريكي يده، وصوّب إصبعه، ثم غرزه بقوة في الجبهة المتعرقة لـ زافيير غارزا، وأتبع تلك الحركة بدفعة قوية.

ثم التفت الأمريكي ونظر خلف كتفه نحو باب المرآب المؤدي لغرفة التخزين، وقال:

– "ومتى سيأتي؟ أرغب بشدة في رؤيته."

– "ستراه أيها الغرينغو!" حاول غارزا كبح غضبه. "اسمع، إذا أطلقت سراحي الآن، فسأنسى ما حدث، ولكن إذا—"

قاطعه كورت:

– "أوه يا زافيير.. لن تنسى هذا أبدًا. ليس لبقية حياتك." ثم نظر كورت إلى ساعته. "تستطيع أن تتذكر لثلاث دقائق أخرى على الأقل، أليس كذلك؟"

صرخ غارزا:

– "ماذا تريد؟"

هز الأمريكي كتفيه ببرود:

– "لا أريد منك شيئًا أيها النذل."

– "لا شيء؟ إذن ما كل هذا؟ ماذا تفعل؟"

– "أنا مجرد قوة من قوى الطبيعة يا زافيير. لقد عشتَ بالسيف..." استدار "الغرينغو" وابتعد نحو زاوية مظلمة، ليعود بعد ثوانٍ حاملًا ساطورًا معدنيًا ضخمًا. "وستموت بالسيف. أو في حالتنا هذه، بساطور اللحم."

– "هل أنت مع "الفاكيروس"؟"

– "لا."

– "مع من إذن؟"

– "مع الولايات المتحدة الأمريكية."

مال غارزا برأسه الأصلع المتعرّق في حيرة:

– "إدارة مكافحة المخدرات (DEA)؟ أنت لست منهم."

– "كلا، لست منهم."

ظن غارزا أنه فهم الآن؛ اعتقد أن هذا الرجل منتقم يعمل لحسابه ضد المخدرات.

– "اسمع، نحن مجرد رجال أعمال. كلنا هنا كذلك. نحن نوفر العرض فقط، وأنتم "الغرينغوز" توفرون الطلب. نحن فقط نستجيب لهذا الطلب."

رد كورت:

– "إذن، الشخص الذي ينتج أفلام اغتصاب الأطفال ليس مسؤولًا طالما أن هناك من يريد شراءها؟"

نظر غارزا إلى خاطفه وقال:

– "أنت لا تعرف شيئًا. أنت مجرد أمريكي ثري. أنت لا تفهم ثقافتنا!"

– "في الواقع، بدأتُ أستوعب الأمر. سأقطع رأسك وأضعه في حقيبة. ألا يبدو هذا جزءًا من ثقافتكم؟"

– "اذهب إلى الجحيم!"

– "على الأرجح سأفعل. ولكن في هذه الأثناء..." جلس جينتري على صندوق بني أمام ضحيته. "أعطني الأسماء والأرقام."

– "ماذا؟"

– "الأسماء والأرقام. أعطني أسماء الآخرين في منظمتك، وسأنهي أمرك بسرعة وخفة."

– "ستقتلني بسرعة وخفة؟"

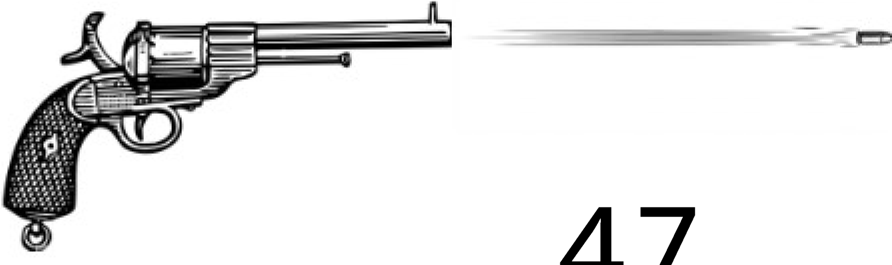
– "هذا أفضل عرض يمكنني تقديمه لك."

– "وإذا لم أعطك الأسماء والأرقام؟"

نظر كورت إلى ساعته، وهز كتفيه قائلًا:

– "يا صاحبي.. اليومُ بطوله أمامي."





47

توقفت سيارات شرطة بويرتو فالارتا في الشارع عند الساعة التاسعة مساءً. غادر الضباط مركباتهم وبدأوا في توجيه حركة المرور، دافعين بها بعيدًا وآمرين السائقين بمواصلة السير إلى التقاطع التالي.

بعد دقيقة واحدة، توقفت أولى سيارات الدفع الرباعي البيضاء المصفحة ضمن موكب طويل أمام المطعم البحري الجميل.

بدأ عناصر «البدلات السوداء» العاملون ضمن فريق الأمن المسبق جولاتهم في المطعم. سار رجل يبدو صارمًا لكنه مهذب مع رئيس الخدم (maître d’) إلى كل طاولة وجمع الهواتف المحمولة، مخبرًا الزبائن المذهولين بأن تكلفة طعامهم ومشروباتهم ستُغطى بالكامل. تحركت مجموعة من أربعة أفراد من الفريق الأمني عبر المطبخ مع مدير المطعم، وفحصوا المبردات والمجمدات، والممرات وغرف المؤن، والحمامات وأبواب التحميل. وفتشوا الموظفين تفتيشاً دقيقًا من الرأس إلى أخمص القدمين. وقف حارسان مسلحان بمدافع رشاشة من طراز «ماك-10» عيار 45 عند المداخل، بينما قام عضوان أصغر رتبة من الوحدة بدورية في الخلف حاملين بنادق كلاشينكوف (AK-47).

كان دانيال دي لا روشا يجلس في سيارة دفع رباعي مصفحة وبجانبه قائد حراسه وضابط الحماية اللصيقة الخاص به. تلقى إميليو لوبيز لوبيز نداءً لاسلكيًا من قائد وحدة الفريق المسبق يفيد بأن

المطعم مغلق ومؤمن، فأومأ لرئيسه، وفتح سائق الـ «يوكون» الباب الخلفي للمركبة. تشكل فريق من أفضل حراس إميليو حول قائدهم، ودخلوا المطعم. كان إميليو يضع يده اليمنى على مسدسه داخل سترته، ويده اليسرى على أسفل ظهر "زعيمه". كانت سماعة أذن متصلة بجهازه اللاسلكي تنقل له تحديثات من فريقه، وأي تهديد كان سيدفع إميليو لوبيز لوبيز لحماية رئيسه بجسده، وإدارته، ودفعه بسرعة عائدًا إلى سيارات الدفع الرباعي في ثوانٍ.

خلف كتلة قوة الحماية الرئيسية مباشرة كان نيستور كالفو ماسياس، يتحدث في سماعة البلوتوث الخاصة به. وكان خافيير "سبايدر" سيبيدا، قائد قتلة «البدلات السوداء»، وسط الحشد، وكذلك عدد من الموزعين المحليين، ومنفذي الأوامر، ومديري اللوجستيات، وكبير طياري طائرات دانيال العديدة، وبعض المديرين التنفيذيين للتصنيع والمشتريات.

أربعة عشر حارسًا شخصيًا في الموقع ضمنوا سلامة قائدهم، وتسعة عشر آخرون من «البدلات السوداء» ملأوا تقريبًا منطقة تناول الطعام الخاصة في وسط المبنى.

كانت منطقة تناول الطعام الخاصة مفتوحة في الهواء الطلق، يهب عليها نسيم بارد من المحيط ويدور حول الفناء المبلط. جلس دانيال دي لا روشا على طاولة في الجزء الخلفي من القاعة، خلف نافورة طويلة تخرخر مياهها، وتحت قوس شبكي من نبات الجهنمية المشذب بعناية وحب. جلس أعضاء آخرون من «البدلات السوداء» على طاولات رباعية حول الفناء. لم يكن عشاء عمل؛ بل كان مجرد عشاء. كانوا هنا للأكل ثم التوجه شرقًا إلى المنزل الآمن على بعد بضعة أميال في الداخل. كانت هذه أول زيارة لـ دي لا روشا إلى بويرتو فالارتا منذ المجزرة التي وقعت قبل عشرة أيام؛ كان لديه أعمال

يتابعها في المنطقة، وقد أمضى اليوم في العمل مع شركاء شركة الطيران الخاصة به، ومؤسسة تصنيع ونقل المخدرات التابعة له.

خيم الوجوم على الرجال لأن قائدهم كان واجمًا. كان يستشيط غضبًا بسبب الهروب الظاهري لآل غامبوا والغرينغو. افترض تمامًا أنهم شمال الحدود، لكن مطاردته كانت بعيدة عن الانتهاء. في هذه اللحظة، كانت قوته العاملة بالكامل في الولايات المتحدة: في أتلانتا، وشيكاغو، ودالاس، ولوس أنجلوس، وفي اثنتي عشرة مدينة أخرى – كلهم يعملون على العثور على آل غامبوا والغرينغو.

حتى الآن خذله كالفو، وخذله سبايدر، وخذلته منظمته الإجرامية التي يبلغ قوامها خمسين ألف عضو.

لكن ذلك لم يكن مهمًا حقًا. لأن كل ما يهم دانيال هو أن دانيال قد خذلها "هي".

حدق دانيال عبر طاولته إلى زاوية في الفناء، على بعد بضعة أقدام فقط. كان فريق الأمن المسبق قد أحضر ضريحًا لـ «سانتا مويرتي» (القديسة الموت)، وهو تمثال أيقوني للقديسة بطول ثلاثة أقدام، يرتدي أفخم ثوب زفاف مصنوع يدويًا من قبل خياط بارع في مكسيكو سيتي يعمل حصريًا على ابتكار أزياء عالية الجودة وباهظة الثمن لأيقونات سانتا مويرتي. كانت تقف على طاولة مزينة بشموع النذور التي يرتعش لهبها في نسيم البحر؛ لعبت الظلال عبر وجه الهيكل العظمي، مما خلق مظهرًا يوحي بالحركة والحياة.

حدق دي لا روشا في عينيها. بالنسبة له، لم تكن محاجر فارغة في الجص؛ بل كانت نوافذ تطل على الهاوية. بوابات رؤية إلى روح إلهة غاضبة.

وضع نادل يرتدي معطفًا أبيض زجاجة تكيلا فضية من نوع «غران باترون بلاتينوم» على طاولته. وبجانب الزجاجة طبق

كريستالي من الليمون المقطع حديثًا، وطبق كريستالي من الملح، وكأس صغير من الكريستال نفسه.

تجاهل دي لا روشا الملحقات وأمسك الزجاجة من عنقها، وتجرع رشفة من السائل الصافي، وحدق في صنمه، ووعدها بصوت مسموع بأنه سيقدم لها الجزية التي طلبتها.

الطفل الذي لم يولد بعد لعائلة غامبوا.

وقف النادل بشكل محرج وفي يده قائمة طعام، منتظرًا أن ينهي دي لا روشا صلاته. وبينما كان دانيال لا يزال يصلي، تنحنح الرجل.

كان إميليو لوبيز لوبيز يقف بمحاذاة الحائط خلف رئيسه مباشرة؛ تقدم إميليو نحو النادل وأمسكه من ذراع معطفه، وأداره بعنف، واستعد لدفعه بعيدًا لسوء أدبه. لكن دانيال رفع زجاجة التكيلا.

– "لا بأس يا إميليو. شكرًا لك."

ثم نظر إلى النادل وقال:

– "فليقم الطاهي بإعداد شيء خفيف. سمك البلطي المشوي سيكون مثاليًا."

قال النادل:

– "حسنًا جدًا يا دون دانيال (Muy bien)."

واندفع مسرعًا إلى المطبخ، سعيدًا بوضوح لنجاته بحياته بعد خطئه.

جاء نيستور إلى الطاولة، وتحدثا في العمل لبضع دقائق، لكن قلب دي لا روشا لم يكن حاضرًا، وأخيرًا طلب من مستشاره أن يتركه يتناول وجبته وحيدًا. فهم بقية «البدلات السوداء» الرسالة؛ أكلوا على طاولات أخرى وتحدثوا بنبرات خافتة، وعملوا على هواتفهم المحمولة أو أجهزة الكمبيوتر المحمولة الخاصة بهم، يحاولون جاهدين أن يكون أحدهم هو من يحدد أين في العالم تمكنت أهدافهم من الاختفاء.

ظهر نادل مختلف ومعه حساء بطيخ بارد، وراح دي لا روشا يرتشفه بصوت مسموع وهو غارق في التفكير والكآبة. واصل رشف التكيلا بين جرعات المياه المعبأة وملاعق الحساء؛ كان يحدق فقط في الظلام حوله، في رجاله، في النافورة، وفي صنمه على الطاولة في الزاوية. تمايلت الفوانيس الورقية الزخرفية المعلقة عبر الفناء على خطوط فوق رؤوس الرجال مع النسيم.

في غضون دقائق، جاء نادل آخر يرتدي معطفًا أبيض منشى إلى طاولة دي لا روشا؛ كان يدفع عربة بعجلات مغطاة بمفرش وعليها طبق مغطى. بانحناءة خادعة، أخذ الرجل طبق الحساء الفارغ من الطاولة واستبدله بالطبق المغطى.

قال النادل وهو يزيل الغطاء ويضعه مرة أخرى على العربة المتدحرج:

– "صحة وهناء (Buen provecho)."

لم ينظر دي لا روشا إلى الرجل، ولم يرد. أمسك شوكته بيده، ثم نظر بتشتت إلى طبقه وهو يبدأ في تناول عشائه.

انتفضت يده للأعلى وللخلف فجأة.

كان الطبق مغطى بأحشاء حيوانية لزجة، ورأس وهيكل عظمي لسمكة منزوعة العظم تفوح منه رائحة كريهة، وقطع أخرى من النفايات النتنة.

سأل دانيال:

– "ما هذا بحق الجحيم؟"

أجابه النادل باللغة الإنجليزية:

– "هذا يا سيدي، يبدو كقاذورات، وهذا..."

مد يده أمام دي لا روشا، مظهرًا جهازًا يمسكه بقبضته.

– "وهذا يبدو كـ «مفتاح الرجل الميت»."

كان الجهاز بوضوح صاعق تفجير، وكان إبهام النادل يضغط على زر أحمر، ويمتد سلك من الجهاز، عبر راحة كف الرجل، ويختفي داخل معطفه الأبيض.

رفع دي لا روشا بصره إلى النادل.

استغرق الأمر لحظة بسبب الشعر واللحية المشذبين، والبشرة الداكنة والنظارات ذات الإطار الأسود، لكنه عرفه.

إنه الرجل الرمادي.

فتح الأمريكي معطفه وكشف عن سترة بدائية بحبال يتدلى منها قالبان كبيران من مادة صفراء مغلفة بالبلاستيك. بدت مثل أكياس الرمل. قال بصوت هادئ:

– "إذا ترك إبهامي هذا الزناد، ولو لعشر من الثانية، فإن قنبلة نترات الأمونيوم وزيت الوقود هذه ستنفجر، وسيموت كل من هنا. بمن فيهم أنت."

كان إميليو يقف بمحاذاة الحائط؛ ولم يكن يرى سوى ظهر معطف النادل. كان قد تحقق للتأكد من أنه ليس الوغد الوقح نفسه الذي سعل بينما كان رئيسه يصلي قبل بضع دقائق. واطمأن إلى أن هذا نادل جديد، ونأمل أن يكون أكثر احترافية، لذا لم يكلف نفسه عناء الانتباه كثيرًا لتقديم الطعام. لكن الآن لاحظ إميليو أن الرجلين كانا في حديث مع بعضهما. لم يكن من المعتاد أن يتحدث "الزعيم" مع نادل لفترة طويلة كهذه.

خطا إميليو حول جانب الرجل ذي المعطف الأبيض، وعندما فعل، رأى عيني دانيال المتسعتين. وعلى الفور، مد يده داخل سترة بدلته واندفع نحو الطاولة، مدركًا هوية "الرجل الرمادي" في اللحظة نفسها. سحب مسدسه الفنزويلي «زامورانو» عيار 9 ملم وأطاح بكرسي من طريقه ليضغط فوهة المسدس على رأس الغرينغو.

رفع دي لا روشا يديه في الهواء، مذعورًا من أن حارسه الشخصي قد يطلق النار على الأمريكي دون تردد.

– "لا! اهدأ! اهدأ! (Tranquilo!)."

ظهرت الأسلحة في أيدي الجميع في الفناء. مسدسات، ورشاشات، وزوج من بنادق الشوزن ذات القبضة المسدسة. اقترب بعض الرجال من الطاولة بينما تراجع آخرون وصوبوا بعناية. لم يعرف أحد ماذا يفعل، لكنهم جميعًا اتبعوا رغبات قائدهم، وحافظوا على مواقعهم.

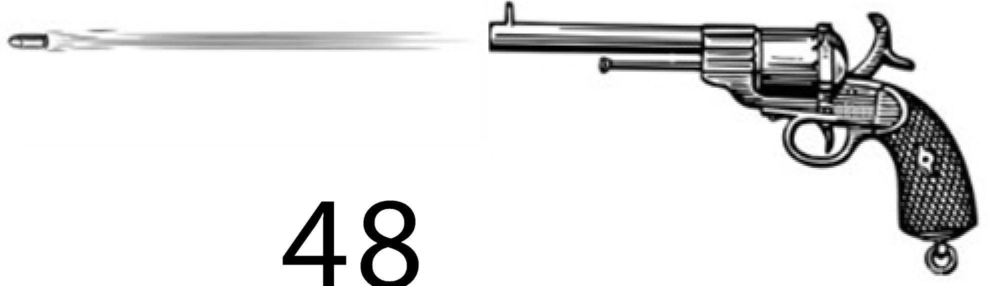
– "ليتراجع الجميع بضع خطوات. إميليو، اخفض مسدسك وابتعد، لكن كن مستعدًا. سبايدر، ابق عينك على هذا الغرينغو التافه واقتله إذا حدث لي أي مكروه."

أمسك سبايدر سيبيدا رشاشه الـ «ماك–10» بيد واحدة. ووقف على بعد عشرة أقدام؛ والفوهة مصوبة نحو وجه القاتل الأمريكي.

قال ببطء وثقة:

– "لن تخرج من هنا حيًا أيها الأحمق (Pendejo)."





48

كان كورت جينتري يتجمد من برد لعين. قضى ثلاث ساعات داخل مبرد اللحوم، مرتديًا "بونشو" دافئًا ولكنه ظل جالسًا بلا حراك في زاوية قصية، متخفيًا خلف ذبائح بقر ضخمة تتدلى من السقف. كان قد تسلل إلى المطعم في الثالثة عصرًا مع شحنة الخضروات، حاملًا حقيبتي ظهر خبأهما فوق عربة يدوية محملة بصناديق الفاكهة، ثم قضى ساعتين في غرفة التخزين الجاف قبل أن ينتقل أخيرًا إلى المبرد الضيق بينما كان طاقم العمل المسائي مشغولًا باجتماع وتذوق الأطعمة في صالة الطعام الرئيسية.

انتظر في المبرد حتى وصلته رسالة نصية من ضابط شرطة بالخارج يتقاضى رشاوى من كارتل "البدلات السوداء" و"الفاكيروس" على حد سواء.

انتظر ثلاثين دقيقة أخرى، وجسده يرتجف وأسنانه تصطك ببعضها، ثم غادر المبرد مرتديًا زيًا رسميًا سحبه من رف الكتان، وعثر على عربة طعام متحركة وبعض أحشاء الأسماك الملقاة جانبًا، استخدمها كغطاء لدخوله. ثم، والبرودة لا تزال تنخر عظامه، توجه نحو صالة الطعام بحثًا عن دانيال دي لا روشا.

همس جينتري في أذن دانيال:

– "اؤمر رجالك بالتراجع."

بإيماءة خاطفة من معصمه، أشار "دي لا روشا" لبقية أفراد "البدلات السوداء" بالتراجع بضع خطوات عبر الفناء؛ فكادوا يختفون في عتمة الليل.

لكن كورت رفع يده، وتحدث بصوت مسموع للجميع:

– "ليس الجميع." ثم نظر مجددًا إلى "دي لا روشا". "من من هؤلاء الرجال هو العقل المدبر الحقيقي لعملياتك؟"

تشنج وجه دانيال وكأنه عضلة مشدودة؛ وراقب كورت الشريان السباتي للمكسيكي وهو ينبض بتوتر. تحدث "دي لا روشا" من بين أسنان مطبقة:

– "أنا من يتخذ القرارات كلها."

– "بالتأكيد، أيها العبقري. لكنني وأنت بحاجة للتحدث في العمل، وأراهن أن هناك رجلًا في هذا الجمع تودُّ أن يحضر نقاشنا الصغير." أشار كورت بيده الحرة نحو دمية الهيكل العظمي المحاطة بالشموع في الزاوية. "هذا إلا إذا كانت... دمية الباربي تلك تجيد تدوين الملاحظات." هز رأسه وابتسم، مظهرًا هدوءًا وثقة رجل يمسك بزمام الأمور. "بجدية، ما هذا الهراء بحق الجحيم؟"

بطريقة ما، وجد غضب دانيال وقودًا جديدًا. احمرّ وجهه بشدة حتى تحت الضوء الخافت للفوانيس الورقية المتدلية فوق الفناء. تردد لبضع ثوانٍ، ثم نظر في اتجاه الحشد المظلم من الرجال قائلًا:

– "نيستور، اجلس."

جلس نيستور كالفو على الطاولة بجانب "دي لا روشا". كانت لحيته التي يغزوها الشيب تلمع من أثر العرق المتصبب على جلده.

تفرّس كورت في الرجل الأكبر سنًا للحظة وقال:

– "جميل؛ لقد حضر إشراف الكبار أخيرًا."

جلس "الرجل الرمادي" على الطاولة، وعربة الطعام المتحركة عن يمينه. سأله "دي لا روشا":

– "ماذا فعلت برجل وكالة الاستخبارات المركزية؟"

رد جينتري وهو يهز كتفيه كأن الأمر لا يعنيه:

– "قتلته."

– "والغرينغو من السفارة؟ جيري؟ لقد ساعدك على الهرب، أليس كذلك؟"

– "انسَ أمر جيري؛ فهو مجرد أحمق أمريكي. لديك ما يكفي من الحمقى هنا دون الحاجة لاستيراد المزيد. أعتقد أنك بالغت في تطبيق اتفاقية "نافتا" (NAFTA[11]) قليلًا."

– "ظننتك ستكون بعيدًا جدًا بحلول الآن. لو كان لديك ذرة عقل لهربت. لماذا أنت هنا؟"

– "دعني أشرح لك ما الذي سيحدث لك يا دانيال. وأنت يا نيستور، انتبه جيدًا، لأنني أعول عليك لتكون الطرف العاقل. دانيال، أنا سأدمر تجارتك. سأخرب بيتك؛ سأحرق مخدراتك، وأقتل وسطاءك، وأرهب مورديك، وأحطم قواربك وطائراتك وسياراتك وشاحناتك. سأنتزع كل قرش من أرباح منظمتك، شيئًا فشيئًا، قطعة قطعة."

ابتسم "دي لا روشا" ببرود وقال:

– "إن فعلت ذلك، فسأقتل تلك العاهرة الصغيرة، لورا غامبوا."

– "كلا، لن تفعل، وسأخبرك لماذا. لأنني لن ألمس عائلتك؛ وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنك الركون إليه. أنا أريد استعادة لورا، وكل عمليات التفجير التي أعتزم القيام بها هي مجرد "اختبار أداء"؛ لأثبت لك أنني أستطيع الوصول إلى حيث أريد، وفعل ما أريد، وقتما أريد. عليك أن تفكر مليًا وطويلًا في الأماكن التي قد أصل إليها

[11] اتفاقية *NAFTA* هي اختصار *North American Free Trade Agreement*، أي اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية، وُقعت عام 1994 بين الولايات المتحدة، كندا، والمكسيك .تهدف الاتفاقية إلى إلغاء الرسوم الجمركية وتقليل الحواجز التجارية بين الدول الثلاث، لتعزيز التجارة والاستثمار، وتحفيز النمو الاقتصادي في المنطقة.

والأشياء التي قد أفعلها إذا مسست لورا بسوء.. شيء قد يثير غضبي حقًا."

– "أتفعل كل هذا من أجل فتاة؟ بجدية؟"

– "نعم. إذا أعدتها لي، سيتوقف كل هذا الجحيم. ويمكنك العودة لكونك حثالة تتاجر بمخدر "الميث" كما تشاء، ولن أقف في طريقك بعد الآن."

احمرّ وجه "دي لا روشا" غيظًا، وبعد صمت طويل قال:

– "أنت ميت لا محالة يا مأبون. أنت ميت."

هز جينتري كتفيه:

– "اتصل بعشرة من كبار رجالك وقل لهم الشيء نفسه، فمن المرجح أنه في غضون اثنتين وسبعين ساعة، سيكون الكثير منهم قد فارقوا الحياة."

– "أتدرك من نحن يا "رمادي"؟ نحن "البدلات السوداء". كنا إحدى أفضل الوحدات تدريبًا في الجيش المكسيكي، وتدربنا على يد جيشك أنت في الواقع. أنا لست مجرد مهرب مخدرات بسيط من سكان الجبال يرتدي أحذية جلد النعام ويحمل "كلاشينكوف" مثل ذلك النذل مادريغال. لقد تدربت في "فورت بينينج" و"فورت براج"."

– "حين كنت في "فورت براج"، هل رأيت كل تلك القوات شبه العسكرية التي تتدرب هناك؟"

– "نعم، وتدربت معهم. إنهم أفضل الكوماندوز في العالم."

– "أشداء فعلًا، جميعهم بلا استثناء. لكن تذكر هذا: كل واحدة من تلك المنظمات للعمليات الخاصة تضع "قتلي" على رأس قائمة مهامها.. يطاردونني منذ سنوات، ومع ذلك ها أنا أجلس أمامك. أنت لم تواجه قط شخصًا مثلي يا دانيال، ومن الأفضل لك أن تبقي هذه الحقيقة حاضرة في ذهنك."

لم يتكلم نيستور كالفو حتى تلك اللحظة، لكنه الآن هز رأسه وانحنى قليلًا للأمام قائلًا بالإسبانية:

– "ولكن يا سيد، أنت مجرد رجل واحد."

اقترب كورت من نيستور، وثبّت نظراته في عينيه بحدة وصرامة:

– "رجل واحد.. ليس لديه ما يخسره."

نظر "دي لا روشا" إلى مفتاح التفجير التلقائي في يد الأمريكي.

– "أتظنني خائفًا منك؟"

ابتسم جينتري، وبدا سعيدًا حقًا بهذا السؤال:

– "أعتقد أنك مرعوب حد اللعنة. أنا أرى ما وراء قناع "الماتشو" هذا؛ أنت تفكر في عائلتك، وتفكر في الرجال الذين تركتهم حول لورا، وتدعو الله أن تتمكن من الاتصال بهم لإخبارهم بالابتعاد عنها قبل أن يرتكبوا حماقة لا يمكن التراجع عنها. لأنك تعرف ما فعلتُه، وتعرف ما أنا قادر على فعله. لقد تغير كل شيء في عالمك الآن؛ أنت لا تختلف عن آلاف الأوغاد الآخرين على هذا الكوكب؛ نفوذك، نجاحك، قوتك.. كلها نابعة من الخوف. إذا لم تستطع إلقاء الرعب في قلوب الناس، فأنت لا شيء، وستنتهي. حسنًا، خمن ماذا يا صديقي؟ لم تعد أنت أكثر شيء مرعب هنا."

نقر نيستور بأصابعه على الطاولة، وانحنى نحو الأمريكي:

– "أفترض أن لديك خطة للهرب الآن؟"

– "بالفعل." أخرج كورت من جيب سترة النادل هاتفًا محمولًا صغيرًا.

وتابع قائلًا:

– "هناك أربعة أرطال إضافية من متفجرات "الآنفو" مخبأة تحت طاولة في هذه الغرفة. وبينما أغادر المطعم، ما عليَّ إلا ضغط زر واحد" – رفع الهاتف عاليًا – "وسيموت كل من هنا. وبمجرد أن أختفي عن الأنظار، قد ترغبون في التفكير بالركض خارجًا، لأنني لم أقرر بعد

ما إذا كان الأمر يستحق العناء. ربما سأحولكم إلى طعام للكلاب الليلة، وآمل أن يطلق رجالك سراح لورا لأن هناك قانونًا جديدًا يحكم هذه المدينة."

بدا "دي لا روشا" وكأنه سينفجر غضبًا. التفت جينتري عنه ووجه كلماته التالية إلى كالفو، وكأن زعيم "البدلات السوداء" لم يكن موجودًا:

– "عليك أن تُحكم قبضتك على هذا الفتى؛ سيرغب في قلب البلاد رأسًا على عقب ليجدني. لا بأس، دعه يضيع وقته وطاقته. لكن عليك أن تذكره باستمرار بالثمن الفادح الذي ستتكبده منظمتكم بسبب عهد الرعب الذي سأفرضه عليكم. كل ما أريده هو الفتاة، وتسليمها لي لن يكلفكم سنتًا واحدًا. يمكنك أن ترى كيف أن هذا يصب في مصلحتكم، حتى وإن كان هذا الأبله لا يدرك ذلك." نهض كورت واقفًا. "آمل أن يستمع إليك" – أشار إلى تمثال "سانتا مويرتي" في الزاوية – "وليس إلى تلك العجوز الشمطاء المخيفة."

ومع ذلك، رفع جينتري مفتاح التفجير عاليًا بيده اليسرى، والهاتف المحمول بيده اليمنى:

– "اؤمر هؤلاء الأوغاد بأن يدعوني أخرج من هنا."

أومأ "دي لا روشا" برأسه إيماءة طفيفة، وظلت عيناه مسمرتين على الأمريكي. قام كالفو عن الطاولة، وتوجه متجاوزًا النافورة نحو المسلحين في الفناء، آمرًا إياهم بترك "الغرينغو" يغادر دون اعتراض.

قال "دي لا روشا" بصوت خافت:

– "سنلتقي مجددًا يا رمادي."

رد جينتري وهو يهم بالرحيل:

– "إذا حدث ذلك يا دانيال، فسينتهي بك الأمر مثل صديقك المسكين."

مال "دي لا روشا" برأسه مستغربًا، لكن جينتري استدار ومضى خارجًا من الفناء، متجاوزًا صفوف الحراس الشخصيين. وبعد ثوانٍ، غادر المطعم ويداه لا تزالان مرفوعتين في الهواء.

سأل كالفو زعيمه "دي لا روشا" فور عودته إلى الطاولة:

– "ماذا قال لك في غيابي؟" واقترب بقية أفراد الدائرة المقربة من زعيمهم.

– "شيء ما عن انتهائي مثل صديقي." نظر "دي لا روشا" وكالفو إلى بعضهما البعض في صمت للحظة. وسأل دانيال مستشاره الأكبر: "ماذا كان يقصد بذلك؟"

وبحركة مشتركة بطيئة، اتجهت رؤوسهم نحو العربة المتحركة.

– "إميليو، تفحص ذلك."

تقدم إميليو إلى الجانب الآخر من العربة، واستخدم فوهة مسدسه ليرفع طرف مفرش الطاولة الكتاني. ضاقت عيناه وهو يتفرس في المحتوى:

– "إنه رأس يا زعيم."

قال كالفو وهو يرفع حاجبيه بدهشة:

– "أمريكي يقطع الرؤوس.. إنه يظهر لنا أنه يستطيع اللعب وفق القواعد المكسيكية."

سأل "دي لا روشا":

– "رأس من هذا؟"

نظر إميليو مرة أخرى، وانحنى أكثر:

– "أعتقد... أعتقد أنه زافيير غارزا غيرو."

كان غارزا هو أرفع ضابط شرطة في "بورتو فالارتا" تسيطر عليه "البدلات السوداء"، وزميلًا سابقًا لـ دانيال في الجيش. كان "دي لا روشا" يعرف الرجل منذ ستة عشر عامًا؛ يعرف زوجته وأطفاله ووالديه.

نهض "دي لا روشا" هائجًا وصرخ:

– "أبعدوه من هنا!" ثم اندفع نحو سبايدر سيبيدا وأمسك بياقة سترته قائلًا: "اسمعني جيدًا! أريده ملاحقًا، أريده مأسورًا، وأريد تعذيبه بطريقة لم تفعلها بأحد من قبل!"

– "حاضر يا زعيم. لدي رجال في الشارع مستعدون لتعقبه بمجرد خروجك من هنا، وسنمسك به."

– "أقسم لك؛ أريدك أن تصاب بالكوابيس مما ستفعله به! أريدك أن تشعر بالغثيان!"

– "حاضر يا زعيم."

– "اذهب الآن! ولا تريني وجهك إلا ومعك "الرجل الرمادي". أتفهم؟"

– "نعم! نعم!" انطلق سبايدر سيبيدا خارج الغرفة، وهو يرفع هاتفه إلى أذنه أثناء ركضه.

ثم التفت "دي لا روشا" في الغرفة، ووجد إميليو بجانبه تمامًا.

– "ماذا عن رجال فريق التأمين المتقدم الليلة؟"

رفع إميليو لوبيز لوبيز ذقنه قائلًا:

– "لقد جردتهم من سلاحهم بالفعل ووضعتهم تحت الحراسة. والليلة سأحرق هذا المبنى بالكامل، وسأقتل المدير ورئيس الخدم."

– "حسنًا. ولكن هذا فشلك أنت." غرز إصبعه بقوة في صدر قائد قواته الأمنية.

أطرق إميليو رأسه قائلًا:

– "أفهم ذلك يا زعيمي."

التفت "دي لا روشا" نحو كالفو الذي كان يتحدث بالفعل عبر هاتفه المحمول.

– "اتصل بالمنزل؛ أخبرهم ألا يلمسوا تلك العاهرة غامبوا."

أعاد كالفو الهاتف إلى سترته بعد إنهاء المكالمة:

– "تم الأمر."

انفجر الغضب المكبوت داخل "دي لا روشا" ذي التسعة والثلاثين عامًا؛ صرخ وسحب الأطباق والكؤوس من على طاولته، وحطمها بقوة على الجدار الحجري.

اندفع كالفو نحوه قائلًا:

– "دانيال، استمع إلي! اهدأ! كل ما قاله ذلك الغرينغو، وكل ما فعله، كان يهدف للوصول إلى رد الفعل هذا منك! كان يريد إفساد توازنك! لا تنسق وراء خطته! فكّر!"

– "سأتبول على قلبه وهو لا يزال ينبض!"

– "اهدأ!"

– "سأهدأ عندما يقوم أحدهم بواجبه اللعين! لقد سئمت من فشلكم أيها الأوغاد!" استمر في قذف الزجاجات وقلب الطاولات. وحوله، وقف أفراد "البدلات السوداء" يراقبون في صمت؛ لم يجرؤ أحد سوى نيستور على مخاطبته.

وقال نيستور:

– "يمكننا إنهاء هذا يا دانيال! يمكننا إنهاء هذا الآن!"

توقف "دي لا روشا" عن التحطيم، والتفت نحو مستشاره العجوز، ومال برأسه متسائلًا:

– "تريد تسليم الفتاة للغرينغو. تريد التوقف عن البحث عن إيلينا غامبوا."

مد نيستور يده وسوّى ياقة سترة "دي لا روشا" السوداء:

– "أريد وضع حد لهذا الجنون حتى نتمكن من العودة لجني الأموال. جني الأموال للجميع؛ بناء منظمتنا، وتقوية أنفسنا ضد أعدائنا، وحماية أنفسنا من الحكومة ومن الـ—"

– "توقف! توقف عن الكلام الآن يا نيستور، قبل أن أبدأ في فقدان الثقة بك."

– "أنا في خدمتك يا زعيم. ولكن كمستشارك، أشعر أنه من الضروري تذكيرك لماذا نحن هنا، ولماذا نخوض هذه المخاطر. ليس من أجل "غرينغو" عجزت وكالة الاستخبارات المركزية عن قتله أو أسره، وليس من أجل حياة طفل لم يولد بعد لشرطي تعاملنا معه ببراعة منذ أسابيع."

هز "دي لا روشا" رأسه قائلًا:

– "استمع إلي يا نيستور. لديك أوامرك؛ "الرجل الرمادي" يجب أن يموت، وامرأة غامبوا يجب العثور عليها."

دون تنهيدة أو تغيير في تعابير وجهه، أومأ نيستور كالفو ماسياس برأسه:

– "كما قلت، أنا في خدمتك."

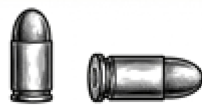
– "جيد." التفت "دي لا روشا" إلى رجل آخر من رجاله، قائد عمليات الاختطاف. "روبرتو، انقل امرأة غامبوا، وضاعف الحراسة عليها."

– "حاضر يا سيد."

صرخ مناديًا: "إميليو!" وكان حارسه الشخصي لا يزال خلفه مباشرة. "ضاعف الحراسة حولي."

– "تم ذلك بالفعل يا زعيم."

– "لنرحل إذن، قبل أن يضغط "الرجل الرمادي" على ذلك الزر في هاتفه."



لم يضغط كورت على زر الهاتف المحمول، إذ لم تكن هناك متفجرات مخبأة في فناء المطعم المطل على البحر. فقد أفراد "البدلات السوداء" أثر جينتري وسط زحام "الماليشون"، متنزه شاطئ "بورتو فالارتا" المكتظ. تخلص كورت من زي النادل في أحد الأزقة، ودخل

وخرج من نصف درزن من الحانات والمطاعم، ثم تسلق شاحنة مركونة، وقفز إلى شرفة في الطابق الثاني لمبنى سكني مواجه للشاطئ. سينام الليلة على هذه الشرفة، منكمشاً ككرة على كرسي فناء ناعم، بينما يلفح نسيم البحر وجهه.

تحته، كان رجال "البدلات السوداء" يركضون في الشوارع، ويقودون قوافل من السيارات الرياضية والشاحنات وسط المارة، يمسكون بالأمريكيين ذوي الشعر القصير واللحى الصغيرة، ويدفعونهم نحو الجدران، ويسلطون الكشافات التكتيكية في وجوههم، ثم يتركونهم يكملون طريقهم بإحباط.

كانت الشرطة المحلية مستنفرة هي الأخرى، تطارد "الرجل الرمادي" بناءً على أوامر "البدلات السوداء". تخيل جينتري أن الخبر قد وصل الآن إلى وكالة الاستخبارات المركزية، وأن أي فرق عمليات سوداء أمريكية في المنطقة تتعقبه ستكون في طريقها الآن إلى وسط "بورتو فالارتا".

وتساءل عما إذا كان غريغور سيدورينكو لديه عملاء في المكسيك يطاردونه أيضًا. فإذا استطاعوا العثور عليه في غابات الأمازون، فمن المؤكد أن زعيم المافيا الروسي سيرسل فريقاً إلى هنا.

لكن لم تكن أي من هذه القوات تملك القدرة على تفتيش كل شقة في المدينة بأكملها. هو بأمان هنا لليلة واحدة، وبحلول الصباح سيفقدون الأمل، وسيقنعون أنفسهم بأنه أفلت من شبكتهم مرة أخرى.

تصفح كورت رسائل البريد الإلكتروني على هاتفه، وكلها مرسلة من هيكتور سيرنا، رئيس استخبارات كارتل مادريغال. كانت كل رسالة بمثابة كنز من المعلومات؛ عنوان بنك في مدينة مكسيكو، ورقم ذيل طائرة شحن معروفة بنقل "الميث" والهيروين لصالح "البدلات السوداء"، وعناوين أو إحداثيات أقمار صناعية لبيوت آمنة،

ومستودعات، ومواقف لسيارات مملوكة جميعها لمنظمة "دي لا روشا".

كانت قائمة أهداف كورت تفيض بالفرص.

أرسل رسالة نصية إلى سيرنا، يطلب فيها بعض الأدوات التي سيحتاجها في اليوم التالي. وبمجرد رد سيرنا بتفاصيل عملية تسليم البضائع، وضع كورت الهاتف في جيبه وتطلع إلى النجوم.

سمع صوت مواجهة أخرى في الأسفل؛ رجال غاضبون يصرخون في وجوه مدنيين مرتبكين.

كان جميع قتلة سبايدر يرتعدون منه، وبالتأكيد كان سبايدر يرتعد من دانيال.

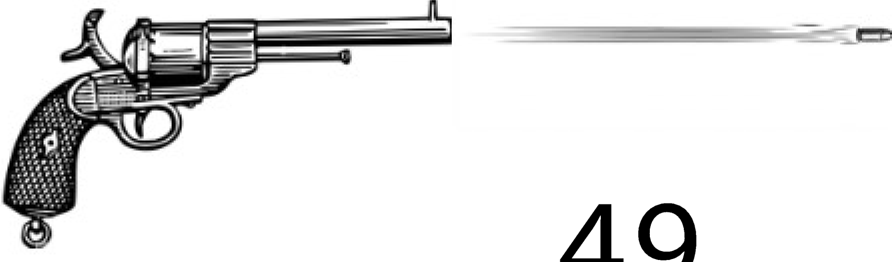
أما كورت، فقد كان يعمل بمفرده، مما حرره من شكوك الآخرين داخل المنظمة، ببساطة لأنه لا يملك منظمة. كان رجلًا وحيدًا، بلا أصدقاء أو رفاق مقربين.

يجب أن أشك في الجميع، وألا أثق بأحد.

كان يفضل هذا على العمل لصالح مجموعة قد تنقلب عليه في لحظة؛ فقد حدث له ذلك في الماضي. وكان يفضل هذا على العمل لصالح مسؤول "مُشغّل" يخدعه ويغدر به؛ فقد حدث له ذلك في الماضي.. مرتين.

استلقى كورت على أريكة "الساج" الوثيرة، وتأمل جمال الليل فوقه، متجاهلاً أصوات الأبواق والقتلة في الأسفل، مدركًا أن هذه ستكون آخر قسط من الراحة الحقيقية له لليالٍ طوال قادمة.

وفكر في لورا.



49

كانت عزبة دانيال دي لا روشا، القابعة في عمق أحد الأخاديد عند سفح جبال سييرا ديل تيغري، هي الأضخم والأكثر فخامة بين أملاكه. أطلق عليها اسم «هاتسييندا ماريسيلا» (عزبة ماريسيلا)، تيمّنًا بابنته الصغرى، وكان يأتي إليها للاسترخاء كلما سمحت رحلاته بذلك. في الوقت الحالي، كانت زوجته وأطفاله في منزلهم بمدينة كويرنافاكا؛ فذلك المنزل أنسب للأطفال، هكذا فكر دانيال، الذي كان حريصًا على إبقاء تماثيل «سانتا مويرتي» بعيدة عن ذلك العقار تحديدًا، ولو من باب استرضاء زوجته الكاثوليكية الورعة.

كانت «هاتسييندا ماريسيلا» قصرًا ضخمًا يعود طرازه لمطلع القرن العشرين، ونُزُلًا للصيد يحيط به مائتا هكتار من الغابات الخاصة. وفرت بلدة مازاميتلا المجاورة قوتها الشرطية لدعم المائة رجل من فريق الأمن الذين يحميون قيادات «البدلات السوداء» عند إقامتهم في السكن، كما توفر مهبط خاص للطائرات، ومهبط للمروحيات، وطريق معبد تنتشر فيه نقاط التفتيش ويؤدي خارج الأخدود صعودًا إلى الطريق السريع نحو غوادالاخارا، مما أمن وصولًا سهلًا وآمنًا لـ دانيال ورجاله.

حتى أن رجال دي لا روشا بنوا محطة توقف على خط السكة الحديدية الذي يمر عبر الغابة، ليتسنى تسليم البضائع الكبيرة عبر قطارات الشحن.

كانت العزبة أيضًا المكان المفضل لـ دانيال للتدرب مع رجاله. كانت هناك جدران تسلق صخرية، وميادين حواجز، وبرج للإنزال بالحبال، وميدان رماية خارجي للمسافات البعيدة، وصالة فنون قتالية (دوجو)، وعدد لا يحصى من الفرص الأخرى لرجال الجيش السابقين لصقل مهاراتهم القتالية. كان دي لا روشا يحلّق بطائرته المروحية من طراز «يورو كوبتر» عبر الأخاديد والوديان، مثيرًا رعب رجاله بطيرانه الذي يتحدى الموت.

في الصباح التالي للعشاء في بويرتو فالارتا، كان دي لا روشا وسبايدر يتدربان في ميدان الرماية الداخلي الضخم بالعزبة. وقف عدد من رجال سبايدر يراقبون، بينما وقف إميليو لوبيز لوبيز خلف "زعيمه" مباشرة، يحميه حتى هنا، في عقر داره.

كان خافيير ودانيال يطلقان النار ببنادق رشاشة حديثة من طراز «FN P90» على أشكال بشرية مطاطية بحجم طبيعي معلقة بخطافات تتحرك على مسارات غائرة في السقف الفولاذي المضاد للرصاص بميدان الرماية. كانت الأهداف تخرج واحدًا تلو الآخر من خلف أبواب فولاذية متأرجحة في الجدار الخلفي للميدان، على بعد أربعين ياردة. وكأنهم مسلحون مهاجمون، كانت الأهداف البشرية تندفع للأمام، تنحرف يسارًا ويمينًا قليلًا، بل وتتوقف خلف سواتر منخفضة من خشب الصنوبر موضوعة على مسارات متحركة بالأرضية.

تناوب سيبيدا ودي لا روشا إطلاق النار على الأهداف المتحركة، عشرات المرات لكل منهما، قبل أن تنحرف الأهداف جانبًا، لتستبدلها موجة تالية من "المهاجمين"، القادمين من الجوانب أو القافزين من خلف الجدران الخرسانية.

كان نظامًا متطورًا للغاية، كلف ملايين الدولارات، حتى أن دانيال وظف موظفِين متفرغين لإدارة الميدان ويعيشان في الملكية.

بسرعة، فرغ سلاح دانيال أثناء إطلاقه النار على هدف يمر قريبًا من اليسار إلى اليمين. أفلت الـ «P90» من يديه؛ فسقطت البندقية وتعلقت مشدودة بالحمالة حول عنقه. مد دي لا روشا يده إلى سترته السوداء، وسحب مسدسه عيار 45، وأفرغ أربع طلقات في الرأس البشري الشكلي قبل أن يختفي عن الأنظار.

صاح أحد أفراد «البدلات السوداء» خلفه:

– "هذا هو الرجل الرمادي يا زعيم!"

وهلل الآخرون.

ابتسم دانيال، وخلع واقيات الأذن عن رأسه قائلًا:

– "أتمنى ذلك. لو حصلت على فرصة أخرى معه، فهذا ما سأفعله! سبايدر خذلني الليلة الماضية وسمح للغرينغو اللعين بالخروج من بويرتو فالارتا حيًا. كلكم خذلتموني!"

نظر قتلة سبايدر إلى الأرض أو إلى السقف حرجًا.

تابع دانيال:

– "بمجرد أن يلتقط عملاء كالفو طرف خيط عن مكانه، سأطردكم جميعًا أيها الحمقى ورجالكم إلى الشارع، ومن الأفضل أن تكون مهارتكم في الرماية بجودة مهارتي."

أومأ الرجال برؤوسهم وسط صمت مطبق.

رفع سبايدر بندقيته الـ «P90» عن الطاولة، وعاد للوقوف عند خط الرماية، لكن إميليو لوبيز لوبيز ربت على ظهر رئيسه قائلًا:

– "دانيال. الآن وقد قمت بالإحماء، الأهداف التالية لك أيضًا."

خفض سبايدر بندقيته وتراجع. هز دي لا روشا كتفيه وأعاد تلقيم مسدسه وبندقيته الرشاشة.

أومأ إميليو لمسؤول الميدان الجالس في كشك عند الجدار الجانبي. ضغط الرجل مفتاحًا، فانفتح البابان في الجدار الخلفي، وجلبت الخطافات المثبتة بالسقف أهدافًا جديدة إلى ميدان الرماية.

لكنها لم تكن أهدافًا شبيهة بالبشر.

بل كانوا بشرًا. رجلان، وجهاهما مهشمان من الضرب، وأفواههما مكممة بالقنب الخشن، وأيديهما مقيدة خلف ظهورهم، وأجسادهما تتدلى بحبال من الخطافات، مربوطة بإحكام حول أكتافهم مما جعلهم يتلوون ألمًا من شدة الجاذبية.

قال إميليو:

– "يا زعيم. هذان اثنان من الرجال المسؤولين عن فريق المقدمة في عشاء الأمس بـ بويرتو فالارتا. بعد ساعات من الاستجواب الليلة الماضية، توصلنا إلى أنهم لم يكونوا يعلمون بوجود «الرجل الرمادي» في المبنى. ومع ذلك، وبسبب فشلهم، أمرتهم بأن يدفعوا الثمن بحياتهم."

خفض دي لا روشا بندقيته، وأومأ ببطء سائلًا:

– "ماذا عن بقية فريق المقدمة؟"

– "مات اثنان آخران أثناء استجوابي لهما. واثنان آخران كانا من العناصر المبتدئة المتمركزة في قاعة الطعام الرئيسية ولم يكونا جزءًا من عملية المسح المسبق للمنشأة. لا أحملهم المسؤولية."

توقفت الخطافات التي تحمل الرجلين المعلقين في وسط الميدان، وتدلت أقدامهما على ارتفاع قدم عن الأرض. تأرجحت الأهداف البشرية جيئة وذهابًا تحت الخطافات.

قال دانيال:

– "أنت تحمل المسؤولين عن الفريق الخطأ."

– "بالطبع يا دانيال."

– "إميليو. هؤلاء رجالك. أنت اخترتهم؛ وأنت دربتهم؛ وأنت أرسلتهم إلى المطعم. أنت المسؤول."

تلعثم لوبيز.

تابع دانيال:

– "أنت تؤمن بالمحاسبة، أليس كذلك؟"

– "بالطبع يا دانيال. أنا أحاسبهم..."

– "أنا أحاسبك أنت. يجب أن تكون معلقًا هناك معهم."

نظر إميليو إلى "زعيمه". لم يحرك عضلة واحدة.

كان سبايدر قد وضع بندقيته على الطاولة، لكنه سحب مسدسه ببطء وأمسكه بجانبه؛ قائد قتلة «البدلات السوداء» يتحدى قائد الحرس الشخصي لـ «البدلات السوداء» أن يجرب أي حركة.

نظر إميليو إلى سبايدر. وتجاوز صدمته قائلًا:

– "لا داعي لذلك. لدي مسدس عيار 9 ملم داخل معطفي في حمالة الكتف. هل أنزعه أم تريد أن يأخذه أحد رجالك؟"

أشار سبايدر بيده الفارغة لأحد رجاله بالتقدم. وقف القاتل خلف إميليو، ومد يده داخل معطفه، وسحب المسدس.

قال إميليو بصوت هادئ، رغم أن ارتعاش شفتيه فضح مشاعره:

– "أطلب منك إعادة النظر يا زعيمي."

– "لقد خدمتني جيدًا يا صديقي."

– "لقد... لقد كان شرفًا لي."

– "من المؤسف أن يأتي غرينغو تافه ويفسد كل شيء."

– "يا زعيمي، لو أعطيتني فرصة واحدة فقط..."

أطلق دانيال دي لا روشا النار على رأس إميليو في مكانه. وفي حركة واحدة، استدار دي لا روشا، وانخفض متخذًا وضعية رماية، وأرسل طلقتين من مسدسه عيار 45 إلى رأس كل من رجليه المقيدين والمتلويين على بعد عشر ياردات في عمق الميدان. سكنت حركتهم، لكن ارتطام الطلقات جعل أجسادهم تتأرجح جيئة وذهابًا.

رقد إميليو لوبيز لوبيز متكورًا عند قدمي دي لا روشا.

وقف دانيال وقال:

– "فرصة أخرى؟ الحارس الشخصي لا يحصل على فرصة أخرى. لقد تعرضت للخطر مرتين في الأسبوع الماضي."

لم ينطق أحد من القتلة بكلمة.

أخيرًا، أعاد دانيال مسدسه إلى غمده وصاح:

– "سبايدر؟"

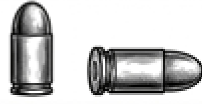
– "نعم يا زعيمي."

– "أنت حارسي الشخصي الآن."

– "شكرًا لك."

– "لا تشكرني. هل رأيت ما يحدث إذا فشلت مرتين؟"

– "لن أخذلك مرة أخرى."



ترجل المصرفي من طائرة «فيرتشايلد مترولاينر» ذات التسعة عشر مقعدًا، ونزل إلى مدرج المطار في مانزانيلو، التي تقع على بعد ساعتين جنوب بويرتو فالارتا على ساحل المحيط الهادئ. كانت الشمس ساطعة في كبد السماء، فأنزل المصرفي نظارته الشمسية من ماركة «موس ليبو» –التي تبلغ قيمتها 4800 دولار– من أعلى رأسه لحماية عينيه.

كانت سيارة ليموزين بانتظار المصرفي وحارسيه الشخصيين؛ كانوا الركاب الوحيدين على متن الطائرة، لذا بعد أن أخذ وقته في مصافحة الطيار ومساعده، نزل المصرفي الدرج، وكانت حقيبته الجلدية من ماركة «بينيدير» –بقيمة 3000 دولار– هي أمتعته الوحيدة.

اقترب من الليموزين، وفتح السائق الباب الخلفي له. مال المصرفي بجسده ليدخل السيارة، لكنه هوى فجأة للأمام؛ انفجر صدره وتناثرت أشلاؤه على التصميم الداخلي الفاخر من الجلد،

وتلطخت كؤوس الكريستال الطويلة، وسالت الدماء على النوافذ المعتمة.

طارت نظارته الشمسية عن رأسه وتدحرجت عبر أرضية السيارة. وسقطت حقيبته الجلدية من يده وارتطمت بالإطار الخلفي لسيارة الليموزين.

انزلق جسده البدين للخلف عن الجلد اللزج، ثم ارتطم وجهه بمدرج المطار.

قفز الحارسان فوقه بمجرد أن أدركا ما حدث، لكن الأوان كان قد فات.

لم يكن بوسع الحراس فعل شيء الآن سوى حراسة الجثة.

على بعد أربعمائة ياردة، أغلق «الرجل الرمادي» أخمص بندقية «ساكو» القابلة للطي؛ وفي ثوانٍ كان السلاح مخبأً في حقيبة قماشية، وألقيت الحقيبة على أرضية مقعد الراكب في شاحنته الصغيرة السوداء من نوع «مازدا».

لقد قتل المصرفي بطلقة واحدة. كانت رصاصة «لابوا .338» قوة مفرطة لمسافة أربعمائة ياردة فقط -إذ يمكن الاعتماد عليها لإسقاط رجل من مسافة تزيد عن ستة أضعاف ذلك- لكن جينتري وجد الكوخ على التلة القريبة من مدرج المطار مناسبًا لاحتياجاته، وكانت الـ «ساكو» هي السلاح الوحيد بعيد المدى الذي أعطاه إياه هيكتور سيرنا.

لم يكن قلقًا بشأن القوة المفرطة؛ كان قلقًا بشأن النتيجة. وكانت النتيجة واضحة.

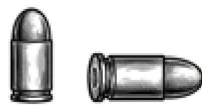
بأقل من أونصة من الرصاص، قضى على ستة عشر عامًا من الخبرة في غسيل الأموال.

نعم، كان لدى دانيال دي لا روشا مصرفيون آخرون، ولم يكن هناك نقص في الرجال المؤهلين في المكسيك المستعدين والراغبين في

استبدال الجثة التي ترقد الآن على ظهرها فوق المدرج بينما يحاول حارس شخصي مذعور إجراء تنفس صناعي بلا جدوى. لكن موت المصرفي كان ضربة قوية للجانب المالي من المؤسسة.

لم يضيع كورت ثانية واحدة في الشعور بالندم أو الأسف. لا، بل نظر إلى ساعته وضغط بقوة أكبر على دواسة الوقود.

كان لديه مهمتان أخريان عليه إنجازهما قبل انتهاء اليوم.



- "قُتل غيلبرتو مورينو برصاص قناص عند ظهيرة اليوم."

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، وكان دي لا روشا يركع أمام أيقونة «سانتا مويرتي». كان يصلي بصمت في مصلاه الخاص هنا في «هاتسييندا ماريسيلا»، لكن نيستور كالفو دخل الغرفة خلفه، وتبادل النظرات مع سبايدر، ثم نادى بالخبر السيئ لـ "زعيمه" الراكع.

- "الرجل الرمادي؟"

- "بكل تأكيد. وكانت تلك مجرد الطلقة الافتتاحية. في الخامسة والنصف، أدى انفجار صغير إلى إشعال النار في أحد مستودعاتنا في كوليما؛ مما دمر شحنة كاملة من الإيفيدرين القادم من الهند. سيؤخر ذلك إنتاج الـ (فوكو) لمدة أسبوع."

قال دانيال، وعيناه لا تفارقان تمثال الهيكل العظمي أمامه:

- "اللعنة. إنه يعمل بسرعة."

- "ثم ضرب مرة أخرى قبل دقائق فقط."

- "أين؟"

- "في كوليما أيضًا. اختطف شاحنة تحتوي على معجون الخشخاش. وقتل السائق. وتمت قيادة الشاحنة لتسقط من فوق جرف."

– "كم كانت كمية المعجون؟"

هز كالفو كتفيه:

– "شحنة الهيروين لم تتضرر بشدة مثل الـ (فوكو)... ربما نحتاج يومين لتعويض الإنتاج."

صلى دانيال للحظة أخرى، وكتم كالفو تنهيدة. حافظ على وجهه خاليًا من التعابير؛ كان سبايدر ينظر إليه، ولم يكن بحاجة لأن يخبر سبايدر رئيسهما بأن مستشاره القديم منزعج من مظاهر ولاء دانيال للدمية البكماء في خزانة الزاوية.

نظر دي لا روشا إلى «سانتا مويرتي» وقال:

– "إنها غاضبة."

هز كالفو رأسه:

– "لا يا دانيال. هو الغاضب. الأمر يتعلق بالرجل الرمادي، أتتذكر؟"

وقف دانيال، وسار عبر مصلاه المظلم نحو مستشاره.

– "رجل واحد، في يوم واحد، يؤثر على عملياتي المالية، وعمليات الهيروين، وعمليات الميثامفيتامين."

– "نعم يا دانيال."

– "أثق بأن لدينا رجالًا في كوليما يبحثون عنه؟"

– "قوة الشرطة بأكملها بالإضافة إلى أصول أخرى في المنطقة. لكنني أفترض أن الرجل الرمادي قد رحل الآن."

– "رحل إلى أين؟"

هز كالفو كتفيه:

– "لا أعلم. لكنني أتساءل عما إذا كان سيلاحق جوانب أخرى من مؤسستنا. الماريجوانا، النقل، الطائرات، الشحن، الاختطاف. طالما هو حي، لن نعرف أين سيظهر تاليًا."

– "من يزوده بالمعلومات الاستخباراتية حول مؤسساتنا؟"

– "شخص على دراية بالنطاق الكامل لعملياتنا. أود القول إنه إما شخص في الشرطة الفيدرالية أو ربما حتى شخص في كارتل مادريغال."

– "أنا أعرف أنه مادريغال."

– "أنت لا تعرف ذلك."

خرج دانيال من الغرفة، وسبايدر يتبعه عن كثب. ولحق بهم كالفو.

كرر دانيال لـ نيستور:

– "إنه مادريغال."

– "هي أخبرتك بذلك، أليس كذلك؟"

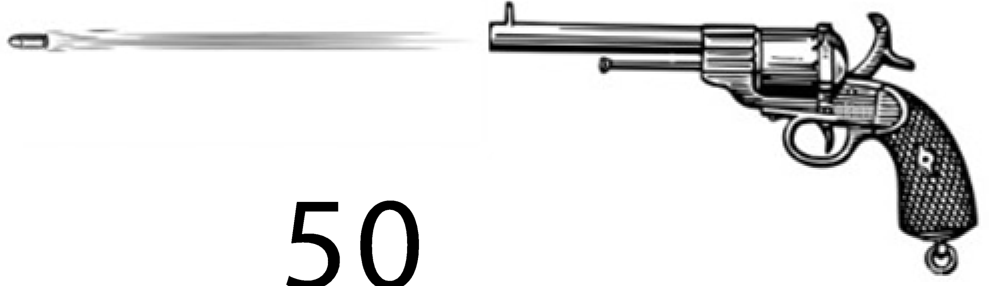
توقف دانيال في الممر. والتفت إلى كالفو، وأخذ سبايدر موقعه بجانب رئيسه.

قال دي لا روشا:

– "معلوماتها أثبتت أنها أفضل من معلوماتك في هذا الشأن أيها المستشار. سيكون من الجيد أن ترفع من قيمتك لدي."

استدار دانيال وسبايدر مرة أخرى واختفيا في الممر.





50

اتخذ جينتري ملاذه في منجم فضة مهجور بالقرب من لا روزا بلانكا؛ وهي بلدة جبلية صغيرة تقع على مسافة قريبة من مدينة غوادالاخارا، وتتمتع بمنافذ تؤدي إلى ساحل المحيط الهادئ ومدينة مكسيكو، حيث لا يفصلها عنهما سوى بضع ساعات من القيادة. كان هيكتور سيرنا قد جهز جينتري بشاحنة "مازدا" قديمة، واستخدم كورت مدخل نفق منجمي أفقي مهجور منذ زمن بعيد في جوف الجبل لإيواء السيارة خلال الليل.

زار كورت متجرًا لمعدات التخييم في غوادالاخارا وابتاع معدات بآلاف الدولارات كي لا يقاسي برد الليالي الجبلية القارسة. كان موقده الغازي، وخيمته الصغيرة، وأطعمته المجففة، وآنية المياه الضخمة كافية لسد احتياجاته. أما المولدات التي تعمل بالبطاريات، فكانت تحافظ على شحن هواتفه المحمولة وجهاز تحديد المواقع (GPS)، فضلًا عن توفير الضوء الذي يحتاجه للعمل على مشاريعه المتعددة فوق الأرض الباردة بجوار شاحنته.

كان لدى كورت الكثير من المشاريع التي يعكف عليها داخل نفق المنجم.

وكان لديه أيضًا الكثير من الأهداف التي يعتزم ضربها في أنحاء غرب المكسيك. فخلال اليومين الماضيين، ظل منهمكًا في عمله؛ حيث اغتال أحد زعماء المناطق التابعين لـ "البدلات السوداء" في ناياريت،

ودمر طائرتين في مطار بمدينة تبيك مملوكتين لـ "دي لا روشا"، وأحرق مستودعًا في شمال شرق ماغدالينا.

والآن، حلّ صباح اليوم الرابع من حربه الشاملة على "البدلات السوداء". لم يخلد للنوم إلا بعد الثالثة فجرًا، ومع ذلك استطاع خطف بضع ساعات من النوم المتقطع داخل كيس نومه في حوض الشاحنة. استيقظ مرتين مذعورًا بسبب أصوات قريبة؛ وفي المرتين قبض على إحدى بنادقه من طراز "كلاشينكوف" وخرق عتمة المكان بالكشاف التكتيكي المثبت في مقدمة البندقية، ليشاهد مخلوقات فرائية تقفز هاربة نحو أعماق المنجم المظلمة.

ورغم بدايته المتأخرة ذلك الصباح، كان لدى كورت خطط كبيرة لهذا اليوم. زوده هيكتور سيرنا بمعلومات استخباراتية عن مواقع "البدلات السوداء" في المنطقة، فحددها جينتري على جهاز الـ GPS الخاص به، واضعًا سلسلة من النقاط المرجعية التي ستقوده إلى كل هدف في طريقه نحو الوجهة الأبعد في رحلته. كان يأمل – إذا حالفه الحظ – أن يصل إلى خمسة مواقع قبل نهاية يوم عمله؛ ولم يكن يتوقع العودة إلى منجمه قبل منتصف الليل، رغم أنه لم يكن واثقًا مما إذا كان سيجد شيئًا يدمره أو "سترات سوداء" يقتلهم في كل محطة. كان عليه أن يزن كل عملية تخريب يخطط لها مقابل احتمالات الموت أو الأسر، وأن يختار مواقع تضمن له خروجًا سريعًا ونظيفًا.

قبل الظهر، دخل منطقة مستودعات في غوادالاخارا وراقب عدة عربات قطار تفرغ صناديق أكد له سيرنا أنها تحتوي على مخدر "الماريجوانا" المزروع جنوبًا في تشياباس وغواتيمالا. راقب كورت المشهد من بعيد بمنظاره، وبدا له أن معلومات سيرنا دقيقة، لكن الشاحنات المحملة ظلت متوقفة داخل أسوار المحطة المحصنة لأكثر من ساعة. حاول التقاط إشارات اللاسلكي من أجهزة الرجال الواقفين بجانب الشاحنات، لكن أجهزتهم كانت تستخدم نوعًا من التشفير، ولم

يستطع كورت فهم ما يكفي من حواراتهم لمعرفة سبب التأخير. كان ينوي مهاجمة الشاحنات على الطريق السريع، لكنها لم تظهر أي بادرة للحركة حتى الثانية ظهرًا. وبكثير من التردد، قرر إلغاء المهمة، متلهفاً للانتقال إلى النقطة التالية وتفجير شيء ما قبل انقضاء اليوم.

كان الموقع الثاني مخيبًا للآمال أيضًا؛ إذ كان بيتًا آمنًا لـ "البدلات السوداء"، لكنه عندما اقتحمه محطمًا الباب وفتش الغرف ببندقيته، لم يجد فيه أحدًا، ولا مخدرات، ولا سلاحًا، ولا مالًا. فكر في إحراق البيت، لكنه كان يقع في شارع سكني بحي زابوبان بمدينة غوادالاخارا، ولم يكن واثقًا من قدرته على منع النيران من التهام المربع السكني بأكمله. لذا، عاد إلى شاحنته وانطلق مسرعًا نحو الشرق.

كانت هناك ثلاث وجهات أخرى على قائمة مهامه؛ وتمنى من كل قلبه أن يجد ما يستحق التدمير في واحدة منها على الأقل. نظر إلى جهاز الـ GPS.

المحطة التالية: بيت آمن آخر لـ "البدلات السوداء" في تشابالا.

أمل كورت ألا يكون هذا الموقع خاويًا كسابقه.



كان دانيال دي لا روشا نائمًا على أريكة وثيرة في الشرفة الباردة المطلة على غرفته. كان يحب الشعور بالهواء الطلق؛ فهذا يذكره بأيامه في الجيش، وإن كان الجيش لا يوفر له النوم في شرفة غرفة رئيسية فاخرة داخل مزرعة "هاسيندا" تمتد على مساحة مائتي هكتار من أملاكه الخاصة.

كان سبايدر خلفه، داخل غرفة النوم، جالسًا على كرسي ذي ظهر مرتفع قبالة الباب، وبندقيته من طراز M4 مستقرة فوق حجره، بينما برزت مخازن رصاص إضافية من حقيبة بجانبه.

ودون سابق إنذار، اقتحم نيستور كالفو ماسياس الغرفة. قفز سبايدر واقفاً وهو يرفع سلاحه، لكن الرجل العجوز تجاهله واندفع متجاوزًا إياه، صارخاً في وجه زعيمه النائم في الشرفة:

– "لقد ضرب "الرجل الرمادي" البيت الآمن في تشابالا!"

اعتدل دي لا روشا في جلسته ببطء وفرك عينيه قائلًا:

– "تشابالا؟ يا إلهي! هل سرق الأموال التي خبأناها هناك؟"

رد كالفو:

– "لم يسرقها، بل أحرقها."

لعن "دي لا روشا" بغضب وهو يفرك وجهه:

– "يا للعنة! كم كان المبلغ؟"

– "كله. كان لدينا قرابة سبعة عشر مليون دولار أمريكي معبأة في منصات بانتظار تحويلها إلى البنوك. سأحصل على الأرقام الدقيقة من قسم المحاسبة وأوافيك بها."

– "وأحرقها ببساطة؟ أشعل فيها النار فقط؟"

– "نعم."

– "وماذا عن الرجال الذين كانوا يحرسون—"

قاطعه كالفو:

– "واحد قُتل، وآخر مفقود نفترض أنه—"

صرخ دانيال:

– "والباقون؟ بالتأكيد كان لدينا أكثر من رجلين لحراسة سبعة عشر مليون دولار!"

– "كان هناك اثنا عشر رجلًا. الباقون أحياء؛ لم يدركوا وجود أي مشكلة حتى اندلعت النيران. لم يروا "الرجل الرمادي" قط."

التفت دانيال إلى سبايدر وقال ببرود قاتل:

– "أعدم كل هؤلاء الأوغاد الأغبياء فورًا."

أجاب سبايدر:

– "أمرك." ثم انحنى نحو الردهة وأصدر أوامره لأحد أتباعه، حاسمًا مصير الناجين من حرس بيت تشابالا.

قال كالفو بنبرة فيها شيء من الرجاء:

– "دانيال. خلال أربعة أيام، نفذ هذا الرجل قرابة اثنتي عشرة عملية ضدنا. وبتقدير متحفظ، أرى أن خسائرنا في رأس المال والإنتاج تقترب من خمسين مليون دولار."

– "هل يكلفني أكثر من اثني عشر مليون دولار يوميًا؟"

– "هذا بتقدير متحفظ."

– "ولكن إلى متى يمكنه الاستمرار؟"

تحدث سبايدر بصراحة:

– "يا زعيم. منظمتنا مصممة لمواجهة الجيش، والشرطة الفيدرالية، والكارتلات المنافسة بفعالية. لكننا أقل تجهيزًا لملاحقة رجل واحد يمتلك مهارة "الرجل الرمادي" وقدرته على الحركة. لا توجد وسيلة لمعرفة المدى الذي يمكنه بلوغه قبل أن نمسك به."

تدخل كالفو قائلًا:

– "نعتقد أنه من المحتمل أن يحصل على معلوماته من كارتل مادريغال، لكننا لا نملك دليلًا على أنه يعمل معهم رسميًا."

– "ذكرني باسم نظيرك في "الفاكيروس"."

– "هيكتور سيرنا كامبوس."

– "صحيح. اتصل به، وأخبرهم أنها الحرب."

قال كالفو محاولًا الاعتراض:

– "دانيال، الدخول في حرب مع مادريغال الآن لن يكلفنا إلا المزيد من المال. لا يمكننا—"

صرخ دي لا روشا وهو يندفع من الشرفة إلى داخل الغرفة:

– "لا تخبرني بما لا يمكنني فعله! إنهم يحاربونني بالفعل الآن، عبر هذا الرجل الواحد!"

– "لسنا متأكدين تمامًا!"

صرخ دي لا روشا مجددًا، وتطاير الرذاذ من فمه في نوبة غضب عارم:

– "أنا متأكد! لقد كان هذا الرجل بين يدي! كان أمامي مصفدًا بالأغلال! كان بإمكاني ضغط الزناد وإنهاء هذا الجنون منذ أسبوع! لماذا لم أفعل؟ لماذا لم أقتل ذلك النذل؟ لقد خسرت الكثير من الرجال لأنني لم أضغط الزناد!"

قال كالفو:

– "سيستمر في قتل رجالك إذا واصلت مطاردته. إنه بارع جدًا!"

استعاد دي لا روشا السيطرة على نفسه، وأخذ أنفاسًا عميقة، ثم فرك مؤخرة عنقه وأشار بيده مستهينًا:

– "لا يهم. الرجال يسهل تعويضهم. أما الكبرياء؟ فالكبرياء شيء يصعب التخلي عنه."

ثم التفت إلى سبايدر:

– "لقد اتخذت قراري. اعتبارًا من هذه اللحظة، هي حرب شاملة على "الفاكيروس"."

– "مفهوم يا سيد."

نظر سبايدر في عيني زعيمه وسأل:

– "أينما وجدناهم، في أي مكان في البلاد..."

أكمل دانيال:

– "يُقتلون."

لم يستسلم كالفو بعد، وقال:

– "دون دانيال. أتوسل إليك أن تستمع لي. سبايدر يريد الحرب مع مادريغال فقط ليثبت لك أن رجاله يستطيعون القتال. هم عاجزون عن قتل "الرجل الرمادي" بسبب دهائه ومهارته، لكنهم يستطيعون قنص بضعة رعاة بقر في الشوارع."

حدق سبايدر في نيستور بنظرة أرعبت الكثيرين قبل أن يقطع رؤوسهم:

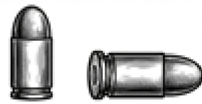
– "يا زعيم، العجوز يريد تجنب الحرب مع "الفاكيروس" لأنه أصبح ليناً. لقد كنا متساهلين أكثر من اللازم في تعاملنا مع مادريغال لفترة طويلة، وانظر كيف يكافئنا ذلك "الراعي السنالوي"! سنقاتلهم حتى يقتلوا "الرجل الرمادي" أو يسلموه لنا. سيجعل رجالي ميادينهم تصطبغ بدمائهم، وخلال أسبوع سيدرك ذلك "الراعي" أن القاتل الأمريكي ليس إلا عبئًا على عملياته. حينها يمكننا التراجع، إذا أمرت بذلك."

كان دي لا روشا يؤمئ برأسه قبل أن ينهي سبايدر كلامه. التفت إلى كالفو قائلًا:

– "نيستور. أريدك أن تتصل بنظيرك في "الفاكيروس". أخبره أننا نعرف أنهم يحركون "الرجل الرمادي"، وأننا نعتبر هذا إعلان حرب شاملة على مناطق نفوذنا. سنحملهم مسؤولية الخسائر في الأرواح والممتلكات، وسيكون ردنا قاسيًا طالما بقي "الرجل الرمادي" على قيد الحياة."

كان نيستور يشعر بالغضب والإحباط، لكنه لم يتردد؛ فقد كان يمتلك "بارومترًا" دقيقًا لقياس أمزجة زعيمه، ويعرف أن هذا ليس وقت الجدال.

– "حاضر يا دانيال. سأتصل بـ هيكتور سيرنا فورًا وأبلغه أننا في حالة حرب، وسأعطيه الشروط التي نقبل بها السلام."



وقع الهجوم الأول بعد ثلاث وثلاثين دقيقة فقط. تلقى اثنان من القتلة المأجورين الصغار في مازاتلان – كانا مكلفين بمراقبة أحد المساعدين المحليين في منظمة مادريغال – الرسالة النصية التي تعلن فتح باب الصيد ضد "الفاكيروس". وعلى الفور، قاما عن طاولتهما في

مقهى مفتوح، وألقيا الأطباق الورقية الملطخة بصلصة "التامالي" في القمامة، ودخلا متجر المجوهرات عبر الشارع، وأرديا الرجل الذي كانا يتعقبانه قتيلًا، ومعه زوجته واثنان من حراسه الشخصيين.

وبعد تسع دقائق، أوقفت سيارة تابعة لشرطة ولاية خاليسكو شاحنة تقل أربعة من "الفاكيروس" على الطريق السريع الواصل بين بورتو فالارتا وغوادالاخارا. صُفَّ الرجال وأُعدموا رميًا بالرصاص بدم بارد بجانب شاحنتهم، وتُركت جثثهم على الطريق الجبلي الساخن كجيف الحيوانات الدهيسة.

بحلول المساء، كان اثنا عشر آخرون من "الفاكيروس" قد قُتلوا وجُرح سبعة. وسقط أربعة من أفراد "البدلات السوداء" بنيران مضادة، كما أُصيب أحد المارة بشظايا بندقية صيد عندما اندلع اشتباك بين فصائل متناحرة من الشرطة الفيدرالية في مدينة مكسيكو.

كان سقوط اثنين وثلاثين ضحية في الساعات الاثنتي عشرة الأولى من الحرب مجرد البداية.



مر يومان آخران، ظل فيهما كورت يعمل بوتيرة محمومة. كانت المعلومات التي يحصل عليها من سيرنا، رغم جودتها، تبدو ضئيلة مقارنة بما كان يغتنمه أثناء غاراته. في كوليما، انتزع هاتفًا ذكيًا من حارس، ووجد عنوانًا بجانبه كلمة "فوكو" (Foco). كان يعلم أن هذا هو المصطلح المحلي لمخدر "الكريستال"، فتوجه إلى هناك ووجد منشأة تخزين مسورة مليئة بحاويات الشحن. كان هناك عدة حراس، لكن كورت نجح في التسلل إلى المجمع وزرع عدة قنابل "آنفو" كان قد صنعها في منجمه، كل منها مزود بصاعق لاسلكي بسيط. وبمجرد ابتعاده عن محيط الانفجار، طلب رقمًا من أحد هواتفه الكثيرة، فتطايرت ست حاويات من "الكريستال" في سحابة سوداء تشبه فطر عيش الغراب.

توقف على تلة قريبة ليتأمل صنيعه، فرأى رجلًا يهرب مسرعًا من الموقع في سيارة "بي إم دبليو" سوداء. طارده كورت بشاحنته حتى أزاح السيارة الرياضية عن الطريق، ووجد أحد أفراد "البدلات السوداء" يزحف خارج الحطام، فاتخذه رهينة. وبعد أربع ساعات، قضى الرجل نحبه متأثرًا بجراحه، ولكن ليس قبل أن يعطي الأمريكي كنزًا من المعلومات حول عمليات إنتاج "الكريستال" التابعة لـ دي لا روشا في ناياريت وخاليسكو.

قرر كورت التركيز على مخدر "الميث" لبضعة أيام. فوفقًا لقول الرجل المنازع، كان هذا المخدر هو "البقرة الحلوب" لـ دي لا روشا؛ إذ إن إنتاجه مكلف، وبالتالي يسهل تعطيله عبر قتل أو ترهيب العمالة الماهرة أو تدمير البنية التحتية للمختبرات. وبدا هذا لـ كورت أفضل من حرق حقول الماريجوانا أو الخشخاش. سيظل يفعل ذلك إذا سنحت الفرصة، لكن الـ "فوكو" كان الخيار الأفضل لإحداث تأثير سريع وموجع.

قاده هذا إلى أكوبونيتا؛ وهي بلدة صغيرة تقع على ضفاف النهر في الأراضي المنبسطة على الطريق المؤدي إلى مازاتلان. كان لديه بعض العناوين التي استخلصها من رجل "البدلات السوداء" الراحل، وأراد ضربها قبل التوجه إلى الجبال لملاحقة مختبر ضخم (Super Lab).

وقبل ليلة من إشاعة الفوضى، دخل جينتري متجرًا للبقالة للتزود بالفاصوليا والمشروبات الغازية والقهوة سريعة التحضير والماء، ثم دخل حانة مجاورة لاستخدام المرحاض في الخلف. وبعد أن قضى حاجته وغسل جزءًا بسيطًا من القذارة العالقة بيديه، استدار نحو الباب لكنه توقف فجأة.

هناك، على الجدار، كان يحدق فيه وجه رجل في ملصق "مطلوب للعدالة".

شعر بضيق واضطراب لم يشعر بهما منذ سنوات، وسرى القلق في جسده.

لقد كان هو. كانت صورته اللعينة بعينها.

مطلوب للعدالة بتهمة القتل

القاتل الأمريكي المأجور لكارتل مادريغال

وُضع رقم هاتف محمول محلي تحت الصورة.

أدرك جينتري الآن أنه حتى لو نجا من هذا كله، وحتى لو غادر المكسيك، فإن الحكومة الأمريكية ستصنفه كقاتل مأجور لصالح عصابات المكسيك، ولن يتمكن أبدًا من العودة إلى الولايات المتحدة.

هل تستحق الفتاة كل هذا؟

هز كورت رأسه، وكره نفسه لأن هذا السؤال تسلل إلى عقله.

نعم. بالطبع تستحق.

انتزع الملصق الورقي من الجدار وقذفه في سلة المهملات.

فُتح الباب عن يساره بصرير خفيف.

استدار جينتري في لمح البصر وهو يسحب سلاحه، جاثيًا على ركبتيه أمام المغسلة. صوّب مسدسه نحو صدر الهدف، وكان إصبعه قد ضغط بالفعل على أمان الزناد في مسدس "غلوك".

رفع الرجل يديه فوق رأسه وصرخ بذعر:

– "يا إلهي!"

نظر كورت من خلف فوهة مسدسه، وشعر بإصبعه مشدودًا على الزناد الذي لا يرحم، فرأى رجلًا سمينًا يرتدي قبعة رعاة البقر، مجرد فلاح بسيط، رجل جاء إلى الحانة ليقضي حاجته بعد تجرع زجاجتين من الجعة.

أرخى كورت الضغط عن الزناد، ونهض وأعاد سلاحه إلى جرابه، ثم مر بجانب العامل المذعور دون أن يعيره نظرة واحدة.

تبًا لك يا جينتري. تماسك قليلاً.



51

استغرق الأمر من جينتري يومًا كاملًا ليتموضع في مكانه. وطوال ذلك الوقت –بينما كان يقود الـ «مازدا» نحو الجبال، وبينما كان يتسلق ويزحف، أو يختبئ تحت جسر للمشاة والمسلحون يمرون فوقه مباشرة، أو يدقق إحداثيات الـ GPS مقارنة بالموقع الذي حصل عليه من رجل «البدلات السوداء» الميت الآن في أخدود قرب مخبأ المنجم– ظل يلعن هذا التأخير. كان يرغب في ضرب «البدلات السوداء» كل يوم، ولعدة مرات في اليوم الواحد، لذا كان قلقًا من أن قضاء أربع وعشرين ساعة دون فعل شيء سوى التحرك خفية عبر جبال سييرا مادري، نحو موقع قد لا يكون موجودًا أصلًا، سيفقد عمليته الزخم الضروري لنجاحها.

لم يكن يعلم، بالطبع، أن دانيال دي لا روشا قد شن حربًا في اليوم السابق ضد كارتل مادريغال. كان يوم السفر هذا بالنسبة لـ كورت بمثابة يوم سادس من إراقة الدماء بالنسبة لـ «البدلات السوداء»، وحقيقة أن جينتري نفسه لم يشارك في القتال مرت دون أن يلاحظها أحد من «البدلات السوداء».

بقياس عدد الحوادث، وعدد القتلى والجرحى، وعدد القوافل التي ضُربت أو المنازل الآمنة التي تمت مداهمتها، كان الزخم ضد «البدلات السوداء» يتزايد وحسب.

تحرك كورت عبر الظلام؛ كانت نظارات الرؤية الليلية من الجيل الثاني التي وفرها له هيكتور سيرنا أشبه بقطع أثرية مقارنة ببعض المعدات التي استخدمها في ماضيه، لكنها أدت الغرض. عبر قاع وادٍ، واقترب من قرية تعج برجال دي لا روشا لدرجة أنه شم رائحة مواقد الطهي وسمع نباح الكلاب، لكنه بقي خفيًا عن أنظار السكان المحليين. في الواحدة صباحًا، وجد جدول ماء في المكان الذي وصفه رجل «البدلات السوداء» الميت بالضبط، مما رفع معنوياته. تتبعه إلى داخل أخدود حالك السواد؛ وفي المسافة كان صوت شلال يهدر، لكنه لم يكن قريبًا بما يكفي لرؤيته.

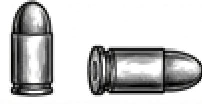
واصل التقدم، مسترشدًا بنظارات الرؤية الليلية ونظام الـ GPS، لكن أذنيه، وحاسة شمه، ومعرفته بالبرية وكيفية التحرك خلالها بصمت، هي ما أبقته على قيد الحياة.

بحلول الخامسة صباحًا، كان في موقعه. انزلق إلى منتصف واجهة صخرية تطل على أخدود صغير، ثم توارى كورت تحت قمم الأشجار.

كان الفجر لا يزال بعيدًا بساعتين، لكن كورت شم رائحة التورتيلا والقهوة من مخبئه في الجرف الصخري. صاح ديك. نبحت كلاب وثغت ماعز؛ كانت كل أصوات الحياة البشرية حاضرة. وبين الحين والآخر، كانت رائحة الماريجوانا تتصاعد إلى مخبئه في الجدار الصخري على ارتفاع عشرة أقدام فوق الطريق الترابي.

سرعان ما دوت المحركات، مولدات ضخمة تعمل بالغاز، وبينما كان الضوء الطبيعي يتسلل إلى الغابة من الأعلى، انبعثت إضاءة كهربائية من فسحة على بعد خمسين ياردة أمامه. ظهر مبنى عريض، مصنوع من المعدن الجاهز ومطلي بلون زيتوني باهت، تحت أضواء سيارة جيب كانت تتراجع وتستدير. بعد بضع ثوانٍ مرت تحت موقع كورت، مليئة بالرجال والبنادق.

وبينما لا يزال متدثرًا بالظلام، استعد كورت جينتري للهجوم.



في السابعة من صباح ذلك اليوم، أغلق نيستور كالفو هاتفه المحمول في مكتبه بـ «هاتسييندا ماريسيلا». كان جالسًا إلى مكتبه منذ الخامسة والنصف، بقميصه وربطة عنقه، بينما سترته ملقاة على كرسي جلدي في الزاوية. كان يشرب عصير المانجو ويرشف القهوة وهو يجري مكالمات ويرسل رسائل بريد إلكتروني لجهات اتصاله في الولايات المتحدة. وبينما كان صراع منظمته مع كونستانتينو مادريغال يتفاقم بمرور الساعات، اضطر لقضاء صباحه في تتبع كل الخيوط المتعلقة بـ إيلينا غامبوا. كانت هناك أدلة تشير إلى أن آل غامبوا غادروا توسون بالحافلة، ربما باتجاه الشمال الشرقي. وبناءً على تلك المعلومة الغامضة والمشكوك فيها، أمضى كالفو تسعين دقيقة في الاتصال بأعضاء شبكته من شيكاغو إلى بوسطن، مكلفًا الناس بالتحقق من جميع مصادرهم، بحثًا عن امرأة مكسيكية حامل، تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا.

كان الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش، كما يعلم كالفو، لكن وظيفته كانت أيضًا تنفيذ أوامر سيده.

رن هاتفه المحمول مرة أخرى، كانت أول مكالمة واردة له في ذلك اليوم، ففتح الهاتف وأجاب:

–"Bueno؟"

وبعد خمس دقائق، اندفع خارجًا من مكتبه، يرتدي سترة بدلته المصنوعة من الكيفلار ويغلق الباب خلفه.

كان دانيال دي لا روشا يلكم الكيس الثقيل في الصالة الرياضية كملاكم وزن متوسط متمرس. لم يكن الوحيد على الأرضية الخشبية الواسعة؛ وقف اثنان آخران من «البدلات السوداء» يرتدون ملابس العمل، ويصيحون بعبارات التشجيع له بينما كان يتدرب مع مدربه أو

يضرب كيس السرعة أو يهوي بقبضتيه المرتديتين للقفازات على الكيس الثقيل. كان مدربه يقف خلف الكيس في الزاوية يلقي التعليمات.

وكان خافيير "سبايدر" سيبيدا هناك أيضًا؛ لم يعد يفارق جانب رئيسه الآن، رغم أنه كان يقضي وقته أيضًا في إصدار الأوامر لمرؤوسيه الذين يروحون ويجيئون لتنفيذ رغبات رئيسهم بشأن الحرب مع «لوس فاكيروس».

وكما أصبحت عادته، دخل نيستور كالفو ماسياس، البالغ من العمر سبعة وخمسين عامًا، الغرفة بسرعة، متجاهلًا فريق الأمن والآخرين الواقفين حوله، وسار بتصميم نحو "زعيمه".

رأى دانيال رجله في المرآة المعلقة على الحائط. أرخى ذراعيه للراحة واستدار ليواجه كالفو.

– "تحمل المزيد من الأخبار السيئة، أليس كذلك يا نيستور؟"

– "المختبر الفائق رقم ستة دُمر."

– "ماذا تعني بـ (دُمر)؟"

– "دُمر يا دانيال. كان موجودًا، والآن لم يعد كذلك. هناك حريق. حطام. معادن ملتوية. وجثث. خسارة كاملة للمجمع هناك وكل مواده."

أومأ دي لا روشا برأسه فقط بينما كان مدربه يمسح جبينه بمنشفة.

قال كالفو:

– "لقد دمر «الرجل الرمادي» دفعتين كاملتين من المنتج. بالإضافة إلى المعدات الرأسمالية هناك. وقتل بضعة رجال. بعض الأجانب العاملين هناك اختفوا. لا نعرف إن كان قد اختطفهم أو قُتلوا أو هربوا من تلقاء أنفسهم."

فرد دي لا روشا عضلات صدره وذراعيه، ثم سدد لكمة قوية بيمينه إلى الكيس الثقيل.

قال كالفو بصوت خافت:

– "شيء آخر. سُرق حاسوب محمول من مكتب مدير المختبر. أخبر رجالُنا المديرَ أن كل شيء كان مغلقاً ومشفرًا، باستثناء ملف واحد. كان هناك ملف واحد مفتوح وقت السرقة. هذا الملف كان يحتوي على معلومات حساسة، وعلينا أن نفترض أنها الآن في يد «الرجل الرمادي»."

لكم دي لا روشا الكيس مرة أخرى، ثم التفت إلى مستشاره:

– "أي معلومات؟"

– "العناوين الفعلية لعقاراتنا في المكسيك."

صرخ دانيال:

– "تبًا! هل يعرف مادريغال الآن مواقع جميع عقاراتنا؟"

– "إذا كان «الرجل الرمادي» يعمل لصالح مادريغال... فنعم."

صرخ دي لا روشا:

– "يا ابن العاهرة! (¡Hijo de puta!)."

ولكم الكيس الثقيل بكل قوته. ثم التفت بسرعة إلى مستشاره:

– "كويرنافاكا؟ هل كان منزل كويرنافاكا في الـ..."

– "نعم يا زعيم."

– "نيستور... أطفالي. زوجتي. هذا منزلي بحق الجحيم!"

– "أعرف."

– "قال إنه لن يمس عائلتي!"

– "معذرة يا دانيال، هو لم يمس عائلتك."

لوح دي لا روشا بيده متجاهلًا تعليقه الأخير.

– "ماذا نفعل؟"

مد ذراعيه لمدربه ليبدأ في نزع قفازاته. هرع الرجل الأكبر سناً لتنفيذ الأمر.

هز كالفو كتفيه وقال:

– "قبل يومين شكونا من أنه كلفنا خمسين مليون دولار. ولكن الآن؟ لتأسيس طرق ومنازل آمنة جديدة، وتغيير قنوات التوزيع من عقاراتنا الحالية إلى الولايات المتحدة؟ قد يكلفنا هذا عشرة أضعاف ذلك المبلغ."

كان سبايدر صامتًا، لكنه قال:

– "يا زعيم، يجب أن نخرجك من هنا، الآن!"

قال دانيال بصوت خافت:

– "عائلتي. انقلوهم."

استدار أحد رجال «البدلات السوداء» خارجًا من الغرفة، وسحب هاتفًا من حزامه للاتصال بفريق كويرنافاكا لنقل زوجة دي لا روشا وأطفاله الستة.

لكنه لم يبتعد كثيرًا. أدخل الرجل رأسه مرة أخرى إلى الغرفة وقال:

– "أنا آسف."

نظر حوله، ولم يعرف لمن يوجه كلامه.

– "لكن إلى أين أطلب منهم الذهاب؟"

قال دانيال:

– "العقار في البرتغال. أوصلوهم إلى المطار في مكسيكو سيتي واجعلوا الطائرة تقابلهم هناك الليلة!"

هز كالفو رأسه:

– "لا. عنوان عزبة فارو كان في الملف."

– "اللعين ."

نطق زعيم المخدرات الكلمة بالإنجليزية. كان قد تعلمها أثناء خدمته في الجيش المكسيكي وتدربه في الولايات المتحدة.

– "إنه يدمرنا."

قال كالفو:

– "لا. لأنك لن تدع ذلك يحدث. ستعيد امرأة غامبوا إلى..."

– "لا!"

أمسك دانيال بـ كالفو من طيتي سترته ودفعه بقوة نحو الجدار المغطى بالمرايا.

– "لن أفعل!"

– "دانيال، هذه الكارثة تكلفنا الكثير من المال، والكثير من الوقت، والكثير من..."

– "لا أهتم! لا أهتم بأي من ذلك. أريد إيلينا غامبوا وهذا القاتل الأمريكي ميتين! والآن يهددون أطفالي؟"

هز كالفو رأسه، غير عابئ بتهديد العنف الجسدي من رئيسه:

– "لا أحد يهدد..."

تدخل سبايدر بينهما في لحظة.

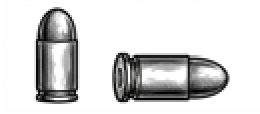
– "يا زعيم. لدينا أصدقاء يمتلكون سلاسل كاملة من الفنادق، والوحدات السكنية، وعقارات من جميع الأنواع. يمكننا إرسال عائلتك إلى أي مكان؛ يمكننا استئجار طابق كامل، أو عزبة كاملة! سأضاعف الحماية على عائلتك، ويمكنك إخبار أطفالك أنها عطلة."

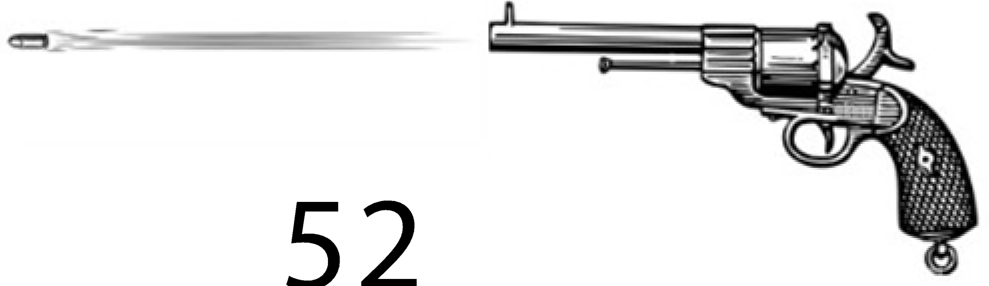
حدق كالفو ودي لا روشا في بعضهما البعض للحظة أخرى، ثم ترك الرجل الأصغر سترة الأكبر. ودون أن يقطع نظرات التحدي، تحدث إلى سبايدر:

– "ضاعف الحراسة عليهم ثلاث مرات. وأبلغ الجميع هنا. سنغادر إلى بويرتو فالارتا خلال ساعة؛ لدينا رجال شرطة يعملون لصالحنا هناك أكثر من أي مكان آخر. سأقود المروحية. أحضروا لورا غامبوا معنا، وسنستولي على أكبر مكان نجده هناك، وسنواصل الحرب على مادريغال حتى تتم تصفية «الرجل الرمادي» والعثور على إيلينا غامبوا."

اندفع كالفو خارج الغرفة دون كلمة أخرى. وبينما كان يسير عائدًا نحو مكتبه، قرر أنه سيفعل ما بوسعه لإنهاء هذا الجنون، بغض النظر عن رغبات سيده.

كان الأمريكي يسميه "الرقابة الأبوية". كانت إهانة لـ دانيال، لكن نيستور أقر في نفسه بأن هناك بعض الحقيقة في كلمات القاتل الأمريكي.





52

وصل كورت إلى نقطة الاستلام المتفق عليها مسبقًا لتسلم الإمدادات من كارتل مادريغال. بدأت مخزوناته من الصواعق ونترات الأمونيوم وزيت الوقود تنفد من جعبته؛ كما كان بحاجة إلى هواتف نقالة "نظيفة"، وبعض السيولة النقدية، ومزيد من الذخيرة لبندقيته من طراز ساكو.

ولكن عند وصوله إلى وحدة التخزين، لمح رجلًا يقف في المقدمة. ظل كورت في شاحنته، على بُعد مائة ياردة من مخبئه، وهو يتفرس عبر منظاره.

لقد كان سيرنا، وكان بمفرده. ينتظر.

اقترب كورت بالشاحنة ثم ترجّل منها، وهو يتفحص رئيس استخبارات "الفاكيروس" بنظرة حذرة وسأله:

– "لماذا أنت هنا؟"

– " إل فاكيرو يريد التحدث إليك."

– "شخصيًا؟"

– "نعم، فورًا."

باغت هذا الطلب جينتري، فقال:

– "ليس لدي وقت للقاءات الشخصية. ألا يمكنني التحدث معه عبر الهاتف؟"

– "كلا، علينا اصطحابك إليه."

– "علينا؟"

– "نعم. لم أرد إثارة ذعرك لذا أبقيتهم بعيدًا عن الأنظار، لكن معي عشرون رجلًا يطوقون المكان."

– "وعمَّ يريد مادريغال التحدث؟"

– "لا علم لي."

حدّق كورت بحدة في وجه مهرب المخدرات القادم من سينالوا، لكنه لم يستطع تبين ما إذا كان صادقًا أم يراوغه. أخذ يزن خياراته؛ شعر أن بمقدوره الإطاحة بـ سيرنا تحت تهديد السلاح والفرار من هنا، ولكن لماذا؟ لا يوجد سبب يدفع مادريغال للنقمة عليه؛ بل على العكس تمامًا، فقد ألحق كورت أضرارًا جسيمة بعمليات الخصم اللدود لـ "الفاكيروس". وبحكم المنطق، كان ينبغي على مادريغال أن يكلف شعراءهم بكتابة قصائد "ناركو كوريدو" – ملاحم غنائية – تمجد بطولات "الرجل الرمادي"، وأن يعرض عليه مساعدة أكبر من ذي قبل.

أومأ كورت برأسه ورفع ذراعيه، فقام سيرنا بتفتيشه وانتزع منه أربعة أسلحة، ثم استخدم جهاز لاسلكي صغير لاستدعاء فريقه. وفي غضون ثوانٍ، ظهرت عدة شاحنات ضخمة من طراز "دوج" عند المداخل الأمامية والجانبية لساحة التخزين. تقدمت الشاحنات عبر الممرات لتقل سيرنا وجينتري، ثم انطلقت في قافلة متجهة نحو الشمال.

بحلول الظهر، استقل سيرنا وجينتري طائرة بمحرك مراوح صغير متجهة نحو الشمال الغربي، وفي الثانية عشرة والنصف هبطا في مدرج عشبي وسط الجبال. استقلا سيارات "كرايسلر" صالون ضخمة عبر بلدة كبيرة. سأل كورت عن موقعهما، لكن رئيس الاستخبارات لم يكتفِ إلا بالاعتراف بأنهما في جنوب ولاية سينالوا.

بعد مسيرة لم تزد عن عشرين دقيقة، دخلوا بوابات مقبرة شاسعة. كانت السماء صافية والجو باردًا، وبدأ كورت يلحظ مسلحين

يرتدون قبعات القش ينتشرون حول الأضرحة المزخرفة في المساحات الخضراء المنسقة بعناية. لم يكن هذا المكان يشبه المقبرة التي وُري فيها إيدي غامبوا الثرى؛ فهذه السراديب كانت ضخمة، ومبنية من الإسمنت والرخام المنحوت يدويًا وبأثمان باهظة، ذات أسقف مذهبة وتماثيل بالحجم الطبيعي تقف حارسة أمام القبور.

أجاب سيرنا على سؤال لم يطرحه كورت:

– "هذه المقبرة بأكملها مخصصة لرجال مادريغال. هو يأتي إلى هنا كثيرًا لزيارة أصدقائه القدامى. اعتبر دعوته للقائك هنا بمثابة تكريم لك."

كان جينتري على يقين بأنه لم "يُدعَ" تمامًا بالمعنى الودي، لكنه مرر الأمر. تتبعت السيارة الطريق المتعرج بين عشرات المدافن، التي كان بعضها بحجم منازل صغيرة. تميزت مداخلها بصور فوتوغرافية مؤطرة فوق دروع حديدية، وزُينت بمقتنيات غريبة؛ بنادق كلاشينكوف منحوتة من الحجر، وقبعات رعاة بقر رخامية، وتماثيل برونزية لخيول، بل إن واجهات ومقدمات سيارات حقيقية من طراز "كاديلاك" و"دوج" كانت تبرز من البناء القرميدي. وفي إحدى الحالات، بُنيت طائرة "بايبر" ذات محركين من الفولاذ المقاوم للصدأ وبحجمها الطبيعي فوق سطح سرداب ضخم.

وتخيل كورت أن نصف الزهور الملونة في سينالوا قد جُمعت لتزيين هذا المكان.

توقفت السيارة أمام سرداب أصغر حجمًا، بدا بناؤه حديثًا ويحيط به عشرة مسلحين. كان مادريغال نفسه هناك، وبجانبه ابنه المراهق تشينغاريتو. ارتدى "إل فاكيرو" قميصًا أحمر وبنطال جينز، وقبعة قش وحذاءً رياضيًا. ولم يلحظ جينتري أي مظاهر للبهرجة على جسده سوى مشبك حزام ذهبي على شكل رأس حصان وصليب بسيط يتدلى حول عنقه.

استقبل "إل فاكيرو" كورت فور خروجه من السيارة، وصافحه بابتسامة توارت جزئيًا خلف شاربه. وبينما كان يتحدث، تولى تشينغاريتو الترجمة:

– "سبعة أيام يا صديقي. قبل أسبوع واحد تمامًا التقيت بك، ووعدتني بإثارة المتاعب لـ "البدلات السوداء". يجب أن أقول... ظننت أنك ستقتل بضعة منهم، وتدمر بعض الشحنات، ثم تموت. لكنك أثبتَّ لي أنك محارب فذ."

– "شكرًا لك."

– "هل أنت متأكد أنك لم تولد في سينالوا؟"

لم يرد كورت، ولم يجد "النغل الصغير" شيئًا يترجمه.

تابع مادريغال:

– "لقد نلتَ احترامي. ما فعلته في سبعة أيام عجز عنه هؤلاء الأوغاد البائسون في سبع سنوات." أشار بيده نحو رجاله المحيطين به، وضحك تشينغاريتو وهو يترجم الكلمات.

قال جينتري:

– "وهذه هي البداية فقط. خلال أيام قليلة سيكون—"

قاطعه مادريغال، بينما كان ابنه يجهد لمواكبة الترجمة:

– "لهذا السبب أحضرتك إلى هنا. تسعة من رجالي ذُبحوا الليلة الماضية في بورتو فالارتا. وخمسة من شرطة ولاية خاليسكو الذين أتقاضى ولائهم اختفوا في غوادالاخارا أمس؛ ولا شك أن جثثهم ستُلقى على قارعة الطريق خلال الأيام القادمة. وقبل يومين، قُتل اثنا عشر من رجالي، واختُطفت شحنة بضائع."

حدّق جينتري فيه للحظة وقال:

– "لا يهمني إن قُتل قتلتك المأجورون، وسأهين ذكاءك إن تظاهرت بخلاف ذلك."

ترجم تشينغاريتو، فرد مادريغال:

– "لقد فعلها دي لا روشا. هو يشك في أنك تعمل لحسابي، ويعاقبني على هذه العلاقة. أخبرتك أن هذا التعاون لن ينجح إلا إذا ظل طي الكتمان."

– "كان عليك أن تدرك احتمال إلقاء اللوم عليك بسبب أفعالي. أنا متأكد أن لديك مزيدًا من القتلة والمخدرات، أليس كذلك؟"

– "بالتأكيد. يمكنني الاستمرار هكذا لسنوات، فأنت تؤلمه أكثر مما يؤلمني. ولكن، طرأ تغيير على الخطط؛ لن نستمر في حربنا."

– "ماذا تقصد؟"

– "منفعتك بالنسبة لي قد انتهت. لقد أبرمتُ صفقة؛ فمقابل تسليم جثتك إلى "البدلات السوداء"، سأوقف هذه الحرب، فضلًا عن وعود بمكافآت أخرى. لقد وافقتُ على هذا العرض."

قال جينتري بثقة:

– "لقد عقدت هذه الصفقة مع نيستور كالفو."

كان يعلم أن دي لا روشا ليس من النوع الذي يبرم المواثيق مع عدوه اللدود مادريغال؛ فهو يقاتل ويهدد، لكنه لا يذعن.

هز مادريغال كتفيه وترجم ابنه:

– "نعم. نيستور كالفو ماسياس هو عصب منظمة "البدلات السوداء". هو أكثر قوة حتى من دي لا روشا بسبب كل ما يملكه من أسرار. لقد عرض عليَّ أحد مختبراتهم الكبرى المتبقية لإنتاج "الميث"؛ وهي هدية تُقدر قيمتها بمليارات الدولارات بمرور الوقت." ابتسم مادريغال وتابع: "يجب أن تفخر بقيمتك السوقية."

– "فهمت."

هز "إل فاكيرو" كتفيه ثانية وقال:

– "أنا آسف يا صديقي، لكن عليَّ قتلك الآن. وسأكرم خدمتك بهذا السرداب الجميل الذي تراه أمامك."

بدأ الرجال المحيطون يقتربون. التفت كورت بجنون بحثًا عن سيرنا، ووجده وسط الحشد. لم يبدُ رئيس الاستخبارات راضيًا عن هذا الترتيب، لكنه لزم الصمت.

نظر جينتري إلى تشينغاريتو:

– "أنا أستطيع تقديم نفع له أكثر مما يفعل كالفو. أخبره بذلك!"

ترجم الصبي الكلمات، فرد مادريغال:

– "أنت الآن تعطيني ما أريده.. أنا أريد ذلك المختبر الضخم."

ومن الخلف، وُضع كيس على رأس جينتري.

قال مادريغال:

– "ماتالو (Mátalo)."

لم يترجم تشينغاريتو هذه الكلمة؛ فـ كورت يعلم أنها اسم مسقط رأس مادريغال، لكنها أيضًا أمر بالقتل.

اقتله.

سمع صوت سحب أجزاء المسدس خلف رأسه مباشرة. صرخ كورت بكلمة واحدة:

– "كالفو!"

حينها قال مادريغال:

– "انتظر! ماذا قلت؟"

رد كورت بالإسبانية:

– "قلتُ كالفو. يمكنني جلب نيستور كالفو إليك. إن وقوعه في قبضتك يعني نهاية دانيال دي لا روشا و"البدلات السوداء" تمامًا، وأنت تعلم ذلك." لم يستطع كورت رؤية هيكتور سيرنا بسبب الكيس، لكنه ناداه: "هيكتور، ألا تود أن تنبش ما في عقل كالفو؟ أن تكتشف كل ما يعرفه؟"

تحت ذلك الغطاء الأسود، تصبب كورت عرقًا؛ كانت كل عضلات وجهه ورقبته مشدودة، ينتظر رصاصة في الرأس لن يشعر بها أبدًا. لم

يفكر في موته، بل فكر فقط في لورا. تخيلها الآن وحيدة وخائفة، وتخيل الرجال الذين سينقضون عليها بمجرد أن تنتهي حاجتهم لإبقائها سليمة.

كان يتوق بشدة لإنقاذها.

شعر بأيدٍ تدفعه من ذراعيه وظهره نحو السرداب. كانت هناك صرخات وأوامر تُلقى خلفه بينما يسير، ثم انزلق الباب ليغلق وراءه، فحلّ سكون بارد ومظلم.

أُزيل الكيس عن رأسه. وقف رجل عن يمينه وآخر عن يساره، وكلاهما يغرز فوهة مسدسه في صدغه.

أمامه، وبفعل الضوء المتسلل من نافذة زجاجية صغيرة ملونة في خلفية السرداب، رأى مادريغال وابنه وسيرنا.

قال سيرنا:

– "كالفو محمي بشكل جيد."

تحدث كورت بصوت يرتجف من التوتر:

– "وأنا أملك دافعًا أقوى."

قال مادريغال:

– "أنت مستعد لقول أي شيء الآن لتنجو بجلدك. لا أصدق أنك قادر على تسليمه."

سأل كورت بالإنجليزية وتولى الصبي ترجمة فورية:

– "كيف ستثبت لـ كالفو أنني مت؟"

أجاب مادريغال:

– "سأخبره في أي سرداب دُفنت هنا. هو يخطط لإرسال بعض رجاله لرؤية جثتك قبل إغلاق السرداب نهائيًا."

نظر كورت إلى هيكتور سيرنا:

– "أخبره أنك تريد مقابلته شخصيًا هنا لتريه جثتي بنفسك."

– "ولماذا قد يفعل ذلك؟"

– "سيضطر لذلك، لأنه لا يستطيع إخبار دي لا روشا أنكما أبرمتما صفقة. سيلبي أي طلب معقول للحفاظ على سرية هذه المقايضة. كما أنه سيشعر بالفضول لمعرفة الميزة التي قد يجنيها من لقائكما."

هز مادريغال رأسه:

– "لن يوافق. الأمر خطر جدًا بالنسبة له."

– "يمكنك إخباره بأن يحضر معه أي قوة يريدها. أخبره أن يحضر مائة مسلح لضمان عدم وجود كمين. أخبره أن يرسل رجاله قبل يوم كامل لمراقبة الموقع."

– "وهل تعتقد أنك تستطيع تجاوز مائة مسلح؟"

– "بالطبع لا، لكنه لن يحضر هذا العدد. هو يعمل سرًا دون علم زعيمه، لذا سيرغب في إبقاء هذه المباحثات بعيدة عن رادار دي لا روشا. هو ليس أحمق، سيحضر حراسة بالتأكيد، لكنها لن تتجاوز فريقه المعتاد للحماية اللصيقة. عدد يمكن السيطرة عليه كي لا يتسرب خبر الاجتماع في منظمتهم."

– "وهل تستطيع اختراقهم؟"

– "أفترض أن عليَّ فعل ذلك، أليس كذلك؟"

قال مادريغال:

– "ولكن عندما أمسك بـ كالفو، كيف سيساعدك ذلك؟ لن أقايضه من أجل عاهتك الصغيرة غامبوا."

ترجم تشينغاريتو الكلمات، فانتفخت منخرا جينتري غضبًا لكنه تمالك نفسه:

– "بمجرد أن أقبض على كالفو، سأسلمه إليك. لكنني سأخبر دي لا روشا أنني أحتجزه وسأقايضه بـ لورا. سنحدد وقتًا ومكانًا للمبادلة. هذا سيمنحك الوقت الكافي لانتزاع ما تحتاجه من كالفو قبل أن تبدأ

"البدلات السوداء" في البحث عنه، وسيمنحني فرصة للاقتراب من لورا لاستعادتها."

تفرس مادريغال في وجه جينتري طويلًا، ثم ابتسم:

– "أنت تفكر كخارج عن القانون. أنت بارع في التخطيط كأي شخص قابلته في حياتي يا صديقي."

– "دعنا نكتفِ بالقول إن هذه ليست أولى معاركي يا سيد."

– "أنا مهتم بعرضك، لكن هناك مشكلة واحدة."

كان جينتري يعرفها:

– "تخشى وجود مخبرين في منظمتك يعملون لصالح دي لا روشا، فيقومون بتحذير كالفو مسبقًا بخطتنا."

أومأ مادريغال برأسه.

– "لدي طريقة لمنع ذلك."

– "وكيف يمكنك بحق الجـ—"

أمام عيني مادريغال، تحول "الرجل الرمادي" إلى شبح خاطف من الحركة. هبط بجسده إلى الأسفل مباشرة، خارج خط النار للمسدسين المصوبين نحوه. وفي اللحظة نفسها، استدار على عقبيه؛ واندفعت يداه كالصاعقة نحو الأعلى، لتطيح بالمسدسين من أيدي الرجلين. ثم التقط أحد السلاحين بينما كان يدور في الهواء المعتم المليء بالغبار. وبحركة لولبية عاد إلى وضعية الوقوف، وصوب المسدس الضخم نحو صدر كونستانتينو مادريغال.

كل هذا حدث في أقل من ثانية واحدة. تراجع الحارسان اللذان جُردا من سلاحهما إلى الخلف؛ بينما وقف مادريغال وتشينغاريتو وسيرنا يحدقون في ذهول وصدمة مطلقة.

بعد خمس ثوانٍ من الصمت، ترك كورت المسدس يدور حول إصبعه، ليتدلى مقلوبًا من واقي الزناد.

تقدم خطوة ومد يده بالسلاح نحو كونستانتينو مادريغال:

– "تفضل. اقتلني به، أو اسمح لي بحل مشاكلك مع دي لا روشا. إذا كنت لا تثق بأي شخص هنا، فاقتلهم جميعًا، وعندها سيزول خطر التسريب. سأبقى أنا هنا؛ ويمكنك إخبار الجميع أنهم قُتلوا في عراك معي وأنك أجهزت عليَّ في النهاية."

ظل فم مادريغال مفتوحًا من شدة الدهشة. نظر إلى ابنه بانتظار الترجمة، لكن فم تشينغاريتو كان مفتوحًا هو الآخر. وكزه والده، فبدأ الصبي بالحديث. وبينما كان الابن يعيد كلمات جينتري بالإسبانية، نظر مادريغال إلى الآخرين في السرداب وكأنه يتأكد مما إذا كانوا قد شهدوا ذلك الفعل الإعجازي من الأمريكي.

أخذ "إل فاكيرو" المسدس، وأشار به ببطء نحو حارسيه:

– "هذان الاثنان... أثق بهما."

ثم نظر إلى سيرنا:

– "وهيكتور أيضًا. وتشينغاريتو؛ فهو ابني، وهو أذكى من أن يخدعني، أليس كذلك يا بني؟"

أكد "النغل الصغير" بإيماءة من رأسه أنه بالفعل أذكى من أن يغدر بوالده.

التقط أحد رجال مادريغال مسدسه من الأرض؛ واستعاد الآخر سلاحه من زعيمه. وبدا كلاهما في حالة من الصدمة والخجل في آن واحد.

وسرعان ما استعاد "إل فاكيرو" توازنه:

– "كان ذلك عرضًا جيدًا يا صديقي. جيدًا جدًا. كان بإمكانك قتلي في تلك اللحظة ولم تفعل. سأمنحك اليومين اللذين طلبتهما. أنا وهيكتور لن نخبر أحدًا بخطتنا. لكني أعدك، إذا لم يُسلم إليَّ نيستور كالفو حيًا، فسأرسل كل رجالي لمطاردتك."

أومأ كورت برأسه:

– "سيكون بين يديك يا سيد. أعدك بذلك."

للمرة الثانية خلال أسبوع، تجرّع كورت جينتري مرارة التخلي عن كبريائه وصافح كونستانتينو مادريغال. كانت المصافحة هذه المرة أثقل وطأة من سابقتها، والسبب الرئيس هو علمه التام بأن ما قاله للتو لم يكن سوى كذبة صريحة.





53

بعد ست وأربعين ساعة، انطلقت ثلاث سيارات دفع رباعي سوداء مصفحة من طراز «شيفروليه سوبربان» مسرعة نحو الغرب على طريق ذي مسارين في أحد الأخاديد بجنوب شرق ولاية سينالوا. ومضت أضواء حمراء على لوحة القيادة في السيارة القائدة، بينما اخترق السائق المسلح القرى الصغيرة والتقاطعات العرضية دون أي اعتبار لحركة المرور الأخرى.

كان السائق يعلم أن القافلة يجب أن تواصل التحرك، وبسرعة.

في المقعد الأوسط من الشاحنة الثانية، محاطًا باثنين من الحراس الشخصيين الثلاثة عشر الذين تم جلبهم لحمايته، تحدث نيستور كالفو ماسياس عبر هاتفه المحمول مع مساعده. كان نائب كالفو قد أعد مركز عمليات في العقار الجديد بـ بويرتو فالارتا، وكانت مهمته لهذا اليوم إبقاء دي لا روشا مشغولًا وغير مهتم بمكان وجود كالفو.

كان نيستور محترفًا، ولم يكن يحب الكذب على رئيسه، لكنه أدرك أن الوضع الحالي يتطلب "إشرافًا من الكبار". لم يكن ليسمح لقاتل أمريكي، أو تمثال هيكل عظمي سخيف مصنوع من الراتنج، أو سعي مشتت للانتباه وراء جنين مختبئ، بتدمير كل ما بناه في السنوات الماضية.

بمخالفة أوامر قائده الآن والاجتماع بـ هيكتور سيرنا من «لوس فاكيروس» (رعاة البقر)، سيوقف كالفو حرب عصابات مكلفة، وسيقدم جثة خصم رئيسه الأمريكي إليه، وسيحد من نزيف الأموال والأرواح المستمر منذ أسبوع.

سيكون الثمن باهظًا بعض الشيء لإنهاء حرب مادريغال: مختبر ميثامفيتامين في الطرف الشمالي الغربي من ولاية خاليسكو. لكن كالفو اختار هذا العنصر للمقايضة بذكاء. كان بناء المختبر مكلفًا ومستهلكًا للوقت، لكنه كان ضعيف الأداء منذ افتتاحه قبل ثلاثة عشر شهرًا فقط. كانت البنية التحتية في المنطقة رديئة، والحصول على عمالة ماهرة في المنطقة يمثل مشكلة. علاوة على ذلك، ركز الجيش جهوده على القضاء على الماريجوانا في المنطقة، وكان «البدلات السوداء» قلقين باستمرار من اكتشاف المختبر من قبل ملازم شاب في الجيش، خريج جامعة، لا يمكن شراؤه. لذا عرض كالفو استبدال هذه الكارثة المحتملة بحياة الرجل الذي يكلف منظمته ملايين الدولارات يوميًا ومتاعب لا حصر لها.

قرار سهل للغاية.

كان الاجتماع بـ سيرنا هو الجزء الأكثر إثارة للقلق في الصفقة بالنسبة لـ كالفو، لكنه قرر الآن أن مخاوفه لم تكن في محلها. أرسلت قوات أمن كالفو فريقًا متقدمًا لتفقد موقع الاجتماع، وأفادوا بأنه منزل آمن لا يوجد فيه سوى عدد قليل من رجال مادريغال، بمن فيهم سيرنا، ولا توجد قوات أخرى لـ «لوس فاكيروس» في المنطقة.

أمر نيستور حراسه الشخصيين بالسفر بأحمال خفيفة وبعدد قليل اليوم لتقليل فرص اكتشاف دي لا روشا للاجتماع. كان كالفو يعلم أنه لا يستطيع أبدًا إخبار دي لا روشا بهذه المؤامرة الصغيرة. فالمنطق والعقل لا مكان لهما في تفكير "زعيمه"؛ ولن يوافق على أي صفقة مع مادريغال بأي شكل من الأشكال.

وبينما كانت القافلة المكونة من ثلاث مركبات تسرع عبر الأخدود الضيق في طريقها إلى المنزل الآمن في الجبال، واصل كالفو الحديث عبر هاتفه المحمول مع نائبه.

– "دي لا روشا يصر على أن الاستخبارات المركزية تعمل مع مادريغال. يريد منا إرسال قتلة وراء رجال الاستخبارات المركزية في العاصمة. حتى أنه يتحدث مع سبايدر عن هجوم مباشر على السفارة الأمريكية. هذا جنون مطلق!"

على بعد مائتي ياردة أمام سيارات الـ «سوبربان» الثلاث، خرجت شاحنة أسمنت كبيرة إلى الطريق من محجر تجاري للحصى على اليسار. اقتربت الشاحنات السوداء الكبيرة منها بسرعة بينما كانت الخلاطة الضخمة بطيئة الحركة تجاهد لزيادة سرعتها. دارت أسطوانتها الحمراء والبيضاء وهي تترنح صاعدة الطريق.

أطلق سائق سيارة كالفو القائدة بوقه وأومض بأضوائه بسرعة وهو يندفع خلفها.

لم ينتبه كالفو لذلك، وواصل محادثته:

– "الفتاة لم تكن تستحق كل هذا العناء أبدًا؛ عائلة غامبوا لم تكن تستحق كل هذا العناء أبدًا."

وصلت السيارة القائدة خلف شاحنة الأسمنت مباشرة بينما كان الأخدود يضيق عند منعطف. لم يكن هناك سوى أقدام قليلة على جانبي الطريق الأسفلتي الضيق، المحاط بمنحدرات صخرية شديدة الانحدار تجعل التجاوز مستحيلًا. أومض السائق القائد بأضوائه باستمرار وأطلق بوقه. كانت خلاطة الأسمنت تزيد سرعتها لكن ليس بالسرعة الكافية لإرضاء سائقي الأمن الثلاثة المحترفين لـ كالفو. تم تبادل الكلمات عبر اللاسلكي بين سيارات الـ «سوبربان» حول التباطؤ.

ظل كالفو غير مدرك لما يجري.

– "أريدك أن تبلغني إذا جاءك دانيال وبدأ يطرح أسئلة كثيرة عن مكاني. يمكنني الاتصال به في أي وقت وإخباره بأي قصة. لا تحاول خداعه بنفسك. يمكنه شم الكذبة تمامًا كما كان يفعل والده."

ضاق الأخدود أكثر، وتسارعت شاحنة الأسمنت لتصل بالكاد إلى أربعين ميلًا في الساعة. ضغط سائق الموكب القائد على بوقه الآن، وأرجح شاحنته يمينًا ويسارًا خلف الخلاطة، وفتح الراكب الأمامي نافذته، ورفع بندقية الـ «M4» الخاصة به، ولوح بها في الخارج ليراها سائق شاحنة الأسمنت في مرآة الرؤية الخلفية الجانبية.

نظر كالفو للأعلى بسبب استمرار صوت البوق بينما كان يتحدث.

– "لا شيء، مجرد زحام مروري."

نظر للأسفل إلى مفكرة على حجره.

– "نعم، سأعطيهم إحداثيات المختبر الفائق. بمجرد أن نرى جثة الأمريكي الشمالي سأتصل بـ..."

في السيارة القائدة، كان الراكب الأمامي قد فك حزام الأمان وأخرج نصف جسده من النافذة الآن، ملوحًا بالبندقية بغضب في الهواء. أومض السائق بأضوائه وبدأ في الشتم بصوت عالٍ عندما وصلوا إلى أضيق جزء من الأخدود الجبلي. مد يده لجهازه اللاسلكي لتحذير المركبات الأخرى لتستعد لـ...

أمامهم مباشرة، ضغطت خلاطة الأسمنت الكبيرة على مكابحها بعنف، وانزلقت لتتوقف. انطلق تيار من الخرسانة الرطبة بقطر قدمين وبضغط عالٍ من أنبوب التفريغ البالغ طوله خمسة أقدام، وقادت الـ «سوبربان» القائدة مباشرة في الخليط الحصوي قبل أن تكبح. انزلقت بقوة لتصطدم بمؤخرة الخلاطة، وانفتحت الوسائد الهوائية، وغطت الخرسانة غطاء المحرك والزجاج الأمامي. رشت مئات الغالونات من الطين الرمادي المركبة وتناثرت على الطريق الضيق حولها.

طار الحارس الشخصي الذي كان يتدلى من النافذة بالكامل من الـ «سوبربان»؛ انكسر ظهره، وانزلق سلاحه للأمام، متجاوزًا العجلات الأمامية لخلاطة الأسمنت.

خلف ذلك مباشرة صرخ سائق سيارة كالفو:

- "تمسكوا!"

رفع نيستور بصره عن هاتفه، ناظرًا عبر الزجاج الأمامي، وإلى وهج الصباح أمامه، تمامًا في اللحظة التي انغلقت فيها مكابح شاحنته وانزلقت السيارة الرباعية لتصطدم بالشاحنة الأولى.

طار هاتف كالفو من يده، وارتطم بظهر المقعد أمامه. وفعل الحارسان الشخصيان على جانبيه الشيء نفسه.

كان قائد فريق حراسة كالفو يجلس في المقعد الأمامي للراكب بالشاحنة الثانية. وبينما كان يتعافى من الارتطام، ارتفعت بندقيته الـ «M4» من بين ركبتيه، وأمسك بجهاز اللاسلكي وصرخ للمركبة الخلفية:

- "الشاحنة الثالثة! ارجع! ارجع! ارجع!"

وضع السائق الخلفي الـ «سوبربان» في وضع الرجوع للخلف، وفعل سائق كالفو الشيء نفسه.

عاد نيستور إلى مقعده في اللحظة التي رجعت فيها شاحنته للخلف، مما قذفه للأمام مرة أخرى. أمسكه الحارس الشخصي على يمينه وغطاه بجسده. وأثناء ذلك، رأى هو وكالفو وميض ضوء على الجرف الصخري أعلاهما وخلفهما قليلًا. جاء دوي انفجار بعد جزء من الثانية، وبعد لحظة، شاهد كالفو وحارسه بلا حول ولا قوة بينما نسف الانفجار الحجر والتراب بعيدًا عن الشجيرات البنية على الجرف.

انفصلت صخور بحجم المقاعد عن جانب الجرف وتدحرجت نحو القافلة، مكتسحة في طريقها الشظايا الصخرية المسطحة والأشجار والتراب.

صرخ شخص ما في شاحنة كالفو:

- "انتبهوا!"

أخطأ الانهيار الأرضي الهائل مركبة نيستور. وبينما ضغط السائق على مكابحه بقوة، اصطدم رئيس استخبارات «البدلات السوداء» بكتفه في مسند رأسه الجلدي، واصطدم به الرجل الذي ألقى بنفسه فوق جسد كالفو. نظر كالفو من النافذة الخلفية في الوقت المناسب ليرى المركبة الخلفية في القافلة تتلقى الضربة القاضية من كتلة الصخور والتراب والغبار والخضرة؛ أطنان من الأنقاض المتساقطة ارتطمت بالـ «سوبربان»، وأدارت المركبة المصفحة الضخمة 180 درجة حول محورها قبل أن تدفنها مع الرجال الستة بداخلها.

استمرت الخرسانة الرطبة في الانسكاب على المركبة الأولى في القافلة. تعافى السائق من الاصطدام بخلاطة الأسمنت، ودفع الوسادة الهوائية المفرغة بعيدًا عن طريقه، ووضع ناقل الحركة في وضع الرجوع للخلف. دارت عجلات الشاحنة في مكانها، لكنها وجدت ثباتًا وبدأت في الرجوع؛ صرخ الرجال في الشاحنة حول السائق، ورجعت السيارة الرباعية بقوة لتصطدم بمقدمة الشاحنة الثانية. بعد ثوانٍ، رجعت خلاطة الأسمنت نفسها للخلف، عبر مئات الأرطال من الطين الرمادي، واصطدمت بالشاحنة الأولى.

استمر الأسمنت في التدفق من أنبوب التفريغ، مباشرة الآن على غطاء محرك الشاحنة.

وجه الحارسان الشخصيان في المقعد الأوسط للشاحنة الثانية، واحد على كل جانب من نيستور كالفو، سلاحيهما نحو النوافذ، منتظرين الأمر بالخروج من السيارة. تردد قائد الفريق، الرجل في المقعد الأمامي للراكب، وصاح:

- "انتظروا! لا نعرف كم عددهم. كالفو آمن داخل الشاحنة."

جلس الرجال في صمت لبضع ثوانٍ، ثم دبت الحياة في الراديو بصوت رجل مصاب من الشاحنة الخلفية:

– "لدينا جرحى. بعضهم ماتوا، أعتقد. ساعدونا."

غير الحارس القائد القناة وأرسل نداءً للشرطة المحلية.

خلفه، كان نيستور كالفو المصدوم ولكن شديد التركيز قد وجد بالفعل هاتفه المحمول على الأرض، وأنهى المكالمة التي كان يجريها، وبدأ في الاتصال بجهات اتصاله الخاصة في المنطقة.

رآه سائق الشاحنة الأولى أولًا. رجل يرتدي جينزًا أزرق متسخًا، وسترة جلدية سوداء، وخوذة دراجة نارية سوداء بزجاج معتم. تتدلى في يده اليمنى مسدس أسود، وفي يده اليسرى حقيبة ظهر سوداء تتأرجح بجانبه.

– "اللعنة! إنه «الرجل الرمادي»! ."

قال السائق ذلك، ثم أمسك بجهازه اللاسلكي لإبلاغ الشاحنات الأخرى.

لكن الشاحنة الثانية كانت قد رأته بالفعل.

– "إنه الغرينغو!"

صرخ الحارس على يسار كالفو، وفتح بابه الخلفي بقوة، ورفع رشاشه قصير الماسورة.

ثم طار عائدًا إلى الداخل على حجر نيستور كالفو. في جبهته وخده الأيسر ثقوب ممزقة تضخ دمًا أحمر غزيرًا على بدلة كالفو.

دفع المستشار الرجل خارجًا إلى الطريق وارتمى ليغلق الباب، مفلتًا هاتفه في الهواء قبل أن يتم الاتصال.

حاول قائد الفريق فتح بابه للخروج من الجانب البعيد للشاحنة المصفحة والاشتباك مع «الرجل الرمادي» من فوق غطاء المحرك. لكن أمتارًا من الأسمنت الكثيف كانت قد تجمعت بالفعل على جانبه من الشاحنة الثانية، ولم يستطع فتحه.

وبدلًا من ذلك، التفت إلى الرجل خلفه، على يمين كالفو:

– "انظر إن كان بإمكانك الخروج!"

ثم عاد إلى بابه وبدأ في إنزال النافذة.

تدافع سائق الشاحنة الأولى عبر الكونسول الوسطي للمقعد الأمامي، إلى جانب الراكب، وكافح لرفع النافذة الثقيلة المضادة للرصاص التي تركها مفتوحة الرجل الذي قُذف خارجًا أثناء الاصطدام الأولي بشاحنة الأسمنت. تجادل الرجال في المقاعد الخلفية حول ما يجب فعله وصرخوا في أجهزة اللاسلكي الخاصة بهم، محاولين التواصل مع قائد الفريق خلفهم فوق صرخات وتوسلات الناجين من الشاحنة الثالثة.

ظهر الرجل ذو خوذة الدراجة النارية عند نافذة جانب السائق للشاحنة الأولى، وسحب جسمًا مستطيلًا كبيرًا من حقيبة ظهره المفتوحة، ولصقه بقوة على الزجاج الباليستي. عندما ارتطم، أصدر صوتًا يشبه صوت سمكة ثقيلة رطبة، والتصق بالسطح الشفاف. توقف الرجال المسلحون داخل المركبة عن الصراخ وحدقوا فيه للحظة، غير متأكدين مما ينظرون إليه. كانت حاوية سوداء مصنوعة من المعدن، ربما الحديد، ومغطاة بمادة سميكة سوداء تشبه القطران. رأوا «الرجل الرمادي» يلتقط حقيبته عن الأرض ويتراجع للخلف، عائدًا حول جانب خلاطة الأسمنت الضخمة.

صرخ السائق:

– "إنها قنبلة!"

سأل حارس في الخلف:

– "هل نحن آمنون؟"

أجاب أحدهم، واثقًا من أن الزجاج المضاد للرصاص سيحميهم:

– "نعم."

حاول رجل آخر مرة أخرى مناداة قائد الفريق في المركبة الخلفية للحصول على تعليمات، وأعرب آخر عن قلقه من أن زجاج النافذة الجانبية ليس بقوة الدرع الجانبي للسيارة.

أخيرًا، بعد النظر إلى الصندوق اللزج على الزجاج لمدة خمس ثوانٍ، أعطى السائق الأمر:

– "غادروا المركبة!"

التفت ثلاث أيادٍ حول ثلاثة مقابض أبواب مختلفة داخل الـ «سوبربان» السوداء الكبيرة.

وعندئذ انفجرت القنبلة، مرسلة النار، وشظايا الحديد، وشظايا الزجاج الباليستي إلى داخل السيارة خلف موجة صدمة تحركت أسرع من سرعة الصوت. تحول جميع الرجال بالداخل إلى أشلاء في ثمانية أجزاء من المائة من الثانية، واهتزت المركبة الثقيلة على هيكلها الفولاذي المقوى. انفجر الزجاج الأمامي من الداخل للخارج، وتحطم على أنبوب خلاطة الأسمنت، والتهمت النيران الركاب الموتى.

الرجال الأربعة الذين ما زالوا على قيد الحياة في الشاحنة الثانية، بمن فيهم نيستور كالفو، اكتفوا بالمشاهدة. عندما اتضح أن المركبة المصفحة أمامهم، وهي شاحنة متطابقة تمامًا مع شاحنتهم، لم تنجُ من الانفجار، أعطى قائد الفريق الأمر لرجاله بمغادرة المركبة.

كان السائق أول من خرج من بابه؛ سحب مسدسه عيار 45 وهو يترنح خارجًا إلى الطريق.

وسط الدخان الأسود المتصاعد من نوافذ الـ «سوبربان» أمامه، ظهر الرجل ذو خوذة الدراجة النارية، كان لا يزال يحمل الحقيبة منخفضة بيده اليسرى، والآن كان مسدسه مصوبًا عاليًا بيده اليمنى.

بدأ السائق في رفع سلاحه نحو التهديد، لكن ثلاث طلقات في صدره أدارته حول نفسه، وجعلت مسدسه يطير من يديه. طلقة رابعة في الجانب الأيمن من جمجمته كسرت رأسه جانبيًا وقتلته على الفور.

سقط ميتاً على الأسفلت بينما انفتح البابان على الجانب المقابل للسيارة ثم انغلقا مرة أخرى.

داخل الشاحنة الثانية صرخ كالفو في العضوين الناجيين من فريقه:

– "قاتلاه! اخرجوا وقاتلاه!"

تحرك الرجلان من جانب لآخر في مقاعدهما، لكنهما كانا متجمدين من الرعب. اكتفيا بمشاهدة الرجل ذي خوذة الدراجة النارية وهو يقف بجانب شاحنتهم ويمد يده إلى حقيبته.

صرخ أحدهم:

– "لديه قنبلة أخرى!"

لكن الرجل سحب قطعة من الورق المقوى بدلًا من ذلك. دفعها إلى الزجاج الأمامي وقرأ الرجال داخل السيارة الكلمة الوحيدة المكتوبة باللون الأسود عليها:

"كالفو".

جلس الرجال الثلاثة في صمت. كُسر الصمت بصوت ارتطام صندوق حديدي مغطى بالقطران يلتصق بنافذة جانب السائق للـ «سوبربان». ابتعد الرجل ذو الخوذة السوداء عن المركبة، ورفع مسدسه، وانتظر.

بعد اثنتي عشرة ثانية، انفتح الباب الجانبي للشاحنة، وقُذف كالفو بركلة حذاء من أحد عضوي فريقه الأمني. سقط فورًا في الأسمنت الرطب الكثيف الذي زحف عائدا على الطريق إلى جانبه من الشاحنة. انغلق الباب خلفه. شتم وهو يحاول الوقوف مجددًا. تقدم الرجل ذو خوذة الدراجة النارية، ومسدسه لا يزال مصوبًا نحو الـ «سوبربان»، وأمسك بالرجل البالغ من العمر سبعة وخمسين عامًا من ربطة عنقه، وسحبه من الأسمنت إلى جانب الطريق. سار كورت للخلف صاعدًا الطريق، ساحبًا الرجل ذا البدلة السوداء الملطخة

بالأسمنت، وهو لا يزال يغطي السيارة بمسدسه، حتى اختفى حول جانب شاحنة القلاب.

أفلت كالفو ومد يده إلى حقيبة ظهره. أخرج هاتفًا خلويًا أسود وسلمه للمكسيكي.

قال الرجل بالإسبانية:

– "اضغط 4. ثم إرسال (Send)."

فعل كالفو كما طُلب منه. وبمجرد الضغط على زر الإرسال، هز انفجار طريق الأخدود على بعد خمسين قدمًا خلفه. انطلقت الشظايا نحو شاحنة الأسمنت وأمطرت التلة. بعد ثلاثين ثانية تحركت خلاطة الأسمنت للأمام باتجاه الغرب، وكان الرجال الوحيدون الذين بقوا على قيد الحياة في الموقع مدفونين تحت أطنان من الصخور والتراب.



تم اعتراض مكالمة هاتفية من قبل عملاء استخبارات «البدلات السوداء» في الثالثة عصرًا. تم تسجيل المكالمة ثم تشغيلها لـ دانيال دي لا روشا وسبايدر سيبيدا بعد عشرين دقيقة فقط. تم تحديد أن المكالمة أجريت من هاتف محمول، وأن المتصل هو الأمريكي المعروف بـ «الرجل الرمادي». تم استقبال المكالمة على خط أرضي في منزل آمن لـ «لوس فاكيروس» في مازاتلان ثم تم تحويلها إلى الهاتف المحمول لـ هيكتور سيرنا، رئيس استخبارات «لوس فاكيروس».

جرت المحادثة بالكامل باللغة الإنجليزية.

– "من هذا؟"

– "إنه أنا."

– "لماذا اتصلت بهذا الرقم؟ من أين حصلت عليه؟"

– "الرقم الذي أعطيتموني إياه مكشوف لـ «البدلات السوداء». كالفو أخبرني بنفسه. حصلت على هذا الرقم من جيري فليجر قبل بضعة أيام. كنت أعلم أن من يجيب سيتمكن من إيصالي بك في النهاية."

– "هل لديك كالفو؟"

– "نعم."

– "لا يصدق. ومع ذلك، لا يمكن الوثوق بهذا الخط."

– "إنه نظيف."

– "كيف عرفت؟"

– "كالفو لا يعرف عنه شيئًا."

– "ماذا لو كان يكذب؟"

– "إنه خائف جدًا لدرجة تمنعه من الكذب."

صمت.

– "حسنًا جدًا. متى ستسلمه لنا؟"

– "كالفو يقول إن «البدلات السوداء» يعرفون عن المنزل الآمن في تيبيك. نحتاج لتغيير الموقع."

صمت طويل.

– "حسنًا."

– "يمكنني أخذه إلى المنزل الآمن الذي كان ذاهبًا إليه اليوم."

– "لا. من الواضح أنهم يعرفون موقع..."

– "إنه المكان الآخر الوحيد الذي أعرفه. لن يتوقعوا منا تسليمه هناك. لا يوجد سبب للاشتباه بأنهم سيكونون هناك."

– "لا يعجبني الأمر."

– "هل تريده أم لا؟"

– "بالطبع نريده."

تأخير قصير.

– "في أي وقت؟"

– "منتصف الليل."

– "لماذا ليس أبكر؟"

– "أعتقد أن هناك آخرين يبحثون عني. الاستخبارات المركزية. الروس. سيستغرق الأمر بعض الوقت لتغطية آثاري والوصول إلى هناك."

– "نحن سنأتي إليك. أخبرني أين..."

– "منتصف الليل. المزرعة في كونكورديا. سأكون هناك. أحضر الكثير من الرجال والكثير من البنادق."

وانتهت المكالمة.





54

في تمام الخامسة مساءً، اجتمعت قيادة "البدلات السوداء" في الردهة الرئيسية الواسعة لـ كاسا دي لاس أولاس؛ وهي فيلا عصرية ضخمة تبلغ مساحتها أحد عشر ألف قدم مربعة، تطل على الشاطئ جنوب وسط بورتو فالارتا بمسافة خمس عشرة دقيقة على الطريق السريع الفيدرالي (200).

كان القادة المجتمعون تحت حماية أربعة وعشرين قناصًا (سيكاريو) يجوبون أرجاء الضيعة الممتدة على مساحة عشرة أفدنة، وكان هؤلاء بدورهم محاطين بقوات من شرطة بلدية بورتو فالارتا الذين يتقاضون أجورهم من دي لا روشا. كانت دوريات الشرطة تجوب الحي بسيارات الخدمة، بينما استقرت قاربا شرطة سريعان ومسلحان في عرض البحر، خلف خط تكسر الأمواج مباشرة.

تولى سبايدر إدارة الجزء الأكبر من الاجتماع بينما وقف دانيال دي لا روشا بجانبه.

تحدث سبايدر قائلًا:

– "ستشن أربعة فرق هجومًا على مزرعة كونكورديا في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق بعد منتصف الليل؛ حيث ستهاجم أربع حافلات منفصلة من الجهات الأربع الأصلية. وسيندفع فريق خامس خلف الهجوم الرئيسي بهدف استعادة نيستور وإخراجه من المنطقة. سنلتقي جميعًا هنا ثانية عند الفجر."

ارتشف دي لا روشا من زجاجة مياه معدنية وهو يتطلع عبر النوافذ التي يبلغ ارتفاعها خمسة عشر قدمًا نحو خليج بانديراس. كان مشتت الذهن لأسباب عدة، ليس أقلها أنه لن يشارك في مهمة الإنقاذ لاستعادة مستشاره؛ إذ تقرر أن تعريض دي لا روشا لما سيكون بالتأكيد معركة طاحنة سيشكل خطرًا جسيمًا على المنظمة نفسها.

وحتى سبايدر – قائد الجناح المسلح – سيبقى هو الآخر في الخلف؛ فقد أصدر دانيال أمرًا بذلك، ولم يكن سبايدر راضيًا، ولكن منذ إعدام إميليو لوبيز لوبيز، أصبح سبايدر هو المسؤول الأول عن سلامة دانيال، لذا كان من المنطقي أن يظل بجانبه في المنزل.

لقد سبق لكلا الرجلين قيادة القوات في المعارك، ولم يرغب أي منهما في البقاء في هذا القصر الشاطئي بينما يقاتل جنودهم وينزفون ويموتون على بُعد مائة ميل شمالًا. لكن المنطق فرض نفسه في النهاية.

وكان لدى دانيال شعور بأن البقاء هنا الليلة، مع قوة صغيرة نسبيًا قوامها عشرون مسلحًا، لن يخلو من الإثارة أيضًا.

ومع انتهاء المباحثات حول العملية الوشيكة، وبدء الرجال المتوجهين للقتال في تجهيز أسلحتهم ومعداتهم، غادر دانيال الردهة الرئيسية وصعد إلى غرفة طعام مرتفعة مفتوحة على الصالة الكبرى.

بمجرد وصولهم إلى هذه الفيلا المستأجرة، أمر بإزالة طاولة الطعام الطويلة ووضع تمثال ضخم لمعبودته "سانتا مويرتي" مكانها. استقر الهيكل العظمي على عرشه في منتصف الغرفة، وتدلت خلفه ستائر بيضاء من السقف العالي حتى الأرضية الخشبية، بينما أحاطت الشموع بالعرش وبالغرفة بأكملها. جثا دانيال على ركبتيه أمام قديسته، وتلا صلاة من أجل عائلته، ثم صلاة من أجل موت "الرجل الرمادي".

وفي ختام صلاته، رفع رأسه ببطء نحو وجه "سانتا مويرتي"، ثم نادى على سبايدر. اندفع سيبيدا من وسط رجاله في الردهة وصعد الدرجات الثلاث نحو قاعة الطعام المرتفعة.

– "نعم، دون دانيال؟"

– "هل تعتقد حقًا أن الغرينغو حصل على رقم الهاتف الذي اتصل به اليوم من جيري فليجر؟"

أجاب سبايدر:

– "كلا. كالفو هو من أعطاه هذا الرقم لأنه يعلم أن عملاءه يراقبونه. ذلك العجوز الماكر لا يستهان بدهائه."

أومأ دي لا روشا برأسه قائلًا:

– "نعم، إنه ماكر جدًا."

ظل سبايدر واقفًا بوقار بجانب زعيمه.

التفت إليه دانيال وقال:

– "أريد من كل من سيبقى هنا الليلة أن يكون على أهبة الاستعداد للقتال."

أومأ سبايدر برأسه، وبدا عليه الارتباك:

– "بالتأكيد."

نهض دانيال وغادر غرفة الطعام عبر الستائر، متجهًا نحو جناحه الخاص في الجزء الخلفي من القصر.



تقع مجموعة من الجزر الصغيرة غير المأهولة في خليج بانديراس، على بُعد بضع مئات من الياردات من مسمالويا. تُعرف هذه الجزر مجتمعة باسم لوس أركوس (الأقواس)، وسُميت بهذا الاسم نسبةً إلى التشكيلات الصخرية التي نحتتها أمواج البحر المتلاطمة عبر القرون لتشبه الأقواس. خلال النهار، يزدحم المحمية البحرية المحيطة

بـ لوس أركوس بالغواصين وهواة السباحة وقوارب النزهة، ولكن قبل ساعة واحدة من منتصف الليل، لم يكن هناك في المياه المحيطة بتلك الجزر الصغيرة سوى الأسماك وجراد البحر وطيور "الأطيش" الزرقاء النائمة وغيرها من الطيور البحرية.

وعلى بُعد خمسين ياردة من الشاطئ، كان قاربان خاصان يتمايلان فوق الماء؛ في كل قارب أربعة رجال يضعون بنادق M16 فوق أحضانهم، وكان اثنان منهم في كل قارب يحملان قاذفات قنابل M203 مثبتة أسفل بنادقهما. كما زُود كل قارب بجهاز لاسلكي وكشاف يدوي ضخم بقوة مليوني شمعة لمسح سطح الماء الهادئ في جميع الاتجاهات.

لم تكن القوارب سفنًا حربية، لكن هذين الزورقين المسلحين سيشكلان بالتأكيد عائقًا أمام أي شخص يحاول الوصول إلى الجزء الخلفي من كاسا دي لاس أولاس عبر البحر.



كان كورت جينتري جاثيًا في مياه يصل ارتفاعها إلى خصره، تندفع ذهابًا وإيابًا في التجاويف المظلمة لغار صغير في إحدى صخور لوس أركوس. كانت عيناه تتطلعان وراء القاربين الصغيرين نحو شاطئ الرمل الأبيض خلفهما. كان هناك رجلان يحملان كشافات يدوية يسيران ذهابًا وإيابًا على الرمل، والبنادق تتدلى على ظهورهم، بينما امتد جدار من الصخور البيضاء والمنحدرات البنية على يمين الشاطئ الصغير.

تجاوز بنظره الرجال والشاطئ، وصعد ببصره نحو التلة ليمسح الضيعة الفخمة. بدت وكأنها محطة فضاء؛ هيكل حديث من الزجاج والفولاذ، مليء بالحواف المعدنية الحادة والجدران الزجاجية. كانت النقطة المركزية في الجزء الخلفي من المنزل هي شرفة تمتد على طول

نافذة عملاقة. ومن وراء الزجاج، استطاع كورت بصعوبة تمييز إضاءة خافتة، ربما كانت من الشموع. كانت معظم أرجاء الضيعة مضاءة جيدًا، وافترض كورت أنها محمية بإحكام، ولكن من موقعه هذا، بدا المبنى نفسه مغلقًا وهادئًا.

وفي أعلى نقطة من الجناح الجنوبي للقصر الضخم، استقرت مروحية سوداء من طراز "يوروكوبتر EC135" في ظلام دامس، ولم يحدد ملامحها سوى بضعة أضواء شوارع ومبانٍ متوهجة على تلال بعيدة.

استغرق كورت بضع دقائق لتفريغ قاربه المطاطي الصغير من الهواء ودسّه في ركن جاف داخل الغار بعيدًا عن أنظار الساحل. ثم التفت إلى معداته المرتبة فوق رف صخري فوق مستوى الماء مباشرة؛ ارتدى بدلة الغوص وزعانفه، وعلق حبلًا طويلاً ملفوفًا بأسطوانة الأكسجين، وثبّت مسدس الـ "غلوك" في سترة الغوص، وأرفق حقيبة ملابسه ومخازن الرصاص الإضافية وغيرها من الأدوات بحزام المهام الخاص به.

أخرج هاتفًا محمولاً من حافظة واقية، وشغّله، ثم أجرى مكالمة هاتفية. قال كورت ما كان عليه قوله، ثم أغلق الخط بينما كان الرجل على الطرف الآخر يصرخ ويكيل الشتائم.

أعاد الهاتف إلى الحافظة، وأعاد الحافظة إلى الحقيبة.

في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة ليلاً، غاص كورت ببطء تحت الماء في الغار، ودفع نفسه بيديه المكسوتين بالقفازات، ثم بدأ في ركل ساقيه، ليبدأ السباحة بعيدًا عن لوس أركوس باتجاه الشاطئ.

مرّ بجانب القاربين بعد عشرين دقيقة، سابحًا على عمق ستين قدمًا تحتهما، وهو يتنفس ببطء وبأقل قدر ممكن من العمق لتقليل الفقاعات الصاعدة. وبعد عشرين دقيقة أخرى، أصبح تحت الأمواج المتكسرة، حيث بدأ قاع المحيط يرتفع نحو الشاطئ. كانت كل موجة

تدفعه للأمام يتبعها تيار يسحبه للخلف، لكنه استمر في الركل ليزيد من تقدمه، وبعد عشر دقائق من الجهد الشاق، شق طريقه نحو الشاطئ.
ترك التيار يدفعه جنوب أضواء المبنى، بعيدًا عن الشاطئ المفتوح وإلى منطقة الصخور.

خلع معدات الغوص، وأغلق أسطوانة الأكسجين، وخبأها بين الصخور عند حافة الماء. نزع زعانفه وبدلة الغوص الرطبة؛ ليتضح أنه كان يرتدي تحتها ملابس قطنية سوداء من الرأس إلى أخمص القدمين. انتعل حذاءً ذا نعل ناعم، وسحب قناع تزلج أسود فوق وجهه، ووضع مخازن الرصاص الإضافية في جيوب بنطاله الواسعة، وثبّت مسدس الـ "غلوك" الأسود في الجراب على حزامه.

عند منتصف الليل، بدأ في تسلق الصخور، حريصًا على البقاء بعيدًا عن أنظار الحراس على الشاطئ، أو أضواء الكشافات من القوارب، أو أي حراس يراقبون من نوافذ المنزل.

كان تقدمه بطيئًا وشاقًا، لكنه وصل إلى الجانب الجنوبي من الفيلا، ثم واصل سيره بصمت نحو الواجهة الأمامية، حريصًا على التحرك في الظلال وبدقة متناهية.



كان دانيال دي لا روشا جاثيًا أمام تمثاله المعبود في غرفة الطعام المضاءة بالشموع، بينما كانت الردهة الرئيسية الواسعة ذات السقف العالي مفتوحة وخالية خلفه. كانت الغرفتان تضاءان بنور أكثر من مائة شمعة بيضاء، بالإضافة إلى القليل من الضوء المحيط الذي يتسلل عبر نوافذ الردهة المطلة على الخليج. كانت الشموع المشتعلة على الأرض، وفوق الطاولات، وفي الحوامل الجدارية، تنشر ليس فقط الضوء، بل رائحة الشمع النفاذة أيضًا.

كان دانيال عاري الصدر، وجسده النحيل المفتول بالعضلات مزينًا بالوشوم؛ وشم كبير لـ "سانتا مويرتي" على صدره بألوان

الأحمر والأسود والأزرق، وأسماء أطفاله الستة بخط مزخرف على ظهره. وشوم لأسلحة على عضلات ذراعيه، وشارات وحدات عسكرية على بطنه، وأسماء زملائه القتلى من "البدلات السوداء" منقوشة في كل مساحة فارغة من جسده.

ظل جاثيًا في تضرع، وحيدًا تمامًا في الغرفة المضاءة بالشموع، حتى بدأ رأسه يرتفع ببطء.

لم يلتفت وهو يقول بالإنجليزية:

– "لقد أخبرتني أنك ستأتي."

لم يرد أحد على هذا التعليق. تابع دانيال قائلاً:

– "كنت تعلم أننا نراقب خط الهاتف ذاك؛ لقد جعلتنا نرسل رجالنا إلى كونكورديا لإبعادهم عن هنا."

جاء الرد الآن، بصوت حازم وآمر:

– "لو حركت عضلة لينة واحدة، فسينتهي بك الأمر وأشلاء رأسك منثورة فوق ثوب عشيقتك."

تحرك "الرجل الرمادي" بصمت مقتربًا عبر البلاط الأبيض للردهة الواسعة، ومسدسه الـ "غلوك" مصوّب نحو مؤخرة رأس دانيال دي لا روشا. وبمجرد أن أدرك وجود شرفة في الطابق الثاني تطل على الردهة، استدار على عقبيه، ومسح بسلاحه خط الرؤية، وبحث بسرعة عن أي تهديد في الأعلى. لكن الشرفة كانت غارقة في السواد والسكون، تمامًا كما كان الحال في الردهة، وفي الأمام حيث تحولت غرفة الطعام – كما تصور كورت – إلى غرفة عرش لتمثال هيكل عظمي سخيف.

سأل دانيال:

– "هل يمكنني الوقوف؟"

– "ببطء، وضع أصابعك مشتبكة خلف رأسك أولاً."

امتثل دانيال، واقترب كورت لمسافة عشرين قدمًا تقريبًا، لكنه ظل يجيل بصره في كل مكان، حائرًا من انعدام الحماية حول زعيم الكارتل الجالس أمامه.

– "هل يمكنني الالتفات؟" سأل دانيال بهدوء.

أدار كورت رأسه وسلاحه سريعًا لمسح ما وراءه، ثم عاد لمراقبة الشرفة على يساره وخلفه.

كان المكان خاليًا.. مظلمًا وساكنًا وخاليًا.

– "ببطء."

استدار دانيال وواجه "الرجل الرمادي" الواقف أمامه.

– "لقد أخبرتني أنك ستأتي."

– "لقد قلت ذلك بالفعل. أين لورا؟"

– "أنت لم تسلم نيستور لـ مادريغال."

– "لا، لم أفعل."

ابتسم دانيال قليلاً وقال:

– " إل فاكيرو سيكون غاضبًا منك."

تحدث كورت بلهجة عملية جادة:

– "أين الفتاة؟" ثم استدار مرة أخرى، وهو يحرك فوهة سلاحه بسرعة خاطفة ليمسح كل زوايا المكان.

– "تريد مقايضة نيستور الخاص بي بـ لورا الخاصة بك، أليس كذلك؟"

– "هذا صحيح. استعده، وسأرحل أنا ولورا معًا. الكل رابح."

اكتفى دي لا روشا بهز كتفيه؛ بدأ كورت في التراجع للخلف، آملاً في الوصول إلى جدار كي لا يظل ظهره مكشوفًا للشرفة خلفه.

وبينما كان جينتري يتراجع ليصطدم بأريكة في منتصف الصالة، قال دي لا روشا:

– "نيستور أخبرك أن رجاله يراقبون خط الهاتف، ولهذا السبب اتصلت به."

لم يرد كورت.

تابع دانيال:

– "نيستور أعطاك هذا العنوان أيضًا. لقد خذلني بالتآمر معك، وخذلني أكثر بالتعامل مع مادريغال في المقام الأول؛ بالتفاوض من وراء ظهري لإبرام صفقة تخصك. لقد اكتشفت كل هذا بعد الظهر، ونتيجة لذلك، فقدت ورقة المساومة التي تملكها كل قيمتها."

– "ماذا تقصد؟"

– "أقصد... لو أنك أحضرت كالفو معك الليلة، لكنت قتلته بنفسي."

بدأ كورت يتحرك جانبيًا بمحاذاة الأريكة الطويلة.

– "لذا كما ترى يا صديقي، لقد أتيت إلى هنا وليس معك ما تقايض به من أجل الفتاة."

بدأ عقل كورت يبحث عن مخرج للمأزق، وقال:

– "بل هناك شيء ما."

– "ما هو؟"

– "مقابل حياتها، ستحصل عليّ. تخرج هي من هنا الآن، ونظل واقفين نراقب بعضنا البعض حتى أتأكد من سلامتها، وعندها سأضع سلاحي. أنا مقابلها. موافق؟"

– "هناك مشكلة واحدة في عرضك."

– "ما هي؟"

– "أنا أقبض عليك بالفعل."

سمع كورت صوت وقع أقدام فوقه وخلفه. ظهر اثنا عشر رجلاً على الشرفة؛ توجه ستة منهم إلى يساره، وبقي الستة الآخرون في

مكانهم. افترض أنهم كانوا يراقبون المحادثة عبر دائرة تلفزيونية مغلقة.

كانوا جميعًا يحملون بنادق M4.

تباً.





55

– "لم أرسل كل رجالي القتلة إلى كونكورديا. في الواقع، هؤلاء ليسوا كلهم. لقد احتفظت بقائد ذراعي التنفيذية، تحسبًا لاحتياجي لمساعدته هذا المساء."

نظر دي لا روشا إلى يساره:

– "سبايدر؟"

انفتحت الستارة على يسار العرش. ووقف خلفها سبايدر ببدلته السوداء. كانت ذراعاه مرفوعتين عاليًا في الهواء، تحملان منجلًا طويلًا لامعًا.

وأسفله، على ركبتيها، مكبلة ومكممة، ركعت لورا غامبوا. نظرت إلى كورت في الأسفل بالقاعة، ثم قاومت قيودها.

تحول سلاح كورت نحو جبهة سيبيدا.

– "حرك تلك الشفرة وسأرديك قتيلًا."

ارتجف صوته وتقطع وهو يتحدث.

ضحك دي لا روشا عليه:

– "فكر في الأمر يا صديقي! تطلق النار على سبايدر، ثم يمطرونك كل الرجال هنا بطلقات الرشاشات. وبعد ذلك، وأنت ميت أو تحتضر، أتقدم وأقطع رأسها بنفسي."

فك دانيال تشابك أصابعه وأسقط يديه إلى جانبيه.

– "أعرف ما هو أصعب شيء عليك الآن أيها الغرينغو. ليس إنقاذها، ولا قتلي، ولا النجاة بحياتك. لا، أيها الرجل الرمادي، أصعب شيء في هذه اللحظة هو محاولة عدم التفكير في عبارة (المأزق المكسيكي[12])."

ضحك على نكتته.

– "يمكننا حل هذا يا دانيال. في غضون دقائق هذا..."

– "اصمت!"

صرخ دي لا روشا، ثم استدار خلفه، وفتح الستارة، وسحب صندوقًا صغيرًا. فتحه وأخرج غرضًا منه.

كان كيسًا بلاستيكيًا أسود، وشك كورت فورًا في احتوائه على رأس بشري. وكان محقًا. سحبه دانيال ورفعه عاليًا فوقه. ركز كورت على المنظر المقزز، وحدق في الوجه.

إيلينا؟

لا. إنه رجل.

رمسيس؟

لا... الشعر أفتح.

لم تستطع أضواء الشموع المتراقصة من مائة مصدر أن تعيد الحياة للعينين المفتوحتين الفارغتين. شد كورت فكيه. وقال بصوت عالٍ:

– "جيري."

– "أمسك قتلة سبايدر بصديقك الأمريكي أمس وهو يحاول ركوب سفينة سياحية في كانكون. تحت التعذيب اكتشفنا أن آل غامبوا عبروا الحدود في نوغاليس ووصلوا إلى توسون. كنت ذكيًا في عدم

---

[12] (المأزق المكسيكي) *Mexican standoff* تعبير اصطلاحي يُستخدم لوصف مواجهة متوترة يقف فيها عدة أطراف مسلحين أو متخاصمين، بحيث لا يستطيع أي طرف التحرك أو الهجوم دون أن يعرّض نفسه لهلاك فوري. النتيجة تكون جمودًا قاتلًا: لا نصر، ولا انسحاب، فقط انتظار لانفجار الموقف أو خطأ واحد ينهي الجميع.

إخباره بالمزيد من خططهم. كان فليجر ضعيفاً. ومع ذلك، عملوا عليه طوال الليل قبل أن يحددوا أنه لا يعرف مكانك."

– "لذا، لم يعرف جيري أين ذهبت إيلينا. لقد كان، في النهاية، عديم الفائدة."

قذف دي لا روشا برأس رجل السفارة الأمريكية عبر الغرفة، نحو النوافذ الضخمة على يمين كورت. تدحرج الرأس إلى زاوية مظلمة واختفى.

– "أحتاج إيلينا غامبوا. عرضت حياة لورا الصغيرة هنا على القديسة، لكنها ضحكت فقط. عرضت عليها حياتك، لكنها أخبرتني أن موتك سيخدمني أنا، وليس هي، وبالتالي، فهو ليس هدية على الإطلاق."

جالت عينا كورت في الغرفة مرة أخرى بينما كان دي لا روشا يتحدث. بخلاف المدخل الذي مر عبره لدخول القاعة، كان هناك مدخل آخر مرئي، قوس على يساره يؤدي، بلا شك، إلى مقدمة المنزل. شك في وجود قوس آخر خلف الستائر في غرفة الطعام. سيؤدي ذلك نحو الجناح الجنوبي للمبنى الضخم.

لم يكن متأكداً من أهمية أي من ذلك، لأن الرجال الاثني عشر الذين يضعونه في مرماهم سيقطعونه نصفين إذا اتجه لأي من المخارج.

قال دي لا روشا:

– "لذا، سأقدم لك هذا العرض الوحيد. أخبرني أين تختبئ إيلينا؛ سأرسل رجالي إلى هناك، وبمجرد أن نحصل عليها، سأدع لورا تغادر."

– "احتفظ بي. سأخبرك."

هز دي لا روشا رأسه؛ وبدا شبه متعب من النقاش.

– "لا اتفاق."

التفت إلى سبايدر:

– "هل تعبت ذراعاك؟"

أبقى سبايدر يديه عاليتين فوق رأسه:

– "نعم يا زعيمي."

– "لن يطول الأمر الآن يا صديقي."

نظر إلى كورت:

– "قرارك. هل تعيش أم تموت؟"

تطلعت عينا لورا البنيتان الكبيرتان إلى كورت. كانت مكممة بقطعة قماش سوداء، لكنها عضتها وحاولت الوقوف. ضغط سبايدر عليها بيد واحدة، وأبقى المنجل فوقها، مستعدًا لقطع عنقها النحيل.

في الخارج، في المسافة، كان هناك صوت لا لبس فيه لبندقية كلاشينكوف تطلق النار بشكل أوتوماتيكي كامل. تصلبت جميع الأجساد في الغرفة عند سماع الصوت. انضم سلاح آخر بعد ثانية. كانوا على بعد بضع مئات من الأمتار، لكن حجم النيران ازداد.

بدأت أجهزة إنذار السيارات في الحي بالانطلاق.

سأل دي لا روشا:

– "من هذا؟ رجال مادريغال؟"

هز كورت كتفيه. كان يعلم أنهم هم، لكن كلما طال أمد الشك كان ذلك أفضل.

– "ربما الاستخبارات المركزية. واحتمال ضئيل أن تكون المافيا الروسية."

كان كورت يعلم أنهم «لوس فاكيروس» لأنه اتصل بـ هيكتور سيرنا بنفسه أثناء وجوده في المغارة بـ لوس أركوس. أخبره كورت أنه يمكنه العثور على كالفو في هذا العنوان. صرخ سيرنا في وجهه بسبب تغيير الخطط، لكن كورت أغلق الخط قبل الاستماع للكثير من غضب الرجل.

بدأ القلق يظهر على دي لا روشا مع استمرار نيران الكلاشينكوف. نبح بأمر لـ سبايدر:

– "ابق خمسة هنا، وأرسل البقية إلى المحيط. اجعل الطيار يجهز مروحيتي."

صرخ سبايدر بأمر للرجال على الشرفة ثم بأمر آخر في جهاز لاسلكي على حزامه. اختفى جميع المسلحين عدا خمسة، والذين بقوا انتقلوا جميعًا إلى الشرفة الشرقية. أبقوا بنادقهم مصوبة نحو «الرجل الرمادي» أثناء قيامهم بذلك.

عاد دي لا روشا إلى الصندوق الذي سحب منه رأس فليجر. استخرج الآن حزام مسدسات كبيرًا. كان يتدلى منه زوج من المسدسات الفضية الأوتوماتيكية عيار 45. ربط الحزام حول خصره، وربط الجرابين حول فخذي بنطاله الأسود، ونظر مرة أخرى إلى «الرجل الرمادي».

– "أنت تجبرني على ذلك، أيها الأحمق."

حول كورت سلاحه بعيدًا عن سبايدر وعاد نحو دي لا روشا.

– "أعط الأمر لـ سبايدر، وسأقتلك أولًا."

ضحك دانيال:

– "غرينغو مغرور تقليدي. أنت رجل واحد بمسدس. إذا أعطيت الأمر لـ سبايدر، فلن تتاح لك فرصة لإطلاق النار على أي..."

أدى انفجار قوي خارج المنزل مباشرة إلى تساقط رقائق صغيرة من الجص من السقف. التفتت جميع الرؤوس نحو الضجيج.

باستثناء واحد. ظل كورت مركزًا على أهدافه، حتى وعقله يتسابق.

اللعنة.

لم يعجب كورت بفرصه، لكنه لم ير أي خيار آخر.

كان لديه خدعة واحدة في جعبته، وسيتعين عليه استغلالها لأقصى حد.

بدا المسدس في يده تمامًا مثل «غلوك 17»، وهو مسدس نصف أوتوماتيكي شائع. بالتأكيد حدده دي لا روشا وسبايدر وجميع المسلحين على الشرفة على أنه كذلك. لكنه كان «غلوك 18». يبدو السلاحان متطابقين تقريبًا، لكن الـ 18 مسدس نادر قادر على إطلاق النار بشكل أوتوماتيكي كامل. فوهته المثقوبة قادرة على قذف رصاصات عيار 9 ملم بمعدل ألف ومائتي طلقة في الدقيقة.

فكر كورت في الأمر في لحظة، محضرًا لخطة هجوم.

سبايدر ومنجله فوق رقبة لورا يجب أن يذهبا أولًا؛ لا مجال للالتفاف حول ذلك. الرجال في الأعلى على يسار كورت كانوا يرتدون بدلات كيفلار أيضًا، تمامًا مثل رئيسهم، ورصاصات كورت عيار 9 ملم لن تخترق الكيفلار، لذا سيتعين عليه إما مسح الخمسة بطلقات رأس منفذة ببراعة أو، على الأقل، دفعهم للوراء قليلًا بطلقة أو اثنتين في دروعهم اللينة ثم الإجهاز عليهم بعد إعادة التلقيم.

لم يكن دي لا روشا يصوب سلاحًا نحوه، كما كان يفعل القتلة على يساره، لكن مسدسيه الـ 45 سيدخلان القتال في أقل من ثانيتين. سيتعين على كورت تنفيذ إعادة تلقيم طارئة للـ «غلوك» بسرعة ودقة مثاليتين، كل ذلك مع تجنب نيران أي من الرجال المسلحين ببنادق الـ «M4» الذين نجوا من وابله الأولي.

ثماني عشرة طلقة ستطلق في الوضع الأوتوماتيكي الكامل بمعدل ألف ومائتي طلقة في الدقيقة. سيفرغ مسدسه في نصف ثانية.

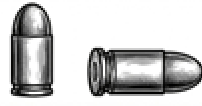
أوه نعم، كان هناك عامل آخر عرف جينتري أنه بحاجة لمراعاته. بمجرد أن يبدأ في إطلاق النار، سيرسل رد الفعل وحده طلقات من بنادق العدو مباشرة حيث يقف. لكي تكون لديه أي فرصة للنجاة،

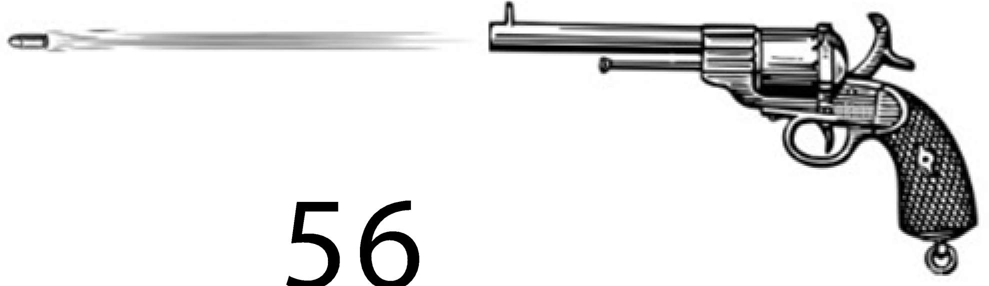
سيتعين عليه تنفيذ كل هذه الدقة أثناء الغوص بعيداً عن الطريق، محركاً جسده بأسرع ما يمكن من حيث تصوب الأسلحة الخمسة.

شعر كورت بثقة أنه لا يوجد أحد على وجه الأرض لديه فرصة أفضل لتنفيذ هذا. ومع ذلك، قدر فرص نجاته بأقل من 25 في المائة.

في عالم السلاح، كان هذا يسمى "رشّ الرصاص وتوكّل" (spray and pray).

وكان جينتري على وشك القيام بكليهما.





56

– "أين إيلينا غامبوا؟"

صرخ دانيال دي لا روشا بسؤاله هذه المرة، بينما دَوَى انفجار آخر خارج القصر مباشرة؛ يبدو أن "الفاكيروس" قد أحضروا معهم بعض قذائف RPG.

تابع دانيال قائلًا:

– "سبايدر، إذا لم يجب خلال خمس ثوانٍ، فاقتل هذه العاهرة!"

استجمع كورت جينتري أنفاسه، زفرها ببطء، ثم ألقى نظرة سريعة على لورا قبل أن يعيد بصره إلى دانيال.

أخفض مسدسه بعيدًا عن صدر دانيال الموشوم.

وفي اللحظة نفسها، بدأت يد دانيال تمتد نحو مسدسي الـ (0.45) الفضيين على حزامه. لقد حانت لحظة الحسم؛ فبمجرد أن يصوب دانيال سلاحيه، ستصبح المعادلة مستحيلة الحل.

في ضوء الردهة الخافت، رفع كورت مسدسه بحركة خاطفة غامت لها الأبصار، وحوّل تصويبه نحو اليمين دون أن يبرح مكانه، وضغط على زناد الـ Glock 18. وبمجرد أن استقام المسدس نحو أنف سبايدر سيبيدا، انطلقت رصاصة واحدة من الفوهة وسط سحابة من الدخان والنار. ودون أدنى تردد أو انتظار لرؤية نتيجة رصاصته، لفت كورت جذعه بقوة نحو اليسار، وارتخت ركبتاه ليهوي بجسده مباشرة نحو البلاط أمام الأريكة. لجزئين من الألف من الثانية، كان سلاحه

موجهًا نحو صدر دانيال العاري، لكنه لم يطلق النار؛ فقد كان دانيال في ذيل قائمة أولويات التهديد لديه، إذ لم يسحب مسدسيه بعد، لذا ظل فوهة الـ غلوك صامتة وواصلت مسحها نحو اليسار.

سمع دوي بندقية ـ في الغرفة قبل أجزاء من الثانية من بدء سلاحه في العمل؛ ضغط الزناد ـ في اللحظة التي ارتطم فيها بساطه بالأرض الصلبة؛ تحول مسدسه إلى الوضع الآلي الكامل بينما بدأت الفوهة تمسح قناصة "البدلات السوداء" الخمسة على الشرفة العلوية.

ومن خلف الدخان الرمادي المتصاعد من فوهة مسدسه الآلي، رأى الرجال ذوي البدلات السوداء يترنحون ويتساقطون للخلف وللأمام، بينما كانت رصاصاته من عيار 9 ملم تخترق أجسادهم من اليمين إلى اليسار.

وبسرعة خاطفة، فرغ مخزن السلاح وارتد أجزاؤه للخلف، وكان كورت قد بدأ بالفعل ـ في التدحرج يسارًا فوق الأرض للابتعاد عن نيران الرد. وبينما كان يتدحرج بكتفيه مارًا خلف الأريكة، أعاد تذخير سلاحه ببراعة؛ أسقط المخزن الفارغ بضغطة إبهام على زر التحرير، وسحب بيد يسراه مخزناً طويلاً يتسع لاثنتين وثلاثين رصاصة من جيب بنطاله القطني. وبعد دورتين كاملتين بجسده، انتصب واقفاً ـ في وضعية القرفصاء المشدودة. ركض للخلف وهو يدفع المخزن الأسود الطويل في مكانه ويسحب الأجزاء ليلقم رصاصة ـ في الحجرة، محاولًا ـ في الوقت ذاته مسح نتائج عمله.

سمع دوي رصاصة أخرى، مما يعني أن ليس الجميع قد سقطوا. رفع سلاحه وهو لا يزال يتراجع للخلف، فرأى سبايدر ملقى على الأرض بجانب لورا، التي سقطت على جانبها بجوار عرش "سانتا مويرتي". وبمسح بصري نحو اليسار، لمح ظهر دي لا روشا الموشوم وهو يفر خلف الستائر الكائنة وراء العرش حيث تجلس التمثال الهيكل العظمي. دَوَى صوت بندقية من الشرفة قبل أجزاء من الثانية من إطلاق

كورت رصاصة واحدة نحو الستائر، ثم أدار تصويبه بسرعة نحو القتلة الخمسة في الأعلى. ضغط الزناد باستمرار وهبط مرة أخرى على ركبتيه، مفرغًا مخزن الرصاص الكامل في موقع "البدلات السوداء" فوقه بينما يهوي بجسده للأمام منبطحًا، محاولًا بيأس إبقاء جسده متحركًا خارج مرمى نيران أعدائه.

انفتح أجزاء المسدس معلنًا فراغه للمرة الثانية، فوثب كورت واقفًا وهو يلقم آخر مخزن كبير لديه. تحرك مجددًا في الغرفة المضاءة بالشموع، وهذه المرة بشكل عرضي أمام النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف. اتجه نحو لورا، وسلاحه مصوب نحو الشرفة؛ كان هناك رجل واحد يتدلى فوق الحافة، وقد علقت حمالة بندقيته بسترة بدلتة مما جعل ذيل السترة يغطي رأسه. لم يرَ كورت أي شخص آخر، حيًا أو ميتًا، لكنه أطلق رشقين قصيرين نحو الأعلى لإجبار أي رؤوس ناجية على البقاء منخفضة.

وبينما كان يتحرك بخطوات جانبية سريعة عبر الغرفة، شعر بهبة ريح باردة خلفه، ورأى النسيم ينساب في الأرجاء بينما اضطربت الشموع والستائر. لقد أدت نيران بنادق القتلة إلى تحطيم النوافذ الضخمة المطلة على خليج بانديراس. هبت ريح بحرية عاتية إلى الداخل، فتمايلت حوامل الشموع وتطايرت الستائر الحريرية، وفي غضون ثوانٍ، اندلعت ثلاث حرائق متفرقة في الردهة.

نظر إلى لورا، وسلاحه لا يزال مرفوعًا نحو الطابق العلوي. كانت المرأة المكسيكية الصغيرة لا تزال ملقاة على جانبها، لكنها نجحت في التقاط ساطور سبايدر بأطراف أصابعها وتحاول قطع قيود معصميها دون أن ترى ما تفعله. ذُهل كورت بمبادرتها وشجاعتها.

قال لها:

– "اتركي الأمر لي."

وأنهى المهمة بسرعة.

كان الخشب بلون القرفة مبللاً بالدماء من حولهما. تمنى كورت أن يكون ذلك دم سبايدر لا دمها هي.. أو دمه هو.

لم يتفقد كورت نفسه بحثًا عن جروح؛ فلا وقت لديه. ساعد لورا على النهوض، فاحتضنته بقوة، ليتشتت تركيزه للحظة عن مسح التهديدات في الغرفة، وعن إطلاق النار في الخارج، وعن الستائر المشتعلة. بادلها العناق بشدة، ونظر في عينيها؛ كانتا واسعتين ومحمرتين من أثر التعب لكنهما تنبضان بالحياة، فضمها بيده الحرة.

أفلتت منه بعد لحظة، ونزعت الغمامة عن فمها، ثم جثت على ركبتيها تفتش سترة سبايدر. سحبت مسدسًا آليًا صغيرًا من طراز "مايكرو أوزي" من جرابه وانطلقت واقفة.

قال كورت:

- "اتبعيني عن قرب. لدي معدات غوص مخبأة عند—"

قاطعته قائلة:

- "علينا قتل دي لا روشا."

- "لا! لسنا بحاجة لذلك! أنا هنا من أجلكِ! لقد استعدتُكِ! هيا لنرحل!"

كانت عيناها تفيضان بالمشاعر، ولم يستطع كورت معرفة ما يدور في خلدها الآن. كانت النيران قد امتدت إلى الأريكة والكراسي، وحوّل نسيم البحر الحرائق الصغيرة إلى دوامات من الحطام المشتعل والدخان.

قالت وهي تستدير عنه وتختفي خلف الستارة:

- "لن أتركه حيًا."

صرخ كورت:

- "تبًا!" لكنه تبعها.





57

لحق كورت بـ لورا عند رأس الدرج. كان المكان مظلمًا وساكنًا لولا المعركة الطاحنة التي تدور في أرجاء الضيعة. اختلطت أصوات صفارات إنذار الشرطة مع إنذارات السيارات المدنية، بينما كانت طلقات البنادق المتواصلة تقطع سكون الليل. تبع الدخان المنبعث من الردهة أعقاب جينتري ولورا وهما يتقدمان في ردهة مظلمة. همست لورا بأنها كانت محتجزة في قبو النبيذ منذ وصولها، واعترفت بأنها لا تملك أدنى فكرة عن وجهتهما.

انطلق رصاص آلي كثيف من داخل المنزل الآن؛ بدا أن رجال مادريغال قد دفعوا رجال دانيال إلى الردهة الرئيسية. عثرت لورا على درج آخر، ولاحظ كورت أثرًا للدماء؛ وتساءل عما إذا كان قد أصاب دانيال في ظهره برصاصته العمياء التي أطلقها عبر الستائر. تحركا ببطء وحذر في البداية، ولكن عندما سمعا صوت مراوح مروحية تبدأ في الدوران فوقهما، ركضا نحو الأعلى عبر الظلام.

بمجرد فتحهما للباب المؤدي إلى السطح، رفع كل من كورت ولورا سلاحيهما وأطلقا النار. كان هناك رجل بزي طيار يقف خارج المروحية السوداء والمسدس في يده. أخطأت لورا هدفها، لكن جينتري أرداه قتيلاً بأربع رصاصات دقيقة من مسدسه الـ غلوك. وبينما سقطت جثته على الأرض، زادت سرعة مراوح المروحية من طراز

Eurocopter EC135 وارتفعت بضع بوصات في الهواء، وهي تدور حول محورها موجهة مقدمتها نحو الخليج.

صرخت لورا وهي تركض نحو المروحية:

– "إنه دي لا روشا!"

رد كورت من بين ضجيج المراوح:

– "لقد هرب!"

لكن لورا تجاهلته وركضت عبر السطح نحو المروحية التي بدأت في الإقلاع.

لعن كورت بصوت عالٍ ثم ركض خلفها مجددًا.

كان دانيال دي لا روشا قد أُصيب في كتفه الأيسر العلوي برصاصة ذلك الغرينغو اللعين "الرجل الرمادي"، لكنه سيكون بخير إذا تمكن من الهرب فقط. كان طيار مروحيات محترفًا قضى أكثر من مائة ساعة طيران على هذا الطراز من الـ يوروكوبتر، وكل ما يحتاجه الآن هو الابتعاد عن هجوم "الفاكيروس". كان يعلم أن "الرجل الرمادي" والفتاة يطاردانه عبر الدرج، لذا أطاح بالطيار خارج المروحية، وسلمه أحد مسدساته الـ (0.45)، وأمره بإطلاق النار على أي شخص يظهر على السطح حتى يتمكن من الفرار.

بينما كان يميل بالمروحية الأنيقة نحو اليسار ويبدأ في الارتفاع، انفتح الباب الخلفي وراءه. كان الضجيج أعلى من أن يُسمع دون صراخ، وهذا ما فعله تمامًا وهو يقلع:

– "لقد أمرتك أن تنتظر على السطح لـ—"

شعر فجأة بفوهة مسدس آلي ساخنة تضغط على مؤخرة رأسه.

صرخت الفتاة في أذنه اليمنى:

– "اهبط!"

لم يصدق ما يحدث.

التفت خلف كتفه، فرأى الفتاة، ومن خلفها كان "الرجل الرمادي" نفسه يتسلق للداخل عبر الباب المفتوح. زاد دانيال من سرعة المحرك وحرك عصا التحكم بعنف للأمام، كاد أن يقذف بالأمريكي خارج الباب. وأخيرًا، تمكن الأمريكي من الدخول تمامًا، متدحرجًا على الأرض ومتشبثًا برباط الشحن على الجدار. كانت لورا متمسكة جيدًا بمقعد دانيال، ورغم أن المسدس اهتز بعيدًا عن رأسه للحظة، إلا أنها أعادته بقوة بعد ثوانٍ.

– "اهبط! اهبط وإلا أطلقت النار!"

سألها وهو يصرخ ويضحك في آن واحد:

– "هل ستقتلين الطيار أيتها البلهاء؟"

لم يكن لديه أدنى فكرة عما إذا كان "الرجل الرمادي" يجيد قيادة المروحيات؛ وكان من المرجح أنه يستطيع ذلك، لذا زاد دي لا روشا من السرعة وأخذ يميل بالمروحية بعنف يمينًا ويسارًا، متعمداً إبقاء الطائرة على حافة السقوط. بهذه الطريقة، حتى لو كان القاتل الغرينغو طيارًا، فلن يتمكن من السيطرة على أدوات التحكم في الوقت المناسب لتفادي الاصطدام.

كان يخطط للتوجه نحو وسط مدينة بورتو فالارتا؛ فهو يملك الشرطة هناك، وسيحمونه من هذين المجنونين.

انطلقت المروحية نحو الشمال، وهي تتلوى وتترنح فوق أمواج المحيط على ارتفاع أقدام قليلة. ورغم تركيزه الكامل على الطيران، رفع دانيال يده اليسرى عن رافعة التحكم للحظة ليسحب مسدس الـ (0.45) من وركه الأيسر. أبقاه مخفيًا عن أنظار غامبوا و"الرجل الرمادي"، ووضعه تحت فخذه الأيسر حيث يمكنه الوصول إليه في لمح البصر.

أبقت لورا السلاح مصوبًا نحو رأس دانيال وهي تنظر إلى جينتري.

– "هل يمكنك قيادة هذه الآلة؟"

كان كورت لا يزال يحاول استعادة توازنه؛ فقد استهلك التسلق إلى المروحية بينما يحاول دانيال هزه وإسقاطه كل طاقته. شعر بضلوعه إما مدمومة أو مكسورة، وبألم فظيع في ركبته اليمنى التي ارتطمت بقوة بالأرضية المعدنية للمقصورة.

كررت سؤالها صارخة فوق الضجيج:

– "هل تجيد قيادة المروحية؟"

زحف كورت نحو الباب، حريصًا على التشبث بمقبض خلف مقعد مساعد الطيار لئلا يُقذف للخارج، ثم سحب الباب وأغلقه. فجأة ساد الهدوء داخل الطائرة؛ وأصبح بإمكان الثلاثة التحدث بأصوات شبه طبيعية.

– "يا رقم ستة! أخبرني، هل يمكنني قتل هذا النذل؟ هل تستطيع قيادة المروحية؟"

ضغطت بفوهة الـ "أوزي" بقوة على شعر الزعيم القصير. أخذ يصرخ ويسبها بينما يواصل الطيران شمالاً، محركًا الطائرة بعنف.

لقد تدرب جينتري على الطائرات ذات الأجنحة الدوارة، نعم، ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد، والطائرات القليلة التي قادها لم تكن بمثل تعقيد هذه الآلة الضخمة. والآن، وهو ينظر حوله إلى شاشات الكمبيوتر والأقراص والمفاتيح والرافعات والأضواء، عرف الإجابة على سؤالها.

صاح قائلاً:

– "لا! لا تقتليه!"

ضحك دي لا روشا بصوت عالٍ، وسحب عصا التحكم للخلف، فبدأت المروحية في الارتفاع بسرعة.

– "هل سمعتِ ذلك أيتها العاهرة؟ إذا متُّ أنا، ستموتين أنتِ أيضًا!" وابتسم دانيال بعينين مفتوحتين وأسنان كاشرة.

أبقت لورا مسدسها مصوبًا نحو رأسه. كان يحلق بالمروحية للأعلى فأعلى، ويشعر بالأمان مع كل ثانية تمر. اتجه شمالاً نحو الخليج مقتربًا من أضواء وسط مدينة بورتو فالارتا.

كرر قوله وكأنه يريد التأكد من استيعابها للعواقب:

– "لا يمكنكِ إطلاق النار عليّ يا لورا! إذا متُّ أنا، ستموتين أنتِ!"

كانوا الآن على ارتفاع خمسمائة قدم في الهواء.

نظرت لورا إلى كورت بعينيها البنيتين الواسعتين. ورأى جينتري تلك العينين تتحولان إلى شقين ضيقين.

تباً.

التفتت مجددًا نحو دانيال دي لا روشا، وهزت كتفيها قائلة:

– "إذن، أظنني سأموت يا نغل."

– "لا!" صرخ دانيال دي لا روشا.

– "لا!" صرخ كورت جينتري.

لكن صرخاتهما غابت تحت دوي رشق ناري قصير وقوي من مسدس الـ "أوزي". انفجر الجزء الخلفي من رأس دي لا روشا وتناثر فوق الأجهزة المضيئة والشاشات والزجاج الأمامي الضخم. وارتخى ما تبقى من جسده الهامد في حزام الأمان، وسقط مسدس من عيار (0.45) من يده اليسرى.

تباطأ زخم المروحية للأمام وتوقف، ثم بدأت تلتف ببطء نحو اليمين حتى ظهرت أضواء متنزه "الماليشون" بوضوح. مالت الطائرة للأمام، وهبطت مقدمتها لأسفل. غادر الزجاج الأمامي الملطخ بالدماء أضواء المدينة الساطعة وغرق في الظلام بينما اندفع المحيط الأسود لاستقبالهم.

رسمت لورا شارة الصليب وبدأت في الصلاة.

مثل حيوان بري، اندفع كورت زاحفاً فوق لورا غامبوا في طريقه إلى مقعد مساعد الطيار. استخدم يديه وركبتيه ومرفقيه؛ شعر بانعدام

الوزن للحظة، وقبض على ظهر المقعد بيده اليمنى ليثبت نفسه في اللحظة التي أمسك فيها بعصا التحكم في منتصف لوحة الأجهزة. سحبها للخلف بقوة – بقوة زائدة في الواقع – فاعتدلت الطائرة بسرعة خاطفة، مما دفع بصدر جينتري بقوة نحو أجهزة اللاسلكي بين المقاعد. انقطع نفسه من أثر الصدمة، لكنه واصل الزحف للأمام، ملتويًا بجسده وغائصًا الآن ليصل بيده إلى رافعة التحكم في الجانب البعيد من المقعد. أدارها، فزاد من سرعة الدوران والمحرك، وشعر بالمروحية تندفع للأمام مجددًا، لتوقف هبوطها الحلزوني.

لكنه وجد نفسه الآن منبطحًا على وجهه فوق مقعد المروحية التي يقودها، وكان الانعطاف الحاد نحو اليمين يبقيه مثبتًا هناك بفعل القوة الطاردة المركزية. ترك عصا التحكم للحظة، طويلة بما يكفي ليمد يده ويضغط على دواسة منع الدوران اليسرى حتى النهاية. أدت هذه الحركة العنيفة إلى توقف الطائرة المتطورة عن الدوران فجأة، فتدحرج جينتري للأمام فوق المقعد، ليجد نفسه مقلوبًا تمامًا وساقاه في الهواء فوق مسند الرأس.

سألته لورا:

– "ماذا تفعل؟" كانت قد توقفت عن الصلاة لمراقبة تصرفات الأمريكي الغريبة.

صرخ بجنون:

– "ساعديني!" فأمسكت بقدميه ودفعتهما نحو حجر دانيال، وفقدت المروحية زخمها وارتفاعها مرة أخرى بينما كان كورت يصارع للجلوس في المقعد، لكنه استطاع أخيرًا وضع يديه وقدميه في أماكنها الصحيحة وجعل الـ يوروكوبتر تحلق في خط مستقيم ومستوٍ، ولم يكن يفصل بين بطن المروحية وسطح المحيط سوى خمسة وعشرين قدمًا.

انطلقا بسرعة نحو الشمال فوق خليج بانديراس؛ وعلى بُعد مائة ياردة من جهة اليمين، اختفت أضواء المتنزه وظهرت منطقة الفنادق في بورتو فالارتا.

استنشق كورت هواء الليل البارد، وكانت هذه أول تنهيدة عميقة له منذ أن انقطع نفسه.

نظر إلى يساره؛ كان جسد دانيال عديم الرأس تقريبًا يتدلى إلى الجانب، والدماء تقطر على صدره العاري.

كانت لورا لا تزال جالسة خلفه. قالت بابتسامة:

– "لقد قلتَ إنك لا تستطيع قيادة المروحية."

– "اسمعي، أعتقد أن الأفضل هو أن نحاول الهبوط فوق الماء."

– "ومتى يكون الهبوط في الماء أفضل من اليابسة؟"

تردد كورت ثم قال:

– "عندما يكون الطيار فاشلاً."

نظرت إليه لورا وقالت:

– "أنت لا تمزح، أليس كذلك؟"

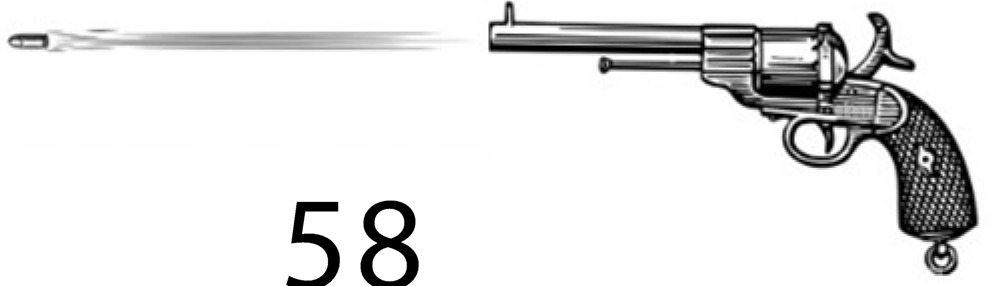
– "أخشى ذلك."

قالت: "حسناً إذن." وعادت إلى صلواتها.

بعد خمس دقائق، كانت مروحية Eurocopter EC135 تحوم بارتباك على ارتفاع عشرة أقدام فوق الماء في مرسى فالارتا، شمال المدينة مباشرة. رأى القلائل الموجودون على أسطح يخوتهم في ذلك الوقت من الليل مشهد الطائرة المترددة: مالت لليمين قليلاً، ثم لليسار؛ ثم غطست مقدمتها للأمام، واعتدلت على ارتفاع خمسة أقدام فوق الماء؛ وفجأة، وبشكل غير مفهوم، سكن صوت المحركات الرئيسية وكأنها أُطفئت يدويًا. سقطت الطائرة مباشرة في الماء، وتحطمت المراوح عند الارتطام، وبدأت المروحية في الغرق سريعاً.

وفي غضون ثوانٍ من اختفاء المروحية تحت مياه المرسى السوداء، برز رأسان فوق السطح. وسرعان ما أمكن رؤية رجل وامرأة يسبحان نحو الشاطئ. واختفى الظلان في عتمة الليل، في اللحظة التي ملأ فيها صوت صفارة قارب شرطة الميناء الأجواء.





58

كان نيستور كالفو ماسياس ملقى على جنبه، مكبل اليدين والقدمين داخل بئر المنجم. كان يرتجف ويرتعد، من البرد ومن الخوف على حد سواء. طوال الليل، كانت الجرذان الضخمة تركض حوله، بل وفوقه. لم تكن تخشاه، ولِمَ قد تفعل؟ لم يكن بوسعه فعل شيء لصدها، مقيدًا كما هو، ومع وجود لجام القنب في فمه، لم يستطع حتى الصراخ لإخافتها.

وهكذا قضى الليل في الظلام، وفي البرد، تدوسه وتتبول وتتبرز عليه تلك الجرذان اللعينة (Pinches ratones).

افترض أنه سيموت هنا. سيموت جوعًا أو عطشًا أو يستسلم لعلة أخرى في اليوم التالي. وإذا عاد «الرجل الرمادي»، فماذا إذن؟ رصاصة في الرأس؟

استلقى نيستور يرتجف، يفكر في الجرذان والمرض، وفي الموت جوعًا أو الموت البطيء جفافًا.

ارتعد وتمنى لو يعود «الرجل الرمادي» وحسب، ويضع رصاصة في رأسه لينهي الأمر.

ظهر ضوء في أعلى البئر. وصوت محرك. وسرعان ما ظهرت شاحنة الـ «مازدا» في بئر المنجم وتوقفت. ترجل منها «الرجل الرمادي». من خلال أضواء الشاحنة، استطاع نيستور أن يرى أن

الأمريكي يبدو في حالة مزرية. كانت ملابسه ممزقة؛ ووجهه ينم عن ألم مع كل خطوة يخطوها. عرج نحوه، وجثا بجانبه، ثم سحب مسدسه.

ها قد حانت اللحظة، فكر كالفو. وأغمض عينيه بقوة.

ضغطت فوهة المسدس الباردة على صدغه.

ثم نُزع لجام القنب من فمه.

قال «الرجل الرمادي»:

– "دي لا روشا مات. وسبايدر مات. فأين يضعك هذا؟"

لم يفتح كالفو عينيه:

– "أنا... أنا لا أعرف."

– "أظن أن هذا يجعلك المسؤول عن «البدلات السوداء». أليس كذلك؟"

فتح عينيه الآن، لكنهما حدقتا أمامه، في الجدار البعيد:

– "أنا... لا أعرف."

– "أنا مستعد لعقد صفقة مع قائد «البدلات السوداء»."

تهدج صوت كالفو وهو ينظر الآن إلى «الرجل الرمادي»:

– "نعم؟"

– "إذا أوقفت المطاردة وراء إيلينا غامبوا، سأطلق سراحك."

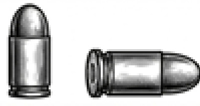
– "بالطبع! بالطبع سأفعل! لم يكن لي أي اهتمام بـ..."

– "إذا أصاب أي مكروه أيًا من آل غامبوا، سواء هنا أو في الولايات المتحدة، فسأعود."

– "أنا... أنا أفهم."

قطع «الرجل الرمادي» وثاق كالفو وحرره، ثم صعد مرة أخرى إلى شاحنته الـ «مازدا» وقادها مبتعدًا دون أن ينبس بكلمة أخرى.

وقف نيستور كالفو ماسياس في حالة صدمة، ونفض التراب ببطء عن بدلته السوداء، وملس شعره الرمادي إلى الخلف، وبدأ يمشي ببطء نحو مخرج بئر المنجم.



جلس كورت على مقعد خشبي في حرم كاتدرائية «سيدة غوادالوبي» في بويرتو فالارتا. كانت قدماه تتحركان بعصبية وهو ينظر حوله.

منتظرًا. وقلقًا.

ظهرت لورا من باب جانبي للحرم، وجالت ببصرها في القاعة الباردة المضاءة، وابتسمت عندما رأته. اقتربت وتعانقا، ثم أخذته من يده عبر قوس ضيق يؤدي إلى غرفة الملابس الكنسية الصغيرة. وهناك جلسا وحيدين معًا على مقعد خشبي.

تحدثا لبضع دقائق عن الآلام والأوجاع المختلفة التي تعرضا لها في الأسبوع السابق في بويرتو فالارتا. كلاهما يبدو الآن أفضل بكثير مما كانا عليه في آخر مرة رأيا فيها بعضهما البعض: هي تبكي في محطة حافلات على جانب الطريق، وهو يبتعد بشاحنته الـ «مازدا». كان لديهما الوقت منذ ذلك الحين للاغتسال والعناية بجروحهما وتحديد وجهتهما التالية.

كان كورت قلقًا بشأن هذه المحادثة. لم يكن بإمكانه الدخول في علاقة مع هذه الفتاة، بقدر ما داعب ذلك الخيال مخيلته كل ليلة. كان يعلم أن حياته في خطر، وكان يعلم أنه، بخلاف وضعها في الأسابيع القليلة الماضية، فإن مشاكله لن تُحل في أي وقت قريب. لم يكن يعرف كيف يخبرها أنه سيضطر لتركها من أجل مصلحتها. بدا الأمر وكأنه هراء.

لكنه كان مضطرًا لفعله.

دخلت هي في صلب الموضوع بسرعة، مجبرة إياه على تحضير نفسه لخذلانها بألطف طريقة ممكنة.

قالت:

– "يا (ستة). لقد كنت أفكر وأصلي بشأن مستقبلي."

– "حسنًا، أريدك أن تعرفي..."

– "قلبي مطمئن. أعرف ما أريد. وما أحتاج إليه. أعرف ما الذي سيجعلني سعيدة في حياتي."

يا إلهي، فكر كورت. ها نحن ذا.

صمتت قليلًا، ثم قالت:

– "سأدخل الدير. سأصبح راهبة. إنها عملية طويلة، لكن قلبي يعلم أنها الطريق الصحيح لي. أشعر بالنداء. سأبدأ فورًا."

قال كورت بصوت مسموع:

– "يا إلهي."

– "أود أن تأتي لزيارتي. لن أتمكن من رؤيتك. سأضطر للبقاء في عزلة الدير. لكن سيكون من اللطيف أن أسمع أخبارك من وقت لآخر."

جاهد كورت لتمالك نفسه. لم يتخيل بالتأكيد هذا المسار للأحداث.

– "نعم. بالتأكيد. يسعدني ذلك."

– "وأود أيضًا أن أصلي من أجلك."

قال وهو لا يزال يترنح من المفاجأة:

– "افعلي ما يحلو لك."

أمالت رأسها متسائلة:

– "ماذا يعني ذلك؟"

– "يعني، نعم، لديك إذن بالصلاة من أجلي. سأحب ذلك كثيرًا."

– "إن طرق الرب غامضة. وأنت يا (ستة)، أكثر (طريقة) غامضة واجهتها في حياتي."

وجد كورت نفسه راغبًا في تصديق أن الله كان يعمل من خلاله وليس الشيطان نفسه. لكنه لم يكن يعلم. لم يكن يفهم.

لكنه لم يندم على القتل الذي اقترفه، ولا التدابير التي اتخذها هنا. لم يندم لثانية واحدة على قطرة دم واحدة سفكها لإنقاذ المرأة الماثلة أمامه.

كانت جميلة. كانت صالحة. كانت مثالية.

وكانت على قيد الحياة.

قالت:

– "اذهب في رعاية الله يا صديقي."

عانقته، ونظرت في عينيه، ووقفت، ثم اختفت عائدة عبر غرفة الملابس إلى الحرم.

ورحلت.

جلس كورت لبضع دقائق وحيدًا، ثم وقف وعاد إلى الحرم هو الآخر للحظة. بدت القاعة كبيرة وفارغة، لكنها مرحبة بطريقة ما. لقد قضى وقتًا في كنائس حول العالم ولكن لأسباب عملياتية فقط، ولم يشرد ذهنه أبدًا أبعد من تفاصيل عمله.

الآن نظر حوله، ربما للمرة الأولى في حياته، وتساءل عن هذا المكان. هل كان هناك مغزى لكل هذا؟

تحولت عيناه إلى الصليب. حدق فيه طويلًا قبل أن يهمس:

– "شكرًا."

رن هاتفه المحمول. كان الرقم الذي أعطاه لـ هيكتور سيرنا.

خرج من المدخل الجانبي للحرم، إلى ظهيرة مشمسة ولطيفة الجو.

– "نعم؟"

لم يكن سيرنا. كان مادريغال. تحدث بإسبانيته الجبلية، وكافح كورت للفهم.

– "لقد تركت كالفو حيًا؟"

– "نعم."

– "لماذا؟"

– "أعتقد أنك بحاجة لبعض المنافسة."

صمت طويل.

– "كان يجب أن أقتلك عندما أعطيتني ذلك السلاح!"

أقر كورت:

– "نعم. كان يجب عليك ذلك."

– "سأقتلك!"

– "قف في الطابور يا راعي البقر."

– "أنت نكرة، وقطعة من القذارة، وابن عاهرة!"

– "أنا خارج عن القانون."

صمت طويل آخر.

– "إذا قُدِّر للبشر يومًا أن يعيشوا على كواكب أخرى، يجب أن تكون أنت أول من يطرد من هذا الكوكب. الجميع يريدك ميتاً."

– "أجل."

– "شخص ما سينال منك قريبًا. لابد أنك تعرف ذلك."

– "أعرف ذلك. وأجد السلوان في حقيقة أن الكثير من الناس سيحزنون لأنهم لم يكونوا هم من قتلني."

أغلق كورت الهاتف، ثم ألقاه في سلة مهملات تابعة للبلدية على بعد بضعة مبانٍ.

خاتمة

بدت سان بلاس مختلفة لـ جينتري الآن. وصل في الثامنة صباحًا، ووجد الطقس أكثر برودة، ورياح المحيط القادمة من الهادئ تدور بالقمامة في الشوارع بينما السكان المحليون يمضون في طريقهم إلى العمل أو المدرسة.

بدا كورت الآن لاتينيًا تمامًا. نزل من الحافلة مرتديًا سترة جينز وبنطالًا أزرق، وحقيبة ظهر رخيصة واحدة على كتفه؛ بشرته الداكنة ونظارته الشمسية وشعره ولحيته وسكسوكته المشذبة بعناية جعلته يندمج بسلاسة مع الرجال الآخرين في مثل عمره. كان يضع سماعات أذن في أذنيه، موصولة بهاتفه، لكنه لم يكن يستمع إلى الموسيقى.

لا، كانت سماعات الرأس مجرد جزء من الزي التنكري، فالإيقاعات الوحيدة التي كان «الرجل الرمادي» يستمع إليها هي وقع الخطوات خلفه والأحاديث الخافتة لمن حوله. كان متأهبًا وحذرًا هنا في سان بلاس، أكثر مما كان عليه قبل أسبوعين في زيارته الأولى لقرية الصيادين.

كان يعلم أنهم يلاحقونه، ويعلم أنهم قريبون.

لقد توقف عن التركيز على هويتهم... لم يعد الأمر يهم حقًا.

سار في الطريق المؤدي إلى التل، مرورًا بأكواخ الكركند والكنائس الصغيرة وشاحنات مشاة البحرية المسلحة في دورياتهم، وسلك طريقًا آخر شديد الانحدار صعودًا إلى تل وعر. كان قد سلك الطريق نفسه في المرة الأخيرة التي كان فيها في البلدة، صاعدًا للبحث عن قبر إيدي، ثم هابطًا مع زوجة إيدي الحامل. تغير الكثير في ذلك الوقت،

لكن بالنسبة لـ كورت بدا كل شيء كما كان من قبل. اكتسب جروحًا وكدمات وسحجات وحروقًا، لكن سعيه الآن كان هو نفسه كما كان آنذاك.

كانت المكسيك مجرد عثرة في الطريق بالنسبة له.

سار صعودًا نحو مدخل المقبرة، ورأى الأضرحة الرخيصة المصنوعة من الصفيح والأغطية البلاستيكية والكتل الأسمنتية على يساره. مر إغوانا مسرعًا على الطريق أمامه. قرق دجاج في آخر منزل أعلى التل قبل بداية المقبرة ومدخل كنيسة قديمة ومكتب إحصاء يعود تاريخه إلى منتصف القرن التاسع عشر.

لكنه تجاوز المقبرة، واستمر في الصعود. كان مسحًا أمنيًا روتينيًا بالنسبة له، تلقائيًا أكثر منه نابعًا عن أي شعور بالخطر أو التهديد. لقد أصبحت طبيعة ثانية لديه أن يقوم بانعطافات واسعة وكسولة، وأن يتوقف ليتتبع خطواته، وأن ينتظر في الظلال ليرى إن كان أحد يتبعه، وأن يتحرك عبر المشهد الطبيعي كالشبح.

أخيرًا انعطف يسارًا متجاوزًا المقبرة بمسافة جيدة، في مكان أعلى بكثير على التل، ودخل بستانًا من العشب المنخفض تحيط به أشجار موز برية بارتفاع طابقين. توغل أعمق في الأحراش، واستدار نحو المقبرة. لقد قطع كل هذه المسافة، في رحلة حافلة استغرقت ثلاث ساعات، فقط لرؤية مثوى إيدي مرة أخيرة. فكر كورت في ترك شيء هناك، تحت التراب، كذكرى لصديقه.

لكنه لم يكن يحمل الكثير معه.

لم يكن كورت رجلًا عاطفيًا؛ ربما كانت عقليته أقرب ما تكون إلى الطرف النقيض من العاطفة دون أن يُشخّص كمعتل اجتماعيًا. لكنه شعر أنه يجب عليه المجيء إلى هنا، وكان عليه أن يخصص الوقت وينفق المال ويبذل الجهد للعودة إلى المكان الذي بدأ فيه كل هذا بالنسبة له.

شق طريقه عبر بعض الشجيرات.

كانت العودة هي الشيء الصحيح الذي يجب فعله، رغم أنه لم يستطع التعبير عن السبب.

تسلَّق صخرة بيضاء كانت يومًا جزءًا من قلعة إسبانية.

لن ينسى إيدي أو لورا أو إيلينا أو دانيال دي لا روشا، لكنه كان بحاجة لوضع هذا خلفه ليمضي قدمًا.

نزل عن الصخرة وكافح عبر بعض الكروم المتشابكة، وخرج فوق المقبرة مباشرة؛ كانت تبدأ على بعد بضعة ياردات أسفل التل المنحدر.

سيتعين عليه ترك أفكاره عن لورا، وخيالاته عن الحب، ورؤاه عن الرغبة خلفه حتى يتمكن من الاستمرار في قتاله ضد غريغور سيدورينكو.

تسمر كورت في مكانه. وانخفض ببطء إلى العشب.

اللعنة. لم يقلها بصوت عالٍ.

عندما تيقن من أنه متخفٍ، زحف للخلف على مرفقيه وركبتيه، عائدًا إلى الشجيرات والكروم والموز، ثم انحرف عشر ياردات إلى يمينه، وهو لا يزال زاحفًا على بطنه. استغرق الأمر منه ما يقرب من عشر دقائق للقيام بذلك، لكنه جلس بعدها خلف حجر أبيض منحوت، وسحب منظارًا صغيرًا من حقيبته، وتحقق من زاوية الشمس، ثم دحرج جسده حول الحجر الأبيض ورفع المنظار إلى عينيه.

أين؟ أين أنت؟

كان قد استشعر حركة أسفله، في صف المدافن جنوب المكان الذي يقع فيه صليب إيدي. كانت الإغوانا في كل مكان، لكن هذه الحركة لم تكن طبيعية في ذلك المحيط. كانت مصحوبة بوميض ضوء، انعكاس زجاج في شمس الصباح. كان هذا كل ما تمكن من تمييزه قبل

أن يضيء نظام إنذاره الداخلي وينبطح للاحتماء. الآن مسح بمنظاره منطقة الحركة، باحثًا عن أي شيء أثار قلقه قبل بضع دقائق فقط...

هناك.

تبًا.

شخص، رجل، في وضع الانبطاح، على بعد ثمانين ياردة من قبر إيدي. كان يرتدي بدلة مموهة بالكامل، وبدا مثل الشجيرات حوله وأمامه؛ ومن تحت غطاء من الأغصان والأوراق المحلية للمنطقة، برزت فوهة بندقية ومقدمة منظار قنص.

خلف هذا الرجل، ليس بعيدًا، كان شريكه. كان مخفيًا بشكل أفضل، لم تكن لديه فوهة مكشوفة أو منظار يمكن أن يلتقط ضوء الشمس، لكن كورت رآه عندما أدار رأسه.

تبًا. مسح كورت المقبرة الجبلية الآن. لن يكون هناك اثنان منهم فقط. لا توجد منظمة في العالم سترسل رجلين فقط في مهمة لقتل «الرجل الرمادي». لم يستطع كورت العثور على الآخرين، لكنه علم أنهم هناك. ربما هنا معه في الأحراش فوق المقبرة. سيكون مكانًا حكيمًا لإخفاء قوة دعم.

للحظة فقط تساءل من هم. رجال سيدورينكو؟ فرق القتل/الصيد التابعة لشعبة الأنشطة الخاصة (SAD)؟ قوة دلتا؟ رعاة البقر؟ البدلات السوداء؟

هل يهم الأمر أصلًا؟ قرر أنه لا يهم.

حول ناظريه إلى صليب إيدي البسيط.

لم يستطع كورت رؤية سوى الجانب الخلفي منه أسفل التل؛ لم يكن لديه أي فكرة عما إذا كانت هناك المزيد من اللعنات قد طليت عليه. كان قد أحضر في حقيبته طلاءً أبيض وفرشاة. كان يخطط للقيام بالعمل الذي كانت إيلينا تقوم به عندما التقاها، لترميم سمعة إيدي مرة أخرى قبل أن يغادر هذا المكان إلى الأبد.

لكن الأوغاد في الأسفل أفسدوا كل شيء على كورت.

على بعد خمسين ياردة منه يقبع صليب إيدي الوحيد، ولن يحميه أحد في هذه البلدة، ولن يزوره أحد في هذه البلدة. عاجلًا وليس آجلاً، كما أدرك كورت، لن يتذكر أحد في هذه البلدة إدواردو غامبوا إلا باعتباره عضو كارتل آخر، وقاتلًا آخر للمخدرات، وقاتلًا آخر للرجال بلا اسم ولا وجه.

ولم يكن بوسع كورت فعل أي شيء حيال ذلك على الإطلاق. لم يستطع حتى أن يقول وداعًا.

استلقى هناك في الأحراش لمدة ساعة، يراقب القناص، رجلًا ساكنًا وصبورًا مثل كورت نفسه، ثم تراجع عبر الشجيرات، إلى الموز البري، وصولًا إلى الطريق. عاد هابطًا التل، ثم مر مرة أخرى بأكواخ الكركند، واستقل حافلة غادرت به المدينة.

-تمت-

انتقــام

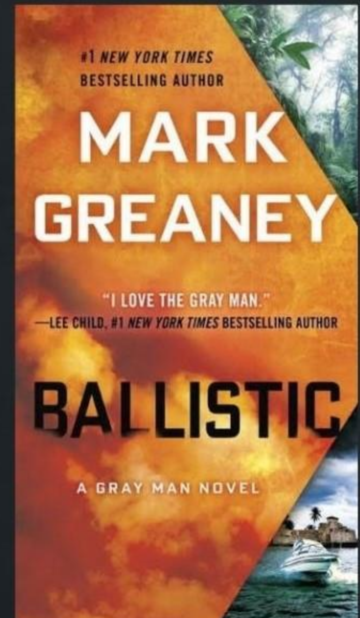
مارك غريني

"اعتقد كورت جينتري، القاتل المحترف السابق بوكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، أنه وجد أخيراً ملاذه الآمن وسط أدغال الأمازون المطيرة. لكن ماضيه الدموي يأبى إلا أن يدركه؛ حين يجبره زعيم "مافيا" روسي، تحركه نيران الانتقام، على الهروب والعدو مرة أخرى.

يشق كورت طريقه نحو الرجل الوحيد الذي يثق به في هذا العالم... لكنه يصل بعد فوات الأوان. لقد مات صديقه وواراه التراب.

قبل سنوات، أنقذ إيدي جامبوا حياة كورت. والآن، لقى إيدي حتفه غدراً على يد "كارتل" المخدرات المكسيكي سيئ السمعة الذي أفنى حياته محارباً لإسقاطه. وسرعان ما يجد كورت نفسه قد سُحب قسراً إلى أتون حرب لم يرغب بها قط.

ولكن في حربٍ كهذه، تسقط الانتماءات وتتلاشى الجبهات... ولا يتبقى سوى الناجين"







ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks

https://t.me/wadistreambooks